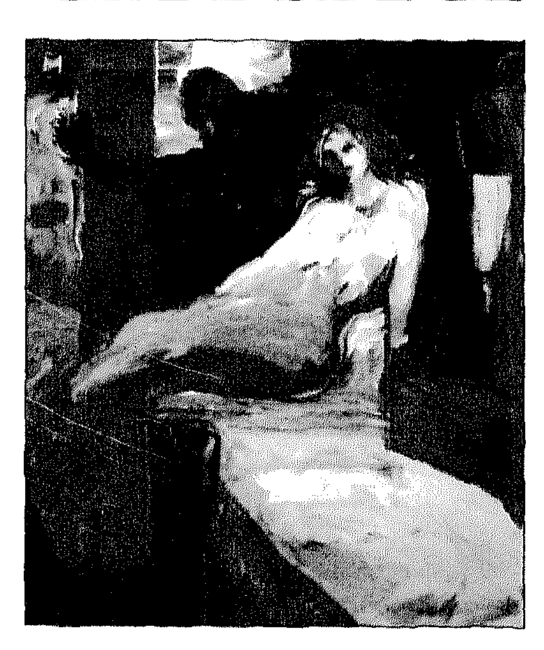
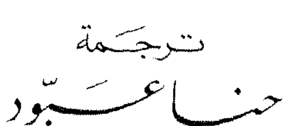
ss

د. ه. لورانس

عشيق الليدي شاترلي

رواية





ss

عشيق الليدي شاتـرلي

SS

* د. هـ. لورانس
* عشيق الليدي شاترلي
* ترجمة: حنّا عبّود

* الطبعة الأولى 1999
* الناشـــــر : ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع

سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053

* الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر
* الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
* لوحـــــة الغلاف : د. أحمد معلّا
* الإخــــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التـــــوزيـــع : دار ورد ☎ 3321053 ص. ب: 4490

دار الحصاد: هاتف/فاكس 2126326

د. هـ. لورانس

عشيق الليدي شاترلي

رواية

ترجمة: حنّا عبّود

ss

محطات في حياة د. هـ. لورانس

1885 ولد ديفيد هربرت ريتشاردز لورانس (اختصر فيما بعد إلى د. هـ. ل) في إيستوود، نوتنغهام شاير، وهو الابن الرابع لآرثر جون لورانس، العامل في المناجم، وليديا ني بيردسال ابنة مصلح آلات بالية.

1891 ـ 1898 التحق بمدرسة بوفال بورد.

1898 ـ 1901 أول طالب من إيستوود ينال منحة مجلس المقاطعة إلى مدرسة نوتنغهام العليا، التي ظل فيها حتى 1901 .

1901 عمل ثلاثة أشهر في المؤسسة الجراحية في هاي وود في نوتنغهام وعانى من هجمات حادة لالتهاب الرئة.

1902 صداقته مع جيسي شامبرز.

1905 معلم ابتدائي في البريتش سكول في إيستوود.

1905 ـ 1906 عمل معلماً غير مجاز في البريتش سكول وهنا يكتب أوائل قصائده وراويته الأولى «ليتيتيا» (في عام 1911 سماها «الطاووس الأبيض»).

1906 ـ 1908 طالب في كلية جامعة نوتنغهام، اتبع دورة تدريبية. وتأهل في تموز 1908 بشهادة مدرس. ربح جائزة نوتنغهام شاير غارديان 1907 في مسابقة للقصة القصيرة بقصة «استهلال» (تقدم باسم جيسي شامبرز) وفي هذه السنة يكتب النسخة الثانية لرواية «ليتيتيا».

ss

1908 ـ 1911 معلم ابتدائي في دافدسون رود سكول، في كرويدون.

1909 يلتقي فورد مادوكس هوفر الذي يشرع في نشر قصائده وقصصه في الانكليش ريڤيو وينصحه بإعادة كتابة «الطاووس الأبيض» (1911). يكتب «ليلة جمعة لعامل منجم» (1934) ويحضّر الطبعة الأولى من «عطر الأقحوان» (1911) يصادق أغنيز هولت.

1910 يكتب «ساغا سيغموند» (النسخة الأولى لـ «الآثم» 1912) معتمداً على تجربة صديقته هيلين كورك المعلمة في كرويدون، ويكتب النسخة الأولى من «ترمل السيدة هولرويد» (1914) ينهي علاقته مع جيسي شامبرز ولكنه يُبقي على الصداقة، يبدأ كتابة «بول موريل» (سميت فيما بعد «أبناء وعشاق» 1913)، وفاة ليديا لورانس. يهتم بصديقه القديم لويس بوروس.

1911 يفشل في إنهاء رواية «بول موريل» ينجذب إلى هيلين كورك، ويبدأ علاقة مع أليس داكس، زوجة كيميائي في إيستوود، يقابل ادوارد غارنيت وهو قارئ عند الناشر دوك ورث الذي يرشده في الكتابة والنشر. يصاب في تشرين الثاني بالتهاب رئة حاد فيضطر إلى التخلي عن التدريس في المدرسة. يوافق دوك ورث على «الساغا» ويطلق على مراجعتها اسم «الآثم».

1912 يتعافى في بيرن موث ويعود إلى إيستوود ليعمل في رواية بول موريل، يلتقي في آذار بفريدا ويكلي، زوجة أرنست، بروفسور في جامعة نوتنغهام، ينهي علاقته بأليس داكس، ويذهب إلى ألمانيا لزيارة أقاربه. يسافر مع فريدا إلى ميتز. بعد كثير من التقلبات يضع بعض ذكرياته في «انتبه إننا قادمون» (1917) فريدا تسجل زواجها وأولادها باسم د. هـ. لورانس. وفي آب يسافران عبر الألب إلى إيطاليا ويستقران في غارنانو، حيث يكتب «أبناء وعشاق».

1913 تظهر «قصائد حب» ويكتب رواية «الكنّة» ظهرت عام (1965) ويكتب 200 صفحة من «عصيان الآنسة هوغتون» (تخلى عن الرواية) يكتب «الأخوات» لتنقسم بالتدريج إلى «قوس قزح»

(1915) و«نساء عاشقات» (1920) ويُمضي مع فريدا بضعة أيام في سان غادنزيو ثم يستقران في أرشنهوزن في بافاريا، ويكتب النسخ الأولى من «الضابط البروسي» و«شوكة في الجسد» (1914) وتظهر «أبناء وعشاق» في أيار، وفي تموز يعود مع فريدا إلى انكلترا ويلتقي جون مِدلتون موري وكاترين مانسفيلد. يرجعان إلى إيطاليا في أيلول. ينقح «ترمل السيدة هولرويد» يستأنف العمل في «الأخوات».

1914 يعيد كتابة «الأخوات» (يسميها الآن «خاتم الزفاف») ويوافق ميثون على نشرها ويجعل ج.ب. بنكر وكيله. يعود مع فريدا إلى انكلترا ويتزوجان في 13 تموز. يجمع بعض القصص القصيرة «الضابط البروسي» (1914). اندلاع الحرب يمنع لورانس وفريدا من العودة إلى إيطاليا، وفي شيشام يبدأ كتابة «قوس قزح» وتنشأ صداقاته المهمة مع فورستر وبرتراند رسل وأتولانين موريل. تزيده الحرب يأساً وغضباً.

1915 ينهي «قوس قزح» ويخطط لمحاضرات مع رسل. يتخاصمان في تموز. وفي آب ينتقل مع فريدا إلى هامب ستيد ويُصدر مع موري «سغنيتشر» (مجلة تظهر ثلاثة أعداد منها فقط). تظهر «قوس قزح». يُلاحق ويُعتقل ويُعاقب في تشرين الثاني.

1916 يكتب «نساء عاشقات» وينشر «شنق في إيطاليا» و«أموروس».

1917 يرفض الناشرون «نساء عاشقات». يتابع لورانس تنقيحها. يفشل في السفر إلى أميركا. يبدأ كتابة «دراسات في الأدب الأميركي الكلاسي» (1923) وينشر (انتبه إننا قادمون)، يُطرد مع فريدا من كورنوول بتهمة التجسس. وفي لندن يبدأ كتابة «قضيب هارون» (1922).

1918 ينتقل مع فريدا إلى هيرميتاج وبيرك شاير ثم إلى مِدلتون. ينشر «قصائد جديدة» ويكتب «حركات في التاريخ الأوروبي» (1921) و«أمر غير مؤكد» touch and go والنسخة الأولى من «الثعلب» (1920).

1919 يصاب بانفلونزا خطيرة، يعود إلى هيرميتاج وينشر «Bay».

SS

وفي الخريف تذهب فريدا إلى ألمانيا وتنضم إلى لورانس في فلورانسا ويستقران في كابري.

1920 يكتب «التحليل النفسي واللاوعي» (1921) ينتقل مع فريدا إلى تورمينا في صقلية. يكتب «الفتاة المفقودة» (1920) و«السيد نون» التي ظهرت (1948) ويتابع الكتابة في «قضيب هارون». يكتب كثيراً من قصائد «طيور ووحوش وأزهار» (1923) وينشر «نساء عاشقات».

1921 يزور مع فريدا سارديينيا ويكتب «البحر وسارديينيا». ينهي «قضيب هارون» في الصيف ويكتب «فانتازيا اللاوعي» (1922) و«دمية الكابتن» (1923) يخطط لمغادرة أوروبا وزيارة الولايات المتحدة الأميركية، ويجمع قصصاً تحت عنوان «انكلترا، يابلدي» (1922) ومجموعة من الروايات القصيرة «الشامية(*) والثعلب ودمية الكابتن» (1923).

1922 يغادر مع فريدا إلى سيلان ويستقران في بروسترز، ثم يسافران إلى استراليا ويترجم للكاتب الإيطالي جيوفاني فيرغا. ويكتب «الكنغارو» (1923) في ضاحية قريبة من سدني في ستة أسابيع. يسافر مع فريدا إلى فلوريدا عن طريق جزر «البحر الجنوبي». يكتب «دراسات في الأدب الأميركي الكلاسي» (1923).

1923 ينهي «طيور ووحوش وأزهار» ويمضي الصيف مع فريدا في شابالا في المكسيك، ويكتب «كويتزال كوتل»(**) (النسخة الأولى لرواية «الأفعى ذات الريش» 1926). تعود فريدا إلى أوروبا بعد خصام عنيف مع لورانس، فيقوم برحلات في أميركا والمكسيك. يعيد كتابه رواية مولي سكينر «منزل أليس» تحت عنوان «صبي في الأجمة» (1924). وفي كانون الأول يعود إلى انكلترا.

(*) الشامية: خنفسة منقطة صغيرة يعتقد بعضهم أنها تجلب الفال الحسن ـ المترجم.
(**) الرب الأفعوان ذو الريش، في الثقافة الأزتكية في أميركا الوسطى ـ المترجم.

SS

1924 على غداء في «مقهى رويال» يدعو أصدقاءه إلى نيومكسيكو، فتقبل الدعوة دوروثي بريت وترافقه مع فريدا في آذار. يعطي مابل لوهان لفريدا «مزرعة لوبو» (سميت فيما بعد «مزرعة كيووا»). ويعطيها لورانس بدوره مخطوطة «أبناء وعشاق». وأثناء الصيف في المزرعة يكتب «القديس مور» (1925) و«المرأة التي ارتحلت بعيداً» (1925) و «الأميرة» (1925) وفي آب يعاني من التهاب القصبات. يموت والده في أيلول وفي تشرين أول ينتقل هو وفريدا وبريت إلى أوكساكا في المكسيك، حيث يبدأ كتابة «الأفعى ذات الريش» ومعظم «صباحات في المكسيك» (1927).

1925 ينهي «الأفعى ذات الريش». يسقط في المرض ويكاد يموت بسبب التيفوئيد والتهاب الرئة في شباط، وفي آذار يشخص له الأطباء مرض السل، يتعافى في مزرعة كيووا ويكتب «داوود» (1926) ويجمع «تأملات في موت شيهم» (1925). يعود مع فريدا إلى أوروبا في أيلول، ويُمضي شهراً في انكلترا ويستقر في سبوتورنو في إيطاليا ويكتب «شمس» (1926). فريدا تلتقي انجيلو رافاغلي.

1926 يكتب «العذراء والغجري» (1930) وينشب خصام عنيف مع فريدا أثناء زيارة شقيقته ادا. يزور بروسترز وبريت. تنشأ علاقة مع بريت. يتصالح مع فريدا وينتقلان إلى ڤيلا ميرندا، قرب فلورانسا. ويقوم بآخر زيارة لانكلترا في أيار. وبعودته إلى إيطاليا في تشرين أول يكتب النسخة الأولى من «عشيق الليدي شاترلي» ظهرت (1944) ويباشر في كتابة النسخة الثانية في تشرين الثاني. يصادق الدوس هكسلي وماريا هكسلي. يمارس الرسم.

1927 ينهي النسخة الثانية من «عشيق الليدي شاترلي» ظهرت (1972). يزور المواقع الأتروسكانية ويكتب «مشاهد من أمكنة أتروسكانية» (1932) والجزء الأول من «الديك الهارب» (1928)

وفي تشرين الثاني يخطط لدار نشر خاصة مع بينو أوريولي ويبدأ كتابة النسخة الأخيرة من «عشيق الليدي شاترلي» (1928).

1928 ينهي «عشيق الليدي شاترلي» ويسعى لطباعتها ونشرها في فلورانسا ويخوض كثيراً من المعارك لإرسالها إلى المشتركين في بريطانيا والولايات المتحدة. وفي حزيران يكتب الجزء الثاني من «الديك الهارب» (1929) يسافر إلى سويسرا وبحيرة بورت كروس مع فريدا، ثم يستقران في باندول، جنوب فرنسا. يكتب الكثير من القصائد في «زهرات الثالوث» (1929) ويسرق الناشرون رواية «عشيق الليدي شاترلي» في أوروبا وأميركا.

1929 يزور باريس ويسعى إلى إصدار طبعة رخيصة الثمن من «عشيق الليدي شاترلي» (1929) يصادر البوليس النسخة غير المهذبة لديوانه «زهرات الثالوث» كما يمنع البوليس معرضاً لرسومه في لندن. يزور مع فريدا مايوركا وفرنسا وبافاريا، ويعودان إلى باندول لقضاء فصل الشتاء. يكتب «القرّاص» (1930) و«سفر الرؤيا» (1931) و«قصائد أخيرة» (1932).

1930 في مطلع شباط يدخل مصح أد استرا في ڤينس ويخرج في أول آذار ويموت في ڤيلا روبرموند في ڤينس في الثاني من آذار ويُدفن في الرابع منه.

1935 فريدا ترسل انجيلو رافاغلي (تعيش معه الآن في مزرعة كيووا وقد عقدا قرانهما عام 1950) إلى ڤينس لاخراج جثمان د. هـ. لورانس وحرقه والعودة برماده إلى المزرعة.

1956 تموت فريدا وتدفن في مزرعة كيووا.

جون وورثن 1994

د. هـ. لورانس بعد الرحيل

آ ـ في المسرح:

ظهرت له عدة عروض معدة من قصصه، وقد أعد للمسرح قصة «أنت الذي لمستني» الكاتب المسرحي الأميركي تنيسي وليامز.

ب ـ في السينما:

1 ـ الفائز بجائزة الحصان الخشبي 1950.
2 ـ عشيق الليدي شاترلي 1956.
3 ـ أبناء وعشاق 1960.
4 ـ الثعلب 1968.
5 ـ نساء عاشقات 1969.
6 ـ العذراء والغجري 1970.
7 ـ الأفعى ذات الريش 1972.

جـ ـ في التلفزيون:

أُعدت بعض قصصه ورواياته للتلفزيون وقد أعد الشاعر الأميركي جون شاردي قصة «لَكْنة» Accent للتلفزيون.

د ـ جامعات وجمعيات ومجلات:

تُدرّس آثاره في معظم جامعات العالم. خصصت جامعة برمنغهام ـ وهي الجامعة التي درس فيها ـ مدرستين صيفيتين لتدريس آثاره. وقد حذت حذوها جامعة مانشستر.

ss

وفي مسقط رأسه «إيستوود» تألفت جمعية باسمه «جمعية د. هـ. لورانس» كما ظهرت جمعية أخرى في اليابان بالاسم ذاته.

وهناك مجلة باسم «د. هـ. لورانس ريڤيو» يشرف عليها جيمس كووان، الذي أسس مجلة أخرى في الولايات المتحدة أيضاً.

ومعظم المجلات الأدبية في العالم تتعامل مع آثار د. هـ. لورانس درساً وتحليلاً.

نقلاً عن كتاب هاري مور
كاهن الحب
الصادر عن دار بنغوين ط5/1980 .

ss

المقدمة

... وهذه رؤياه تدل عليه

كل إنتاج زائل، ماعدا الذي تنتجه الأسرة المقدسة، أسرة الأدب وأبناء عمومته من رسم ونحت وموسيقى ورياضة ورقص. كل قصور الرشيد، وما أضخمها، زالت وانقرضت وبقي صوت النوّاسي. فما السر في أن الإنتاج المادي الضخم، الذي يعمل فيه عدد هائل من البشر يزول، بينما يبقى الإنتاج الأدبي الذي تنتجه أوهى الوسائل وأبسطها من إزميل وكلمة وصوت وفرشاة صغيرة... بل إن خبطة قدم ظهرت منذ آلاف السنين ماتزال موجودة، بدقائقها، في دبكاتنا الشعبية؟ ألا يدل هذا بأن الاقتصاد الأدبي هو الوحيد الذي يدلنا على طريق الخلود؟

من أعظم الإنتاجات التي قدمها الاقتصاد الأدبي في أعقاب الحرب العالمية الأولى رواية «عشيق الليدي شاترلي». وهي رواية نبوئية أو رؤيوية كما يحلو لبعضنا أن يقول. ولأنها رؤيوية كوفحت. كل أنصار الاقتصاد المادي وقفوا ضدها ومنعوها ردحاً من الزمن، وكل أنصار الاقتصاد الأدبي وقفوا إلى جانبها، فعادت

وأثبتت أنها رأت غيومَ القيامة، ونذير الدينونة، وسجلت مارأت، حتى نعرف أننا في عصر زنخ مترهل... هو العصر الحديدي الذي تسقط فيه سلطة الأولمب وتظهر الآلهة من البشر، الآلهة المسوخ، وبدلاً من ربات البرناس تعتلي المسرح ربات النفاق والشقاق وقذارة الأخلاق... مما يحول البشر إلى آلات للعمل، فلا سمو ولارفعة ولانزوع إلى الأولمب، أولمب الفن والرقي، أولمب الرزانة، أولمب السعي إلى تجاوز القذارة وليس الانحطاط إلى مستوى «خراتيت» يوجين يونسكو، أولمب احترام الذات... والرواية باختصار تدور حول اثنين احترما ذاتهما، فكافحا ضد هذا العصر اللعين، وأداناه إدانة سوداء جداً. ورأيا أن الناس ستموت وهي تدب على الأرض، فتتحول إلى رايات سود تهتز قليلاً جداً، قليلاً جداً جداً، قليلاً جداً جداً جداً، لتدل على المقبرة/ الأرض، ولتشير إلى أن الهواء صار كثيفاً جداً لايُحرك ولايتحرك، كأنه جاء من عالم برسيفوني السفلي.

والرايات السود لاتدل على أن الأرض مقبرة وحسب، بل تدل أن الهواء والماء وأوراق الشجر والغيم وغناء العصافير وأشعة الشمس صارت مقبرة أيضاً لأنها صارت مصدراً للسخام، الذي قالت الفيزياء الحديثة، بل الفيزياء الجديدة، بأنه لايظهر بهذه الكثرة إلا بعد أن تكون الأرض قد صممت على الانتحار، فيظهر المطر الأسود، والجليد الأسود، والبيوت السوداء والوجوه السوداء، وحمامة نوح البيضاء التي عادت إليه بغصن الزيتون تصير سوداء، وتذهب ولاتعود، لأنها لاتستطيع أن تميز بين الزيتون والعناب، فكل شيء، صار أسود، حتى الوجوه... ومادام الاقتصاد المادي سائداً، فهذا هو المصير... ولاإنقاذ إلا بالاقتصاد الأدبي، فهو الوحيد الذي يجعلنا نترفع عن الاقتتال من أجل حيازة قضبان الحديد، أو نترات الألمنيوم أو كلوريد الزئبق، أو النظائر المشعة... نقتتل حتى من أجل حيازة السموم ووسائل التدمير.

ss

إن مأساة العصر قائمة باختصار شديد في الجملة التي وردت في رسالة ميلورز، وهو عشيق الليدي، وهي آخر رسالة وخاتمة الرواية، يقول هذا العشيق لعشيقته بأن هذا العصر جعل المال أساساً وجوهراً لاوسيلة، فالساعي للحصول عليه يقتله السم، والذي لايحصل عليه يقتله الجوع. هذه هي المأساة الحقيقية، إن حصلت على المال تسممت وإن لم تحصل عليه متَّ جوعاً. الحيازة سم والحرمان جوع وكلاهما موت، سوى أن الحيازة موت حقيقي لأنها لاتترك وراءها سمعة طيبة، وحتى هي نفسها تتشتت وتتبعثر وتزول.

أليس غريباً وعجيباً ومذهلاً أن يظهر العشق في زمن الفسق؟ زمن كله فسوق: الأرستقراطيون يفسقون، ويغطون فسقهم بفلسفة يسمونها فلسفة الواقع، والفنانون يفسقون لأنهم رضخوا للزمن الأسود. وبنات عمال المناجم، يخرجن وراء شبان عمال المناجم على الدراجات النارية فسقاً لاعشقاً، من أجل علكة لا من أجل دبكة. فهن آلات عابرات للذة ولسن بوابات العشق الكبير الذي يغمر بالفرح كل كيان الجسد، ويفعم الروح بالمحبة.

على أن الرواية لاتقتصر على هذه الناحية وحدها بل تمتد لتعرض المبادئ الأساسية للاقتصاد الأدبي، فتبين كيف أصاب التشوه، لانفوس العمال وحدهم، بل أيضاً أصاب أجسادهم، منهم مَن يسير بكتف تعلو على الأخرى، وبوجوه مثل تمثال رمسيس لاومضة من فرح ولاإشارة من حياة، فهم والأرستقراطيون سواء بسواء: فريق يموت جوعاً لأنه لايملك، وفريق يموت سماً لأنه يملك. والنتيجة أن كل شيء، مسمم.

ما المَخرَج؟

الماركسية؟ لايؤمن د. هـ. لورانس بأن الماركسية قادرة أن تخلق من العمال المشوهين أصحاء. وفي الرواية، أو قل كتاب الاقتصاد الأدبي، نقاشات موسعة في هذا الصدد.

ss

لابأس. إذن الاقتصاد الحر؟ لا. إنه الصراع الذئبي للحيازة. فهو يؤدي إلى التسمم، وعندما تتسمم النفوس، لايصلح شيء، بل يتحول البشر إلى رايات سود. وسيطّلع القارئ على الهجوم الأدبي الرائع لهذا الاتجاه.

إذن لم يبق سوى الفرويدية. وهي التي أثرت في د.هـ. لورانس تأثيراً بعيد المدى، وعلى الأخص في «أبناء وعشاق» و«نساء عاشقات»... لا. حتى الفرويدية لم يعد يقتنع بها. صحيح أنه يستخدم الوعي واللاوعي، ولكنه هنا أقرب إلى يونغ من فرويد. إن اللاوعي هنا هو اللاوعي الجمعي، اللاوعي الموروث. وله ميزات وعلائم ودلائل تتجلى ليس في الأحلام وحدها، بل في الجسد أيضاً. إنه يرى أن الإنسان ـ إذا لم يتأثر بملوثات العصر ـ يمكن أن يهتدي إلى طريق العشق والحياة الحقيقية بغريزة الدم، أو وعي الدم، ويقصد بها خلاصة مكونات الجسد. إن كل التفاعلات، من أدق الخلايا، حتى الجهاز النبيل الأعلى، العقل، تجعل الإنارة أفضل من تلك الأعماق السحيقة العنيدة للّبيدو التي تسخّر كل شيء من أجلها، ولاتتفاعل مع شيء إلا بمقدار استخدامها له. إن وعي الدم هو النظرية التي يطرحها د. هـ. لورانس في روايته هذه «عشيق الليدي شاترلي». وهذه النظرية هي التي أساءت المحكمة البريطانية فهمها فمنعت الرواية، وعندما فهمتها لم تنِ عن التصريح بأنها رواية تعلمنا الأخلاق المثالية الحقيقية، وتبعدنا عن الزيف الذي هو ميزة عصرنا.

والآن نقف عند النقطة التي سببت الإشكال، والذي أزالته المحكمة نفسها التي حظرت الرواية، الرواية التي تطبع مئات الطبعات في العام الوحد، وفي معظم دول الأرض، فالنسخ السنوية تقدر بالملايين.

المسألة الجنسية؟... مابالها؟ إنها غير موجودة في الرواية أصلاً. ومايسمونه المسألة الجنسية هو مايسميه د. هـ. لورانس

ss

وعي الدم. مارست كوني الجنس مع ميكائيل ومع غيره، كان جنساً محضاً ولم يكن وعي الدم. ومارس ميلورز الجنس، وكان جنساً آلياً ولم يكن وعي الدم، فلمّا التقته كوني ظهر العشق الحقيقي في زمن الفسق المنافق، لأنه قائم على وعي الدم الحقيقي.

وهذا درس ـ لو تعلمون ـ عظيم. أليس من الأفضل أن يكون وعي الدم هادياً، بدلاً من أن تتزوج المرأة، فإذا هي تندم وتسعى إلى الخلاص طيلة حياتها، أو بدلاً من أن يتزوج الرجل ويندم بعيد زواجه فيمضي العمر مشوهاً تماماً، لايعرف ماذا يصنع؟.. آه، تقولون الطلاق. ولكن الطلاق تخلصٌ وليس خلاصاً، فليس من الضروري أن يكون الزوج اللاحق ـ أو الزوجة ـ أفضل من السابق. عندما يتحقق وعي الدم، تقل الأخطاء، ويكون هناك انسجام مريح جداً، فتتقارب العقليتان، والسلوك والتصرفات حتى الصغيرة منها.

والمسألة ليست مسألة اكتشاف وعي الدم، فهو موجود في رأي د.هـ.لورانس، وإنما المسألة هي مسألة عصر بكامله، طرح كل ركامه الأسود فوق وعي الدم. إن لم يصح العصر فلن يصح وعي الدم ولن يظهر، فالزيجات تظل تتابع عادتها، وهي اللجوء إلى المصلحة قبل أي سخافة يقال لها وعي الدم أو الانسجام أو النزوع الفكري الراقي.

قد يظن القارئ أن الحرب هي التي صنعت العصر، فالرواية تبدأ من الحرب. لاأبداً. العصر هو الذي صنع الحرب. اذكروا عندما تقرؤون تلك البقعة المقطوعة الأشجار في الغابة، ولماذا قطعت. فلا يصحح العصر إلا الذي صنع العصر. فالمسؤولية إنسانية أولاً وأخيراً، والخلاص لايكون إلا بالاقتصاد الأدبي.

إن هذه القصة تتابع تراثاً عريقاً من الاقتصاد الأدبي، ولاعلاقة لها بالجنس أبداً، إنها دعوة للارتفاع عن قذارة العالم. والجنس أداة من جملة أدوات كثيرة جداً استخدمها الكاتب.

إن الكاتب يتابع تراث الاقتصاد الأدبي، ليسهم فعلاً في السمو وترقّي المشاعر الإنسانية. وسوف أقتصر على أثرين أولهما قديم وهو قصة باسيفي، والثاني حديث وهو هيلوييز.

* * *

عندما يختلط وعي الدم بالجنس، يخطئ الناس في التسمية فيطلقون اسم العشق بدلاً من الفسق. وقصة باسيفي نموذج للفسق العاهر المريع. مَنْ باسيفي هذه؟ إنها زوجة مينوس. ومَنْ مينوس؟ إنه الرجل الجميل الشهم الذي أشرف على إنتاج أول حضارة في كريت، وعندما نقرأ «الحضارة المينوسية» فإنها تعني تلك الحضارة السامية الراقية في ظل حكم مينوس.

أراد مينوس تأديب إحدى الجزر لاعتداء قراصنتها المتكرر، فحاصرها ولم يكن يعلم أن المدينة لن تسقط إلا إذا جزت الخصلة الذهبية من شعر ملكها. وكانت ابنة الملك تنظر من فوق الأسوار إلى هذا الفارس الجميل الرائع، كيف يمتطي حصانه بأبهة، ويقوده بفخامة. كان كل مافيه جميلاً. أخذت خصلة الشعر من رأس أبيها وهو نائم، وقدمتها لمينوس الذي اشمأز واحتقر الفتاة ورفض حبها، فعاد عن حصاره وأقلع راجعاً إلى كريت.

كان كل مافيه ينصب في خدمة الأدب والفن، وقد استقدم أعظم الأدباء، والفنانين، وربى أبناءه تربية فنية راقية. لكن كعب أخيل فيه، أنه يحب الثيران البيض، فما إن يسمع بثور أبيض حتى يشتريه. ومرة اشترى ثوراً جميلاً، فوقعت في فسقه زوجته باسيفي التي لم يكن ينقصها شيء، من جميع النواحي. فهرعت إلى ديدالوس العالِم الكبير، ورشَته حتى يدبر لها طريقة لتجامع الثور، فاخترع لها بقرة مجوفة من الخشب وكساها بجلد بقرة حقيقية وطلى مؤخرتها ببول البقرة وروثها، وفي الليل دخلت باسيفي بطن البقرة الأجوف وجعلت مؤخرتها على مؤخرة البقرة من الداخل وأشرعت للثور فرجها،

ss

فافترعها سفاداً، فحبلت وولدت ماسماه الناس «المينوتور» أي ثور مينوس، وهو مخلوق نصفه ثور ونصفه إنسان.

علم مينوس فسجنها مع ديدالوس وابنه إيكاروس في متاهة (من صنع ديدالوس) مع المينوتور، عقاباً على هذا الفسق المريع. فعاش الثلاثة في خوف دائم حتى لايفترسهم المينوتور (الذي يتغذى باللحم البشري) فهُم في هرب أبدي كلما سمعوا صوته أو وقع حوافره.

هذه هي باسيفي. رمز الهبوط إلى المستوى البهيمي. إنها لم ترقَ إلى وعي الدم، بل انحطت إلى مستوى الانجراف وراء الغريزة... وكانت العاقبة ماكانت، على جاري عادة الاقتصاد الأدبي في معاقبة الخارجين.

لم يكن ينقصها شيء سوى الثقافة الإنسانية التي تعلّم الإنسان كيف يسمو على الحيوانية والبهيمية، وهي الثقافة التي أشاعها زوجها في كل الجزيرة. لم تُذكر سوى باسيفي وحدها في حادثة من هذا القبيل.

* * *

د. هـ. لورانس متأثر بجان جاك روسو، ويظهر ذلك واضحاً عندما يصف تشوهات حضارة الفحم والحديد من جهة، ويصف بالمقابل الغابة في كل تحولات الفصول، ثم يتصور، حسب رؤياه المستقبلية، كيف أن هواء الغابة وريحها وقرنفلها وبنفسجها وياسمينها وزعفرانها وصنوبرها وكل الأشجار الباسقة وغير الباسقة سوف تتلاشى وتزول بعد أن تصل إليها حضارة الفحم والحديد. بل إنه في حديثه عن Clearing (أي البقعة المقطوعة الأشجار) كان يرمز إلى أن حضارة الفحم والحديد قد باشرت بالقدوم إلى الغابة.

إذن هو متأثر بروسو، ولكنه غير متأثر بروايته هيلوييز

الجديدة، بل اعتبرها مخالفة للطبيعة البشرية، مع أنها حدثت فعلاً.

خلاصة قصة هيلوييز، أن فتاة جميلة جداً، ومن أسرة عريقة، استحضر لها أهلها أعظم أساتذة المدينة في ذلك الوقت ليشرف على تعليمها. إنه ابيلار، الراهب الذي يسكن الدير.

باختصار، أحبها فافترعها فحبلت، فولدت. لكنها رفضت الزواج به، مضحية من أجله، لأن زواجها يعني وقف ارتقائه في المراتب الكنسية، فلا يعود يحق له أن يترفع أبداً، فشرط الترفيع الأول هو العزوبة. وحتى يمحو أهلها العار، اقتحموا سكن ابيلار، واجتثوا العضو الذي سبب هذه الفضيحة، وغادروا، تاركين الراهب يتخبط بدمه.

استاءت هيلوييز من عمل أهلها، ورداً عليهم، ذهبت إلى ابيلار، وعاشت في الدير راهبة تقوم على خدمته، بالرغم من إلحاحه عليها بألا تفعل ذلك.

هيلوييز، الواقعية جداً، والتي تتكرر جداً، حتى يومنا هذا، لم تُقنع د. هـ. لورانس، ولا وردت على خاطره أبداً. إن هذا تشويه لايختلف عن تشويه نفسيّه باسيفي، عشيقة الثور الأبيض.

ماحققته هيلوييز في الشهرة لم تحققه رواية من قبلها، بل إنها أشاعت مزيداً من الجو الرومانسي، وعلى الأخص عند الفتيات اللواتي صرن يبحثن عمن يضحين من أجله، هكذا... بلى تضحية مجانية، لإرضاء نوع من التوجه المتطرف في أعماق الذات، أو لإرضاء قناعة اكتسبتها الفتاة من الرواية لامن نفسها. وقد خشي الناس على بناتهم من أن يصرن جميعاً هيلوييز في تلك الفترة التي أخذت فيها الرومانسية بالانتشار انتشاراً ملفتاً للنظر.

* * *

لم يقبل د. هـ. لورانس ببهيمية باسيفي، ولابنورانية هيلوييز فعدل النمط الأنثوي، وألبسه ثوباً جديداً كل الجِدة. ولكنه جعله

استثناء ولم يجعله قاعدة، مع أن الاقتصاد الأدبي دائماً يشدد على النموذجي أكثر من العابر، فلماذا؟

لأنه يدين العصر، أو مُثل الإنسان الذي خلق هذا العصر وهندسهُ على هواه وعلى كيفه هو. فأينما نظر القارئ وجد الإدانة، فمن بين جميع الناس لم يلتق سوى كوني (الليدي شاترلي) وميلورز، ذلك الالتقاء المنسجم الذي يمكن اعتباره النموذج الحقيقي، وإن كان استثنائياً. إنه استثنائي في الرواية والعصر.

هذه الاستثنائية قصد إليها الكاتب قصداً وتعمدها تعمداً حتى يدين كل البشر الذين يدبُّون على صفحات روايته، أدان العمال والشابات والشبان والأرستقراطيين والفنانين، ولم يبق سوى ميلورز.

يطلق على ميلورز اسم gamekeeper ويمكن ترجمتها بالحارس أو الجنائني أو الخولي أو الحدائقي أو حارس الغابة، لكن ترجمتها بحارس الطرائد أفضل وأدق وأصدق لفكرة الكاتب. وحارس الطرائد هو الذي يحمي الطيور والحيوانات البرية من الصيادين كالدرّج والسمن واليمام والأرانب... الخ وكلمة حارس الطرائد كلمة حديثة جداً. ظهرت بظهور الصيادين.

ولكن ألم يكن الأقدمون يخرجون إلى الصيد؟ بلى. ولكنهم كانوا يتقيدون بآداب الصيد، ولايخلّون بتوازن البيئة. أما الصيادون الجدد فلاتشبعهم كل طرائد الأرض، ولذلك صار من الضروري خلق وظيفة حارس الطرائد.

ظهرت هذه الكلمة، أو هذه الوظيفة، حديثاً، في القرن السابع عشر، في نهايته، وبالتحديد في العام 1670 ، وانتشرت في كل أوروبا ثم في العالم بأسره تقريباً. وانتشر الحراس في كل الميادين، فهناك حارس المقبرة وحارس الحديقة وحارس المفارق وحارس الجسور وحارس الغابة وحارس الأحراج وحارس

البيادر... اليوم صرنا في الحارس الشخصي. لايوجد حارس غابة ولاحارس طرائد ولاحارس الحقل... وكل هذا يدل على أن العصر يسير في الطريق الذي تنبأ به ميلورز، حارس الطرائد.

* * *

كل القصص التي أشرنا إليها: شاترلي وهيلوييز وباسيفي هي من إنتاج الاقتصاد الأدبي وترمي إلى غاية أدبية، وهي الارتقاء بالإنسان من البهيمية إلى النورانية. لكن د. هـ. لورانس يؤكد ـ كما تدل المناقشة التي دارت بين كوني وكليفورد، أن هذا الصعود يجب أن يتم من خلال الجسد، والجسد فقط، فما لم نؤكد ذاتنا جسدياً، مالم يتحدث الجسد، فكل قول زيف... تماماً مثل حالة النيرفانا. إنها حالة لايمكن تحقيقها إلا عن طريق الجسد.

* * *

والآن كيف نقرأ هذه الرواية؟

اعتاد بعضنا أن يطالب الرواية بالسرد. وكلما كان السرد مشوقاً استعجل القارئ النهاية. وقد يكون التشويق في الرواية أشبه بدفعةٍ من الخلف تجعل المرء يقفز من غير أن ينتبه لما مر تحته. وهذا مايجب أن نحذره في هذه الرواية. صحيح أن كل مافيها ملفق، وإن كان من صميم الواقع، لكنها في النهاية بيان ناصع للاقتصاد الأدبي، وعلى الأخص حين ينتقل الكاتب من الحوار أو الوصف إلى التصوير، وبالتحديد عالم الأرستقراطية وعالم البروليتاريا. فعلى الرغم من أن القارئ يتوهم أن هذه المساهمة أشبه بالبقعة المقطوعة الأشجار في الرواية ذاتها، لابد من أن يحذر من المرور بها بلامبالاة كما مرت كوني. فهنا يكاد الخطاب يكون مباشراً. إن هذه البقع بديلة عن البقع الأرجوانية في الأدب القديم، ولكن من نوع آخر. البقع الأرجوانية القديمة كانت اهتماماً لغوياً، ونسيجاً هفهافاً من الشفافية الساحرة. أما البقع التي تخرج عن السرد هنا فإنها

بيان أدبي لإدانة العصر. ومن دونها يصعب أن نفهم أي حركة من حركات كليفورد أو كوني أو ميلورز أو ميكائيل أو هيلدا أو حتى السيدة بولتون.

عندما يصور الكاتب عجلات كرسي كليفورد وهي تجوس على الأزهار والورد فاصبر قليلاً لأن له مقصداً. وعندما يُكثر من وصف ريح الغابة وهي تكافح السخام الأسود المنطلق من الحُفر وأرصفة المناجم، فتريث قليلاً ولاتسرع. وعندما يُكثر من تصوير المطر والربيع ويعدد أنواع الزهر، فإنه لايفعل ذلك عبثاً. وعندما يصور العمال وآثار المناجم والحديد والفحم فيهم، فلا تضجر... القصة هذه ملحمة حقيقية من ملاحم الاقتصاد الأدبي. لفقها ـ حسب التقاليد الأدبية ـ د. هـ. لورانس الذي قد نجهله. ولمعرفته السطحية يكفي أن نفتح أي معجم للأدب لنعرف من هو وأين ومتى ولد، وأين ومتى مات، وما ألّف من روايات ودراسات، فهي معلومات بسيطة.

لكن إن أردنا معرفته بعمق فليس لنا إلا «عشيق الليدي شاترلي» فهي الرواية التي تمثل فلسفة الكاتب بعد أن نضجت تماماً. قد يكون ثمة شيء من نظرته الأدبية في «نساء عاشقات» و«أبناء وعشاق» و«قضيب هارون» و«الأفعى ذات الريش» لكن هذه النظرة الأدبية كانت متأثرة ببعض التيارات التي لاحاجة أن نعالج مسألتها هنا، وأما النظرة الأدبية الكاملة التي تبناها الكاتب، والتي أراد أن ينطلق منها فيجدها القارئ في «عشيق الليدي شاترلي».

القلاطية أواخر 1998

حنا عبود

SS

الفصل الأول

عصرنا في جوهره عصر تراجيدي، ولذا نرفض أن نتعامل معه تراجيدياً. حلت الجائحة فبدأنا، بين الخرائب نقيم مساكن صغيرة جديدة، حتى تكون لدينا آمال صغيرة جديدة. لاشك أنه عمل شاق: فالدرب الآن غير ممهدة للمستقبل: لكنا ندور أو نتسلق الصعاب. كان علينا أن نحيا، بغضّ النظر عن السموات التي أطبقت علينا.

كان هذا تقريباً وضع كونستانس شاترلي. ضيقت الحرب عليها سبل الحياة. فتأكدت أن على المرء أن يعيش ويتعلم.

تزوجت من كليفورد شاترلي في العام 1917 ، الذي عاش شهراً قبل أن يغادر بيته. قضيا شهر عسل. عندئذٍ عاد إلى فلاندز. ليُنقل إلى إنكلترا مرة ثانية، بعد ستة أشهر؛ مثخناً بالجراح تقريباً. كانت زوجته كونستانس في الثالثة والعشرين وكان هو في التاسعة والعشرين.

بقاؤه على قيد الحياة كان معجزة. إنه لم يمت فقد التأمت الجراح ثانية. ومكث سنتين تحت عناية الطبيب. أعلن الطبيب أنه عولج، وبإمكانه العودة إلى استئناف حياته، بنصف جسده السفلي، من الردفين فما دون، المشلول شللاً دائماً.

كان هذا عام 1920 . عاد كليفورد وكونستانس إلى بيته، راغبي

هول، «مقر» العائلة. مات أبوه، فكليفورد الآن بارونيت «السير كليفورد»، وكونستانس «الليدي شاترلي». بدأا حياتهما المنزلية والزوجية في البيت المهجور لآل شاترلي، بدخلٍ غير كاف. كان لكليفورد أخت، لكنها توفيت. ولم يكن له أقرباء أصوليون. فأخوه الأكبر مات في الحرب. لقد أيقن كليفورد المُقعد إلى الأبد أنه لن يكون له أطفال، فجاء إلى بيته في منطقة ميدلاندز الضبابية للحفاظ على اسم شاترلي حياً بمقدار مايستطيع.

لم يكن محطماً كل التحطيم. فهو يستطيع أن يتنقل بكرسي ذات عجلات، وله مقعد للاستحمام بمحرك صغير ملصق به، بحيث يستطيع قيادته بنفسه فيطوف الحديقة ببطء وكذلك المتنزه الجميل الكئيب الذي كان فخوراً به حقاً، وإن ادعى أنه يحتقره.

ونتيجة المعاناة الشديدة، تخلت عنه إلى حد ما قدرته على المكابدة. ظل غريباً مشرقاً ممراحاً حتى ليقول المرء إنه مبتهج بوجهه المتورد النضّاح بالعافية وبعينيه الشاحبتين الزرقاوين اللتين تتحديان العيون النضاحة بالحيوية. كانت كتفاه عريضتين وقويتين، كما كانت يداه شديدتي المتانة. يخيط ثيابه في لندن الباهظة الثمن، ويرتدي ربطات عنق أنيقة من شارع بوند. ومع ذلك يلمح المرء في وجهه نظرة ساجية، وشيئاً من الفراغ أيضاً، لمُقعد.

فقد تقريباً حياته، ومابقي له كان نفيساً جداً. كان واضحاً في إشراقة عينيه القلقتين، كم كان فخوراً بأنه حي بعد الصدمة الكبرى. لكنه مصاب بأذى شديد، فهناك شيء ما تلاشى في داخله، شيء من شعوره قد ولى. ثمة فراغ من عدم الحس.

كانت زوجته كونستانس فتاة متوردة ريفية المظهر بشعر بني ناعم وجسد مشدود وحركات بطيئة مفعمة بالطاقة الكامنة. عيناها زرقاوان واسعتان حائرتان وصوتها ناعم رقيق، بدا كأنه آت من قريتها، مرتع صباها.

لم تكن هكذا أبداً، فقد كان أبوها عضو الأكاديمية الملكية المشهور، السير مالكولم ريد العجوز. أمها عضو في جمعية الفابيين المثقفين في أزهى أيام ماقبل الرفائيلية. وبين الفنانين والاشتراكيين المثقفين تلقت كونستانس وأختها هيلدا مايمكن أن نسميه تربية جمالية غير تقليدية. أُخذتا إلى باريس وفلورنسا وروما للاطلاع على الفن، كما أُخذتا في اتجاه آخر إلى هاغ وبرلين، إلى التقاليد الاشتراكية العظيمة، حيث تحدث الخطباء بكل لسان متمدن، من دون أن يرتبك أي منهم.

لذلك فإن الفتاتين لم تعرفا أدنى رهبة لامن الفن ولامن السياسة المثالية. كان جوهما الطبيعي. كانتا كوسموبوليتين وإقليميتين في آن واحد، بإقليمية كوسموبوليتية في الفن الذي يماشي المُثل الاشتراكية النقية.

أُرسلتا إلى درسدن في سن الخامسة عشرة، لتعلم الموسيقى إلى جانب أشياء أخرى. وقد أمضتا وقتاً ممتعاً هناك. عاشتا بحرية بين الطلاب، وناقشتا الرجال في القضايا الفلسفية والاجتماعية والفنية، فكانتا ممتازتين مثل الرجال أنفسهم: أفضل منهم لأنهما كانتا امرأتين. تجولتا في الغابات مع فتيان موّارين بالقوة وحملتا الغيتارات وأكثرتا من العزف والإيقاع ـ غنتا أناشيد الغوندرفوغال، وتمتعتا بالحرية. الحرية! تلك كانت الكلمة العظمى. ففي العالم الفسيح، في غابات الصباح، ومع أصدقاء شبان ذوي أصوات بهيجة رائعة، كانتا حرتين في أن تفعلا ماتشاءان، وأن تتفوها بما ترغبان. كان الحديث رفيعاً للغاية: تبادل أحاديث ملتهبة. ولم يكن الحب أكثر من مرافعة صغيرة.

كان لكل من هيلدا وكونستانس شؤونهما العشقية العابرة قرابة الثامنة عشرة. كانت العلاقة العشقية مع الشبان الذين تحدثتا وغنتا بحميمية وخيمتا بغبطة وحرية معهم تحت الأشجار. وحام الشك حول الفتاتين، ومثل هذا الشيء كان هاماً في تلك الأيام ويُعتبر

موضوعاً ذا أهمية. وكان الرجال وضعاء تواقين. لماذا لاتستطيع الفتاة أن تكون كالملكة، فتهب نفسها؟

وهكذا وهبت كل منهما نفسها للشاب الذي تعاطت معه أعظم السجالات الحميمية والذكية. بدت السجالات والمناقشات أعظم شيء: وممارسة الحب والتواصل مجرد نوع من العودة إلى البدائية، وهبوط من الذروة. كانت الواحدة تخفف من حبها للفتى وتميل إلى كراهيته إذا خرق حرمة حريتها الخاصة والداخلية. ولكونها فتاة فإن كل كرامتها ومعنى حياتها تعتمد على تحقيق حرية كاملة مطلقة، نقية وملكيّة. ماذا تعني حياة الفتاة غير ذلك؟ أن تختبر التواصلات والخضوعات القديمة القذرة.

ومهما تعاطف المرء مع هذا العمل الجنسي فإنه يبقى من أقذر التواصلات والخضوعات القديمة. الشعراء الذين يمجدونه هم رجال في معظمهم. أما النسوة فيعرفن أن ثمة شيئاً ما أفضل، شيئاً ما أعلى. والآن عرفتاه بشكل محدد أكثر من قبل. فالحرية الجميلة النقية للمرأة كانت أعظم بكثير من أي حب جنسي. والشيء السيء فقط هو أن الرجال يلاحقون النسوة في هذا الشأن. إنهم يلحّون على الشيء الجنسي مثل الكلاب.

على المرأة أن تذعن القياد. والرجل مثل طفل بشهواته. وعلى المرأة أن تلبي كل مايريد، أو أنه مثل طفل ينقلب إلى كائن مقرف فيهرب بعيداً فيفسد التواصل العذب اللذيذ. لكن تستطيع المرأة أن تُسلم قيادها للرجل من دون أن تسلم داخلها، ذاتها الحرة. ذلك مالم يضعه في الحسبان الشعراء والمتحدثون عن الجنس وضعاً كافياً. فالمرأة قد تتخذ خليلاً دون أن تمنحه نفسها فعلاً. وبالتأكيد لاتستطيع أن تتخذه دون أن تمنح نفسها لقوته. أو بالأحرى تستطيع استخدام هذا الفعل الجنسي حتى تفرض قوتها عليه. ففي مقدورها أن تمسك نفسها خلال العملية الجنسية وتدعه ينهي نفسه دون أن تصل هي إلى ذروة الانتشاء، آنذاك بإمكانها أن تطيل الوصال

ss

وتحقق نشوة الجنس وتبلغ الذروة، بينما لايكون هو أكثر من أداة.

كان لكل من الأختين تجاربهما العشقية يوم وقعت الحرب فعادتا أدراجهما إلى البيت. مامن إحدى الأختين مارست الجنس مع شاب مالم يكن قريباً منها لفظياً: أي ما لم يهتما بنفسيهما كثيراً، ويتحدث واحدهما إلى الآخر. فالإثارة المدهشة العميقة التي لاتصدق كانت هناك، في التحدث بحميمية إلى شاب ذكي حقاً، ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم لعدة أشهر ـ ولم يتأكدا من هذا حتى حدث. ولم يكن الوعد الفردوسي: يجب أن يكون لديك من تتحدث إليه، قد أعلن. وقد تحقق قبل أن يعرفا ماهذا الوعد.

فإن أصبح الشيء الجنسي، بعد الحميمية الفوارة لهذه المناقشات التنويرية ـ النفسية، شيئاً محتوماً تقريباً فليكن. إنه يختم نهاية فصل. وفيه رعشته الخاصة به نفسه أيضاً: رعشة مهتزة غريبة داخل الجسد، تشنج أخير للتأكيد الذاتي، الكلمة الأخيرة المثيرة، فهي تشبه تماماً صفاً من الأنجم الذي يوضع ليبين نهاية مقطع، وفاصلاً في الموضوع.

عندما عادت الفتاتان إلى المنزل لقضاء عطلة صيف 1913 ، وكانت هيلدا في العشرين وكوني (اختصار لاسم كونستانس ـ المترجم) في الثامنة عشرة، لمس أبوهما بوضوح أنهما خاضتا التجربة الجنسية، أو كما يقول بعضهم بالفرنسية L,amour avait passe par la، «لقد مر الحب من هنا» لكنه كان هو نفسه رجل خبرة فترك الحياة تأخذ مجراها. أما بالنسبة إلى الأم، المصابة بالوهن العصبي في الشهور الأخيرة من حياتها، فقد أرادت من بنتيها أن تكونا «حرتين» وأن «تحققا ذاتهما». وهي نفسها لم تكن قادرة أن تجمع نفسها: كانت ترفض نفسها. والسماء تعرف لماذا، إذ أنها امرأة لها دخلها الخاص وطريقتها الخاصة. لامت زوجها. لكن الواقع أن ذلك كان من الانطباع القديم للسلطة على عقلها أو نفسها لاتستطيع أن تتحرر منه. فلاتستطيع شيئاً مع السير

ss

مالكولم، الذي ترك زوجته لعدائها العصبي وروحها العالية أن تتحكم بمأواها، متابعاً طريقته الخاصة.

هكذا كانت الفتاتان «حرتين» وعادتا إلى درسدن والموسيقى والجامعة والشبان. لقد أحبتا شبانهما المحترمين، وشبانهما المحترمون أحبوهما، بكل شغف الجاذبية العقلية. كل الأشياء الرائعة التي فكر فيها الشبان وعبروا وكتبوا، إن فكروا وعبروا وكتبوا لنسائهم الشابات. فكان فتى كوني موسيقياً وفتى هيلدا تقنياً. لكنهما ببساطة عاشا لفتاتيهما الشابتين. أي بعقلهما وتجربتهما العقلية. وفي غير هذا كانا يُجابهان بشيء من الصد، وإن لم يشعرا به.

كان واضحاً لهما أيضاً أن الحب اخترقهما: أي التجربة الجسدية. ومن الفضول معرفة مايصنعه التحول الرقيق، لكن غير المخطئ، في جسد كل من الرجل والمرأة: فالمرأة تزداد ازدهاراً وملمومة الجسد برقة، فتنعم زوايا جسدها، ويصبح تعبيرها إما قلقاً أو مبتهجاً: ويصبح الرجل أهدأ وأكثر استبطانية كما تصبح أشكال كتفيه وردفيه أقل بروزاً وأكثر حيرة.

في الرعشة الجنسية الفعلية داخل الجسد، استسلمت الأختان تقريباً لقوة الذكر الغريبة. لكن سرعان مااستعادتا نفسيهما واتخذتا الرعشة الجنسية كإحساس، وظلتا حرتين. بينما الرجال، في مجاملة المرأة للعملية الجنسية، يدعون نفوسهم تخرج إليها. وبعد ذلك يبدون كما لو أضاعوا شلناً وعثروا على ستة بنسات. رجل كوني أميل إلى العبوس ورجل هيلدا أميل إلى السخرية. لكن ذلك ماهُم عليه الرجال. ممتعضون وغير قانعين. عندما لاتملكهم يكرهونك لأنك لاتملكهم، وعندما تملكهم يكرهونك لسبب آخر. أو من دون أي سبب أبداً سوى أنهم أطفال ساخطون، ولايمكن إرضاؤهم مهما بلغ مايحصلون عليه، ومابذلت المرأة من إمكانيتها.

على أي حال باندلاع الحرب أسرعت هيلدا وكوني إلى المنزل

ss

مرة أخرى ـ بعد أن كانتا في المنزل في أيار، تحضران جنازة أمهما. قبل عيد الميلاد عام 1914 توفي فتياهما الألمانيان: فبكت الأختان على الفور وأحبتا الشابين بشغف، لكنهما فيما بعد نسيتاهما. لم يعد لهما وجود أبداً.

عاشت الأختان في منزل أبيهما كنسينغتون ـ والحقيقة في منزل أمهما ـ واختلطتا بجماعة كامبردج من الفتيان، الجماعة الذين ناضلوا من أجل «الحرية» وسراويل الفلانيلا والقمصان الناعمة المفتوحة عند العنق، ومن أجل نوع من الفوضوية العاطفية ذات التربية الحسنة، ونوع من الصوت الهامس المدمدم، والسلوك البالغ الحساسية. فجأة تزوجت هيلدا من رجل يكبرها بعشر سنوات، وهو أكبر عضو في جماعة كمبردج ذاتها، رجل بكمية لابأس بها من المال وبوظيفة عائلية مناسبة في الحكومة: كان يكتب أيضاً مقالات فلسفية. عاشت معه في بيت صغير في وستمنستر، وانخرطت في ذلك المجتمع الجيد للناس العاملين في الحكومة الذين ليسوا ذروة وإنما هم، أو سوف يكونون، القوة الثقافية الحقيقية في الأمة: الناس الذين يعرفون مايتحدثون عنه: أو يتحدثون كأنما يعملون.

ساهمت كوني بالشكل البسيط للعمل الحربي، وانسجمت مع معاندي كامبردج ذوي السراويل الفلانيلا، الذين يسخرون دائماً من أي شيء. كان «صديقها» كليفورد شاترلي فتى في الثانية والعشرين سارع إلى منزله من بون، حيث كان يدرس تقنيات مناجم الفحم. وقد أنفق من قبل سنتين في كامبردج. الآن هو ملازم أول في فيلق صغير، وهكذا راح يسخر من كل مايجري، وهو في البزة الموحدة.

كان كليفورد شاترلي من طبقة أعلى من طبقة كوني، كانت كوني من الأنتلجنسيا الثرية، بينما كليفورد كان من الأرستقراطية. ليست أرستقراطية كبيرة، ولكنها أرستقراطية. كان أبوه بارونياً وأمه ابنة فيزكونت.

وإذا كان كليفورد أرقى تربية من كوني، وأرقى «مجتمعاً» لكنه

SS

كان في أسلوبه الخاص أكثر اقليمية وأكثر جبناً. إنه في حالة اطمئنان في «العالم العظيم» الضيق ـ أي عالم مجتمع الأرستقراطية العقارية ـ لكنه كان خجولاً وعصبياً من كل العالم الكبير الآخر الذي يؤلف أضخم مجموعات الطبقتين الوسطى والدنيا، والأجانب. إذا كان لابد من اعلان الحقيقة فإنه يرتعد خوفاً من المجموعات الضخمة للطبقتين الوسطى والدنيا والأجانب وليس من طبقته. وكان، بطريقة موازية واعياً لعجزه الشخصي: وإن كان يحظى بكل امتياز الحماية. وهو شيء غريب ولكن تلك ظاهرة عصرنا.

لذلك سحرته الثقة الخاصة اللطيفة لفتاة مثل كونستانس ريد. كانت سيدة نفسها في ذلك العالم الخارجي من الفوضى، أكثر مما كان هو سيد نفسه.

مهما يكن فإنه كان أيضاً متمرداً: وكان التمرد حتى ضد طبقته. وربما تكون كلمة متمرد قوية، بل قوية جداً. كان فقط يتمسك بالارتداد الشعبي العام للشبان عن التقليد وضد أي نوع من السلطة الحقيقية. بدا الآباء مضحكين: فآباؤنا كانوا من النوع المترقب. وكانت الجيوش مضحكة، وكذلك الضباط العجائز الملمَّعون: بقيادة كيتشنر ذي الوجه الأحمر. حتى الحرب كانت مضحكة فعلاً، وإن قتلت كثيراً من الناس.

والواقع أن كل شيء كان مضحكاً قليلاً أو مضحكاً كثيراً: بالتأكيد كل مايتصل بالسلطة، سواء كان ذلك في الحكومة أو في الجيش أو في الجامعات، هو مضحك إلى حد ما. ومادامت الطبقات الحاكمة تقدم أي ذريعة من الذرائع حتى تحكم، فإنها مضحكة أيضاً. وبدا السير جيوفري، والد كليفورد، مضحكاً إلى حد بعيد بقطعه أشجاره وطرد الرجال المؤذين لناقلة فحمه، والزج بهم في الحرب، فنجا بنفسه وصار وطنياً، لكنه أيضاً أنفق من الأموال على بلاده أكثر مما حصل عليه.

وعندما نزلت المس شاترلي ـ إيما ـ إلى لندن من الميدلاندز،

SS

لتقوم بعمل تمريضي، كانت لمّاحة جداً بطريقة هادئة لما يريده السيرجيوفري ووطنيته الصارمة. وانفجر ضاحكاً الابن الأكبر هربرت، وهو الوريث، مع أن الأشجار التي قُطعت لتدعيم الخنادق كانت أشجاره. لكن كليفورد وحده ابتسم قليلاً بصعوبة. كل شيء كان مضحكاً، فعلاً كان مضحكاً. ولكن متى يحين الأوان ويضحك المرء من نفسه أيضاً؟ على الأقل إن أناساً من طبقة مختلفة مثل كوني، كانوا مهتمين بكل شيء. يؤمنون بشيء ما.

كانوا بالأحرى مهتمين بالجنود البريطانيين والتهديد بالتجنيد وتقنين السكّر والحلوى على الأطفال. طبعاً كانت السلطات مضحكة في كل هذه الأشياء الخاطئة. لكن كليفورد لايأخذها مأخذ الجد. فعنده أن السلطات مضحكة منذ البداية وليس بسبب الحلوى أو الجنود.

وتشعر السلطات أنها مضحكة وتتصرف أيضاً بطريقة مضحكة، وهي أشبه بمجنون في حفلة شاي صانع القبعات في رواية «أليس في بلاد العجائب» لفترة، حتى تتطور الأشياء هناك فيأتي لويد جورج لإنقاذ الوضع هنا. وتجاوز هذا حصل على نحو مضحك. لكن الشبان الوقحين لم يضحكوا أبداً.

في العام 1916 قُتل هربرت شاترلي، فغدا كليفورد وريثه. كان يرتجف رعباً حتى من هذا. وقد تجاهل في نفسه أهميته كابن السير جيوفري وابن راغبي هول، في منزل العائلة، لكنه لم يستطع أبداً التخلص من ذلك. وفيما بعد يعرف أن هذا أيضاً بنظر العالم المهتاج الضخم كان مضحكاً. الآن هو الوريث والمسؤول عن راغبي، راغبي القديم. ألم يكن ذلك مرعباً ورائعاً، رائعاً، وربما مجرد عبث في الوقت نفسه.

لن يكون ثمة عبثية عند السير جيوفري. كان شاحباً ومتوتراً وخارجاً من ذاته، فقرر بعناد أن ينقذ بلاده ومركزه، فليكن على يد لويد جورج أو أي شخص آخر. ولذا توقف وانفصل عن انكلترا التي

ss

كانت فعلاً انكلترا، بعجز مطلق، حتى أنه فكر فعلاً بالصحافي المالي وعضو مجلس النواب هوراتيو بوتوملي. ودافع عن انكلترا ولويد جورج، كما دافع أجداده عن انكلترا والقديس جورج: ولم يدرك أن هناك فرقاً. وهكذا قطع السير جيوفري الأشجار ودافع عن لويد جورج وانكلترا، عن انكلترا ولويد جورج.

وأراد من كليفورد أن يتزوج وينجب وريثاً. شعر كليفورد أن والده كان عبارة عن مفارقة يائسة. ولكن منذ متى برز هو، باستثناء بروزه في الاحساس المُجفل بالضحك من كل شيء وضحكه الأكبر من وضعه الخاص؟ وقد استلم بارونيته وراغبي طوعاً أو كرهاً بمنتهى الجدية.

ولت من الحرب الإثارة البهيجة ـ ماتت. موت كثير ورعب مرير. واحتاج الرجل إلى دعم وراحة. احتاج لمرساة في دنيا الأمان. احتاج لزوجة.

عاش آل شاترلي، وهم شقيقان وأخت، بعزلة فعلية، فعلى الرغم من صلاتهم، عاش كلٌ مع الآخر في راغبي. شدد الإحساس بالعزلة الرابطة الأسروية، الإحساس بضعف مركزها، الإحساس بالضعف، على الرغم أو ربما بسبب اللقب والأرض. كانوا مفصولين عن ميدلاندز الصناعية حيث أمضوا حياتهم. وكانوا مفصولين عن طبقتهم الخاصة بسبب الطبيعة الحضانية العنيدة الصارمة، لوالدهم السير جيوفري الذي كانوا يضحكون منه، ولكنهم كانوا يتحسسون منه.

دائماً كان الجميع يقولون إنهم سوف يعيشون معاً. لكن هربرت مات الآن، وطلب السير جيوفري من كليفورد أن يتزوج. وقد أشار السير جيوفري إلى ذلك صراحة: تحدث حديثاً موجزاً جداً. لكن صمته وعناده الحضاني كانا من القسوة بحيث لايستطيع كليفورد أن يجابههما.

ss

لكن إيما قالت لا. كانت أكبر من كليفورد بعشر سنوات، فشعرت أن زواجه سوف يكون هجراناً وخيانة لكل مادافع عنه صغار العائلة.

على أي حال تزوج كليفورد من كوني، وقضى معها شهر العسل. كان عام 1917 عاماً مرعباً فكانا متآلفين تآلف شخصين يقفان معاً على متن سفينة تغرق. كان بتولاً عندما تزوج: فلم تكن الناحية الجنسية تحظى لديه بكبير أهمية. عدا عن هذه الناحية كان هو وهي متواشجين. وقد ابتهجت كوني قليلاً بهذه الحميمية التي كانت أبعد من الجنس و«إرضاء» الرجل. على أي حال لم يكن كليفورد عنيفاً فيما يخص «إرضاءه» كما هي العادة لدى كثير من الرجال. لا. فالحميمية كانت أعمق وشخصيّة أكثر من الناحية الجنسية. الجنس كان مجرد عارض، مجرد ملحق: كان عملية من العمليات المهجورة التي تدافع عن كونها خرقاء، لكنها في الحقيقة غير ضرورية. إلّا أن كوني لم ترغب بإنجاب أطفال: وإن كان ذلك يدعمها ضد بنت حميها إيما.

لكن في أوائل عام 1918 نُقل كليفورد إلى منزله محطماً، ولم يكن ثمة طفل. فانفجر السير جيوفري قهراً ومات.

ss

الفصل الثاني

جاءت كوني وكليفورد إلى المنزل في راغبي في خريف العام 1920 . كانت المس شاترلي، المشمئزة من عيب أخيها، قد ارتحلت وعاشت في شقة صغيرة في لندن.

كان راغبي المنزل الطويل القديم المنخفض، المبني بحجر بني، قد أنشئ قرابة أواسط القرن الثامن عشر، وأضيفت إليه أجنحة إلى أن غدا منطقة ليس فيها الكثير من التمايز. إنه يقف على هضبة في متنزه جميل وقديم من أشجار السنديان: ولكن ياللحسرة، إذ يمكن للمرء أن يرى من مسافة قريبة خلفية مدخنة تيفرشال بغيوم بخارها ودخانها، وعلى مكان النفايات من مسافة ضبابية من الهضبة تقوم المجموعة الأولية لقرية تيفرشال ـ قرية تبدأ تقريباً عند بوابات المتنزه، وتمتد في بشاعة يائسة لميل طويل ورهيب: البيوت، صفوف من بيوت القرميد الصغيرة البائسة مع سقوف اردوازية سوداء للأطاريف وزوايا حادة ووحشة خاوية مرعبة.

اعتادت كوني على كنسينغتون أو الهضاب السكوتلاندية أو منخفضات سوسيكس: تلك هي انكلتراها. وبكل رواقية الشباب صَعَقتها قباحة لاروح فيها من الفحم والحديد في ميدلاندز منذ النظرة الأولى، فانتبذت عنها كما كانت: شيء لايصدق، فأضربت عن التفكير بها. ومن غرف راغبي الكئيبة راحت تسمع قعقعة الحواجز

عند الحفرة، ونفخات الآلة اللولبية، وضجيج الناقلات والصفير القليل الخشن لقطارات منجم الفحم. وركام قمامة فحم تيفرشال وهو يحترق، بل إنه يحترق منذ سنوات، وسوف يكلف الآلاف حتى يتم التخلص منه. ولذا لابد أن يُحرق. وإذ كانت الريح في ذلك الاتجاه، وهو الاتجاه الأغلب، صار البيت يمتلئ بنتانة هذا الحريق الكبريتي لغائط الأرض. ولكن حتى في الأيام التي لارياح فيها كانوا يشمون دائماً شيئاً ما قادماً من تحت الأرض: الكبريت أو الفحم أو الحديد أو الأسيد. وحتى في عيد الميلاد يرتفع السخام ويهبط بإصرار لايصدق، مثل المنّ الأسود القادم من سموات القيامة.

حسناً، هكذا كان هناك: شيء مقدر كبقية الأشياء. إنه أكثر رعباً ولكن لماذا ترفس؟ أنت لاتستطيع أن تزيحه بالرفس. إنه مستمر. والمرء نفسه مستمر. والحياة مثل البقية. فعلى السقف الخفيض المظلم لغيمة في الليل تلتهب بقع حمراء وترتجف، مرقشة ومنتفخة ومتقلصة مثل الحروق التي تسبب الألم. إنها الأفران. في البدء سحرت هذه الأفران كوني مع نوع من الرعب: شعرت أنها تعيش تحت الأرض. ثم اعتادت عليها. وفي الصباح أمطرت.

أعلن كليفورد أنه يحب راغبي أكثر من لندن. إن لهذا الريف إرادته الشرسة الخاصة، وإن للناس أحشاءها. دهشت كوني متسائلة ماذا يملكون من أشياء أخرى: بالتأكيد لايملكون عيوناً ولاعقولاً. كان الناس بلا شكل، مهزولين مرعبين مثل الريف، وكأنهم بلا أصدقاء. فقط يوجد شيء ما في غمغمة اللكنة في أعماق فمهم، وأصوات مداسات جزماتهم ذات المقدمات الحديدية كلما عادوا إلى منازلهم جماعات من عملهم على الإسفلت، فقد كان ذلك شيئاً مرعباً وسرّانياً.

لم يكن هناك ترحيب في المنزل لمالك الأرض الفتى ـ فلا قصف ولاوفد، ولاحتى زهرة واحدة. فقط خروج على سيارة آلية في الليل، وقيادة رطبة تخترق الأشجار القاتمة، من منحدر المتنزه حيث قطيع

الأغنام الرطب الذي يتناول علفه، إلى الهضبة حيث ينشر المنزل واجهته البنية الغامضة، ومدبرة المنزل وزوجها يحومان، مثل المستأجرين غير المضمونين على وجه الأرض استعداداً للتلعثم بالترحيب.

لم يكن ثمة اتصال بين راغبي هول وقرية تيفرشال ـ لاأبداً. فلا قبعات تُرفع ولاانحناءات تحتية تنثني. يكتفي عمال المناجم بالحملقة فقط: التجار يرفعون قبعاتهم لكوني كما لو أنهم من معارفها، وينحنون انحناءات خرقاء لكليفورد: هذا كل شيء. الهاوية لايمكن اجتيازها، وثمة نوع من الامتعاض عند كل طرف. تضايقت كوني أول الأمر من الرذاذ القوي للامتعاض الذي يأتي من القرية. فراحت تقوي نفسها أمامه، كان نوعاً من المقوي، شيئاً يجب أن تكافحه. لم يكن أنها هي وكليفورد لايملكان شعبية ـ إنهما ينتميان إلى أنواع أخرى غير عمال المناجم. هوة لايمكن تخطيها، وصدع لايوصف، فمثل هذا ربما لايوجد جنوب مدينة ترنتو الإيطالية. ولكن في الميدلاندز والشمال الصناعي هوة لايمكن اجتيازها، لايمكن عبرها أن تحدث أي مشاركة ـ ابق أنت في الطرف الذي تنتمي إليه، وأبقى أنا في الطرف الذي أنتمي إليه ـ إنه رفض غريب للنبض المشترك للبشرية.

ومع ذلك تعاطفت القرية مع كليفورد وكوني، في المجرد. في الجسد كانت في الطرف الآخر، ولسان حالها يقول دعني وشأني.

كان القس رجلاً لطيفاً في الستين من عمره تقريباً، وتضاءل شخصياً إلى اللاهوية بسبب صمت القرية وإصرارها على «دعني وشأني». وكانت زوجات عمال المناجم كلهن تقريباً من الطرائقيات. عمال المناجم لم يكونوا شيئاً. ولكن حتى اللباس الموحّد الرسمي الذي ارتداه القسّ كرجل دين بات كافياً أن يطمس كلياً حقيقة أنه كان رجلاً مثل أي رجل آخر. لا، كان مستر أشبي، أي أنه نوع من تقديم الوعظ والصلاة الأوتوماتيكيين.

هذا العناد الغريزي ـ نعتقد أننا طيبون مثلك إن كنت أنت الليدي

شاترلي ـ أذهل وحيَّر كوني جداً أول الأمر. فالريبة الفضولية، والمحبة الزائفة التي تقدمها لها زوجات عمال المناجم والمسحة الهجومية لقولهن ـ أوه ياعزيزتي، إنني إنسانة ما الآن مع الليدي شاترلي التي تتحدث معي. لكنها لاتحتاج للتفكير أنني لست طيبة مثلها ـ الذي دائماً تسمعه تثرثر به أصوات النساء، كان لايطاق. ماكان يمكن تجاوزه. كان شيئاً عدوانياً غير منسجم.

تركهم كليفورد وشأنهم، فتعلمت أن تفعل الشيء ذاته: فراحت تمر بهم دون النظر إليهم، فيحملقون إن كانت امرأة من الشمع تسير. وعندما كان كليفورد يتعامل معهم كان يتخذ موقفاً فوقياً ازدرائياً ـ فلا يجعل أحداً يستنتج أنه ودود. والواقع أنه كان أشد تعالياً وتكبراً وازدراء لأي إنسان خارج طبقته الخاصة. لقد تمسك بموقفه دون أي محاولة استرضاء. وهو لم يكن لامحبوباً ولاغير محبوب من قبل الناس: كان جزءاً من الأشياء، مثل ركام القمامة، ومثل راغبي نفسها.

لكن كليفورد كان خجولاً جداً بالفعل، ويعي ذاتياً الآن أنه مُقعد. إنه يكره أن يرى أي شخص عدا الخدم الشخصيين. فعليه أن يجلس في كرسي ذات دواليب، أو في كرسي استحمام. ومع ذلك كان حريصاً أن يلبس أجمل الحلل النفيسة من خياطي لندن، وظل يشتري ربطات عنقه من شارع بوند كما من قبل تماماً، ومن قمته حتى قدميه كان يبدو وسيماً ومؤثراً كما في السابق. لم يكن واحداً من الجنتلمانات الجدد الذين يتشبهون بالسيدات: إنه بالأحرى ريفي حتى بوجهه المتورد ومنكبيه العريضين. لكن صوته الهادئ المتردد وعينيه وكونه في الوقت نفسه جريئاً وخائفاً، واثقاً وغير واثق، كشفت طبيعته. فكانت طريقته متشامخة عدوانية ولكنه أيضاً متواضع ومطموس المعالم أو بالأحرى كان جباناً.

التحق هو وكوني الواحد بالآخر، بطريقة حديثة من الانفراد. كان مؤذى جداً في نفسه بسبب الصدمة الكبرى لشلله، إلى درجة أنه

كان سهلاً ووقحاً. كان شيئاً مؤذياً. ولهذا ظلت كوني عاطفية معه.

لكنها لم تستطع مساعدته داخل إحساسه بأنه قليل الصلة مع الناس. فكان عمال المناجم رجاله الخاصين: لكنه نظر إليهم كأشياء لاكبشر، كأجزاء من كومة، لاكأجزاء من حياة، وظواهر من المادة الأولية أكثر من كونهم كائنات بشرية مثله. كان على نحو مايخافهم، لم يكن يطيق أن ينظروا إليه الآن وهو المُقعد. ثم إنهم يملكون رجولة بدائية غريبة بدت في نظره غير طبيعية مثل القنفذ.

كان مهتماً إلى أبعد حد: لكن مثل رجل ينظر إلى تحت بالميكروسكوب، أو إلى الأعلى بالتلسكوب. لم يكن على صلة فعلية مع شيء أو مع أحد، إلا بحكم العادة مع راغبي، ومن خلال الدفاع عن الرابطة العائلية، مع إيما. في غير ذلك لاصلة له بشيء. وشعرت كوني نفسها أنه ليس على صلة معها، لاأبداً. ولم تعد أخيراً تقترب منه: ربما لم يكن فيه شيء للاقتراب منه، وبالإطلاق: نفي التواصل البشري.

ومع ذلك كان يعتمد عليها كل الاعتماد ـ إنه يحتاجها في كل لحظة. وكان يائساً بمقدار ماكان ضخماً وقوياً. يستطيع أن يقود كرسيه ذات العجلات فينقل نفسه، ولديه نوع من كرسي الاستحمام ولها موتور ملحق بها، فيستطيع أن يطوف ببطء حول المتنزه. لكنه وحده كان مثل شيء ضائع. إنه يحتاج أن تكون كوني هناك ليتأكد بأنه موجود فعلاً.

بيد أنه ظل طموحاً. فقد طفق يكتب قصصاً وأوغل فراح يكتب قصصاً عن أناس يعرفهم، فكانت قصصاً ذكية أو بالأحرى حاقدة، ولكن بطريقة غامضة تشعر أنها بلامعنى. كانت المراقبة فائقة ودقيقة. لكن لم يكن ثمة تماس، ولاصلة فعلية. كانت كما لو أن الشيء كله يقوم على أرضيّة اصطناعية. ـ وبما أن الحياة في هذه الأيام عبارة عن خشبة مسرح مضاءة اصطناعياً فإن القصص كانت فعلاً تمثل الحياة الحديثة ـ أقصد علم النفس الحديث.

ss

كان كليفورد يتحسس هذه القصص تحسساً مرضياً. أراد اعترافاً من كل شخص بأنها جيدة وأنها الأفضل، ولاشيء يفوقها. ظهرت هذه القصص في معظم المجلات الحديثة، فمُدحت وقُدحت، على جاري العادة. لكن القدح كان مؤلماً بالنسبة لكليفورد مثل سكاكين تطعنه. كما لو أن كيانه كله موجود في قصصه.

ساعدته كوني بكل ماتستطيع. في البداية كانت مثارة. تحدث عن كل شيء برتابة وإلحاح وإصرار، وكانت تستجيب بكل ماتستطيع. كان الأمر كما لو أن نفسها كلها وجسدها كله وجنسانيتها كلها فرت منها وانتقلت إلى قصصه. لقد أثارها هذا واستهلكها.

قليلة الحياة الجسدية التي عاشاها. كانت تشرف على البيت. لكن مدبرة البيت خدمت السير جيوفري لسنوات عديدة فجفت وكبرت وبالكاد تقول إنها أنثى سليمة - يمكنك أن تسميها خادمة ردهة، أو حتى امرأة - انتظرت قرب المأدبة في البيت أربعين عاماً. وحتى الخادمات الفعليات لايبقين شابات. كان الأمر مرعباً. فماذا في مقدورك أن تفعل بمكان كهذا سوى أن تتركه كما هو. تترك تلك الغرف التي لانهاية لها وكل روتين الميدلاندز والنظافة الميكانيكية والأمر الميكانيكي. أصر كليفور على طباخة جديدة، امرأة خبيرة كانت قد خدمته في غرفه في لندن. أما مابقي فقد بدا المكان نموذج الفوضى المرتبة. فكل شيء موجود في نظام جميل ونظافة بالغة وتنسيق دقيق: حتى الأمانة نفسها دقيقة. ومع كل ذلك فقد كان الأمر بنظر كوني عبارة عن فوضى منظمة. لايوجد دفء شعور يوحد بينهما عضوياً. فقد بدا المنزل مخيفاً كأنه شارع مهجور.

ماذا تفعل سوى أن تترك كل شيء على حاله. وقد تركته على حاله. كانت مس شاترلي تأتي أحياناً فتنظر بفوقية من وجهها الدقيق الأرستقراطي لتجد ألّا شيء تغيّر. إيما لن تسامح كوني أبداً لأنها طردت انسجامها الواعي مع أخيها. كانت هي، إيما، التي يجب

أن تنتج تلك القصص، تلك الكتب التي معه: فقصص شاترلي هي شيء جديد في العالم. ذلك كان كل شيء: شيء جديد في العالم، وأنهم، آل شاترلي، وضعوها في هذا العالم. لايوجد مقياس آخر. لم تكن ثمة صلة عضوية مع الفكرة والتعبير، فقد انتهت هذه الصلة من قبل. إنها مجرد شيء جديد في العالم: كُتُب شاترلي: إنها شخصية محضة.

عندما دفع والد كوني ثمن بطاقة سفر إلى راغبي قال في حديث خاص لابنته: أما بالنسبة لكتابة كليفورد، فإنها أنيقة، ولكن لايوجد فيها أي شيء. إنها لن تستمر - نظرت كوني إلى الفارس الاسكوتلاندي الأصيل الذي التزم بالفروسية طيلة حياته، فغدت عيناها، اللتان ماتزالان كبيرتين وزرقاوين تعلوهما الدهشة، غائمتين. لايوجد فيها أي شيء. ماذا يعني بأي شيء؟! إن كان النقاد قد أطْروها وصار اسم كليفورد شهيراً، كما عادت عليه بمردود مالي: فماذا عنى والدها بقوله إنه لاشيء في كتابة كليفورد؟ وماذا يمكن أن يكون فيها من أشياء أخرى؟

بالنسبة لكوني كانت تتبنى مقياس الشبان: فما يوجد في اللحظة هو كل شيء. وتتعاقب اللحظات الواحدة بعد الأخرى دون أن ترتبط الواحدة بالأخرى حكماً.

في شتائها الثاني في راغبي قال لها والدها:

«آمل ياكوني ألا تدعي الظروف تجبرك أن تكوني نصف عذراء».

ردت كوني بغموض: «نصف عذراء. لماذا؟ لماذا لا؟».

فاستدرك والدها بسرعة وقال «طبعاً إلا إذا رغبت».

وقال الشيء ذاته لكليفورد عندما كان الرجلان منفردين: «لاأعتقد أن من المناسب تماماً أن تبقى كوني نصف عذراء».

«نصف عذراء» أجاب كليفورد مترجماً المقطع ليتأكد منه.

ss

راح يفكر للحظة، ثم توهج احمراراً. كان غاضباً ومهاناً.

سأل وهو كظيم «أي طريقة تناسبها؟».

«إنها تنحف ـ ناتئة العظام. ليس هذا مظهرها. إنها ليست فتاة من نوع البلكارد، السمكة الصغيرة. إنها السمكة الاسكوتلاندية البضة».

قال كليفورد «طبعاً دون نقط فيها».

أراد فيما بعد أن يقول شيئاً آخر لكوني عن عمل النصف عذراء ـ حالة النصف عذراء في شؤونها. ولكنه لم يستطع أن يجهز نفسه لذلك. فقد كان في الوقت نفسه يشعر معها بالحميمية المفرطة، وليس بالحميمية فقط. كان وإياها كشخص واحد، بعقله وعقلها. لكن لم يكن واحدهما موجوداً جسدياً تجاه الآخر، ولايتحمل أن يغوص في جسد الضحية. كانا حميمين دون أي اتصال.

على أي حال حزرت كوني أن والدها قال شيئاً ما، وأن هذا الشيء موجود في عقل كليفورد. إنها تعرف أنه لايبالي إن كانت نصف عذراء أو نصف مقبولة اجتماعياً مادام لايعرف وليس مهيأ أن يرى. فما لاتبصره عينه ومالايعرفه عقله ليس له وجود.

مضى على كوني الآن في راغبي مدة سنتين، تعيش هذه الحياة القاتمة من التماهي في كليفورد وحاجته إليها، وعمله، وعلى الأخص عمله. فاهتمامهما لم يتوقف أبداً عن التدفق معاً على عمله. يتحدثان ويتجادلان في آلام التأليف الإنشائي، ويشعران كأن شيئاً ما يحدث فعلاً في الفراغ.

وهكذا كانت الحياة: في الفراغ. أما الباقي فلم يكن موجوداً. هناك راغبي والخدم، ولكن كأشباح، لاوجود حقيقياً لهم. ذهبت كوني مشاوير إلى المتنزه وإلى الغابة المجاورة له، وتمتعت بالوحدة والسرّانية، ورفست أوراق الخريف البنية وجمعت أزهار الربيع. لكن ذلك أشبه بحلم: أو بالأحرى كان أشبه بصورة زائفة عن

SS

الواقع. فأوراق السنديان كانت عندها مثل أوراق السنديان المتجعدة في المرآة، فهي نفسها كانت مثل إنسان يقرأ عن ورد الربيع ويلتقطها كأنها ظلال أو ذكريات أو كلمات. لاشيء يتعلق بالمادة بالنسبة لها ولاأي شيء أبداً ـ لالمسة ولاتماس. فقط هذه الحياة مع كليفورد، هذا الغزْل الذي لاينتهي لخيوط القصة، سوى تفاصيل الوعي، سوى هذه القصص التي قال عنها السير مالكولم أنه لاشيء فيها ولن تستمر. لماذا يجب أن يوجد فيها شيء، لماذا يجب أن تستمر؟ يكفي اليوم شره. ويكفي اللحظة مَظْهر واقعها.

كان لكليفورد عدد من الأصدقاء والمعارف المخلصين يدعوهم إلى راغبي. دعا كل أنواع الناس، من نقاد وكتاب، ممن يقدمون المساعدة في إطراء كتبه. وكان يتملقهم حتى يحضروا إلى راغبي، وكانوا يطرون كتبه. فهمت كوني هذا تماماً. ولكن لم لا؟ كان هذا واحداً من النماذج السريعة في المرأة. أي خطأ في ذلك؟

كانت مضيفة لكل هؤلاء الناس ـ معظمهم من الرجال. ومضيفة أيضاً لأقرباء كليفورد الأرستقراطيين. ولكونها فتاة بمظهر ريفي، ناعمة متوردة تميل إلى النمش، بعينين زرقاوين كبيرتين وشعر بني ملتفّ، وصوت ناعم وخاصرتين أنثويتين متينتين فقد كانت تُعتبر إلى حد ما دقة قديمة و«أنثوية». لم تكن من نوع سمك البلكارد، مثل صبي، بصدر صبي واسع وردفين صغيرين. كانت أنثى إلى حد بعيد بحيث تبدو أنيقة تماماً.

وكذلك الرجال، وعلى الأخص الذين لم يعودوا فتياناً، كانوا في غاية اللطف معها. ولكن لمعرفتها كم يشعر كليفورد المسكين بالألم لدى أدنى إشارة غزلية من طرفها، كانت لاتشجعهم في كل شيء. كانت هادئة وغامضة، لم تكن في تماس معهم، وتقصدت ألا يكون لها تماس أبداً. وكان كليفورد فخوراً كل الفخر بنفسه.

عاملها أقرباؤه بعطف. عرفت أن هذا العطف يشير إلى فقدان

ss

الخوف ـ فهؤلاء الناس لايحترمونك مالم تُخفهم قليلاً. ولكن أيضاً لم يكن لها تماس معهم. تركتهم يتابعون. تركتهم يعطفون ويزدرون، تركتهم يشعرون بأنهم ليسوا بحاجة إلى إعداد قوتهم لها. فالحقيقة أنها لم تكن على تماس معهم.

ويمر الزمن. ومهما حدث فكأنه لم يحدث، لأنها بجمالها خارج التماس. عاشت مع كليفورد في أفكارهما، وفي كتبه. كانت تتسلى ـ فهناك دائماً أناس في المنزل. ويمر الزمن كما تفعل الساعة، الثامنة والنصف بدلاً من السابعة والنصف.

الفصل الثالث

على أي حال كانت كوني واعية لتزايد عدم الاستقرار. وبعيداً عن عدم تماسها، فقد كان عدم الاستقرار يتملكها مثل الجنون. إنه يرعش أطرافها عندما لاتريد إرعاشها، ويرجّ عمودها الفقري عندما لاتريد رجَّه، بل تريد أن تستقر بارتياح. إنه يثير داخل جسدها، وفي رحمها إلى حد ما، الشعور بأن عليها أن تقفز في الماء وتسبح، حتى تتخلص منه، إنه عدم استقرار جنوني. فهو يجعل قلبها ينبض بعنف، من دون سبب. وكانت تزداد نحولاً.

كان مجرد عدم استقرار. راحت تهرب منه عبر المتنزه وتهجر كليفورد، وتضطجع منبطحة في أجمة السرخس. وحتى تتخلص من المنزل - كان عليها أن تهرب من المنزل ومن كل شخص. وكانت الغابة ملجأها الوحيد، معبدها.

لكنها في الحقيقة لم تكن ملجأ، معبداً، لأنها ليست في تماس مع أحد. كانت الغابة مكاناً فقط تهرب إليه من الباقين. إنها في الواقع لم تتصل بروح الغابة نفسها - إن كان للغابة هذا الشيء الذي لامعنى له.

عرفت على نحو غامض أنها تتمزق إرباً بطريقة ما. وعرفت على نحو غامض أنها خارج الاتصال: لقد فقدت التماس مع العالم

المادي والحيوي. فقط كليفورد وكتبه التي لم يكن لها وجود ـ أي التي لايوجد شيء فيها. فراغ في فراغ. كانت تعرفه على نحو غامض. كان وضعها مثل ضرب رأسها على حجر.

حذرها والدها مرة أخرى: لماذا لاتجدين لنفسك شيئاً جميلاً ياكوني؟ افعلي كل ماهو طيب في العالم.

في ذلك الشتاء حضر ميكائيل لبضعة أيام. كان فتى إيرلندياً حقق ثروة ضخمة في أميركا عن طريق مسرحياته. لقد بهره مجتمع لندن الأنيق بحماسة لفترة من الزمن، لأنه كتب مسرحيات عن المجتمع الأنيق. ثم تدريجياً توضّح المجتمع الأنيق بأنه صار مضحكاً بين يدي ثرثاري شارع دبلن الرث، وأن التغير المفاجئ قد حصل. كان ميكائيل الكلمة الأخيرة للنذالة وقلة الحياء. لقد اكتشفوا أنه معادٍ للانكليزية، وللطبقة التي صنعت الاكتشاف فكان هذا أسوأ من أقذر جريمة. فأجهزوا عليه وألقوا بجثته في صفيحة المهملات.

على أي حال كان ميكائيل يملك جناحاً في مقاطعة لندن وسار في شارع بوند بصورة الجنتلمان، فأنت لاتضمن أن يَطرد الخياطون الممتازون زبائنهم المتواضعين، عندما لايدفع هؤلاء الزبائن بسخاء.

دعا كليفورد الفتى الذي في الثلاثين من عمره في لحظة مشؤومة من حياة ذلك الفتى. ومع ذلك لم يتردد كليفورد. حظي ميكائيل باهتمام بضعة ملايين من الناس: ولكونه منبوذاً يائساً فإنه ممتن ولاشك لدعوته إلى راغبي في هذه اللحظة الحاسمة، بعدما طردته بقية المجتمع الأنيق. ولكونه ممتناً فلاشك أنه سيقدّم «الخير» لكليفورد هناك في أميركا: الشهرة. فالرجل يحصل على القليل من الشهرة، مهما كانت، بالتحدث عنه على نحو صحيح، وعلى الأخص «هناك». كان كليفورد في طريقه إلى الشهرة: وبدا واضحاً أي غريزة شعبية عميقة يملك. والنتيجة أن ميكائيل قدم كل نبله في

إحدى المسرحيات، فكان كليفورد نوعاً من البطل الشعبي. إلى أن حصلت ردة الفعل، عندما وجد أنه جعله أضحوكة.

دهشت كوني قليلاً من حاجة كليفورد الملحاحة العمياء لأن يكون شهيراً: شهيراً، أي يعرفه العالم الضخم غير المتبلور الذي هو نفسه لايعرفه، والذي كان يخافه جداً: أن يُعرف ككاتب، ككاتب حديث من الدرجة الأولى. كوني تدرك من مالكولم الصريح المخلص الناجح بأن الفنانين يروجون لأنفسهم ويجهدون لتقديم بضاعتهم. لكن والدها استخدم قنوات جاهزة ومعدة، استخدمها أعضاء الأكاديمية الملكية الذين باعوا صورهم. بينما اكتشف كليفورد قنوات جديدة للدعاية من كل الأنواع. فلديه شتى أنواع الناس في راغبي ـ دون أن يهبط بنفسه تماماً. ولكنه إذ صمم أن يبني لنفسه نصباً من الشهرة السريعة، فلا يتوانى عن استخدام كسارة حجارة يدوية من أجل ذلك.

وصل ميكائيل في الوقت المحدد، بسيارة أنيقة وبسائق وخادم خاص. كان بالضبط في شارع بوند: ولكن منذ رؤيته كان في روح «مقاطعة» كليفورد شيء ما يستعيده. لم يكن تماماً ـ أو ليس تماماً ـ في الواقع لم يكن إطلاقاً ـ يبدو بما يدل عليه مظهره. فهو بالنسبة لكليفورد كان نهائياً وكافياً. ومع ذلك كان لطيفاً مع الرجل: مع النجاح المذهل الذي فيه. الربة العاهرة للنجاح ـ كما تسميها هي ـ طافت مزمجرة ودائرة لتحمي عقبي ميكائيل نصف المتواضعين ونصف الجريئين، ولتدب الرعب في كليفورد: لأنه أراد لنفسه أن تتعهر للربة العاهرة للنجاح أيضاً، بمجرد أن تتبناه.

من الواضح أن ميكائيل لم يكن انكليزياً، على الرغم من كل الخياطين وصانعي القبعات والحلاقين وصانعي الجزمات لأعظم حي في لندن. لا لا، من الواضح أنه لم يكن انكليزياً: النوع المغلوط من الوجه الشاحب المسطّح والمشية، والنوع المغلوط من الحزن. كان فيه تذمر وحزن: بدا ذلك واضحاً للجنتلمان الانكليزي المولد،

الذي يزدري ترك هذا الشيء يظهر في سلوكه الخاص. فقد رُفِسَ ميكائيل المسكين حتى صار له على ما يبدو حتى الآن ذيل بين ساقيه. لقد شق طريقه بغريزته الصرفة ووقاحته الأشد صرفة إلى خشبة المسرح وإلى مقدمتها: إنها مسرحياته. ولقد أمسك بالجمهور. وظن أن أيام الرفس قد انتهت. لكنها يالالأسف لم تنته ـ ولن تنتهي. لأنه، بمعنى ما، يطالب بأن يُرفس. إنه دائماً يتوق أن يكون حيث لاينتمي ـ بين الطبقات الانكليزية العليا. حيث يتمتعون بالرفسات التي يكيلونها له، وكم يكرهها هو.

على أي حال سافر مع خادمه الخاص وسيارته الأنيقة جداً، هذا الهجين الإيرلندي.

فيه شيء ما أحبته كوني، فهو لايعلق نفسه في الهواء: إنه لايملك أوهاماً عن نفسه. حدّث كليفورد عملياً وحسياً وبإيجاز عن كل الأشياء التي يريد كليفورد أن يعرفها. إنه لم يسهب أو يدع نفسه يتطرف. يعرف أنه دُعي إلى راغبي لاستخدامه، ومثل رجل أعمال قديم محنك وغير هام، أو كرجل أعمال كبير سمح بأن يُسأل أسئلة وأجاب بشعور غير مبال قدر الإمكان.

قال «المال. المال نوع من الغريزة. نوع من ملكية الطبيعة في الإنسان لجمع المال. إنه ليس شيئاً تصنعه. هو ليس خديعة تلعبها. إنه نوع من المصادفة الدائمة لطبيعتك: فحالما تبدأ فإنك تجمع المال وتستمر: إلى الدرجة التي أتخيلها ـ».

قال كليفورد: «ولكنك أخذت تبدأ».

«تماماً. وأخذت أنت تدخل: ولاتستطيع شيئاً إن بقيت خارجاً. أخذت تشق طريقك. وحالما تفعل ذلك فإنك لاتستطيع السيطرة».

سأل كليفورد «ولكن هل تستطيع أن تحقق المال إلا عن طريق المسرحيات؟».

«أوه، بالطبع لا. قد أكون كاتباً جيداً أو قد أكون كاتباً سيئاً،

ss

ولكني كاتب، وأنا كاتب مسرحيات، وقد أزمعت أن أكونه. وليس في ذلك مشكلة».

«أو تعتقد أنك أزمعت أن تكون كاتب مسرحيات؟» سألت كوني.

«بالضبط» قال هذا ملتفتاً إليها بنظرة مفاجئة. «لايوجد أي شيء فيه. لايوجد شيء في الشعبية. ولايوجد شيء في الإعلان، إذا دخل في ذلك. لايوجد شيء فعلي في مسرحياتي يجعلها شعبية. إنها ليست شعبية. إنها تماماً ـ مثل الطقس ـ نوع أريده أن يكون ـ في الوضع الراهن ـ».

والتفت بعينيه البطيئتين، أو بالأحرى المثقلتين اللتين كانتا غرقتا في هذا الواقع الذي لايسير، إلى كوني، فارتعدت قليلاً. بدا مسناً مسناً طاعناً، مصنوعاً من طبقات من الواقع، يندفع فيه جيل بعد جيل مثل الطبقات الجيولوجية، وفي الوقت نفسه كان مثل طفل مهجور. منبوذ بمعنى ما، ولكن بشجاعة يائسة لوجوده الفأري.

قال كليفورد متأملاً «على أي حال إن ماقمت به في حياتك مدهش».

«أنا في الثلاثين ـ نعم في الثلاثين» قال ميكائيل بحدة وعلى نحو مفاجئ، مع ضحكة فضولية فارغة فوقية ومريرة.

سألت كوني «وهل أنت وحدك؟».

«ماذا تقصدين؟ أأعيش وحيداً؟ إن عندي خادمي. فإن لم يكن عند المرء زوجة فلا بد أن يكون عنده خادم. إنه يوناني، هكذا يقول هو، وهو غير مؤهل. لكني أحتفظ به. ـ وأنا أهم بأن أتزوج. أوه، نعم يجب أن أتزوج».

ضحكت كوني «توحي كأنك مثل الذاهب ليقص شعره. أليس هذا مجهوداً؟».

نظر إليها بإعجاب.

«لابأس أيتها الليدي شاترلي ـ إنه جهد إلى حد ما، هكذا أجد ـ اعذريني ـ أنني لاأستطيع أن أتزوج إنكليزية، ولاحتى إيرلندية».

قال كليفورد «حاول أن تتزوج أميركية».

ضحك ضحكة جوفاء «أوه. أميركية. لا. طلبت من خادمي أن يبحث لي عن تركية أو ماشابهها ـ زوجة قريبة من الزوجات الشرقيات».

دهشت كوني فعلاً لهذا النموذج الغريب الكئيب للنجاح الفائق: قيل إن دخله يبلغ خمسة آلاف دولار في السنة من أميركا وحدها. أحياناً كان وسيماً: أحياناً عندما ينظر جانباً وأعلى، والأضواء تسقط عليه، يمتلك جمالاً صامتاً راسخاً لقناع زنجي عاجي مفتول، بعينيه الممتلئتين وحاجبيه القويين المقوسين الغريبين، وفمه الجامد المضغوط، ذلك مايكون مؤقتاً لكنه يتكشف عن جمود، مجرد جمود خارج الزمن طالما نزع إليه بوذا، وطالما عبّر عنه الزنوج أحياناً دون أن ينزعوا إليه: شيء مسنّ، مسنّ، ومذعن في السباق. فترات من الإذعان في سباق مصيري، بدلاً من مقاومتنا الفردية. ومن ثم سباحة خارقة مثل فئران في نهر قاتم. ـ شعرت كوني بقفزة مفاجئة غريبة من العاطفة تجاهه، قفزة ممتزجة بالحنو ومشوبة بالاشمئزاز، ووصلت حد الحب. الدخيل. الدخيل. الدخيل. وقد سمياه الصخّاب. فكم بدا كليفورد أكثر صخباً وتأكيداً! كم بدا أكثر غباء!

عرف ميكائيل على الفور أنه ترك انطباعاً في داخلها. التفت بعينيه الممتلئتين البندقيتين البارزتين قليلاً إليها بنظرة منفصلة كلياً عن سياق الحديث. كان يقيّمها ويقدر الانطباع الذي تركه فيها. بالانكليزية لايوجد ماينقذه من أن يكون الدخيل الأبدي، ولاحتى الحب. كذلك تشعر النساء تجاهه هكذا، والانكليزيات أيضاً.

يعرف تماماً أين موقعه من كليفورد. كانا كلبين غريبين يود

SS

الواحد أن يهّر الآخر، ولكن كل واحد يبتسم بدلاً من ذلك، غصباً. لكنه مع المرأة لم يكن متأكداً مثل هذا التأكيد.

قُدّم الفطور في غرف النوم: فكليفورد لايظهر قبل الغداء، وكانت غرفة الطعام موحشة قليلاً. بعد القهوة احتار ميكائيل، الروح القلقة غير المنسجمة، ماذا يفعل. كان يوماً جميلاً من أيام تشرين الثاني ـ جميلاً بالنسبة لراغبي. نظر إلى المتنزه الكئيب. ياالله. يا له من مكان!

أرسل خادماً يسأل إن كان يستطيع أن يسدي خدمة لليدي شاترلي: فكر بقيادة السيارة في شيفلد. جاء الجواب إن كان بإمكانه الصعود إلى غرفة جلوس الليدي شاترلي.

كان لكوني غرفة جلوس في الطابق الثالث وهو أعلى طابق في الجزء الأوسط من البيت. طبعاً كانت غرف كليفورد في الطابق الأرضي. وقد أرضى ميكائيل غروره بدعوته للصعود إلى ردهة الليدي شاترلي الخاصة. تَبِع الخادم من دون تبصر ـ لم يلحظ الأشياء، ولم يكن له تماس مع ما يحيط به. وفي غرفتها طاف بنظرة غامضة على رسوم رينوار وسيزان التي نسخها الألمان.

قال «إن المكان العلوي جميل جداً» بابتسامة غريبة كما لو كان يتأذى بالابتسامة، مبرزاً أسنانه: «إنك حكيمة في صعودك إلى القمة».

قالت «بلى، أشكرك».

كانت غرفتها الغرفة الحديثة المبهجة في البيت، النقطة الوحيدة في راغبي حيث تتكشف شخصيتها بكاملها. لم ير كليفورد هذه الشخصية ـ وقلما دعت الناس للصعود إليها.

الآن جلست وميكائيل كل على الجانب المقابل للنار، وتحدثا. سألته عن نفسه وأمه وأبيه وإخوته ـ وأناس آخرين كانت دائماً

ss

معجبة بهم إلى حد ما، وعندما استيقظت عاطفتها، كانت خالية من أي شعور طبقي. وتحدث ميكائيل بصراحة عن نفسه من دون تأثر كاشفاً ببساطة عن نفسيته التي تشبه نفسية كلب ضال، مريرة لامبالية، مظهراً لمحة من كبريائه الانتقامية في نجاحه.

«ولكن لماذا أنت هكذا كطائر وحيد؟» سألت كوني فنظر إليها أيضاً بنظرته البندقية المليئة الباحثة.

أجاب «بعض الطيور موجودة في ذلك الطريق». ثم بلمسة ساخرة معتادة: «ولكن انظري هنا، ماذا عنك أنتِ؟ ألستِ أنت نفسك طائراً إلى حد ما؟».

اضطربت كوني قليلاً وفكرت في ذلك لحظة، ثم قالت:

«إلى حد ما فقط، على أي حال ليس مثلك تماماً».

«هل أنا طائر وحيد تماماً؟» سأل بابتسامة مكشرة غريبة، حتى بدا كأنه يُصاب بوجع أسنان، فكانت ابتسامة ملتوية، وبقيت عيناه كئيبتين أو رواقيتين أو واقعيتين أو خائفتين، لاتتغيران.

«لماذا؟» قالت وأطبق صدرها وهي تنظر إليه. «أنت طائر وحيد، أليس كذلك؟».

شعرت بمناشدة مرعبة تأتي إليها منه، جعلتها تفقد توازنها تقريباً.

«أوه. أنت محق» قالت وقد أشاحت بوجهها بعيداً ناظرة إلى الجوانب والأسفل بتلك النظرة الغريبة المفاجئة الجامدة لسباق قديم قلما نعثر عليه في يومنا هذا. وهذا فعلاً ما جعل كوني تفقد قدرتها على رؤيته منفصلاً عن نفسها.

نظر أعلى إليها نظرة طافحة ترى كل شيء، وتسجل كل شيء، وفي الوقت نفسه ندت صرخة طفل في الليل من صدره إليها، نفذت نوعاً ما إلى رحمها الجسدي.

قال بإيجاز «إنه لمن المرعب أن تفكري فيّ»

«لماذا لاأفكر فيك؟» سألت بنفثة صعبة وهي تطلقها.

أطلق هسهسة ضحكة سريعة وعنيدة.

«بهذا الصدد ـ هل لي أن أرفع يدك لدقيقة؟» سأل فجأة مثبتاً عينيه عليها بكل قوته المنوّمة، مرسلاً مناشدة أثّرت مباشرة في رحمها.

حدقت فيه منذهلة مشلولة، فهبّ وركع إلى جانبها، وأمسك بكلتا قدميها بين يديه ودفن رأسه في حجرها، وبقي بلا حراك. كانت غائمة ومنبهرة، ناظرة إلى الأسفل بنوع من الحيرة إلى مؤخرة عنقه الغضة، شاعرة بوجهه يضغط فخذيها. بكل رعبها الملتهب، لم تستطع أن تضع يدها بلطف وتمررها على مؤخرة عنقه المستسلمة، فأخذته قشعريرة مفاجئة.

عندئذٍ نظر إليها بتلك المناشدة المرعبة، المرعبة في عينيه المتوهجتين الممتلئتين. عجزت عجزاً مطلقاً عن مقاومتها. وانطلقت من صدرها تنهيدة جوابية مكثفة فوقه: يجب أن تمنحه أي شيء، أي شيء.

كان عاشقاً فضولياً وعاشقاً لطيفاً جداً، لطيفاً جداً مع المرأة التي ترتجف فاقدة السيطرة، وفي الوقت نفسه، البعيدة والواعية، الواعية لكل صوت في الخارج.

بالنسبة إليها لايعني هذا شيئاً سوى أنها منحت نفسها له. وأخيراً كفّ عن الارتجاف، واضطجع ساكناً هادئاً، هادئاً تماماً. ثم بأنامل غامضة مأخوذة ضربت أناملها فوق رأسه المُرمى على صدرها.

عندما نهض قبّل كلتا يديها. ثم كلتا قدميها في خفيهما السويديين، وبصمت اندفع إلى نهاية الغرفة، حيث وقف وظهره إليها. خيم صمت لبضع دقائق.

ثم استدار وعاد إليها ثانية، وهي جالسة كما كانت في مكانها القديم قرب النار.

«أعتقد أنك الآن سوف تكرهينني» قالها بطريقة صامتة غير محسومة.

فجأة نظرت إليه.

قالت «ولماذا أكرهك؟»

«غالباً مايفعلن ذلك» قال ذلك وأمسك نفسه منتصباً «أعتقد ـ المرأة يفترض أن تفعل ذلك»».

قالت بامتعاض «هذه هي اللحظة الأخيرة حيث أضطر أن أكرهك»».

صرخ يائساً «أعرف، أعرف، لابد أن تكون اللحظة الأخيرة، كنت طيّبة طيّبة مرعبة لي»».

دهشت لماذا يجب أن يكون بائساً.

قالت «ألا تجلس؟»

نظر إلى الباب

قال: «سير كليفورد ألا... ألا يكون ـ؟»».

توقفت لحظة لتفكر.

قالت «ربما» ثم نظرت إليه. «لاأريد أن يعرف كليفورد ـ ولاحتى أن يشك. إن هذا يؤذيه. ولكني لاأظن هذا غلطاً ـ أتظنه؟»».

«غلط ياالله، لقد كنتِ في غاية الطيبة معي ـ طيّبة لا أكاد أحتملها»».

التفت جانباً، فلاحظت على الفور أنه ينشج.

راحت تدافع «بيد أننا لانحتاج أن ندع كليفورد يعرف، أترى أننا نحتاج؟ إن ذلك يؤذيه، فإن لم يعرف ولم يشك فذلك لايؤذي أحداً»».

SS

قال بشدة تقريباً «أنا. لن يعرف شيئاً مني وسترين إن كان يعرف. أنا سوف أبتعد، ها، ها» وضحك من هذه الفكرة ضحكة جوفاء ساخرة.

راقبته مندهشة. قال لها:

«هل لي أن أقبّل يدك وأذهب؟ سوف أقود السيارة في شيفلد كما أظن. سأتناول طعام الغداء هناك إن أمكنني، وسوف أعود في وقت شرب الشاي. أتريدين أي شيء؟ هل أتأكد أنك لاتكرهينني؟ ... وأنك لن ـ ؟» وأنهى كلامه بملاحظة عابرة من السخرية اليائسة.

قالت «لا لاأكرهك. أظن أنك لطيف».

قال لها بعنف «كم يطيب لي أن تقولي ذلك، فهو أفضل من أن تقولي بأنك تحبينني. إنه يعني أكثر من هذا ـ وحتى نلتقي بعد الظهر سأهجس بك حتى ذلك الحين ـ ».

قبل يديها بتواضع وتوارى.

عند الغداء قال كليفورد «لاأعتقد أنني أجاري ذلك الفتى».

سألت كوني «لماذا؟»

«إنه مبتذل تماماً تحت مظاهره ـ فهو ينتظر أن يُطبق علينا».

قالت كوني «أظن أن الناس لم يكونوا لطفاء معه».

«أتدهشين، أوتعتقدين أنه ينفق أجمل ساعاته ليقوم بأعمال اللطافة؟».

«أعتقد أنه يملك نوعاً معيناً من الشهامة».

«تجاه من؟».

«لاأعرف بالضبط».

توقفت كوني. أحقاً؟ من الممكن تماماً. ومع ذلك كان لعدم الشك بميكائيل سحر معيّن عليها. فقد ذهب بعيداً، بينما يزحف كليفورد

ss

بضع خطوات متقاربة. في طريقه حارب العالم: وهذا ماكان كليفورد يريد أن يفعله. الطرق والوسائل ـ؟ أكانت طرق ووسائل ميكائيل أشد جرماً وإثماً من طرق ووسائل كليفورد؟ أكان الطريق الذي سلكه الدخيل المسكين واندفع فيه إلى الأمام، بشخصه وعن طريق الأبواب الخلفية، أسوأ من طريق كليفورد الذي سعى للدعاية لنفسه حتى يغدو شهيراً بارزاً؟ إن الربة العاهرة للنجاح تتبعها آلاف الكلاب اللاهثة بألسنة متدلية. والذي يلحق بها أولاً هو الكلب الحقيقي بين مجموعة الكلاب. ولأن ميكائيل أراد النجاح فقد احتفظ بذيله مرفوعاً.

والشيء الغريب أنه لم يفعل، عاد قرابة وقت شرب الشاي بباقة كبيرة من البنفسج والزنبق وبتعبير الكلب المهجور ذاته. دهشت كوني إلى حد ما إن كان هذا نوعاً من القناع لمعارضة غير عنيفة. لأن ذلك ثابت أيضاً. أكان فعلاً مثل كلب حزين؟

قاوم نوعه ككلب حزين في تمايز الذات طيلة المساء، إلى أن شعر كليفورد من خلاله بالاحتقار الداخلي. لم تشعر كوني بذلك: ربما لأن نوعه لم يكن موجهاً ضد النساء مباشرة، فقط كان موجهاً ضد الرجال ووقاحتهم وافتراضاتهم. تلك الوقاحة الداخلية المتماسكة في الرفيق الضعيف هي ماجعلت الرجال يزدرون ميكائيل. فحضوره الفعلي كان واجهة لرجل مجتمع يُغطيه حتى يبدو في السلوك الجيد المفترض.

وقعت كوني في حبه. لكنها رتبت الأمور بحيث تجلس إلى تطريزها وتدع الرجال يتحدثون، ولاتبعد نفسها. أما بالنسبة إلى ميكائيل فقد كان دقيقاً: إنه بالضبط الرفيق الشاب الوحيد اللطيف الحزين الذي كان في المساء السابق، مبتعداً ملايين الدرجات عن مضيفيه لكنه داعبهم بسخرية حسب الكمية المطلوبة، ولم ينل منهم ولو للحظة. شعرت كوني أنه نسي هذا الصباح. لم ينسَ. لكنّه يعرف أين كان ـ في المكان الخارجي القديم إياه، حيث يولد الدخلاء. إنه

ss

لم ينظر إلى ممارسة الحب شخصياً. فهو يعرف أنها لن تغيّره من كلب بلا ملكية يحسده كل امرئ على طوقه الذهبي، إلى كلب مجتمع لائق.

والحقيقة الأخيرة أنه في قاع نفسه العميق كان دخيلاً، وغير اجتماعي، ويقبل الحقيقة في داخله ولاأهمية لأن يكون خارج شارع بوند، كانت عزلته ضرورية له؛ تماماً مثلما كان مظهر الانسجام والاختلاط مع الشعب الراقي ضرورياً له أيضاً.

لكن الحب العارض، كملطف ومريح، شيء جيد أيضاً. ولم يكن هو جاحداً له. على العكس، كان ممتناً ومتشوقاً لقليل من اللطافة الطبيعية العفوية المؤثرة: إلى درجة الدموع. وتحت وجهه الشاحب الجامد والواقعي كانت تنشج روح طفل امتناناً للمرأة، وبلاعج الشوق يريد أن يأتيها ثانية: تماماً كما كانت تعرف روحه المحطمة أنه يحتفظ بالوضوح الفعلي معها.

سنحت له فرصة لكي يقول لها، وهم يشعلون القناديل في القاعة:

«هل لي أن آتي؟»

قالت «سآتي إليك»

«أوه، شيء جيد».

انتظرها زمناً طويلاً ـ لكنها جاءت. كان يرتجف ارتجاف العاشق الذي تحل عليه أزمته سريعاً ولاشيء يدافع فيه عن جسده العاري: كما يتعرى الأطفال. كل دفاعاته كانت في ذكائه وحذره، في غرائز الحذر الفعلية فيه، وعندما تكون هذه الدفاعات معطلة، فإنه يبدو عارياً مثل طفل، كجسد لطيف غير مكتمل، وإلى حد ما، يكافح بيأس.

أثار في المرأة نوعاً وحشياً من الحنو والتوق، ورغبة جسدية

وحشية جامحة. هذه الرغبة الجسدية لايُشبعها فيها: كان دائماً يأتي، ينهي العملية، وبسرعة: ثم يتقلص على صدرها مستعيداً إلى حد ما حقارته، بينما تستلقي هي منبهرة متلاشية، ضائعة.

لكنها تعلمت سريعاً أن تمسكه، أن تبقيه في داخلها عندما تزول الأزمة. وهنا لايكون شهماً قوياً: يبقى في داخلها ثابتاً، ممنوحاً لها، بينما كانت هي نشيطة، نشيطة نشاطاً وحشياً، يدخل في أزمتها الخاصة. وإذ يشعر هو بهياج تحقيقها لإشباعها الجنسي من سلبيته القاسية المنتصبة، فإنه يحس بالكبرياء وبالإشباع.

«آه، كم هو جميل» همست مرتجفة: صارت هامدة تماماً ملتصقة به. واستلقى هناك بعزلته الخاصة، ولكنه فخور إلى حد ما.

قضى ذلك الوقت فقط لثلاثة أيام، وكان بالنسبة لكليفورد كما كان في المساء الأول، ولكوني أيضاً. لايوجد تحطيم لإنسانه الخارجي.

كتب إلى كوني، بالملاحظة الكئيبة ذاتها، وأحياناً بفطنته، فلامس التأثر الغريب اللاجنسي. بدا أنه يشعر بنوع من التأثر اليائس لها: وبقي الابتعاد الأساسي هو ذاته. في صميمه كان يائساً، وأراد أن يكون يائساً. بالأحرى إنه يكره الأمل. قرأ في مكان ما. «أمل كبير مر فوق الأرض» وكان تعليقه «وهو يرتق كل شيء غارق له قيمة».

لم تفهمه كوني أبداً. لكنها أحبته بطريقتها. وشعرت طيلة الوقت بانعكاس يأسه فيها. لاتستطيع تماماً أن تحب وهي يائسة. ولكونه يائساً فإنه لايستطيع أن يحب على الإطلاق.

وهكذا تابعا لفترة من الزمن الكتابة واللقاءات العَرَضية في لندن. ماتزال ترغب في الإثارة الجسدية الجنسية التي تحصل عليها منه، بحيويتها الخاصة، ولكن هزة الجماع الضئيلة كانت قد فارقته.

وظل هو يتمنى أن يقدمها لها. وكان ذلك كافياً أن يبقيهما متواصلين.

يكفي أن يمنحها نوعاً لطيفاً من الضمانة الذاتية، شيئاً ما أعمى من غطرسة قليلة. كانت لديها ثقة ميكانيكية بشجاعتها الخاصة مترافقة مع بهجة عظيمة.

في راغبي كانت مبتهجة ابتهاجاً مرعباً. وقد استخدمت كل نشاطها وإشباعها الغريزي لتثير كليفورد، بحيث أنه كتب أعظم كتبه في هذا الوقت، وكان سعيداً بطريقته العمياء الغريبة. قلما أنضج ثمار الإشباع الحسي الذي أخذته من سلبية ميكائيل الذكورية المنتصب في داخلها. طبعاً هو لم يعرف به، ولو عرف لقال شكراً.

عندما عبرت تلك الأيام من بهجتها المغتبطة الكبرى وإثارتها، عندما عبرت تماماً، وعندما كانت تكتئب أو تُثار، كم كان كليفورد متشوقاً لهما ثانية. ربما لو عرف لأعلن رغبته بأن تجتمع وميكائيل مرة ثانية.

الفصل الرابع

دائماً كان عند كوني نذير شؤم بفشل علاقتها بـ «ميك» كما سماه الناس. ومع ذلك لم يكن الرجال الآخرون يعنون لها شيئاً. كانت ملحقة بكليفورد. أراد مقداراً كبيراً من حياتها، فقدمته له، لكنها أرادت مقداراً كبيراً من حياة رجل. وهذا ما لم يقدمه كليفورد لها: لن يقدر. كانت هناك تشنجات عابرة لميكائيل. ولكنها سوف تزول كما تعرف من نذير الشؤم. إن ميك لايستطيع أن يحتفظ بأي شيء، عالياً. وهذا جزء من كينونته الحقيقية، ذلك أن عليه أن يحطم أي رابطة ويتحلل وينفرد ليعود كلباً وحيداً كلياً. كان هذا ضرورته الكبرى: وإن كان يقول دائماً: قلبتِني رأساً على عقب!

من المفروض أن يكون العالم مليئاً بالاحتمالات، لكنها تتضاءل إلى احتمالات قليلة، في أعظم تجربة شخصية. هناك كمية كبيرة من السمك في البحر ـ ربما. لكن الكتل الضخمة هي من سمك الإسقمري أو الرينغ، فإن لم تكن أنت إسقمرياً أو رينغياً فإنك لن تجد إلا القليل من السمك في البحر.

كان كليفورد يحقق خطوات عريضة في ميدان الشهرة: وحتى في المال. الناس يأتون لمشاهدته. كوني دائماً أمام أناس في راغبي. فإن لم يكونوا من الإسقمري فإنهم من الرينغ، وأحياناً هناك السمكة ـ القطة أو الوعل الأنكليس.

ss

ولكن هناك بضعة رجالٍ نظاميين ثابتين: الرجال الذين كانوا مع كليفورد في كامبردج. فهناك *تومي ديوكس* الذي بقي في الجيش وكان برتبة جنرال - بريغادير. قال «إن الجيش يترك لي وقتاً للتفكير، فينقذني من مواجهة معركة الحياة». وهناك *شارلز ماي* الإيرلندي الذي كتب كتابة علمية عن النجوم. وهناك هاموند الكاتب الآخر. كلهم كانوا بعمر كليفورد تقريباً، أفتى مثقفي العصر. كلهم يؤمنون بحياة العقل، ويتمسكون بصفاء تكامل العقل. وماتفعله خارج ذلك كان أمرك الخاص، وهذا لايهم كثيراً. لاأحد يفكر أن يسأل الشخص الآخر متى يدخل المرحاض. هذا لايهم أي إنسان سوى الشخص المعني.

وهكذا الأمر في كل قضايا الحياة العادية - كيف تجمع الأموال، أو إن كنت تحب زوجتك أو إن كانت لديك «مشاكل». كل هذه القضايا تهم فقط الشخصي المعني ولا مصلحة لأحد، مثل الذهاب إلى المرحاض، أن يهتم بأي شخص آخر.

«النقطة كلها عن القضية الجنسية» قال هاموند الذي كان صديقاً طويلاً نحيلاً مع زوجة وطفلين ولكنه كان على صلة وثيقة مع ضاربة آلة كاتبة «إنه لاتوجد نقطة على الإطلاق. وبالتحديد لاتوجد قضية. نحن لانرغب أن نتبع شخصاً إلى المرحاض. لذلك لماذا نرغب أن نتبعه إلى السرير وهو ينام مع امرأة؟ هنا تكمن القضية. وإذا كنا لانلاحظ الشيء الواحد أكثر من الآخر، فليس ثمة قضية. فالمسألة لامعنى لها إطلاقاً ولامرتكز: إنها قضية فضول في غير مكانه».

«اهدأ ياهاموند اهدأ. ولكن إذا بدأ أحدهم بممارسة الحب مع جوليا، فإنك تبدأ بالجيشان، فإن استمر، فإنك سريعاً ما تصل إلى نقطة الغليان» - جوليا هي زوجة هاموند.

«لماذا بالضبط. سأصل إلى نقطة الغليان إذا راح يبول في زاوية من غرفة استقبالي. هناك مكان لكل تلك الأشياء».

ss

«تقصد أنه لايهمك إذا مارس الحب مع جوليا في مختلى مكتوم؟».

كان شارلي ماي يسخر سخرية خفيفة، لأنه كانت له مغازلة محدودة جداً مع جوليا، فقطعها هاموند بخشونة شديدة.

«بالطبع إن الأمر يهمني. فالجنس شيء شخصي بيني وبين جوليا: طبعاً يهمني أي شخص آخر يحاول أن يحشر نفسه».

«الواقع» قال تومي ديوكس النحيل والمنمش الذي يبدو إيرلنديا أكثر من ماي، والذي كان أكثر شحوباً وسمنة: «الواقع ياهاموند أنك ذو غريزة تملكية قوية وإرادة تأكيد ذاتي قوية، وأنت تنشد النجاح. وبما أنني في الجيش تحديداً فقد تنحيت عن طريق العالم، فأرى الآن كم هو قوي التوق إلى تأكيد الذات والنجاح في الرجال. لقد تطورت هذه الغريزة تطوراً مفرطاً. وقد اتجهت كل فرديتنا إلى هذا الطريق. وبالطبع رجال مثلك يفكرون أنك أفضل إذا دعمتك امرأة. وهذا هو السبب في أنك غيور. وهذا هو الجنس بالنسبة إليك ـ دينامو حيوي صغير بينك وبين جوليا، من أجل تحقيق النجاح. فلو بدأت تصير ناجحاً لرحت تغازل ـ مثل شارلي الذي ليس ناجحاً. فالمتزوجون أمثالك وأمثال جوليا عليهم ملصقات مثل ملصقات حقائب السفر. ملصق جوليا هو: السيدة أرنولد ب. هاموند ـ تماماً مثل حقيبة على سكة قطار تخص شخصاً ما. وملصقكما أنتما هو: أرنولد ب. هاموند والسيدة أرنولد ب. هاموند ـ أوه أنت محق تماماً تماماً. إن حياة الفكر تحتاج إلى منزل مريح وطهو محترم. أنت محق تماماً. إنها بحاجة إلى ذرية. ولكنها كلها تتوقف على غريزة النجاح. ذلك هو المحور الذي حوله تدور كل الأشياء».

بدا هاموند مستاء. كان فخوراً بتكامل فكره وبأنه ليس نادلاً مؤقتاً. على الأقل إنه لايريد النجاح.

قال ماي «إنه لصحيح تماماً فأنت لاتستطيع أن تعيش من دون مال. لابد أن يكون بين يديك كمية معينة منه، حتى تستطيع أن تحيا وتستمر ـ وحتى تكون حراً في التفكير لابد من أن يكون بين يديك كمية من المال، وإلا فإن معدتك تقضي عليك ـ ولكن يبدو لي أنك تستطيع أن تستغني عن ملصقات الجنس. فنحن أحرار في التحدث إلى أي شخص: إذن لماذا لانكون أحراراً في ممارسة الحب مع أي امرأة تمشي معنا في ذلك الطريق؟».

قال كليفورد «هناك سِلتي داعر يتحدث».

«داعر. لابأس. لم لا؟ أنا لاأرى أنني أؤذي المرأة بالنوم معها أكثر من الأذى بالرقص معها ـ أو حتى من الحديث معها عن الطقس. فإن كان الأمر هو تبادل إحساس عوضاً عن تبادل فكر ـ إذن لم لا؟».

قال هاموند «فنكون غير شرعيين مثل الأرانب».

«لم لا؟ ما الغلط في الأرانب؟ هل هم أسوأ من البشرية الثورية العصبية الملأى بالحقد العصبي؟».

قال هاموند «لكنا لسنا أرانب على الرغم من ذلك».

«بالضبط فأنا أملك عقلي: لي حساباتي حتى أصنع في بعض القضايا الفلكية مايهمني أكثر من الحياة والموت. أحياناً يتدخل معي عسر الهضم. أحياناً يتدخل الجوع على نحو مدمر، وبالطريقة ذاتها يتدخل الجنس معي. ماذا في ذلك؟».

قال هاموند هازئاً «أعتقد أن عسر الهضم الجنسي الناجم عن الإفراط سيتدخل معك بجدية أكثر».

«لاأنا لاأفرط في الأكل، ولاأفرط في الجماع. وللمرء أن يختار إن كان يأكل كثيراً، ولكنك لن تجعلني أتضور جوعاً أبداً».

«لاأبداً. بإمكانك أن تتزوج».

«كيف عرفت أنني أستطيع الزواج ربما لايلائم عمليات فكري. قد يُفسد ـ وسوف يُفسد ـ الزواج عملياتي الفكرية. أنا لست مؤهلاً لذلك الطريق ـ إذن يكون علي أن أُكبَّل في وجار مثل راهب؟ ـ الكل يفسدون ويتناكحون أيها الغلام. يجب أن أعيش وأحقق حساباتي. أحياناً أحتاج نساء. أرفض أن أصنع جبلاً منهن، وأرفض أي إدانة أخلاقية أو منع أخلاقي من أي شخص. أنا أرفض رؤية امرأة تطوف بملصق يحمل اسمي عليها، أن تحمل عنواناً في محطة قطار، مثل حقيبة ثياب ـ ».

هذان الرجلان لم يسامح أحدهما الآخر على مغازلة جوليا.

قال ديوكس «إنها فكرة مسلّية يا شارلي، بأن الجنس هو تماماً شكل آخر للحديث، حيث تقوم بتمثيل الكلمات بدلاً من أن تقولها: ـ أظن أن ذلك صحيح تماماً. أظن أننا يمكن أن نتبادل الكثير من الأحاسيس والعواطف مع النساء كما نتبادل الأفكار عن الطقس وغيره. قد يكون الجنس نوعاً من المحادثة الجسدية العادية بين الرجل والمرأة. أنت لاتتحدث إلى امرأة مالم تكن لديكما أفكار مشتركة: أي لاتحدث ما لم يكن هناك اهتمام. والشيء نفسه، فما لم تملك عاطفة أو تعاطفاً مشتركاً مع امرأة، فإنك لاتستطيع أن تنام معها. ولكن إذا كنت تملك ـ».

قال ماي «إذا كنت تملك نوعاً خاصاً من العاطفة أو التعاطف مع امرأة فعليك أن تنام معها. الشيء المحتشم الوحيد هو أن تنام معها. تماماً كما عندما تتحدث إلى امرأة باهتمام فإن الشيء المحتشم الوحيد هو أن يخرج منك الحديث. فأنت لاتضع لسانك بين أسنانك وتعض عليه. عليك أن تُخرج كلامك. ـ والشيء ذاته في الناحية الجنسية».

قال هاموند «لا. خطأ. أنت مثلاً يا ماي لاتهدر نصف قوتك مع امرأة. أنت فعلاً لاتفعل مايجب أن تفعل، مع عقل رفيع مثل عقلك. فمعظمك يتجه إلى الناحية الأخرى».

«ربما. ـ والقليل جداً منك يذهب إلى الناحية الأخرى. هاموند ياغلامي ـ قليلك سوف يذهب متزوجاً كنت أو غير متزوج. تستطيع أن تحتفظ بصفاء فكرك وتكامله، ولكنه يذهب إلى الجفاف اللعين. فعقلك الصافي يجف مثل الأشياء التافهة، مما أرى فيه. إنك ببساطة تذبله بالتمليح».

انفجر تومي ديوكس بضحكة.

قال «أنت تتهور بعقلك. انظر إلي ـ أنا لاأعمل أي عمل فكري راقٍ وصرف، لاشيء سوى أن أوجز أفكاراً قليلة. ومع ذلك فأنا لست متزوجاً ولا ألاحق النساء. أعتقد أن شارلي محق تماماً: فإذا أراد ملاحقة النساء، فإنه حر تماماً في ألا يلاحق كثيراً أو قليلاً جداً: ولكني لاأمنعه من الملاحقة. أما بالنسبة لهاموند فإنه يملك غريزة خاصة، فمن الطبيعي أن يكون الطريق القويم والباب الضيق صحيحين بالنسبة له. سترى أنه سيكون رجلاً انكليزياً من رجال الأدب قبل أن يفعل هذا، فهو ألفباء من قمته حتى أخمص قدميه. ثم هأنذا، أنا لاشيء: مجرد فرقعة. وماذا عنك ياكليفورد؟ أتظن أن الجنس دينامو لمساعدة الرجل على النجاح في العالم؟».

قلما تحدث كليفورد كثيراً في تلك الأوقات. إنه لم يُبدِ رأياً قط: لم تكن أفكاره حيوية بالنسبة له بما فيه الكفاية، فكان في الواقع مضطرباً جداً وانفعالياً. والآن احمرّ خجلاً وبدا منزعجاً.

قال «حسناً. بما إني خارج الحدث، فلاأرى أن لدي شيئاً أقوله في هذه القضية».

قال ديوكس «لاأبداً. فقمتك ليست أبداً خارج الحدث، إن لديك حياة من الفكر عميقة وسليمة، فدعنا نسمع فكرتك في هذا الموضوع».

تلعثم كليفورد «لابأس، فحتى إلى هذا الحد ليس لدي كما أظن فكرة كبيرة ـ واعتقد أنني تزوجت ـ و ـ تعاملت ـ مع الزواج وهذا

يدعم ما أفكر فيه. بالطبع إنه لشيء عظيم بين الرجل والمرأة أن يعتني كل واحد بالآخر».

قال لتومي «من أي نوع هذا الشيء العظيم؟».

«آه، إنه يكمل الحميمية» قال كليفورد قلقاً كأنه امرأة تقول هذا الكلام.

«لابأس. أنا وشارلي نؤمن أن الجنس نوع من التواصل مثل الكلام، ولابد أن يكون حراً مثل حرية الكلام. دع أي امرأة تبدأ محادثة جنسية معي وسيكون من الطبيعي أن أذهب معها إلى السرير لأنهي هذه المحادثة: كل شيء في وقته المناسب. ـ ولسوء الحظ لم تقم أي امرأة بمبادرة خاصة معي، لذا أذهب إلى السرير بنفسي، ولست الأسوأ بالنسبة لهذا السرير. ـ آمل ذلك وإلا كيف أعرف؟ على أي حال ليس لدي حسابات نجوم لأتعامل معها، ولا كتب خالدة أكتبها. أنا مجرد صديق توارى في الجيش ـ».

خيم صمت، أربعة رجال راحوا يدخنون. وجلست كوني هناك وقد وضعت درزة على ماكانت تخيطه. ـ بلى جلست هناك. كان عليها أن تجلس بصمت. عليها أن تصمت كفأرة، وألا تتدخل بالتأملات المكثفة الهامة لهؤلاء الجنتلمانات. ولكنها مضطرة أن تكون هناك. ماكانوا ليستمروا لولاها. لم تكن أفكارهم تتدفق بهكذا حريّة. كان كليفورد أكثر عصبية وتكبيلاً، بردت قدماه بسرعة أكثر، في غياب كوني، ولم تستمر المناقشة. كان تومي ديوكس المجلّي. كان يستلهم حضورها قليلاً. لكنها لم تحب هاموند: بدا لها أنانياً بطريقة عقلية. وبدا شارلز ماي، مع أنها تحب فيه شيئاً ما، قليلَ الذوق وفوضوياً، على الرغم من نجومه.

كم من الأماسي جلست كوني وهي تستمع لبيانات هؤلاء الرجال الأربعة: هؤلاء وواحد أو اثنين آخرين. بدوا كأنهم بكل الأحوال لايزعجونها عميقاً. ودت لو تسمع مايقولون، وعلى الأخص عندما يكون تومي هناك. سيكون الأمر مضحكاً. فبدلاً من أن يقبّلكِ

الرجال ويلامسوك جسدياً يقدمون لك عقولهم. كانت أضحوكة كبيرة. ولكن يالها من عقول باردة.

لكن أيضاً كان هناك قليل من السخط. إنها تكنّ احتراماً أكثر لميكائيل، الذين يصبون كلهم على اسمه احتقاراً مدمراً، باعتباره طموحاً هجيناً ودخيلاً غير مثقف من أسوأ نوع. هجين ودخيل أو غير هجين ودخيل فقد قفز إلى مبتغاه. إنه لم يتحدث عنهم قط بملايين الكلمات، في استعراض حياة الفكر.

أحبت كوني تماماً حياة الفكر، ووجدت فيها إثارة. ولكنها تجدها منهكة قليلاً. أحبت وجودها وسط مدخني التبغ في الأماسي الشهيرة لهؤلاء الجميمين، كما سمتهم بينها وبين نفسها. كانت تتسلى وتفتخر أيضاً إلى أبعد الحدود، حتى أنهم لايستطيعون متابعة أحاديثهم دون وجودها الصامت. إنها تكنّ احتراماً عميقاً للفكر - وقد حاول هؤلاء الرجال على الأقل أن يفكروا تفكيراً صادقاً. ولكن كان هناك هرّ وسوف يقفز. كان هناك يعيقهم جميعاً: ولكن ماهو، إن حياتها لاتمكنها من تحديده. كان شيئاً لم يتضح لميك أيضاً.

لكن عندها لم يكن ميك يحاول أن يفعل أي شيء، وإنما فقط يلتقط من حياته ويلقي على الناس مثلما يلقون عليه. كان غير اجتماعي فعلاً. وهذا ماكان ضده كليفورد وحميموه. لم يكن كليفورد وحميموه غير اجتماعيين: كانوا تقريباً يريدون إنقاذ البشرية: أو بناءها على الأقل.

في أمسية الأحد كان الحديث رائعاً، عندما تحولت المحادثة إلى الحب.

قال تومي ديوكس:

«مباركة الربطة التي تربط

قلوبنا بشيء لطيف - أو - آخر».

«أريد أن أعرف ماهي الربطة. ـ الربطة التي تربطنا تماماً الآن، هي الاحتكاك الفكري بين الواحد والآخر: وبعيداً عن ذلك لايوجد بيننا أي ربطة صغيرة لعينة. فنحن نتفرق ونقول أشياء حاقدة الواحد ضد الآخر، مثل كل المثقفين اللعينين الآخرين في العالم، اللعنة على الجميع لأن هذا يجري مع جميع الناس. أو أننا نتفرق ونطمر الأشياء الحاقدة التي يشعر بها الواحد تجاه الآخر بالأقوال الحلوة الزائفة. إنه لشيء عجيب أن الحياة الفكرية تبدو مزدهرة بجذورها في الحقد، الحقد الذي لايوصف ولايُسبر. دائماً كان الأمر هكذا. انظر إلى سقراط في أفلاطون، وشلته التي تدور حوله. فالحقد المحض يشمل الجميع مثل الفرح المحض في تمزيق آخر إلى قطع ـ بروتاغوراس أو كائناً من كان. ألقبيادس وكل الكلاب التلاميذ الآخرين. فكلهم ينخرطون في الشجار. يجب أن أقول إن هذا يجعل المرء يفضل بوذا الذي يجلس بهدوء تحت شجرة صنوبر أو يسوع يسرد لتلاميذه بعض أقاصيص الأحد بسلام ومن دون أي عنف عقلي. لا. ثمة شيء خاطئ في الحياة العقلية خطأً أساسياً. إنه متجذر في الحقد والحسد، الحسد والحقد. وسوف تعرف الشجرة من ثمارها».

اعترض كليفورد «لاأظن أننا في الحقد إلى هذه الدرجة».

«ياعزيزي كليفورد. فكر بالطريقة التي يتحدث فيها واحدنا إلى الآخر ـ كلنا. أنا نفسي أسوأ من أي شخص آخر فيكم. لأني أفضّل كل التفضيل الحقد العفوي على الكلمات الحلوة الملفقة: الآن هي سم: عندما أبدأ القول كم هو رفيق لطيف هذا الكليفورد... الخ.. الخ فإن كليفورد المسكين يكون مثار شفقة. بالله عليكم، عليكم جميعاً، قولوا أشياء حاقدة عليّ، عندها أعرف أنني أعني شيئاً ما عندكم. لاتقولوا كلمات حلوة. وإلا فعلت أنا».

اعترض هاموند «أوه! لكنني أعتقد أنّ واحدنا يشبه الآخر في الصدق».

«أفيدك ـ بأن هذا ضروري. فنحن نقول هذه الأشياء الحاقدة واحدنا للآخر عن الآخر، خلف ظهورنا. وأنا أسوأكم».

«أعتقد أنك خلطت الحياة الفكرية بالنشاط النقدي. أوافق معك أن سقراط بدأ النشاط النقدي بداية كبيرة. ولكنه فعل أكثر من ذلك» قال شارلي ماي بأبهة: إن الحميمين يملكون مثل هذه المباهاة الغريبة تحت تواضعهم المزعوم. كان كلّ من مركز سلطته، وكلّ يدّعي أنه متواضع.

رفض ديوكس أن يُستدرج إلى سقراط. .

قال هاموند «هذا صحيح، فالنقد والمعرفة ليسا الشيء ذاته».

«طبعاً ليسا الشيء ذاته» بهذه الجملة قاطع الحديث بيري وهو الشاب الخجول الأسمر الذي دُعي ليرى ديوكس، وقد مكث الليلة.

كلهم نظروا إليه كأنه حمارة بلعام تتكلم.

ضحك ديوكس «لم أكن أتحدث عن المعرفة ـ كنت أتحدث عن الحياة الفكرية. المعرفة الفعلية تنبثق من المجموع الكامل للوعي، تنبثق من بطنك ومن قضيبك كما تنبثق من دماغك أو فكرك. فالفكر يمكنه فقط أن يحلل ويعلل. ـ دع الفكر والعقل يتزعمان البقية، وكل مايستطيعان فعله هو الانتقاد وصنع الموات. أقول كلهم يستطيعون أن يفعلوا. إنه هام جداً. ياالله، إن العالم يحتاج للانتقاد اليوم ـ انتقاد حتى الموت. لذلك فلتعش الحياة الفكرية ولتتمجد في حقدنا ولتُعرِّ الظل القديم العفن. ـ وعقلك مثل هذا. بينما أنت تعيش حياتك فإنك بطريقة ما ملتحم عضوياً بكاملك مع كل الحياة. ولكن حالما تبدأ الحياة الفكرية، فإنك تقطف التفاحة. إنك تعاني من الربط بين التفاحة والشجرة: الربط العضوي. فإن لم تحصل في حياتك على شيء سوى الحياة الفكرية، فإنك أنت نفسك تفاحة مقطوفة، سقطت من الشجرة. عندئذٍ يكون من الضرورة المنطقية أن تكون حقوداً،

بالضبط كما يكون من الضرورة الطبيعية للتفاحة المقطوفة أن تؤول إلى الأسوأ».

اتسعت عينا كليفورد، فكل هذه القذائف كانت له، وقد ضحكت كوني في سرها.

قال هاموند بطريقة حادة مشاكسة «لابأس، إذن نحن تفاح مقطوف».

قال شارلي «إذن فلنصنع عصير التفاح من أنفسنا».

«ولكن مارأيك بالبلشفية؟» قال هذه الجملة بيري الأسمر كما لو أن كل شيء يقود إليها.

صاح شارلي ماي «برافو مارأيك بالبلشفية؟»

قال ديوكس «هيا لنقم بالتشويش على البلشفية ـ».

قال هاموند هازاً رأسه بجدية «أنا وَجِل فالبلشفية مسألة كبيرة».

قال شارلي «تبدو لي البلشفية مجرد حقد بالغ على الشيء الذي يسمونه برجوازية: أما ماهي البرجوازية فلا يوجد تحديد دقيق لذلك. فيقال، من جملة مايقال إنها الرأسمالية. المشاعر والعواطف هي أيضاً برجوازية وعليك أن تبتكر إنساناً خالياً منها. إذن فالفرد وبالأخص الإنسان الشخصي هو برجوازي: لذا يجب اضطهاده. يجب أن تدمجوا أنفسكم في الشيء الأعظم، الشيء الاشتراكي السوڤياتي. فحتى العضوية هي برجوازية: إذ المثال الأعلى يجب أن يكون ميكانيكياً، والشيء الوحيد الذي هو وحدة غير عضوية مؤلفة من كثير من الأجزاء المختلفة والمتساوية جوهرياً هي الآلة. فكل إنسان جزء من الآلة، والقوة الدافعة للآلة هي الكراهية: كراهية البرجوازية. تلك هي البلشفية بالنسبة لي».

قال تومي «قطعاً. لكنها أيضاً تبدو لي وصفاً كاملاً لمجموع

SS

المثل الأعلى الصناعي. إنها باختصار المثل الأعلى لصاحب المشغل: سوى أنه يرفض أن تكون الكراهية هي القوة الدافعة. والكراهية واحدة في كل شيء: كراهية الحياة نفسها. انظر فقط إلى هذه الميدلاندز، إن لم تكن هي بتفصيل أسهل. ـ ولكنها كلها جزء من حياة الفكر ـ إنها تطور منطقي».

قال هاموند «أرفض أن تكون البلشفية منطقية، إنها ترفض الجزء الأكبر من المقدمات المنطقية».

«ياعزيزي، إنها تسمح بالمقدمة المادية. وهكذا يفعل الفكر الصرف ـ حصراً».

قال شارلي «على الأقل غاصت البلشفية حتى حركت الأعماق».

«حركت الأعماق، الأعماق التي ليست لها أعماق. سيكون عند البلاشفة في فترة قصيرة أعظم جيش في العالم بأعظم التجهيزات الميكانيكية».

قال هاموند «ولكن هذا الشيء لايمكن أن يستمر ـ هذا العمل الكريه. يجب أن تكون هناك ردة فعل».

«لابأس ـ انتظرنا عشر سنوات ـ ونستطيع أن ننتظر أكثر. الحقد ينمو مثل أي شيء آخر. إنه الحصيلة المحتومة للأفكار العنيفة للحياة، لأعمق الغرائز العنيفة للمرء. فغرائزنا الأعمق، مشاعرنا الأعمق نكيفها بعنف لأفكار معينة. نسوق أنفسنا مع الصيغة، مثل الآلة. ويزعم الفكر المنطقي أنه يتحكم في ملاذنا، فينقلب ملاذنا إلى حقد صرف. كلنا بلاشفة، وإنما منافقون. الروس بلاشفة بلا نفاق».

قال هاموند «ولكن هناك طرقاً أخرى كثيرة غير الطريق السوڤياتي. البلاشفة ليسوا مثقفين حقاً».

«طبعاً لا، ولكن من الثقافة أحياناً أن تكون نصف ذكي: إن أردت أن تصل إلى هدفك. شخصياً أعتبر البلشفية نصف ذكية. ولكن

أيضاً أعتبر حياتنا الاجتماعية في الغرب: نصف ذكية. كما أني أعتبر أيضاً حياتنا الفكرية ذات الشهرة العريضة: نصف ذكية. إننا جميعاً باردون مثل القميئين: نحن جميعاً بلا عاطفة كالبلهاء. ـ إننا جميعاً بلاشفة ـ إنما نعطيها اسماً آخر فقط. نظن أننا آلهة ـ الناس مثل الآلهة. وهو الشيء نفسه الذي تظنه البلشفية. فعلى المرء أن يكون بشرياً، ويملك قلباً وقضيباً، إذا أراد الخلاص من أن يكون إلهاً أو بلشفياً ـ لأنهما الشيء ذاته: إنهما أجود من أن يكونا حقيقيين».

ومن قلب الصمت المستنكر جاء السؤال القلق لبيري:

«إذن أنت تؤمن بالحب ياتومي، ألا تؤمن؟».

قال تومي «أيها الفتى الجميل لا. ياملاكي تسعة من عشرة لا. الحب هو غير هذه الاجراءات نصف الذكية اليوم. الزملاء بخصورهم المتمايلة ينكحون فتيات الجاز اللواتي لهن ردفا صبي مثل زريّ الياقة؟ أتعني ذلك النوع من الحب؟ أو ضم الملكية الخاصة، وصنع النجاح، زوجي، زوجتي تراه نوعاً من الحب؟ لا يازميلي الكريم. أنا لاأؤمن به إطلاقاً».

«ولكنك تؤمن بشيء ما».

«ثقافياً أؤمن بامتلاك قلب طيب وقضيب مسقسق، وثقافة حية، وجرأة قول خراء أمام سيدة».

قال بيري «لابأس، لقد جمعتهم كلهم».

فانفجر تومي ديوكس ضاحكاً.

«أيها الصبي الملاك، أتمنى لو امتلكتهم، امتلكتهم، لو أنني امتلكتهم فقط. لا، فقلبي مخدر مثل البطاطا، وهنيّ يتدلى بين الساقين ولا يرفع رأسه فعندها أقطعه من شروشه! على أن أقول خراء أمام أمي أو خالتي ـ إنهما سيدتان حقيقيتان فاعلم ذلك، وأنا لست مثقفاً حقاً، أنا مجرد حيٍّ فكري. من المدهش أن تكون مثقفاً:

ss

فالمرء لابد أن يحيا بكل الأجزاء المشار إليها وغير المشار إليها. فالهن يرفع رأسه ويقول: كيف حالك، لأي شخص مثقف حقيقي. قال رينوار إنه رسم صوره به - وقدم صوراً جميلة. أتمنى لو أفعل شيئاً بهني. وعندما يتحدث المرء صراحة فإن الله عذاب آخر أضيف إلى جهنم، وقد بدأ سقراط بذلك».

وأخيراً رفعت كوني رأسها وتحدثت فقالت «يوجد نساء جميلات في العالم».

امتعض الرجال من ذلك: اعتقدت أنها لن تسمع شيئاً. لقد كرهوا هذا الإعجاب الذي أدخلَتْه عميقاً في حديثها.

«يا إلهي إن لم يكنَّ جميلات لي

فما يهمني إذا كن جميلات! -».

لا، إنه قنوط. أستطيع ببساطة أن أنسجم مع امرأة. لاتوجد امرأة أريدها حقاً عندما أواجهها. وأنا لست بصدد إقسار نفسي على ذلك - ياإلهي سأبقى كما أنا، وأعيش الحياة الفكرية. إنه الشيء الرفيع الوحيد الذي أستطيع القيام به. يمكنني أن أكون سعيداً وأنا أتحدث إلى امرأة: أنا أحب النساء: لكن هذا مجرد، مجرد يأس. مجرد يأس - فماذا تقول أيها البابا هيلدبراند، يافرخي؟»!

قال بيري «وكيف لايكون المرء معقداً إذا ظل نقياً!».

«الحياة كلها بسيطة».

الفصل الخامس

في صباح جليدي شحّت فيه شمس شباط خرج كليفورد وكوني في مشوار إلى الغابة عبر المتنزه. كليفورد متكوم في كرسيه المتحرك وكوني تسير بجانبه.

مازال الهواء القاسي كبريتياً، لكنهما اعتادا عليه. حول الأفق القريب انتشر الضباب، يبرق بالصقيع والدخان، وعلى القمة تستند سماء قليلة الزرقة: فبدت كأنها داخل الطوق، ودائماً في الداخل. والحياة إما حلم أو جنون، داخل طوق.

الأغنام تسعل في العشب الذابل الجاف للمتنزه، حيث ينتشر الصقيع بازرقاق في تجاويف العشب. وعبر المتنزه يسير طريق إلى بوابة الغابة، شريط جميل من القرنفل. وقد بحّصه كليفورد حديثاً بحصى من رصيف الهوة. وعندما تحترق الصخور ونفايات العالم السفلي وتنفث كبريتها، ينقلب القرنفل براقاً بلون الشريمب في أيام الصحو، ويصبح لون السرطان القاتم في الأيام الماطرة. الآن كان بلون الشريمب الصافي، مع مشيب الصقيع الأبيض المزرق. دائماً كانت كوني تبتهج بهذا القرنفل البراق المنخول تحت قدميها. ـ إنها الريح المريضة التي لاتأتي بأي خير.

قاد كليفورد كرسيه في منحدر الرابية من القاعة، وأبقت كوني

ss

يدها على الكرسي. في الأمام تمتد الغابة، وأجمة البندق هي الأقرب، وخلفها السنديان بلونه الأرجواني الكثيف. من طرف الغابة كانت الأرانب تهتز وتقضم. وهبّت غدفان فجأة في صف أسود، وولّت متقاطرة في السماء الصغيرة.

فتحت كوني بوابة الغابة، وقاد كليفورد كرسيه ببطء عبرها، في الدرب العريض الذي يتغلغل بين أجمات البندق المنسقة. هذه الغابة هي مابقي من الغابة الكبيرة حيث كان يصطاد روبن هود، وهذا الدرب قديم، فهو الطريق القديم الذي يعبر البلاد. طبعاً إنه الآن مجرد درب يمر في الغابة الخاصة. وينحرف الطريق من مانسفيلد ملتفاً شمالاً.

في الغابة كان كل شيء خامداً، الأوراق القديمة على الأرض ماتزال تحتفظ بالجليد في جانبها السفلي. وصاح زاغ بصوت أجش، وخفق الكثير من العصافير الصغيرة. ولكن لم يكن هناك طرائد ـ لم تكن هناك طيور الدرّج. لقد أجهزوا عليها أثناء فترة الحرب، وظلت الغابة مهملة، إلى أن حظي كليفورد بحارس طرائده مرة أخرى.

أحب كليفورد الغابة. أحب أشجار السنديان القديمة. شعر أنها أجياله المنحدرة منه. أراد أن يحميها. أراد لهذا المكان ألا يُخرق، أن ينغلق عن العالم.

اندفع الكرسي ببطء صاعداً المنحدر، يطقطق ويرجرج على الأتربة المتجمدة. وظهرت على اليسار فجأة أرض مقطوعة الأشجار، حيث لم يكن يوجد سوى بقايا سرخس ميت، وأشجار رفيعة طويلة متكئة بضعف هنا وهناك، وجذوع أشجار منشورة تُظهر قممها وجذورها المتبقية أنه لاحياة فيها: وبقع من السواد حيث أحرق الحطابون العلّيق وهبيش النفايات.

SS

هذا أحد الأماكن التي قطعها السير جيوفري أثناء الحرب لتكون خشباً للخنادق. كل الرابية التي ارتفعت قليلاً على يمين الطريق، عارية ومهجورة، قمة الرابية حيث كان ينتصب السنديان باتت جدباء: ومن هناك يمكنك أن تنظر إلى كل الأشجار، إلى سكة منجم الفحم والأعمال الجديدة لستاكس غيت. وقفت كوني ونظرت: كان هناك فجوة في العزل الكامل للغابة. إنها متروكة في العالم. ولكنها لم تخبر كليفورد عنها.

هذا المكان المقطوع دائماً يجعل كليفورد غاضباً بحدّة. كان في غمار الحرب، ورأى ماذا يعني. ولكنه لم يغضب حقاً إلا عندما رأى هذه الهضبة الجرداء. كان عليه أن يعيد تشجيرها. لكن ذلك يجعله يكره السير جيوفري.

جلس كليفورد بوجه ثابت، كلما صعد الكرسي ببطء. عندما وصلا إلى قمة المرتفع توقف: إنه لايريد أن يخاطر في المنحدر الطويل والخطير جداً. جلس ناظراً للجرف الأخضر للطريق النازل، إنه درب واضح بين السرخس والسنديان. فهو ينحرف في أسفل الهضبة ويختفي. لكن له منعطفاً خفيفاً جميلاً من فرسان يخيّلون، وليديات على الخيول الصغيرة.

قال كليفورد لكوني حالما جلست تحت أشعة شمس شباط القاتمة «أعتبرُ هذا المكان قلب انكلترا حقاً».

«صحيح» قالت وهي ترتب مجلسها بثوبها الأزرق المحبوك على جذع شجرة بجانب الدرب.

«فعلاً. هذه هي انكلترا القديمة، هذا قلبها: ونويت أن أحتفظ به سليماً».

قالت كوني «أوه، نعم» ولكن حالما قالت ذلك سمعت دقة الساعة الحادية عشرة من منجم ستاكس غيت. كان كليفورد أكثر اعتياداً على الصوت فلم يلاحظه.

قال كليفورد «أريد هذه الغابة كاملة ـ غير ممسوسة. لاأريد أن يقتحمها أحد».

كان هذا شفقة خاصة. ماتزال الغابة تملك شيئاً من سر انكلترا القديمة الوحشية. لكن الأشجار التي قطعها السير جيوفري أثناء الحرب أصابتها بضربة قوية. كيف ماتزال الأشجار متجهة بأغصانها الكثيرة المجعدة إلى السماء، وجذوعها الرمادية الشمطاء العنيدة ترتفع من السرخس البني. وترفرف الطيور بينها بأمان. وفي ذات مرة كان فيها غزلان ورماة سهام: وقردة تنط على الحمير. المكان مَغْين ذكريات ومايزال مَغْين ذكريات.

جلس كليفورد في الشمس الشاحبة، وقد انسكب ضوء على شعره الناعم، بل الشعر الأشقر، وعلى وجهه المتورد الغامض.

قال «كلما جئت إلى هنا وأنا عازب تعودني الذكرى أكثر من أي مرة أخرى».

«ولكن الغابة أقدم من أسرتك» قالت كوني بلطف. وبالفعل. فآل شاترلي كانوا في راغبي فقط منذ مئتي عام.

قال كليفورد «تماماً. ولكنا صنّاها. أما بالنسبة لنا فسوف تذهب. لابد أن تذهب مثل بقية الغابات. يجب أن يحافظ المرء على شيء من انكلترا القديمة».

قالت كوني «أيجب على المرء؟ إن كان يجب أن يحافظ، ألا يحافظ ضد انكلترا الجديدة؟ إنه مؤسف. أعرف ذلك».

قال كليفورد «إن لم تجر المحافظة على بعض انكلترا القديمة فلن تكون هناك انكلترا أبداً. ونحن الذين لدينا هذا النوع من الملكية ولدينا الشعور به، يجب أن نحافظ عليه».

وكانت فترة صمت حزينة.

قالت كوني «بلى، لفترة قصيرة».

«لفترة قصيرة. هذا كل مانستطيع أن نفعله. إننا نقوم بكل جهدنا، أشعر أن كل امرئ في عائلتي قام بجهده، هنا، منذ أن ملكنا المكان. يمكن للمرء أن يقف ضد العادة، ولكن يجب عليه أن يحافظ على التقليد».

وكانت فترة صمت حزينة مرة أخرى.

قالت كوني «أي تقليد؟»

«تقليد انكلترا، تقليد هذا».

قالت كوني ببطء «بلى».

قال «وهذا هو السبب في أن وجود ابن سوف يساعد على حفظ التقليد. واحد يكون حلقة في سلسلة».

لم تنتبه كوني للسلسلة، بيد أنها لم تقل شيئاً. كانت تفكر في رغبته الجامحة، غير الشخصية، بابن.

قالت «إني آسفة لأنه لن يكون لدينا ابن».

نظر إليها ببطء، بعينيه الزرقاوين الشاحبتين.

قال «سأكون في غاية السعادة إن كان لك طفل من رجل آخر. إذا نحن ربيناه في راغبي فسوف يُنسب إلينا وإلى المكان. أنا لاأؤمن كثيراً بالأبوة. إن كان لدينا ولد نربيه، فسوف يكون ابننا. وسوف يتابع. ألا تعتبرين هذا اقتراحاً جديراً؟».

أخيراً نظرت كوني إليه. الطفل، طفلها، كان بالنسبة إليه «شيئاً». شيئاً ـ شيئاً ـ شيئاً.

سألت «ولكن ماذا عن الرجل الآخر؟».

«أهي مسألة مهمة جداً؟ أتؤثر فينا تلك الأشياء عميقاً جداً؟ ـ لديكِ ذلك العشيق في ألمانيا ـ ماذا هو الآن؟ لاشيء تقريباً. يبدو لي أن الشيء المهم ليس في تلك الأفعال والاتصالات القليلة التي نصنعها في حياتنا. إنها تعبر سريعاً وأين هي؟ أين ثلوج البارحة؟ ـ

ss

إن مايتحمله المرء خلال حياته هو المهم: فحياتي الخاصة تهمني، في استمراريتها الطويلة وتطورها. ولكن ماذا تهم الاتصالات العرضية؟ والاتصالات العرضية الجنسية بنوع خاص. فلو أن الناس لايبالغون بها مبالغة مضحكة لمرت مثل سفاد الطيور. وهكذا يجب أن تكون . ماذا تهم. مايرافق الإنسان طيلة حياته هو المهم. إن العيش معاً من يوم إلى يوم، وليس النوم معاً مرة أو مرتين. لقد تزوجنا أنا وأنت. لايهم مايحدث لنا. لقد اعتاد أحدنا على الآخر. والعادة في اعتقادي أشد حيوية من أي إثارة عارضة. إن الشيء المُعانى البطيء الطويل ـ وهو مانحتاجه ـ ليس تشنجاً عارضاً من أي نوع. وقليلاً قليلاً بالعيش معاً يجتمع الاثنان في نوع من الانسجام، فيتواشج الاثنان معاً. ذلك هو سر الزواج الحقيقي وليس الجنس: على الأقل ليس الوظيفة البسيطة للجنس. لقد ارتبطنا، أنا وأنت بالزواج. فإن نحن التصقنا به، فعلينا أن نكون قادرين على تنظيم هذا الشيء الجنسي كما ننظم مسألة الذهاب إلى طبيب الأسنان: خاصة وأن القدر منحنا «كش مات» جسدياً».

جلست كوني وأصغت بنوع من الدهشة ونوع من الخوف. إنها لاتدري إن كان مصيباً أم لا. هناك ميكائيل الذي أحبته: هكذا قالت لنفسها. لكن حبها له كان إلى حد ما نزهة من زواجها بكليفورد: العادة البطيئة الطويلة من الحميمية التي تشكلت خلال خمس سنوات من المعاناة والصبر. ربما تحتاج النفس البشرية إلى نزهات، ويجب ألا ترفضها. ولكن مشكلة النزهة أنك تعودين إلى البيت مرة ثانية.

سألت «ألا تبالي ماذا يكون ابن الرجل؟».

«لماذا ياكوني، إني أثق جداً بغريزتك الطبيعية في الاحتشام والانتقاء. إنك لن تدعي النوع السيء من الأصدقاء يلمسك».

فكرت بميكائيل. إنه تماماً فكرة كليفورد عن النوع السيء من الأصدقاء.

ss

قالت «لكن قد تختلف مشاعر الرجال والنساء عن النوع السيء من الأصدقاء».

أجاب «لا. أنت تهتمين بي. لاأصدق أنك تهتمين برجل كان مجرد كراهية عابرة لي. إن إيقاعك لايسمح لك».

كانت صامتة. منطق لايُرد عليه، لأنه مغلوط بالمطلق.

سألت ورمقته بنظرة ماكرة تقريباً «وهل تتوقع مني أن أخبرك؟».

«أبداً. الأفضل ألا أعرف ـ ولكنك توافقين معي، ألا توافقين، أن الشيء الجنسي العرضي ليس شيئاً، إذا قورن بالحياة الطويلة التي عشناها معاً؟ ألا تظنين أن المرء يستطيع تماماً أن يُخضع الشيء الجنسي لضرورات الحياة الطويلة. استخدميه مادام ذلك مانحن هادفون إليه؟ بعد كل شيء، هل هذه الإثارات العابرة مهمة؟ أليست مشكلة الحياة كلها هي البناء البطيء لشخصية متكاملة من خلال السنين؟ نعيش حياة متكاملة؟ لامعنى في الحياة غير المتكاملة. إذا كانت الحاجة إلى الجنس تقوم بتفتيت شخصيتك، إذن تراجعي ومارسي الحب. إن كانت الحاجة إلى طفل تقوم بتفتيت شخصيتك، إذن فليكن لك طفل إن أمكن. ولكنك تصنعين هذه الأشياء بغرض إمكانية تحقيق حياة متكاملة، تحقيق شيء منسجم طويل. وأنا وأنت يمكننا القيام بهذا معاً ـ ألا تعتقدين ذلك؟ إذا وطدنا أنفسنا على الضرورات، وإذا قمنا بهذا التوطيد معاً في قطعة واحدة مع حياتنا الثابتة التي نعيشها. ألا توافقين؟».

كانت كوني مأخوذة قليلاً بكلماته. تعرف أنه على حق، نظرياً. لكن عندما لامست فعلاً حياتها الثابتة التي عاشتها معه ـ ترددت ـ أكان قدرها فعلاً أن تستمر في نسج نفسها في حياته طيلة ماتبقى من حياتها؟ أما من مَخرَج آخر؟

هل الأمر هكذا تماماً؟ كانت راضية أن تنسج حياة ثابتة معه

في نسيج واحد، ولكن ربما طُرزت بزهرة عارضة من مغامرة. ـ ولكن أنى لها أن تعرف، تشعر في السنة التالية؟ وأنى لامرئ أن يعرف؟ وكيف يقول المرء بلى لسنوات وسنوات؟ بلى الصغيرة هذه تتسع. لماذا يجب أن يرتبط المرء بتلك الكلمة الفراشة؟ طبعاً سوف تولي بعيداً وتذهب، لتتبعها «بلى» يات أخرى و«كلا» ت أخرى. مثل تشرد الفراشات.

«أعتقد أنك مصيب ياكليفورد. وبقدر ما أرى فإني أتفق معك. الحياة فقط قد تتخذ وجهاً جديداً في كل شيء».

«ولكن إلى أن تتخذ الحياة وجهاً جديداً، هل توافقين؟»

«أوه بلى. أعتقد أني أوافق فعلاً».

كانت تراقب كلبة صغيرة تركض جانب الدرب، وكانت تنظر نحوهما بخشم مرفوع مطلقة نباحاً ناعماً خفيفاً. وعَبَر رجل ببندقية سريعاً خلف الكلبة، في مواجهة طريقهما، كما لو كان يهاجمهما، ثم توقف قليلاً وحيا، والتفت هابطاً التلة. إنه حارس الطرائد الوحيد، لكنه أرعب كوني، فبدا لها ظاهراً مع هذا الخطر السريع، هكذا رأته، مثل هجمة فجائية لتهديد لاتعرف من أين جاء.

كان رجلاً بثياب مخملية قاتمة وبطماق فوق كل حذاء ـ وهو زي قديم ـ بوجه محمر وشاربين حمراوين وعينين واسعتين. راح يهبط الهضبة مسرعاً.

قال كليفورد «ميلورز».

استدار الرجل قليلاً وواجههما وحيا بإشارة سريعة: تحية جندي.

قال كليفورد «هل لك أن تدير الكرسي وتهيئه للعمل. إن ذلك يجعله أسهل».

أنزل الرجل بندقيته سريعاً من على كتفه، وتقدم بالسرعة ذاتها، ولكن بحركات ناعمة، كما لو كان يعمل بالخفاء. كان أميل

ss

إلى الطول والانحناء، وهو صموت. لم ينظر إلى كوني. نظر إلى الكرسي فحسب.

«ياكوني هذا هو ميلورز حارس الطرائد الجديد، إنك لم تتحدث مع سيادتها بعد ياميلورز؟».

«كلا يا سيدي» جاءت الكلمات جاهزة حيادية.

رفع الرجل قبعته عن رأسه حالما وقف مظهراً شعره الكثيف الأشقر تقريباً. كان أنيقاً من دون قبعة. حملق تماماً في عيني كوني بنظرة غير شخصية ولا وجلة أبداً، كما لو أراد أن يعرف ماذا تريد. جعلها تشعر بالخجل. أحنت له رأسها بحياء، فنقل قبعته إلى يده اليسرى، وجعلها تنحي قليلاً، مثل جنتلمان، لكنه لم ينطق بكلمة واحدة. وبقي ثابتاً للحظة وقبعته بيده.

قالت له كوني «ولكنك كنت هنا منذ مدة. أليس كذلك؟».

«ثمانية أشهر يا مدام ـ أيتها السيدة» وصحح وضعه بهدوء.

«وهل تحب المكان؟».

نظرت في عينيه، ضاقتا قليلاً بسخرية، ربما بغباء.

«بلى، أشكرك، أشكر سيادتك، أنا رُبّيت هنا».

قدم انحناءة خفيفة أخرى، والتفت وهو يضع قبعته وسار لإمساك الكرسي. وقد هبط صوته في الكلمات الأخيرة إلى مستوى اللهجة العامية الثقيلة ـ ربما كان مكراً، لكن لم يكن أي أثر للهجة ذلك المكر في كلامه من قبل. وربما يكون جنتلماناً. على أي حال كان رجلاً سريعاً منفصلاً وحيداً ولكنه كان واثقاً من نفسه.

أدار كليفورد المحرك الصغير، فأدار الرجل الكرسي بحرص وجعل مقدمتها باتجاه المنحدر الذي يلتف التفافاً خفيفاً إلى أجمة البندق القاتمة.

قال الرجل «أهذا كل ما تريد يا سير كليفورد؟».

«لا. فالأفضل أن تأتي معي لأنها تشعر بالخوف. ثم إن المحرك ليس فيه قوة حتى يصعد الهضبة».

حدق الرجل باحثاً عن كلبته ـ بلمحة نفاذة سريعة. نظرت الكلبة الصغيرة إليه وحركت ذيلها حركة خفيفة. وطافت في عينيه ابتسامة صغيرة، هازئة بها أو مغيظة لها، ولكنها ابتسامة رقيقة، وظلت لحظة في عينيه ثم تلاشت وعاد وجهه خالياً من أي تعبير. هبطوا المنحدر بسرعة نوعاً ما، ويد الرجل على قضيب الكرسي تمسك بها بثبات. كان يبدو مثل جندي حر أكثر مما يبدو كخادم.

كان فيه شيء ما ذكّر كوني بتومي ديوكس.

عندما وصلوا إلى أجمة البندق ركضت كوني فجأة وفتحت البوابة المفضية إلى المتنزه. وإذ وقفت تمسك البوابة نظر الرجلان إليها وهما يمران، كليفورد بانتقاد، والرجل الآخر بإعجاب بارد فضولي: أراد على نحو غير شخصي أن يرى كيف كانت تبدو. وقد رأت في عينيه الزرقاوين الحياديتين المعاناة والعزلة، ومع ذلك فيهما دفء معين. ولكن لماذا كان هو منفرداً بعيداً؟

أوقف كليفورد الكرسي فجأة خلال البوابة، وأسرع الرجل بكل أريحية ليغلقها.

قال كليفورد بصوته الهادئ الخفيض الذي يظهر أنه غير مسرور «لماذا ركضتِ لفتح البوابة؟ ميلورز يفعل هذا».

قالت كوني «اعتقدت أنك تستطيع أن تمر بسهولة».

قال كليفورد «وأتركك تركضين وراءنا».

«لابأس أنا أريد أن أركض في بعض الأحيان».

أخذ ميلورز الكرسي ثانية فبدا غير مهتم إطلاقاً. ومع ذلك شعرت كوني أنه لاحظ كل شيء. ودفع الكرسي إلى المرتفع المعشب

للرابية في المتنزه، فتنفس بسرعة من خلال شفتيه المنفرجتين. كان متعباً حقاً، شعرت عاطفتها الأنثوية بذلك.

تراجعت كوني إلى الخلف سامحة للكرسي أن تتابع. مال لون النهار إلى الرمادي: والسماء الزرقاء التي توازنت في الأسفل على حوافي البندق الدائرية اقتربت مرة ثانية وجلد السماء هبط إلى الأسفل، كان ثمة برودة شديدة. إنها على وشك أن تثلج. رمادي، كل شيء رمادي. بدا العالم كأنه يتمزق.

توقفت الكرسي في قمة درب القرنفل. تطلع كليفورد بحثاً عن كوني.

سأل «ألست متعبة؟».

قالت «أوه لا».

لكنها كانت متعبة. بدأ فيها شيء غريب، شوق مضن، قلق. لم يلاحظ ذلك كليفورد، فليست هذه من الأشياء التي ينتبه إليها. لكن الغريب أدركها. بالنسبة لكوني بدا كل شيء في عالمها وحياتها بالياً وقلقها أكبر سناً من الهضاب.

جاؤوا إلى المنزل، واستداروا إلى الخلف، حيث لاتوجد درجات. راح كليفورد يدبّر نقل جسده إلى كرسي المنزل ذي العجلات: كان قوياً جداً وخفيف الحركة بذراعيه. عندها رفعت كوني ثقل ساقيه الميتتين خلفه.

راقب الحارس، المنتظر إشارة الانصراف، كل شيء بدقة، ولم يفته شيء. صار شاحباً، مع نوع من الخوف، عندما شاهد كوني ترفع ساقي الرجل المشلولتين بذراعيها، إلى الكرسي الثانية، فاستدار كليفورد واستدارت كوني معه. كان مأخوذاً بالخوف.

«شكراً لك على مساعدتك ياميلورز» قال كليفورد ذلك على جاري العادة عندما بدأ يسوق كرسيه هابطاً الممر من خلال أجنحة الخطر.

«أما من شيء آخر سيدي؟» جاء الصوت الحيادي كأنما في حلم.

«لاشيء. عم صباحاً».

«عم صباحاً يا سيدي».

«عم صباحاً. كان لطفاً منك أن تدفع الكرسي إلى أعلى الهضبة ـ آمل أنه لم يكن ثقيلاً عليك» قالت كوني وهي تتطلع خلفاً إلى الحارس خارج الباب.

جاءتها عيناه بلحظة، كأنما يستيقظ لتوه. كان واعياً لها.

«لا، لا، ليس ثقيلاً» قالها بسرعة. ثم تحول صوته إلى صوت عريض من اللهجة المحلية: «عمي صباحاً أيتها الليدي».

عند الغداء سألت كوني «من يكون حارس طرائدك؟».

قال كليفورد «ميلورز، لقد شاهدته».

«بلى، ولكن من أين جاء؟».

«لم يأت من أي مكان، إنه غلام تيفرشال ـ أعتقد أنه ابن عامل منجم».

«وهل كان هو بنفسه عامل منجم؟».

«أظنه كان حداداً في إسطبل رصيف النفايات: حداد اسطبلات. لكنه كان حارساً هنا قبل الحرب، قبل أن يلتحق. كان رأي والدي دائماً جيداً فيه، لذلك عندما عاد وذهب إلى رصيف النفايات أعدته إلى هنا كحارس. إني مغتبط جداً بالحصول عليه ـ فمن المحال تقريباً أن أجد في الجوار هنا رجلاً جيداً يعمل كحارس ـ فالحراسة تحتاج إلى رجل يعرف الناس».

«أليس متزوجاً؟».

«كان، لكن زوجته هربت مع ـ رجال مختلفين ـ لكنها أخيراً

ss

ركنت إلى عامل منجم في ستاكس غيت، وأظنها ماتزال تعيش معه».

«معنى ذلك أن الرجل وحيد؟».

«تقريباً وله أم في القرية ـ وأعتقد أنه له طفلة».

نظر كليفورد إلى كوني بعينيه الشاحبتين البارزتين قليلاً، بغموض معين يطل منهما. واجِهَتُه بدت نشطة لكن خلفيته كانت مثل جو الميدلاندز ضبابية دخانية قاتمة. وتبدو القتامة زاحفة مسرعة. لذلك عندما حدق بكوني على طريقته الخاصة، مانحاً لها معلومات خاصة دقيقة، شعرت بكل خلفية عقله الممتلئ بالضباب، مع الفراغ. وقد أرعبتها نظرته. جعلتها أقرب إلى البلاهة.

وعلى نحو غامض تأكدت من أحد أعظم قوانين النفس البشرية: وهو أن النفس العاطفية عندما تتلقى صدمة عميقة، صدمة لاتقتل الجسد، فإن النفس تبدو معافاة كلما كان الجسد معافى. لكن هذا عبارة عن مظهر فقط. إنه في الحقيقة فقط آلية للعادة. رويداً رويداً يبدأ جرح النفس يبرز في الشعور، مثل رضّة تعمق قليلاً ألمها المرعب، إلى أن تشعر به كل النفس. وعندما نشعر أننا معافون وناسون، فإن عقابيلها المرعبة تظهر بأسوأ مايكون.

وهكذا كان الأمر مع كليفورد. فعندما كان «حسناً» عاد إلى راغبي، وكتب قصصه وشعر بأمان الحياة على الرغم من كل ذلك، بدا أنه نسي، وأنه استعاد كل اتزانه. لكنْ الآن، بمرور السنوات شعرت كوني رويداً رويداً أن رضة الخوف والألم تعود إليه وتنتشر فيه. كانت لفترة عميقة كما لو أنها خدر، كما لو أنها غير موجودة. الآن بدأت تؤكد نفسها أكثر، في نشر الخوف، والشلل تقريباً. عقلياً مايزال نشطاً. لكن الشلل، الرضة ذات الصدمة الكبيرة، كان ينتشر في كل نفسه العاطفية.

وحالما انتشرت فيه، شعرت كوني أنها انتشرت فيها. رعب داخلي، فراغ، لامبالاة بأي شيء، أخذ ينتشر بالتدريج في نفسها.

ss

عندما نهض كليفورد كان مايزال قادراً أن يتحدث بحيوية، ويمسك بتلابيب المستقبل: عندما تحدث في الغابة عن حملها بطفل ليكون وريثاً لراغبي. ولكن بعد ذلك بيوم بدت كل الكلمات المشرقة مثل الأوراق الميتة، تعلو زاحفة وتنقلب إلى بودرة، بلا أي معنى، تعصف بها هبة ريح. لم تكن كلمات ورقية لحياة فعالة، فتية وقوية ومرتبطة بالشجرة. كانت كومة من الأوراق الساقطة للحياة الخاوية.

هكذا بدا لها في كل مكان. فعمال المناجم في تيفرشال كانوا يتحدثون مرة أخرى عن أحزاب. وبدا لكوني مرة أخرى هناك، أنه لم يكن مظهراً للطاقة، كان رضة الحرب، كان في عطالة مؤقتة، وبالتدريج طغى على السطح وخلق الألم العظيم للاضطراب، خدر السخط. كانت الرضة عميقة عميقة عميقة ـ رضة الحرب المزيفة واللاإنسانية. إنها تستغرق كثيراً من السنوات حتى يحل الدم الحي للأجيال الجلطة السوداء الضخمة لدم الرضة، عميقاً داخل أرواحهم وأبدانهم. وتحتاج إلى أمل جديد.

يالكوني المسكينة. كان الخوف من اللاشيء في حياتها يؤثر فيها. فالحياة الفكرية لكليفورد، وحياتها ـ بدأت تشعر بها كأنها لاشيء. زواجهما حياتهما المتكاملة القائمة على عادة الحميمية، هو ما تحدث عنه: هناك أيام صار فيها كل شيء فراغاً وهباء، وفوق ذلك نفاق الكلمات.

هناك نجاح كليفورد: الربة العاهرة. فعلاً كان مشهوراً وعاد عليه كتابه الأخير بألف جنيه. وظهرت صورته في كل مكان. كان له تمثال نصفي في إحدى الغاليرهات، ولوحة في اثنتين من الغاليرهات. كان صوته الأحدث من أحدث الأصوات، بغريزته المعقدة الغبية للدعاية أصبح في غضون أربع أو خمس سنوات واحداً من أشهر «المثقفين» الشبان. من أين جاءته الثقافة، كوني لم تعرف تماماً. كان كليفورد ذكياً فعلاً في ذلك التحليل الخفيف المضحك للناس والدوافع التي تترك كل شيء نتفاً في النهاية، كان

أشبه بجراء يمزقون غطاء الصوفا إلى نتف: سوى أنه لم يكن فتياً ولاممراحاً، بل كان مسناً ومغروراً غروراً فاحشاً. كان سداً: وكان لاشيئاً. هذا هو الشعور الذي تردد صداه مراراً في أعماق نفس كوني: كل شيء كان لاشيئاً، عرض عجيب للاشيء. وفي الوقت نفسه عرض. عرض، عرض، عرض!

اتخذ ميكائيل شخصية كليفورد كشخصية مركزية لإحدى مسرحياته: في البدء أدخله في الحبكة، وكتب الفصل الأول. كان ميكائيل أفضل من كليفورد في عرض اللاشيئية. كانت آخر قطعة من العاطفة تترك في هذين الرجلين: عاطفة صناعة العرض. جنسياً كانا بلا عاطفة، بل كانا من الموتى. الآن ليس المال هو ما يسعى إليه ميكائيل. فكليفورد لم يكن عفيف النفس تجاه المال: وإن كان يجعله حيث يجب، لأن المال هو ختم النجاح وبصمته. والنجاح هو ماكانا يريدانه. أراد كل منهما تقديم عرض حقيقي - عرضهما - عرض خاص لرجل، لنفسه، بحيث أسر جماهير ضخمة في ذلك الوقت.

إنه لغريب - دعارة الربة العاهرة - بالنسبة لكوني، مادامت خارجها حقاً، ومادامت تزداد خدراً تجاه إثارتها، فإنها لاشيء عندها. وحتى الدعارة بالنسبة للربة العاهرة كانت لاشيء، مع أن الرجال يزنون هم نفسهم مرات لاتحصى. وحتى ذاك هو لاشيء.

كتب ميكائيل إلى كليفورد عن المسرحية. بالطبع عرفت كوني ذلك بعد مدة طويلة. وأثير كليفورد مرة أخرى، كان بصدد أن يعرض ثانية: هذه المرة أوشك أن يعرضه، وأن يستفيد من ذلك. دعا ميكائيل أن ينزل إلى راغبي، مع الفصل الأول.

جاء ميكائيل: في الصيف بمعطف باهت الألوان، وبقفازين سويديين، وبباقة ورد بنفسجية موف جميلة جداً لكوني، والفصل الأول. كانت قراءة الفصل الأول نجاحاً عظيماً. حتى كوني أثيرت - أثيرت لقطعة صميمية شعرت بها. وميكائيل، المثار لقدرته على

الإثارة، كان مدهشاً حقاً ـ وجميلاً حقاً بعيني كوني. لقد رأت فيه ذلك الجمود القديم لعرق لايستطيع أن يتخلص من الوهم، ربما حداً من التشويش النقي. من الجانب الأبعد لدعارته المتفوقة للربة العاهرة، بدا نقياً، نقياً مثل قناع العاج الأفريقي الذي يحلم بالتشويش في النقاء، في منحنياته واستقاماته العاجية.

كانت لحظة إثارته الصافية مع الشاترلين، عندما ارتحل بكوني وكليفورد بعيداً، إحدى اللحظات الفائقة في حياة ميكائيل. لقد نجح: حملهما بعيداً، فحتى كليفورد أحبه حباً عابراً ـ إن صح القول.

لكن في الصباح التالي كان ميك قلقاً أكثر من أي وقت مضى: قلقاً مستوحشاً ولاتفتأ يداه تدخلان وتخرجان من جيب بنطاله. لم تزره كوني في الليل ـ ولم يعرف هو أين يجدها. الدلال ـ في لحظة انتصاره.

صعد إلى غرفة جلوسها في الصباح. عرفت أنه سوف يأتي. وكان قلقه بادياً. سألها عن مسرحيته ـ هل تعتقد أنها جيدة؟ لابد أن يسمع مديحاً لمسرحيته: فذلك يؤثر فيه بآخر الإثارات العاطفية الرقيقة، بعيداً عن العضوية الجنسية. فمَدَحتها بغبطة، ولكنها في أعماق نفسها تعرف أنها لم تكن شيئاً ـ تلك الربة العاهرة.

أخيراً قال فجأة «انظري هنا، لماذا لانقوم أنا وأنت بتحقيق الشيء الجميل الذي فيها؟ لماذا لانتزوج؟».

«ولكني متزوجة» قالت مندهشة ومع ذلك لم تشعر بشيء.

«إذن ـ يطلقك هو ـ لماذا أنت وأنا لانتزوج؟ أريد أن أتزوج. أعلم أنه أعظم شيء بالنسبة لي ـ نتزوج ونعيش حياة نظامية. إني أدير حظ الحياة، فتتمزق نفسي إلى قطع. انظري إلي، أنت وأنا، خلقنا لبعضنا ـ يد وقفاز. لماذا لانتزوج؟ هل لديك أي سبب لعدم الزواج؟».

نظرت كوني إليه مندهشة: ومع ذلك لم تشعر بشيء. هؤلاء

ss

الرجال، وكلهم متشابهون، يدعون كل شيء في الخارج. إنهم يتصرفون كما تملي عليهم رؤوسهم، مثل المفرقعات، ويتوقعون منك أن تنفذ كل مايريدون.

قالت «ولكني متزوجة من قبل، ولا أستطيع أن أترك كليفورد، أنت تعرف». فصرخ «سوف يضطر أن يعرف أنك ذهبت بعد ستة أشهر. إنه لا يعرف أحداً يوجد على الأرض سوى نفسه. ولا فائدة في هذا الرجل لك إطلاقاً كما أرى لأنه منطوٍ على نفسه».

شعرت كوني أن هذا هو الحق. ولكنها شعرت أيضاً أن ميك أوشك أن يصنع عرضاً لأنانيته.

سألت «أليس الرجال منطوين على أنفسهم؟».

«أوافق إلى حد ما. على الرجل أن يوجد، وأن يثبت وجوده. لكن ليست هذه هي المسألة. المسألة هي ما نوع الوقت الذي يمنحه الرجل للمرأة؟ هل يستطيع أن يمنحها وقتاً طيباً جداً، أو لايستطيع؟ إن لم يستطع فإنه ليس جديراً بالمرأة». توقف وحملق فيها بعينيه البندقيتين الممتلئتين بتنويم مغناطيسي، ثم أضاف «أعتبر نفسي الآن أني قادر أن أمنح امرأة أعظم وقت تطلبه. وأعتقد أنني أنا نفسي ضامن لذلك».

«ولكن أي نوع من الوقت الطيب؟» سألت كوني محملقة فيه بنوع من الدهشة التي بدت شبيهة بالإثارة، ولكن تحت شعورها لم يكن ثمة شيء.

«أي نوع، أي نوع طيب، أي نوع. الثياب الجواهر كما تشتهين، وأي ناد ليلي تحبين، وتعرّفي على أي شخص تريدين أن تتعرفي عليه، عيشي كما ترغبين، واذهبي أينما تشائين ـ خذي وقتك، كل أنواع الوقت الطيب».

تحدث عن ذلك بنشوة النصر، فنظرت إليه كوني كأنما أصيبت بدوار، وبالفعل لم تشعر بأي شيء على الإطلاق. وحتى سطح عقلها

قلما أخذ بهذه الآمال الكبار التي قدمها لها. وقلما استجابت حتى نفسها الخارجية التي كانت تثار في الأوقات الأخرى. إنها لم تشعر بأي شيء من هذا، ولكنها لاتستطيع أن «تلعب بالنار». جلست وحدقت، ونظرت منذهلة، ولم تشعر بشيء. فقط اشتمت من مكان ما الرائحة الكريهة جداً للربة العاهرة.

جلس ميك قلقاً محتاراً مائلاً إلى الأمام في كرسيه، محملقاً فيها وعلى نحو هيستيري: أكان أكثر قلقاً، بعيداً عن العبث بالنسبة لها حتى تقول نعم. أو كان أكثر رعباً خوفاً من أن تقول نعم، من يعرف؟

قالت «لابد أن أفكر في الأمر. أنا لاأستطيع أن أجيب الآن. ربما يبدو أنك لم تحسب حساب كليفورد - ولكنه يحسب حسابك. متى تفكر إلى أي حد هو ضعيف؟».

«اللعنة عليه إن كان صديقه يتاجر بضعفه - قد أبدأ بالقول إني وحيد، ودائماً كنت وحيداً، وكل مابقي هو عبث في عبث. واللعنة إن كان لاعمل للصديق إلا النصح عند الضعف -».

تنحى جانباً وراح يلاعب يديه في جيبي سرواله.

في ذلك المساء قال لها:

«ستأتين إلى غرفتي هذه الليلة. ألن تفعلي؟ أنا لم أعرف حتى الآن أين تقع غرفتك».

قالت «لابأس».

كان في تلك الليلة عاشقاً مثاراً، بإثارة غريبة لصبي صغير وبعريه الطفولي الهش، رأت كوني أن من المستحيل أن تدخل في أزمتها قبل أن يُنهي هو أزمته. نهض وفي نفسه توق شغوف بها، مع نعومته وعريه الطفولي الصغير، فكان عليها أن تتابع بعد أن ينتهي، في الصخب الوحشي ويرفع ردفيها، بينما يحتفظ بنفسه

واقفاً ببطولة ويدخل فيها بكل عزيمته وطاقته الذاتية، إلى أن تدخل في أزمتها الوحشية، بصرخات سحرية قليلة.

وعندما يبتعد أخيراً عنها يقول بصوت ساخر مرير قليلاً:

«أنت لاتستطيعين ممارسة الجنس بالطريقة ذاتها التي يمارسها الرجل، أليس كذلك؟ عليك أن تُخرجي نفسك من هذا، وعليك أن تعجلي العرض».

كان هذا الكلام الصغير، في تلك اللحظة، صدمة من صدمات حياتها. لأن ذلك النوع الإيجابي من منح نفسه لم يكن واضحاً إلا في طريقة مجامعته الفعلية.

قالت «ماذا تعني؟»

«تعرفين ما أعني. امكثي هنا ساعات بعد أن أغادر ـ وسوف أنتظرك إلى أن تدبري نفسك، بجهودك الخاصة».

صعقت بهذا المقطع غير المتوقع من الظلم، في تلك اللحظة عندما كانت متوهجة بنوع من المسرة خارج الكلمات، وبنوع من الحب له. لأنه بعد كل شيء، مثل كثير من الرجال المحدثين، كان قد انتهى قبل أن تبدأ هي. وهذا ما أجبر المرأة أن تكون نشيطة.

قالت «ولكنك تريدني أن أذهب، ألكي أحصل على إشباعي؟».

ضحك بطريقة سطحية جوفاء:

قال «أنا أريد. لابأس. ذلك شيء جيد. وسأظل ماكثاً في مكاني لاأريم إلى أن تذهبي إلي».

فألحت «لكن ألا ترغب أنت في ذلك؟».

تجنب السؤال.

قال «كل النساء الجميلات هن شبيهات بذلك. فإما أنهن لايمارسن الجنس إطلاقاً، كما لو أنهن موتى ـ وإما أنهن ينتظرن عمل شاب حقيقي، ثم يبدأن بممارسة الجنس، والشاب يبقى في

SS

الانتظار. أنا لم أجد امرأة تمارس الجنس في اللحظة التي أمارسها أنا».

لم تصغ كوني كل الاصغاء لهذه القصة من رواية المعلومات الذكورية. صُعقت فقط بشعوره المعادي لها ـ بظلمه العشوائي. فشعرت أنها بريئة.

كررت «ولكنك تريدني أن يكون لي إشباع أيضاً، أليس كذلك؟».

كان هذا الكلام إحدى الضربات الحاسمة في حياة كوني. لقد أجهزت على شيء ما فيها. لم تكن عنيفة على ميكائيل. فلم تكن تريده إلى أن بدأ. كانت كما لو أنها لاتريده إيجابياً أبداً. ولكن حالما افترعها، بدا الأمر طبيعياً عندها ـ تلك الليلة أحبته وأرادت أن تتزوج به.

ربما يعرف ذلك غريزياً، ولذلك طرح كل عرضه بشدة: بيت متداع. في تلك الليلة انهار كل شعور جنسي تجاهه وتجاه أي رجل. لقد انفصلت حياتها عنه، كما لو أنه غير موجود أبداً.

وراحت تُمضي الأيام في رعب وإرهاق. ولايوجد الآن شيء سوى طاحونة فارغة مما سماه كليفورد الحياة المتكاملة، الحياة الطويلة معاً لشخصين اعتادا أن يكون الواحد مع الآخر في البيت ذاته.

اللاشيء. بدا قبول لاشيئية الحياة أحد نهايات الحياة. كل الانشغال الكبير والأشياء الصغيرة الهامة التي تلخص المجموع الكبير للاشيئية.

ss

الفصل السادس

«لماذا لايحب الرجال والنساء كلٌ الآخر في هذه الأيام؟» سألت كوني تومي ديوكس الذي كان تقريباً مزار نبوءتها.

«أوه، ولكنهم يفعلون. لاأعتقد، منذ أن جرى ابتكار النوع البشري، فكان هناك وقت أحب الرجال والنساء كل الآخر كما يفعلون في هذه الأيام. حب أصيل. خذيني أنا نفسي - أنا أحب النساء أكثر من الرجال - أشجع - فالمرء يستطيع أن يكون أكثر صراحة معهن».

عجبت كوني من هذا.

قالت «أوه بلى، ولكنك لاتملك شيئاً تصنعه معهن».

«أنا؟ وماذا تراني أفعل غير التحدث بكل وقار مع امرأة الآن؟».

«بلى، تتحدث».

«وماذا أفعل أكثر من ذلك لو كنت أنت رجلاً أكثر من التحدث بكل وقار إليكِ؟».

«لاشيء، - ربما - لكن المرأة».

«المرأة تريدك أن تعجب بها وأن تتحدث إليها - وأن تحبها في

ss

الوقت نفسه وترغب فيها - ويبدو لي أن الشيئين نفسيهما متبادلان بين الطرفين حصراً».

«ولكن لن يكونا».

«لاشك أن الماء لايريد أن يكون رطباً كما هو: إنه مبالغ مفرط في الرطوبة. ولكن هو هكذا - أنا أحب النساء والحديث إليهن، ولذلك أنا لاأحبهن ولاأرغب بهن. فالشيئان لايقعان في الوقت نفسه فيّ أنا».

«أعتقد أنه يجب».

«لابأس - حقيقة أن الأشياء «يجب» أن تكون شيئاً ما غير ماهي عليه ليس من اختصاصي».

عجبت كوني من هذا.

قالت «ليس صحيحاً أن الرجال يمكن أن يحبوا النساء وأن يتحادثوا معهن. أنا لاأرى أنهم قادرون أن يحبوهن من دون الحديث ومن دون الصداقة والحميمية: فكيف يستطيعون؟».

قال «لابأس، أنا لاأعرف. مافائدة تعميمي؟ أنا فقط أعرف حالتي الخاصة. أحب النساء - ولكني لاأرغب فيهن. أحب التحدث إليهن - ولكن التحدث إليهن، مع أن ذلك يجعلني، يجعلني حميمياً على نحو ما، يجعلني بعيداً عنهن، بمقدار مايبعدني التقبيل. - فها هي أنتِ. لاتأخذيني كمثال عام - إنني حالة خاصة: واحد من الرجال يرغب في النساء، ولكنه لايحبهن - بل حتى يكرههن إن أرغموني على إدعاء الحب - أو أي مظهر للوقيعة -».

«ولكن ألا يجعلك هذا حزيناً؟».

«ولماذا يجعلني حزيناً، أبداً. أنظرُ إلى شارلي ماي والرجال الذين لديهم أعمال - أنا لاأحسدهم أبداً. لو أن القدر أرسل إلي المرأة التي أريد، لابأس فهذا شيء جيد. ومادمت لم أرَ المرأة التي

ss

أريد ولم أرَ امرأة واحدة ـ لماذا؟ أعتقد أني بارد وأنا فعلاً أشبه بعض النساء كثيراً ـ».

«أتحبني؟».

«جداً. وأنت ترين أن مسألة التقبيل غير واردة بيننا، أليس كذلك؟».

قالت كوني «إطلاقاً، ولكن ألا يجب أن يكون؟»

«لماذا بحق الله؟ أنا معجب بكليفورد، فماذا تقولين لو ذهبت وقبّلته؟».

«لكن ألا يوجد ثمة فرق؟».

«وأين يكمن الفرق في الشيء الذي نحن بصدده؟ نحن جميعاً كائنات إنسانية مثقفة، وعمل الذكر والأنثى هو عمل عطالة. مجرد عطالة. كيف ترغبين مني أن أبدأ العمل الانتصابي مثل ذكر أوروبي في هذه اللحظة وأعرض الشيء الجنسي؟».

«لابد أن أكره ذلك».

«لابأس سوف أخبرك، فإن كنت أنا فعلاً شيئاً ذكراً، فلن أخترق الأنثى التي من نوعي. ولن أفتقدها. إني معجب بالنساء اللواتي ـ يجبرنني على الحب، أو يزعمن أنني أحبهن لأسباب اللعبة الجنسية؟».

«لا أنا لست كذلك. ولكن أليس هذا خطأ؟».

«قد تشعرين بذلك، أنا لاأشعر أنه خطأ».

«نعم ـ أنا أشعر أن هناك شيئاً خطأ بين الرجال والنساء، المرأة لاتحمل أي فتنة للرجل».

«وهل يحمل الرجل فتنة للمرأة؟».

انتقلت إلى الجانب الآخر للمسألة.

قالت بثقة «ليس كثيراً».

«لذلك نحِّي الأمر جانباً وكوني فقط محتشمة وبسيطة مثل الكائنات الإنسانية الخاصة، الواحد مع الآخر. إلعني الإلزام الجنسي المصطنع ـ أنا أرفضه».

كانت كوني تعرف أنه محق تماماً. ومع ذلك تركت شعوراً مهجوراً: مهجوراً وضالاً. مثل شريحة في بركة كئيبة، هكذا شعرت. فماذا كانت المسألة لها أو لأي شيء.

صباها هو ماتذكرته. يبدو هؤلاء الرجال مسنين وباردين. كل شيء يبدو مسناً وبارداً. وميكائيل يجعل الإنسان يهبط هكذا. لم يكن طيباً. الرجال لايريدون واحدة. إنهم في الحقيقة لايريدون امرأة ـ حتى ميكائيل لايريد. والأوغاد الذين يزعمون أنهم يريدون هم في الحقيقة لايريدون، وبمباشرتهم العملية الجنسية يكونون أسوأ مما هم فيه.

كان شيئاً كئيباً وعلى المرء أن يتكيف معه. إن من المصيب حقاً أنه ليس في الرجال فتنة للمرأة: فإن كنت تخدع نفسك بأنهم يملكون فتنة، كما خدعت نفسها مع ميكائيل، فسيكون هذا أعظم أفعالك. وحين تعيش فإنه لايوجد شيء وراء ذلك. لقد فهمتْ تماماً لماذا يقيم الناس حفلات كوكتيل ويرقصون الجاز والشارلستون استعداداً للسقوط. أنت تستطيعين أن تأخذي إلى هذه الناحية أو تلك ـ صباك ـ وإلا التهمك. ولكن أي شبح هو هذا الصبا. إنك تشعرين بالشيخوخة مثل ميتوشالح، ومع ذلك يئز هذا الصبا ولايدعك مستريحةً. نوع وضيع من الحياة ـ فلا آمال. تمنت لو أنها ارتحلت مع ميك وجعلت حياتها كلها حفلة كوكتيل وأمسية جاز. على أي حال كان ذلك أفضل من أن تتخيل نفسك في الرمس.

في يوم من أيامها السيئة ذهبت وحدها لتقوم بمشوار في الغابة، فتتجول من دون أن تنوي شيئاً، ولاحتى الانتباه أين كانت. وقد أقلقها وأغضبها صوت بندقية غير بعيد عنها.

وكلما تقدمت سمعت أصواتاً، فارتدت قافلة. الناس، هي لاتريد الناس. لكن أذنها اللاقطة التقطت صوتاً آخر، فنهضت. إنه نشيج طفل. وسرعان ماوصلت. أحدهم كان يعالج طفلاً عليلاً.

اندفعت في المنحدر الرطب، ووصل امتعاضها ذروته. شعرت كأنها أُعدت لتكون فرجة.

قطعت الزاوية فرأت شخصين في الطريق خلفها: الحارس، والفتاة الصغيرة ذات المعطف الأرجواني والقبعة المصنوعة من جلد الخلد وهي تصرخ.

«اطبقي فمك أيتها الكلبة الصغيرة» هكذا وصل إليها الصوت الغاضب للرجل: فنشجت الطفلة أعلى فأعلى.

سارعت كونستانس خطواتها أكثر بعينين ملتهبتين. عندئذٍ التفت الرجل ونظر إليها، محيياً ببرود. لكنه كان شاحباً من الغضب.

سألت كونستانس مبهورة الأنفاس «ماالخطب؟ لماذا تبكي؟».

برقت ابتسامة خفيفة ـ مثل السخرية ـ على وجه الرجل.

«يجب أن تسأليها» أجاب بلغة موغلة في العامية.

شعرت كوني كأنه ضربها على وجهها فتغير لونه. فجمعت ثقتها ونظرت إليه، فالتمعت عيناها وصارتا أكثر غموضاً.

لهثت وقالت «إني أسألك».

قام بانحناءة غريبة رافعاً قبعته «لقد سألتني أيتها الليدي ـ».

قال ذلك ثم عاد إلى اللهجة العامية: «ولكني لاأستطيع إخبارك».

انقلب جندياً محيراً جعله الإزعاج شاحباً.

انقلبت كوني إلى طفلة ـ متوردة سوداء الشعر في التاسعة أو العاشرة.

ss

قالت بطريقة تقليدية مناسبة «ماذا في الأمر يا عزيزتي؟ قولي لي لماذا تبكين؟».

نشيج أعنف وأعنف ـ وعي ذاتي.

وبقيت كوني لطيفة.

«انتبهي انتبهي، لاتبكي. أخبريني ماذا فعلوا بك» قالت ذلك برقة متناهية. وفي الوقت نفسه تذكرت أن في جيب ثوبها ستة بنسات، ولحسن الحظ وجدتها.

قالت منحنية على الطفلة «إذن كفي عن البكاء، انظري انظري ماذا أحضرت لك».

نشيج وشهقات وبرزت قبضة من جانب وجه بدين وعين سوداء وحشية رمقت لثانية البنسات الستة. ثم مزيد من النشيج الألطف.

قالت كوني «انتبهي! أخبريني ماذا جرى. أخبريني». ووضعت قطعة النقد في يد الطفلة التي أطبقتها عليها.

«إنها قطة... إنها... إنها القطة...».

وصدرت زخات من النشيج الخفيف.

«أي قطة هي إذن؟».

بعد صمت أشارت قبضة خجولة تمسك البنسات الستة وتشير إلى أجمة عليق.

«هناك».

تطلعت كوني. وهناك عرفت مايكفي، كانت قطة سوداء كبيرة تتكوم بشدة مع بقعة من الدم عليها.

قالت باشمئزاز «أوه».

«إنكِ مقتحمة أيتها الليدي» قال الرجل ساخراً.

نظرت إليه بغضب.

ss

قالت «لاعجب إذا صرخت الطفلة، إذا كنت أطلقت على الهرة هناك، فلاعجب أن تبكي الطفلة».

تطلع في عيني كوني ساخراً محتقراً غير مخفٍ مشاعره. وقد خجلت كوني: شعرت أنها فعلاً صارت فرجة. إن الرجل لم يحترمها.

قالت للطفلة بمودة «ما اسمك؟ ألا تخبريني ماسمك؟».

نشقت نشقات عدة ثم بتأثر وبصوت هامس:

«كوني ميلورز».

«كوني ميلورز. لابأس. إنه اسم جميل. وهل جئت مع أبيك فأطلق النار على القطة؟ إنها لقطة منحوسة».

نظرت إليها الطفلة بعينين قاتمتين جريئتين من النباهة وازنة لها من تحت إلى فوق، ووازنة تعزيتها.

قالت الطفلة الصغيرة «أريد أن أبقى مع جدتي».

«صحيح. ولكن أين جدتك هذه؟»

رفعت الطفلة ذراعها وأشارت إلى أسفل المنحدر.

«آه، في الكوخ»

«في الكوخ، ألا تودين أن تذهبي إلى هناك؟»

فجأة ارتجفت متذكرة زفراتها.

«بلى».

«تعالي إذن، هل لي آخذك؟ هل آخذك إلى جدتك؟ ثم يقوم أبوك بما يجب أن يقوم به» ـ التفتت إلى الرجل «ابنتك أليس كذلك؟».

حياها وقدم حركة خفيفة من الرأس للتأكيد.

قالت له كوني «أعتقد أن بإمكاني أخذها إلى الكوخ؟».

«إذا كانت الليدي ترغب».

مرة أخرى نظر في عينيها، بتلك النظرة الهادئة المتفحصة

الحيادية. إنه رجل في غاية العزلة، ويعيش حياته الخاصة.

«ألا ترغبين في المجيء معي إلى الكوخ، إلى جدتك العزيزة؟».

تطلعت الطفلة مرة أخرى مخالسة.

قالت «بلى» متكلفة.

لم تعجب كوني هذه الأنثى الصغيرة قليلة التربية. على أي حال مسحت وجهها وأمسكت يدها. وبصمت قدم الحارس تحيته.

قالت كوني «صباح الخير».

كانت هناك مسافة ميل إلى الكوخ، فانزعجت كوني الكبيرة من كوني الصغيرة إلى أن لاح الكوخ الصغير الجميل. كادت الطفلة بحركاتها المخادعة تشبه قرداً صغيراً: وكذلك بثقتها بذاتها.

عند الكوخ كان الباب مفتوحاً وسمعت ضجة في الداخل. تثاقلت كوني فنزعت الطفلة يدها واندفعت داخل الكوخ.

«جدتي، جدتي».

«ماذا؟ هل عدت سالمة؟» كانت جدتها تنظف موقد النار ـ كان صباح السبت. خرجت إلى الباب بمريلتها الفضفاضة وفرشاة التنظيف في يدها، وبقايا سخام على أنفها. كانت امرأة صغيرة أو بالأحرى ذابلة.

«لماذا. ماذا جرى؟» قالت هذا وهي تمسح ذراعها بوجهها حالما شاهدت كوني تقف في الخارج.

قالت كوني «صباح الخير، كانت تبكي، لذلك أحضرتها إلى البيت».

التفتت الجدة ونظرت بسرعة إلى الطفلة.

«لماذا؟ أين أبوك؟».

تمسكت الطفلة بتنورة جدتها مبتسمة ابتسامة خفيفة.

ss

قالت كوني «كان هناك. لكنه أطلق النار على قطة شاردة، فدب الخوف في الطفلة».

«ماكان عليك أن تزعجي نفسك ياليدي شاترلي، أنا، أنا متأكدة أن هذا كرم منك. وأرجو ألا تكوني منزعجة. فالأمر كما تعرفين» ـ والتفتت الجدة إلى الطفلة. «تصوري أن الليدي شاترلي تحملت كل ذلك من أجلك. عليك ألا تزعجيها».

قالت كوني مبتسمة «لم يكن إزعاجاً. كان مشواراً».

«أنا متأكدة أنه لطف منك. كانت تبكي. أعرف أنهم لابد شاهدوا شيئاً ما بعيداً. فخافت منه. هذا ماحصل. إنه غريب تماماً ـ غريب جداً ـ ولاأظنه كان شيئين عندما أطلق النار عليه بسهولة. له أساليب مضحكة ـ».

لم تعرف كوني ماذا تقول.

ابتسمت الطفلة وقالت «انظري ياجدتي».

نظرت المرأة العجوز إلى البنسات الستة في يد الفتاة الصغيرة.

«ستة بنسات دفعة واحدة. أوه، ليدي شاترلي، يجب ألا، أعني يجب ألا، ليدي شاترلي أنت طيبة. أما أنت فإنك فتاة سعيدة الحظ هذا الصباح».

لفظت الاسم كما يلفظه كل الناس شاتلي ـ «ليدي شاتلي أنت طيبة» ـ لم يتح لكوني أن تشاهد السخام على أنف السيدة العجوز، والأخيرة مسحت أيضاً وجهها بمؤخرة معصمها، ولكنها أخطأت السخام.

كانت كوني بصدد عودتها.

«نشكرك كل الشكر أيتها الليدي شاتلي. أنا متأكدة قلت شكراً للسيدة شاتلي» والجملة الأخيرة موجهة إلى الطفلة.

همست الطفلة «شكراً لك».

«أنت عزيزتي» ضحكت كوني وغادرت وهي تقول عموا

صباحاً، وقد شعرت براحة جوانيّة في الخلاص من هذا التماس. ـ فكرت. إن الأمر غريب ـ فكيف لهذا الرجل الرفيع المتكبر أن تكون له مثل هذه المرأة الهزيلة الصغيرة كأم.

واندفعت المرأة العجوز، حالما غادرت كوني، إلى قطعة المرآة الموجودة في المغسلة، ونظرت في وجهها. وإذ نظرت فيها راحت تضرب بقدمها في الأرض بنفاد صبر. «طبعاً فاجأتني بالمريلة البالية وبوجه قذر. فيا للفكرة الحسنة التي ستأخذها عني».

عادت كوني إلى راغبي، إلى بيتها. «بيت» إنها كلمة دافئة أدفأ من أن تُطلق على تلك البرية الكبيرة الخَلِقة. ولكنها كانت في أيامها اسماً على مسمى، كانت إلى حد ما مشطوبة. كل الكلمات الكبرى تبدو لكوني محذوفة عند جيلها: الحب والفرح والسعادة والبيت والأم والأب والزواج، كل هذه الكلمات الديناميكية كانت نصف ميتة الآن، وهي تموت من يوم إلى يوم. فالبيت كان مكاناً تعيش فيه، والحب كان شيئاً لاتخدع نفسها فيه، والفرح كان كلمة تستخدمها على رقصة الشارلستون، والسعادة كانت مصطلحاً من النفاق تستخدمه مواربة، لبلف الآخرين، والأب كان فرداً يفرح بوجوده الخاص، والأب كان رجلاً تعيش معه وتسير وإياه روحياً. أما بالنسبة إلى الجنس، آخر الكلمات الكبرى، فهو مصطلح كوكتيل لإثارتك لحظة ثم يتركك أسمالاً بالية أكثر من قبل. يتركك في شجار. كان كما لو أن المادة الفعلية التي صُنعت منها هي مادة رخيصة وكانت مشاجرة لاتفضي إلى شيء.

كل ذلك بقي حقاً رواقية عنيدة: وكان في ذلك متعة معينة. في التجربة الفعلية للاشيئية الحياة، مرحلة بعد مرحلة، ومحطة بعد محطة هناك إشباع مرعب. هكذا كان الأمر. ـ كانت هذه هي الكلمة الأخيرة: البيت والحب والزواج وميكائيل: هكذا كان الأمر. ـ وعندما يموت الإنسان تكون آخر كلماته: هكذا كان الأمر. ـ

المال؟ ربما لايستطيع المرء أن يقول الكلام ذاته هناك، فالمال

دائماً مطلوب. المال. النجاح ـ الربة العاهرة كما يصرّ تومي ديوكس أن يسميه، وقد أخذه من هنري جيمس ـ كان ضرورة دائمة. أنت لاتستطيع أن تنفق آخر فلس وتقول أخيراً: هكذا كان الأمر. ـ لا فإن عشت عشر دقائق فإنك تطلب بضعة فلوس لشيء أو لآخر. فحتى تحافظ على استمرار العمل تحتاج إلى المال، لابد أن تملكه. فعليك أن تملك المال. وأنت لاحاجة لأن تملك شيئاً آخر. هكذا كان الأمر.

طبعاً، إنها ليست غلطتك أن تعيش. لكن حالما تعيش تكون في حاجة إلى المال ـ وهي الحاجة الوحيدة المطلقة. كل مابقي يمكنك الاستغناء عنه في زمن الضيق. ولكن ليس المال. بالتأكيد هكذا كان الأمر.

فكرت بميكائيل، وبالمال الذي يمكن أن يكون معها ومعه. وحتى هذا كانت لاتريده. فضلت الكمية الأقل التي حققها كليفورد من كتابته. ذلك أنها ساعدته فعلاً في كسبها. «كليفورد وأنا حصلنا من الكتابة على ألف ومئتي جنيه في السنة». هكذا وصفت الأمر بينها وبين نفسها. حصلت على المال، صنعته، ليس من مكان ما. عصرته من الهواء الرقيق. وهي إنسانياً فخورة بآخر مأثرة. البقية بمعونة بتي مارتن.

وهكذا رتبت البيت لكليفورد لتضم قوتها إلى قوته في كتابة قصة أخرى، من لاشيء: والقصة تعني المال. كان كليفورد معنياً جداً بمعرفة ما إذا كانت قصصه تُعتبر من الطبقة الأولى في الأدب أم لا. لكن الحقيقة أنها هي لم تكن معنية. لاشيء على الإطلاق، قال والدها، ألف ومئتا جنيه في السنة الأخيرة كان المردود البسيط والأخير.

إن كنت فتياً فعليك أن تسن أسنانك وتنهش وتجدّ السعي حتى يبدأ المال بالتدفق من اللامرئي. المسألة مسألة قوة. كانت مسألة إرادة. مهارة، مهارة، انبثاق قوي للإرادة من نفسك فتعود إليك باللاشيئية السرّانية للمال: كلمة على قصاصة ورق، شيء مثل

السحر. بالتأكيد كان انتصاراً. الربة العاهرة. لابأس لو أن المرء زنى مع نفسه، فيكون الربة العاهرة للنجاح. إن المرء يحتقرها حتى عندما يمارس الدعارة معها. ويكون ذلك جيداً.

طبعاً مازال لدى كليفورد الكثير من التابوات الطفولية والفيتشات. أراد أن يفكر بأنه «جيد فعلاً». وهذا كله كان عبثاً. الجيد الفعلي يمكن الإمساك به. لايوجد جيد يكون جيداً ويُترك. يبدو أن معظم الرجال «الجيدين فعلاً» تفوتهم الحافلة. وبعد كل شيء أن تعيش حياة واحدة: فإن فاتتك الحافلة بقيت على الرصيف، مع بقية الفاشلين.

كانت كوني تتأمل الشتاء في لندن، ومع كليفورد في الشتاء التالي. لقد استقلا الحافلة تماماً، فبات في إمكانهما السير نحو المقدمة لوهلة.

الأسوأ أن كليفورد مال إلى الغموض والضياع، فسقط في الكآبة الفارغة. كان جرح نفسه قد طغى على السطح. لكنه جعل كوني تصرخ. يا الله، إذا كانت ميكانيزما الوعي نفسها تذهب في الناحية الخطأ، فماذا في مقدور الإنسان أن يفعل. فإن توقفت، فإن المرء لايستطيع شيئاً. لابد أن يسقط الإنسان سقوطاً كلياً.

بكت بمرارة أحياناً، ولكن حتى عندما كانت تبكي كانت تقول لنفسها: غبية حمقاء، لفافة رطبة. كما لو أن ذلك يرميك في أي مكان.

أما ميكائيل فقد وطدت عقلها معه ألّا تريد شيئاً. كان ذلك أسهل حل لِما لايحل. لم ترغب في شيء سوى أن ترحل مع من تجده. كليفورد والقصص وراغبي وعمل الليدي شاترلي والمال والشهرة وكل ما سوى ذلك - أرادت أن تهرب منها جميعاً . الحب والجنس والهراء، مثل جليد الماء. الحسهُ ثم انسَهُ. إذا لم تلصقه في عقلك، فإنه لاشيء. والجنس بنوع خاص - لاشيء. ارتفع بعقلك إليه

وسوف تحل المشكلة لأنه لاشيء. الجنس ـ الكوكتيل ـ كلاهما يستمران طويلاً، ولهما النتيجة ذاتها، ويصلان إلى الشيء ذاته.

لكن الولد ـ الطفل. ذلك هو إحساس من الأحاسيس. إنها ستكون مغامرة في تلك التجربة. فهناك الرجل الذي تأخذه بعين الاعتبار. كان الأمر جدياً فلا يوجد رجل في العالم تريد أنت أطفاله. أطفال ميك. إنها فكرة تثير النفور. كما يحول الإهمال الطفل إلى أرنب. تومي ديوكس ـ جميل جداً ولكن لايمكن إشراكه بطفل، بجيل آخر. لقد انتهى في ذاته. ومن بين جميع معارف كليفورد الكثر الظرفاء لايوجد رجل لم ينله احتقارها، عندما كانت تفكر بإنجاب طفل منه. هناك الكثير ممن يصلحون كعشاق ـ حتى ميك. أما أن تدعهم ينسلون طفلاً منها! ياللهول! ياللوضاعة وياللوقاحة.

هكذا كان الأمر!

على أي حال كان الطفل ملتصقاً بخلفية عقل كوني. فلتنتظر، لتنتظر. ستنخل أجيال الرجال من خلال منخلها، وترى إن كان بإمكانها أن تجد واحداً يستحق أن يكون والداً للطفل. ـ «طوفوا في شوارع أورشليم وانظروا واعرفوا وفتشوا ساحاتها هل تجدون إنساناً» ـ كان من المستحيل أن تجد إنساناً في أورشليم النبي إرميا ـ مع أنه كان يوجد آلاف البشر الذكور. لكنْ رجل. هذا شيء آخر.

كانت لديها فكرة أن الرجل يجب أن يكون أجنبياً: ليس انكليزياً ولا اسكوتلاندياً، ولا إيرلندياً. أجنبي حقيقي.

ولكن انتظري، انتظري، ففي الشتاء التالي سوف تخرجين بكليفورد إلى لندن: والشتاء الذي يليه لابد أن تخرجي به خارج البلاد، إلى جنوب فرنسا، إيطاليا ـ انتظري، كانت متعجلة بشأن الطفل. كان هذا شغلها الشاغل، والنقطة الوحيدة التي بطريقتها الأنثوية الغريبة كانت النقطة الجدية في أعماق نفسها. لم تكن مندفعة لتُخاطر بأي فرصة قادمة. لا ليست هي. المرأة قد تجد

ss

عشيقاً في أي لحظة تقريبا. ولكن أن تجد رجلاً ينجب طفلاً، لا، انتظري، انتظري. إنها مسألة مختلفة جداً ـ «طوفوا شوارع وساحات أورشليم ـ» ـ ليست مسألة حب. إنها مسألة رجل. لماذا، يمكن أن تكرهه شخصياً. ومع ذلك إذا كان رجلاً فماذا تعني مسألة كرهه. إن هذا العمل يتعلق بالناحية الأخرى منها.

أمطرت السماء كالعادة، فالطرقات كانت كالمروج لكرسي كليفورد. لكن كوني سوف تخرج. كانت تخرج وحدها الآن كل يوم، والأغلب أن تذهب إلى الغابة، حيث كانت وحيدة حقاً. لم تر أحداً هناك.

في هذا اليوم أراد كليفورد أن يبعث برسالة إلى الحارس، وبما أن الخادم كان مصاباً بالانفلونزا في راغبي ـ فقالت كوني إنها ستنقلها إلى الكوخ.

كان الهواء ناعماً ورخياً، كأن العالم يحتضر. رمادي وهادئ وصامت حتى خلاطات المناجم، فالحفر كانت لاتعمل إلا وقتاً قصيراً، فاليوم كانوا متوقفين جميعاً. نهاية كل شيء.

كان كل شيء في الغابة عاجزاً وخاملاً. مجرد بضع قطرات تتساقط من الغصون الجرداء بصوت ارتطام باهت. أما الباقي بين الأشجار القديمة فكانت غائصة أعمق وأعمق من العطالة اليائسة الرمادية والصمت واللاشيئية.

سارت كونستانس ملأى بالقتامة. فجاءها من الغابة العتيقة اكتئاب قديم، شيء ما يهدئها، أفضل من الإحساس المخرش من العالم الخارجي. لقد أحبت «الداخل» من بقايا الغابة، من صمت الأشجار القديمة. بدت كقوة عظيمة للصمت، ومع ذلك كان حضور هذه الأشجار قوياً. إنها أيضاً كانت تنتظر: تنتظر بعناد وبرواقية وتمنح للآخرين قوة الصمت. ربما كانت تنتظر النهاية فقط: تُقطع وتُرمى أرضاً وتنقل بعيداً ـ نهاية الغابة، وهذا يعني نهاية كل شيء

ss

لهم. ولكن ربما صمتها القوي والأرستقراطي، صمت الأشجار القوية، يعني شيئاً آخر.

حالما خرجت من الغابة على الجانب الشمالي، بدا لها كوخ الحارس، أو بالأحرى الكوخ المظلم ذو الأحجار البنية بمثلثاتها ومدخنته الأنيقة، مهجوراً غير مسكون، فكان صامتاً ووحيداً. لكن خيطاً من الدخان تصاعد من المدخنة ـ والحديقة الصغيرة الملتفة أمام البيت كانت محفورة ومرتبة. وكان الباب مغلقاً.

الآن هي هنا، شعرت بخجل خفيف من الرجل بعينيه الغريبتين الصافيتين. لم ترغب في إبلاغه الأوامر. شعرت أنها تود العودة ثانية. قرعت الباب بنعومة. لم يأت أحد. قرعت ثانية ـ لكن ليس أعلى من القرعات الأولى. لم يكن ثمة جواب. خالست النظر من خلال النافذة فوقع نظرها على غرفة صغيرة مظلمة مع مكان شرير سرّاني لايريد أن يغزوه أحد.

وقفت وأصغت، بدا لها كأنها سمعت أصواتاً من خلف الكوخ. فشلت في أن تهيء نفسها للإصغاء، فاشتدت همتها. يجب ألا تندحر.

وهكذا طافت جوانب المنزل. خلف الكوخ كانت الأرض مرتفعة أكثر منها شديدة الانحدار، فكانت الباحة الخلفية غارقة ومسيجة بسور منخفض من الأحجار. دارت حول زاوية المنزل وتوقفت. في الباحة الصغيرة ولخطوتين خلفها كان الرجل يغتسل، عارياً تماماً. كان عارياً حتى الوركين، وانحسر بنطاله المخملي عن ردفيه الهزيلين. وكان ظهره الأبيض الهزيل منحنياً فوق وعاء كبير فيه ماء صابون، كان يدعك به رأسه، فيهز هامته بحركة خفيفة غريبة، رافعاً ذراعيه النحيفتين ضاغطاً ماء الصابون من أذنيه: سريع ورشيق مثل ابن عرس وهو يلعب في الماء، وحيداً تماماً.

تراجعت كوني بعيداً حول زاوية المنزل، وأسرعت موغلة في

الغابة. على الرغم منها أصيبت بصدمة. ولم كل هذا؟ إنه مجرد إنسان يغسل نفسه. شيء مألوف تماماً. إن السماء تعرف ذلك.

ومع ذلك كانت بطريقة غريبة تجربة بصرية: لقد أصابتها في وسط جسدها. لقد رأت البنطال الغامق المنزلق عن الردفين البيضاوين الصافيين الطريين، ولاتظهر العظام إلا قليلاً، وقد سيطر عليها إحساس الوحدة، إحساس كائن وحيد يسيطر عليها، مخلوق عارٍ يعيش وحيداً، وداخلياً فقط. وعلاوة على ذلك هناك جمال للكائن العاري. ليس مادة الجمال، ولا حتى جسد الجمال، بل هناك خفقان ما، دفء شعلة بيضاء لحياة مفردة تكشف عن نفسها في ثنايا يمكن أن يلمسها الإنسان: الجسد.

تلقت كوني صدمة الرؤية في رحمها، وقد عرفتها. لقد استقرت فيها. لكن بعقلها كانت تميل إلى السخرية. رجل يغسل نفسه في الباحة الخلفية. ولاشك أنه يستحم بصابونة صفراء سيئة الرائحة ـ إنها بالأحرى منزعجة. فلماذا كل هذا التعثر من تلك الخصوصيات المبتذلة.

سارت مبتعدة بنفسها. ولكن بعد لحظة جلست على جذع شجرة. كانت أيضاً مضطربة التفكير. ولكن في ثنايا اضطرابها قررت أن تسلم رسالتها لهذا الصديق. لن تفاجئه. يجب أن تمنحه وقتاً حتى يرتدي ثيابه، ولكن ليس وقتاً حتى يخرج مبتعداً. كان يستعد للخروج إلى مكان ما.

مشت الهوينى وانسلت إلى الخلف تستمع. وإذ اقتربت، بدا الكوخ هو نفسه تماماً. نبح كلب ـ فقرعت الباب، وقلبها يخفق بالرغم منها.

سمعت الرجل يأتي بخفة هابطاً الدرج. فتح الباب بسرعة غريبة وحملق فيها. بدا هو نفسه قلقاً. ولكن فوراً مرت ضحكة بوجهه.

قال «ليدي شاترلي. هل لك أن تدخلي؟».

ss

كانت طريقته سهلة وطيبة تماماً، فعبرت العتبة إلى الغرفة الصغيرة المخيفة.

قالت بصوتها الناعم المبهور الأنفاس «إني فقط أحمل رسالة من السير كليفورد».

«هل لك أن تجلسي؟» طلب منها وهو يعرف سلفاً أنها ستجلس. الباب ظل مفتوحاً.

«لا شكراً، عجب السيد كليفورد بأنك سوف.ـ» وأبلغت رسالتها، ناظرة بلاوعي عبر عينيه ثانية.

بدت عيناه الآن دافئتين لطيفتين، وعلى الأخص بالنسبة لامرأة: بشكل عجيب دافئتان ولطيفتان ومريحتان.

«هذا جيد ياأيتها الليدي الكريمة، سوف أنظر فيها حالاً».

أخذ الرسالة، محدقاً بقسوة وناظراً إلى بعيد، فتغيرت نفسها كلها.

ترددت كوني. يجب أن تذهب. لكنها نظرت إلى غرفة الجلوس النظيفة الرقيقة لكن الصغيرة المخيفة بانزعاج ما.

سألت «هل تعيش وحيداً تماماً؟».

«تماماً أيتها الليدي الكريمة».

«ولكن أمك ـ؟».

«تعيش في كوخها في القرية».

سألت كوني «مع الطفلة؟».

«مع الطفلة».

ترك وجهه البسيط المتعب تقريباً نظرة نافذة من السخرية. كان وجهاً حائراً يتغير باستمرار.

ss

«لا» قال وقد رأى كوني تقف ضائعة. «تأتي أمي لتنظف حوائجي يوم السبت: وأنا أقوم بالباقي».

نظرت كوني ثانية إليه. أيضاً كانت عيناه تبتسمان ابتسامة ساخرة، لكنهما دافئتان زرقاوان ولطيفتان إلى حد ما. عجبت من حاله. كان يرتدي بنطاله وقميص الفلانيلا، بربطة رمادية، شعره ناعم ومبلل وعلى وجهه لاحت نظرة شاحبة مرهقة. عندما توقفت عيناه عن الضحك، بدتا كما لو كانتا تعانيان من مشكلة كبيرة، دون أن تفقدا دفئهما. لكن شحوب العزلة ران عليه ـ كأنها لم تكن هناك بالنسبة له. شعرت شعوراً مختلفاً نحوه، الحيوية، ومع ذلك ليست بعيدة عن الموت نفسه.

أرادت أن تقول أشياء كثيرة، لكنها لم تقل شيئاً. فقط نظرت إليه مرة ثانية وقالت:

«آمل ألا أكون أزعجتك».

الابتسامة الساخرة الضعيفة ضيقت عينيه.

«كنت أمشط شعري فقط، فلاتأبهي، أنا آسف، لم أضع معطفي، ولكن وقتها لم تكن عندي فكرة عمن يقرع الباب. هنا لاأحد يقرع الباب. والأصوات المفاجئة تكون نذير شؤم».

هبط أمامها إلى ممر الحديقة، ليفتح البوابة. بقميصه دون معطفه المخملي، فرأت ثانية كم هو نحيل ومحني قليلاً. ومع ذلك عندما مرت به كان ثمة شيء فتي وبراق في شعره الناعم الجميل وفي عينيه السريعتين. لابد أنه رجل في السابعة أو الثامنة والثلاثين.

تهادت في الغابة، وهي تعرف أنه يتابعها بنظره. لقد خضها خضاً إلى حد بعيد، على الرغم منها.

وكان، وهو يدخل البيت، يفكر: «إنها جميلة: إنها امرأة حقيقية. إنها أجمل ممن عرفت».

لقد أدهشها كثيراً: بدا غير مشابه لحارس الطرائد، كما لايشبه أي عامل مهما كان، مع أن فيه شيئاً مشتركاً مع السكان المحليين. لكنْ أيضاً فيه شيء ما غير مشترك.

قالت لكليفورد «حارس الطرائد ميلورز شخص من النوع الغريب. ربما جنتلمان».

قال كليفورد «أيمكن أن يكون؟ لم ألاحظ».

قالت كوني بإصرار «لكن أليس فيه شيء خاص؟».

«أعتقد أنه صديق جميل، ولكن لاأعرف إلا القليل عنه. أعرف فقط أنه خرج من الجيش في السنة الماضية ـ أقل من سنة تقريباً. من الهند، كما أظن. قد يكون تعلم بعض الخدع من هناك ـ ربما كان خادم ضابط، ثم ترقى مركزه. هناك بعض الناس مثله. ولكنهم لايتحسنون ـ فهم يتراجعون في موطنهم القديم عندما يعودون ثانية إلى ديارهم».

حملقت كوني بكليفورد متأملة. لقد رأت فيه رجلاً يقف بشدة ضد أي شخص من الطبقات الدنيا الذين يرتقون فعلاً، فهي تعرف أنهم في مثل تربيته.

سألت «ولكن ألا تعتقد أن فيه شيئاً خاصاً؟».

«بصراحة لاشيء. لم ألاحظ أبداً».

نظر إليها باهتمام ـ بقلق وبنصف شك. شعرت أنه لم يُخبرها بالحقيقة الفعلية ـ والواقع أنه هو نفسه لم يُخبر نفسه الحقيقة الفعلية. إنه لايحب أي تفكير في كائن بشري استثنائي حقاً. فالناس يجب أن يكونوا في مستواه تقريباً أو دونه.

شعرت كوني مرة ثانية بضيقِ وشحّ رجال جيلها. كانوا ضيقين، ولذلك يخافون الحياة.

الفصل السابع

عندما صعدت كوني إلى غرفة نومها فعلت مالم تفعله منذ مدة طويلة: خلعت عنها ثيابها ونظرت إلى نفسها عارية في المرآة الضخمة. لم تعرف ماذا كانت تشبه، أو ماذا تشبه تماماً. ومع ذلك حركت المصباح حتى غمرها نوره.

وفكرت كما كانت تفكر غالباً: كم هو هش سهل الكسر وشيء محزن هذا الجسد البشري العاري: إنه شيء ينقصه القليل، إنه غير كامل.

اعتقدت أنه شخصية مرموقة، ولكنها الآن كانت على غير عادتها: أنثى صغيرة جداً، لاتشبه حتى صبياً مراهقاً. لم تكن طويلة جداً ـ كانت اسكوتلاندية صغيرة وقصيرة: ولكن فيها تدفقاً خاصاً ورشاقة منتشرة قد تكون جمالاً. بشرتها سمراء مصفرّة ضعيفة، وفي أطرافها جمود ما، ويتخلل جسدها غنى يعمّه كله. ولكن ينقصها شيء ما.

بدلاً من نضج منحنيات جسدها الثابتة كان جسدها أكثر تسطيحاً وأميل إلى الخشونة. كما لو أنه لم يكن يَنل كفايته من الشمس والدفء. كان رمادياً قليلاً وفاقد الحيوية. لقد فشلت في أنوثتها ولم تنجح أن تكون فتية وغير سمينة وشفافة. بدلاً من ذلك صارت مكمدة.

ss

ثدياها أقرب إلى الصغر وأشبه بالكمثرى. لكنهما غير ناضجين يؤلمانها قليلاً، ولامعنى لتعليقهما هناك. وفقد بطنها ومضاته المستديرة الطرية التي كانت موجودة عندما كانت في صباها، أيام صاحبها الألماني، الذي أحبها حباً جسدياً حقيقياً. عندئذٍ كانت فتية مورقة بنظرة حقيقية خاصة بها. الآن تهزل وتنبسط وتنحف - ولكنها نحافة ترهل. وفخذاها أيضاً اللذان كانا سريعين فضاحين في استدارة أنثوية غريبة ابنسطا وتَرَهلا بلا معنى.

جسدها ينحدر إلى الذبول والقتامة والاكمداد، كأنه مادة مهملة. جعلها تشعر بكآبة عميقة ويأس كبير. أي أمل كان هناك؟ صارت مسنة، بلغ سنها السابعة والعشرين من دون بريق أو شرارة من جسدها. وسنة من خلال الهجران والنكران: بلى النكران. فالنساء العاديات يحتفظن بأجسادهن مشرقة مثل البورسلين، الناعم، من الخارج. ولكن لايوجد شيء، داخل البورسلين - ولم تكن مشرقة حتى مثل هذا الإشراق. الحياة الفكرية، فجأة كَرِهتها بغضب عارم، تلك الحياة الخادعة.

نظرت في انعكاس المرآة الأخرى إلى ظهرها وخصرها وكفليها، إنها تنحل نحولاً شديداً، ولكنها لم تعتقد أنها بمثل هذا النحول. كانت تجعيدة ظهرها عندما انحنت خلفاً لتنظر، ضعيفة قليلاً: اعتادت أن تراها بارزة المظهر وهَّاجة. والانحدار الطويل لوركيها وردفيها قد فقد رونقه وإحساسه بالحيوية. ولّى. الفتى الألماني وحده أحبه، ومضى على موته الآن عشر سنوات، أو زهاء ذلك. ياله من وقت مضى، وهي الآن فقط في السابعة والعشرين. عشر سنوات، مات من عشر سنوات ذلك الفتى النضّاح بإحساسه الطازج الأهوج الذي طالما احتقرته، أين تجده الآن؟ لقد ذهب بعيداً عن الرجال. الرجال اليوم لهم تشجنات حزينة تستمر لدقيقتين فقط، مثل ميكائيل. ولكن ليس فيهم الإحساس النضاح الإنساني الذي يدفئ الدم وينعش الكائن، كل الكائن.

ss

وماتزال تعتقد أن أجمل جزء فيها هو المسقط المنحدر من الخاصرتين، من فجوة الظهر واستدارة الردفين الهادئين. مثل كثبان الرمال كما يقول العرب تندفق أسفل بانحدار طويل. هنا ماتزال الحياة باقية، هنا مايزال رمق من الحياة ـ ولكن هنا أيضاً ماتزال أشد نحولاً، وقد ولى نضجها وانقبضت.

بيد أن واجهة جسدها جعلها بائسة. فقد بدأ يترهل ترهل النحول، أو الذبول تقريباً، فشاخ قبل أن يحيا. فكرت بالطفل الذي ستحمل به. هل هي بهذا الوضع ملائمة؟

ارتدت ملابس نومها وذهبت إلى فراشها، حيث راحت تتنهد بمرارة. وفي مرارتها اندلعت نار من الاحتقار البارد ضد كليفورد وكتاباته وحديثه: ضد كل الرجال من نوعه الذين يخدعون المرأة حتى خارج جسدها. هذا ظلم، ظلم. اندلع إحساس جسدي عميق من خلال أعماق نفسها.

كالعادة استيقظت صباحاً في السابعة، ونزلت الدرج إلى كليفورد. عليها أن تساعده في كل الأشياء الحميمة، إذ ليس لديه رجل خادم، وقد رفض المرأة الخادمة. زوج مدبرة المنزل، الذي عرفه مذ كان صبياً، ساعده وحمل عنه كل ماهو ثقيل. أما كوني فتعمل في الأشياء الشخصية. وتؤدي عملها بمهارة. كان مطلوباً منها، ولكنها كانت تعمل ماتستطيعه.

ولهذا قلما ابتعدت عن راغبي، ولايزيد غيابها أكثر من يوم أو يومين: حين كانت السيدة بيتس مدبرة المنزل، تعمل عند كليفورد. وكان من المحتوم بمرور الزمن أن يتخلى كليفورد عن كل الأعمال. كان طبيعياً أن يذعن.

ومع ذلك بدأ يندلع في كوني، في داخلها العميق، إحساس بالظلم، إحساس بكونها منبوذة. إحساسها الجسدي بالظلم شعور خطير إذا استيقظ. لابد من إخماده وإلا فإنه يلتهم من يقف في طريقه.

ss

لالوم على كليفورد المسكين. فحظه كان من أتعس الحظوظ على الإطلاق. كان كله جزءاً من كارثة عامة.

ومع ذلك هل كان بعيداً عن الملامة؟ هذه الحاجة إلى الدفء، هذه الحاجة إلى أبسط تماس جسدي دافئ - ألا يُلام عليه؟ لم يكن دافئاً أبداً ولن يكون. لطيف ومفكر ومعتبر، بتربية جيدة، وبأسلوب هادئ. لكنه لم يكن دافئاً كما يكون الرجل دافئاً عند المرأة: فحتى والد كوني يمكن أن يكون دافئاً لها، بدفء رجل حسن التصرف، ويتعمد ذلك، ولكنه رجل يمكن أن يريح المرأة بقليل من الوهج الذكوري.

أما كليفورد فما كان فيه شيء من ذلك. لم يكن عِرقه من هذه الشاكلة. كانا متجافيين داخلياً ومنفصلين، وكان الدفء عندهما ذوقاً رديئاً تماماً. فبإمكانك الاستمرار من دونه، وتأخذ بذوقك الخاص. وكان هذا مقبولاً لو كنت من الطبقة ذاتها والعِرق ذاته. عندها تستطيع أن تحتفظ لنفسك بالبرودة وتكون مقدّراً، وتشق طريقك الخاص وتتمتع بالقناعة به. ولكن إذا كنت من طبقة أخرى وعرق آخر، عليك أن تفعل، فلا مزاح في التمسك فقط بأسلوبك والشعور أنك تنتمي إلى الطبقة الحاكمة. ماذا كانت المسألة عندما حتى الأرستقراطيون الأشد أناقة فقدوا أي شيء إيجابي يتمسكون به، وكان حكمهم كذباً، وليس حكماً على الإطلاق. ماذا كانت المسألة؟ كانت عبثية باردة لاطائل منها.

راح إحساس التمرد يتأجج في كوني. وأي خير يرجى منه. ما الخير في تضحيتها، وتكريس حياتها لكليفورد؟ ثم ماذا كانت خدمتها بعد كل شيء؟ روح باردة من الغرور، لاصلات بشرية دافئة فيها، وكان ذلك فاسداً فساد يهودي وضيع المولد تواق للزنى مع الربة العاهرة، مع النجاح. وحتى تأكيد برودة كليفورد وعدم تواصله بأنه ينتمي إلى الطبقة الحاكمة لم يمنع لسانه من الاندلاق خارج فمه واللهاث وراء الربة العاهرة. يضاف إلى ذلك أن ميكائيل

كان فعلاً أكثر كرامة في المادة وأبعد، أبعد كثيراً في النجاح. وفوق ذلك إذا أنت نظرت عن كثب إلى لهاث كليفورد وراء الربة العاهرة، وجدته مأفوناً. والمأفون أشد ضعة من النذل.

في اختيار الرجال كان ميكائيل أنسب لها بكثير من كليفورد. فهو حتى أشد حاجة إليها بكثير. وأي ممرضة يمكنها الاهتمام بالساقين المشلولتين. أما فيما يخص الجهد البطولي فقد كان ميكائيل فأراً بطلاً، وكان كليفورد كلباً منبوذاً.

كان هناك من يقيمون في المنزل، ومنهم خالة كليفورد إيفا الليدي بينرلي. كانت امرأة نحيلة في الستين، بأنف أحمر وكانت أرملة فيها بقايا من السيدة النبيلة. تنتمي إلى أسرة من أعرق الأسر، وكانت سمتها تدل على ذلك. أحبتها كوني فقد كانت بسيطة جداً وصريحة، بمقدار ماكانت هي صريحة، ورقيقة. وكانت في داخلها سيدة من النوع القديم في تصرفها الخاص وتصرفها مع من هم أدنى منها. لم تكن متعجرفة ـ فهي أبعد ماتكون عن تأكيد ذاتها. وكانت كاملة في الألعاب الرياضية الاجتماعية فتحرز التقدم وتجعل الآخرين متأخرين عنها. كانت لطيفة مع كوني وحاولت أن تدفئ روح المرأة فيها بمخرز حاد من ملاحظات امرأة كريمة المحْتِد.

قالت لكوني «أنت رائعة تماماً في رأيي وصنعت ماهو رائع مع كليفورد. وأنا نفسي لم أشاهد أي عبقرية مزدهرة، وهاهو هناك يأكله الغضب». ـ كانت الخالة إيفا مفتخرة تماماً بنجاح كليفورد. ريشة أخرى في قبعة العائلة. لم تأبه إطلاقاً بكتبه أو لكن لماذا يجب أن تأبه؟

قالت كوني «لاأعتقد أن هذا من عملي».

«يجب أن يكون. لايمكن أن يكون شخص آخر. ويبدو لي أنك لاتقومين بالكفاية منه».

«كيف؟».

«انظري إلى الطريقة التي تقومين بها هنا. قلت لكليفورد: إذا تمردت تلك الطفلة ذات يوم، فعليك أن تجبر نفسك على الشكر ـ».

قالت كوني «ولكن كليفورد لايمنعني من عمل شيء».

«انظري إلي أيتها الطفلة العزيزة» وألقت الليدي بينرلي يدها النحيلة على ذراع كوني ـ «على المرأة أن تعيش حياتها، وإلا ندمت لماذا لم تعش حياتها. صدقيني» ـ واحتست حسوة أخرى من البراندي، التي ربما كانت شكلاً لندمها».

«ولكن أعيش حياتي، أليس كذلك؟».

«لايابنيتي، لا حسب فكرتي، فكليفورد لن يأخذك إلى لندن ويبيح لك أن تذهبي حيث تشائين. فنوع أصدقائه دائماً يكونون له ـ ولكن ماذا يكونون عندك؟ لو كنت مكانك لما كان هذا يكفيني، يجب أن تدعي صباك يأخذ حريته، وإلا ستمضين سنوات شيخوختك ـ وأواسط عمرك أيضاً ـ نادمة».

وغرقت سيادتها في صمت تأملي، يهدئها البراندي.

لكن كوني لم تكن منتبهة للذهاب إلى لندن فتقودها الليدي بينرلي في العالم الأنيق. إنها لم تشعر حقاً بالأناقة: لم تكن مهتمة بها. كانت تشعر فقط ببرودة الذبول الخاص. مثل تربة لابرادور التي تفرح ببضع زهرات على سطحها في حين تتجمد في أسفلها لأكثر من قدم.

كان تومي ديوكس في راغبي: وشخص آخر هاري ونترسلو وجاك سترانجواي مع زوجته أوليف. كان الحديث متقطعاً أكثر مما لو كان الحميمون وحدهم هناك ـ وكل واحد يسهم بشيء قليل، لأن الجو كان سيئاً وليس فيه سوى البلياردو والبيانو للرقص.

كانت أوليفى تقرأ كتاباً عن المستقبل، حيث يربى الأطفال في زجاجات، وتخضع النسوة «للمناعة».

قالت «إنه شيء جيد تماماً أيضاً، عندها تستطيع المرأة أن تعيش حياتها الخاصة».

ss

أرادت سترانجواي أطفالاً ولكنها لم تفعل.

سألتها ونترسلو بابتسامة بشعة «كيف تريدين أن تُمنّعي؟».

قالت «أنا، آمل أن ـ طبيعياً، على أي حال إن المستقبل سيكون أكثر إمكانيات، فالمرأة لاتحتاج أن تغوص بأعمالها الأمومية ـ».

قال ديوكس «ربما تعوم في الفضاء أيضاً».

قال كليفورد «أظن أن الحضارة الكاملة مضطرة للقضاء على العجز الجسدي. فكل مسائل الحب، مثلاً، سوف تسير تماماً. أعتقد أنها تسير حسناً إن استطعنا تربية الأطفال في زجاجات».

«لا» صرخت أوليف «فذلك يدع كل الفراغ الكبير للسخرية».

قالت الليدي بينرلي متأملة «إن سارت مسألة الحب تماماً فهناك شيء ما يحل محله، المخدرات، أقول ربما المخدرات. فكمية قليلة من المورفين تملأ الهواء، وسيكون هذا منعشاً عجيباً لأي شخص».

قال جاك «تطلق الحكومة أثيراً في الهواء يوم السبت، من أجل عطلة نهاية أسبوع بهيجة. أفكار صحيحة، ولكن أين نكون يوم الأربعاء؟».

قالت الليدي بينرلي «مادمت تنسى جسدك فأنت السعيد. ولكن في اللحظة التي تبدأ فيها بإدراك جسدك فأنت البائس. فإن كانت الحضارة جيدة، فعليها أن تساعدنا على نسيان أجسادنا، فيمر الزمن بسعادة، من دون أن ندركه».

قال ونترسلو «هذا يساعدنا على التحرر من أجسادنا كلها. إنه زمن هادئ يبدأ فيه الإنسان بتحسين طبيعته الخاصة، وبالأخص الناحية الجسدية فيها».

قالت كوني «تخيلوا لو أننا عشنا مثل دخان السجاير».

قال ديوكس «لن يحدث هذا. فمظهرنا القديم سوف يتخبط:

فتنهار حضارتنا. إنها تغوص في هوة لاقرار لها، تنزل إلى الهاوية. صدقوني إن الجسر الوحيد عبر الهوة هو القضيب».

صرخت أوليف «لا، لا، مستحيل أيها الجنرال».

قالت الخالة إيفا «اعتقد أن حضارتنا آيلة إلى الانهيار».

قال كليفورد «وماذا يعقبها؟».

قالت السيدة الأكبر «ليس لدي أدنى فكرة. لكن هناك شيئاً مايعقبها».

قال كليفورد «تقول كوني إن الناس سيكونون حزماً من الدخان وتقول أوليف بأن النساء سيخضعن للتمنيع ويربى الأطفال في زجاجات، ويقول ديوكس بأن القضيب سيكون الجسر لما يأتي فيما بعد. وأنا أحتار فيما يكون ـ».

قالت أوليف «أوه، لاتزعج نفسك، دعنا نعِش يومنا».

«أسرعوا بزجاجات التربية ودعونا نحن النساء المسكينات بعيداً».

قال تومي «ربما يكون هناك رجال حقيقيون في المرحلة التالية. رجال كاملون مثقفون، ونساء كاملات جميلات، ألا يكون هذا تغيراً؟ إنه تغير كبير فينا، فنحن لسنا رجالاً ـ والنساء لسن نساء. نحن مجرد بدائل مخّية، مجرد تجارب ميكانيكية وفكرية. ـ ربما تأتي حتى حضارة رجال ونساء عباقرة فبدلاً من ذكائنا المحدود يبدأ الذكاء للعمر الثقافي في السابعة. وقد يبدو هذا محيراً أكثر من حزم الدخان وأطفال الزجاجات».

قالت أوليف «أوه عندما يبدأ الناس الحديث عن النساء الحقيقيات فإني أستسلم».

قال ونترسلو «لاشك أنه لاشيء سوى الروح تستحق أن توجد».

«الأرواح» قال جاك وهو يكرع الويسكي مع الصودا.

ss

قال ديوكس «أعتقد هكذا؟ قدم لي قيامة الجسد. لكنها ستحصل في وقتها ـ عندما نرمي الحجر المخي في الهاوية، والمال وبقية الأشياء، عندئذٍ نحصل على ديمقراطية التواصل بدلاً من ديمقراطية الجيب».

كان شيء ما يتردد صداه داخل كوني «قدم لي قيامة الجسد، ديمقراطية التواصل». إنها لم تعرف أبداً ماذا تعني هذه الجملة الأخيرة، ولكنها جلبت لها الراحة، كما تفعل الأشياء التي لامعنى لها.

على أي حال كل شيء بليد بلادة مخيفة، وكانت منزعجة من الجميع، من كليفورد والخالة إيفا وأوليف وجاك وونترسلو، وحتى من ديوكس. حديث، حديث، حديث. أي جحيم إذا استمرت هذه الثرثرة.

ثم إذا ذهب كل الناس، لم يكن ذلك أفضل. وتابعت تتهادى، ولكن بسخط وغضب أمسكا جسدها السفلي، ولم تفلت منهما. وراحت الأيام تطحنها بالألم الممض، ومع ذلك لم يحدث شيء. كل مافي الأمر أنها طفقت تهزل أكثر فأكثر. فحتى مدبرة المنزل قالت لها ذلك، وسألتها عن حالتها. حتى تومي ديوكس ألح وأكّد أنها ليست على مايرام. ولكنها قالت إنها في حالة جيدة. فقط بدأت تخاف من شواهد القبور البيضاء الشبحية، ذلك البياض الكريه لمرمر كارارا، البغيض كالأسنان المستعارة المتشامخة في سفح الهضبة تحت كنيسة تيفرشال، والتي شاهدتها ببساطة من المتنزه، فبروز الأسنان الخبيثة لشواهد القبور على الهضبة دب الرعب في قلبها. شعرت أن زمن دفنها هناك ليس ببعيد، بالإضافة إلى حشود الأشباح هناك تحت شواهد القبور والأنصاب، في الميدلاندز القذرة.

عرفت أنها تحتاج إلى مساعدة. لذلك كتبت رسالة من القلب إلى أختها هيلدا «لم أعد في حالة جيدة في الأيام الأخيرة، ولاأعرف ماذا حدث لي».

ss

وراسلتها هيلدا من اسكوتلاندا، حيث اتخذتها مقرها. جاءت في آذار وحدها، تقود بنفسها سيارتها الجميلة ذات المقعدين. اعتلت الممر، مزمرة في المنحدر ثم راحت تدور المنحنى الاهليلجي للعشب حيث انتصبت شجرتان ضخمتان من الزان في المنبسط الممتد أمام المنزل.

انطلقت كوني مسرعة إلى الدرج. أوقفت هيلدا سيارتها وترجلت وقبّلت أختها.

قالت «ياكوني ماجرى لك؟».

قالت كوني والخجل يعلو وجهها «لاشيء».

لكنها عرفت أنها تتألم على عكس هيلدا. الأختان لهما البشرة الذهبية الوهاجة ذاتها والشعر البني والهيكل الجسدي الدافئ القوي قوة طبيعية. لكن جسد كوني كان الآن أنحل وأهزل مع عنق مصفرّ رفيع بارز من قبة ثوبها.

«لكنك مريضة أيتها الطفلة». قالت هيلدا بصوت ناعم ولكن مبهور الأنفاس، وهذه ميزة للأختين في صوتهما. كانت هيلدا أكبر من كوني بزهاء سنتين، ليس تماماً.

«لا لست مريضة. ربما منزعجة»، قالت كوني بقليل من الحزن.

وميض المعركة لمع في وجه هيلدا: كانت امرأة ناعمة وماتزال كما كانت، من النوع الأمازوني القديم، الذي لايناسب الرجال.

«هذا المكان البائس» قالت بنعومة، ناظرة إلى راغبي القديم المسكين المبعثر بكراهية حقيقية. بدت ناعمة ودافئة مثل كمثرى ناضجة: كانت أمازونية ذات تربية قديمة حقيقية.

ذهبت بهدوء إلى كليفورد. راح يفكر كم هي أنيقة: ولكنه أيضاً تشنج منها. في أسرة زوجته لايوجد هذا النوع من السلوك وهذا

النوع من الأتيكيت، إنه يعتبرهم بالأحرى دخلاء: ولكن حالما يصبحون في الداخل فإنهم يجعلونه يقفز من الطارة.

جلس باستقامة وكياسة في كرسيه، بشعره الأملس ووجهه الأشقر وعينيه الزرقاوين الشاحبتين والجاحظتين قليلاً، وتعبيره الغامض ولكن المهذب - اعتقدت هيلدا أنه عابس وبليد - وراح ينتظرها. كان يستنشق الهواء بثقة، لكن هيلدا لاتأبه بكيف يستنشقه. فعانقته، ولو كان بابا أو امبراطوراً لفعلت الشيء ذاته.

«تبدو كوني معتلة على نحو مخيف» قالت ذلك بصوتها الناعم، وقد ثبتت فيه عينيها الجميلتين المشرقتين. بدت لطيفة: وكذلك كوني. لكنه يعرف حجر العناد الاسكوتلاندي الخفي.

قال «إنها تهزل قليلاً».

«ألم تفعل شيئاً لها؟».

«أتعتقدين أن هذا ضروري؟» سأل بصلابته الانكليزية اللطيفة.

حملقت فيه هيلدا دون جواب فلم تكن البداهة من ميزتها: ولامن ميزة كوني. حملقت فانزعج أكثر مما لو قالت شيئاً ما.

أخيراً قالت هيلدا «سآخذها إلى الطبيب. هل لك أن تقترح اسم طبيب هنا في الجوار؟».

«أخشى ألّا أعرف».

«إذن آخذها إلى لندن، هناك طبيب نثق به» ومع أنه كان يغلي غضباً، فإنه لم يقل شيئاً.

قالت هيلدا وهي تخلع قفازيها «سآخذها بسيارتي إلى المدينة غداً».

اصفرَّ وجه كليفورد غضباً، وفي المساء اصفرَّ بياض عينيه قليلاً أيضاً. كأنه أصيب باليرقان. لكن هيلدا كانت دائماً متواضعة ولطيفة.

«يجب أن يكون عندك ممرضة أو شخص مايعتني بك شخصياً.
لابد لك من خادم شخصي» قالت هيلدا ذلك وهم يجلسون بهدوء واضح لتناول قهوة مابعد الغداء. تحدثت بطريقتها الناعمة التي تبدو لطيفة، بيد أن كليفورد شعر كأنما كانت تضربه على رأسه بهراوة.

قال ببرود «أتظنين ذلك؟».

«بكل تأكيد ومن الضروري. إما ذلك أو والدي أو أنا نأخذ كوني بعيداً لبضعة أشهر. هذا الوضع لايمكن أن يستمر».

«ماالذي لايمكن أن يستمر؟».

«ألا تبحث عن طفل؟» سألت هيلدا وهي محدقة فيه تحديقاً.

نظر إليها كأنه جرادة بحرية وضعت للتو في مقلاة: أو هكذا تراءى لها.

قال «سوف أتناقش أنا وكوني في ذلك».

قالت هيلدا «سبق وناقشته أنا معها».

كان كليفورد قد أمضى زمناً طويلاً بين أيدي الممرضات. إنه يكرههن لأنهن لم يتركن له خصوصيته. والخادم - لايستطيع أن يأتي برجل يطوف حوله - فأي امرأة أفضل منه. ولكن لماذا لاتكون كوني؟

انطلقت الأختان في الصباح، وقد بدت كوني مثل خروف عيد الفصح، أو بالأحرى كانت صغيرة تجاه هيلدا، التي قادت السيارة. كان مالكولم غائباً ولكن بيت كنسينغتون كان مفتوحاً.

فحص الدكتور كوني بدقة، وسألها عن كل مايتعلق بحياتها. «أرى صورتك وصورة السير كليفورد في الصحف المصورة أحياناً. أقاويل سيئة، أليس كذلك؟ هكذا تنشأ الفتيات الصغيرات تماماً. وأنت فتاة صغيرة تماماً حتى الآن، على الرغم من الصحف

SS

المصورة. لا. لا. لايوجد خطأ. لكن هذا لايهم، لا. لاأهمية له. قولي للسير كليفورد أن يأتي بك إلى المدينة، أو يأخذك إلى الخارج، لتسليتك، يجب أن تتسلي، يجب. إن حيويتك متدنية إلى حد كبير: ليس لديك أي احتياط من هذه الحيوية. أعصاب قلبك غريبة جداً: أوه الحقيقة لاشيء سوى الأعصاب، سأجعلك سليمة خلال شهر، في «كان» على شاطئ المتوسط، أو في «بياريتز» على شاطئ الأطلسي. ولكن يجب ألا تستمري هكذا، لا، إني أخبرك: وإلا فإني غير مسؤول عن النتائج. أنت تنفقين حياتك دون أن تجدديها. يجب أن تجدي تسلية، وعلى الأخص تسلية صحية. إنك تهدرين حيويتك من دون تصنيع حيوية. افهمي أنك لن تستطيعي الاستمرار. الكآبة تجني الكآبة».

أطبقت هيلدا فكها. وهذا يعني شيئاً ما.

سمع ميكائيل أنهما في المدينة فجاء مسرعاً حاملاً الورود. صاح «هناك شيء خطأ. إنك تتكتمين. لماذا أنا لم ألحظ هذا التغير. لماذا لم تخبريني ـ ـ ـ هلمي معي إلى «نيس» تعالي إلى «صقلية» قومي وتعالي معي، إنها جميلة جداً في هذه الأيام. أنت بحاجة إلى شمس. تحتاجين الحياة. لماذا تتلفين نفسك. هيا وتعالي معي. تعالي إلى أفريقيا. ابعدي السير كليفورد. ارمي كليفورد وتعالي معي. سأتزوجك في الدقيقة التي يطلقك فيها. تعالي معي وجربي الحياة. الله محبة. راغبي يقتل أي ابن آدم. إنه مكان موحش، مكان كريه، يقتل كل إنسان. تعالي معي إلى الشمس. إن ماتحتاجينه هو الشمس طبعاً وقليل من الحياة العادية ـ».

كأن قلب كوني توقف عندما سمعت فكرة هجر كليفورد هناك وفي اللحظة ذاتها. إنها لاتستطيع أن تفعل ذلك. كلا ـ كلا. إنها فعلاً لاتستطيع. عليها أن تعود إلى راغبي.

اشمأز ميكائيل الذي لم تعجب به هيلدا، ولكنها تفضله على كليفورد. ثم عادت الفتاتان إلى الميدلاندز.

ss

تحدثت هيلدا إلى كليفورد ـ الذي ظلت كرتا عينيه صفراوين عندما آبتا. هو أيضاً، بطريقته، كان مثاراً. كان عليه أن يصغي لكل ماقالته هيلدا، وكل ماقاله الدكتور ولكن ليس لما قاله ميكائيل طبعاً. وجلس صامتاً طيلة الإنذار.

«هنا يوجد عنوان خادم طيب خدم مريضاً عاجزاً: ومن الأفضل أن تدعوه للمجيء».

قال كليفورد، الشيطان المسكين «لكني لست عاجزاً ثم لاأريد أن يكون لدي خادم رجل».

«إذن خذ عنواني امرأتين: رأيت إحداهما: إنها ستكون جيدة وتعمل حسناً، امرأة في الخمسين، هادئة قوية لطيفة، وبالمناسبة فهي مثقفة ـ».

اكتفى كليفورد بالصمت ولم يقدم جواباً.

«لابأس ياكليفورد. إن نحن لم نُسوِّ شيئاً غداً سوف أبرق لوالدي وسوف نأخذ كوني ونذهب».

سأل كليفورد «هل ستذهب كوني؟».

«إنها لاتريد أن تذهب. ولكن يجب أن تذهب. أمنا ماتت بالسرطان. عاشت بالقهر. نحن لانريد مخاطرة أخرى».

في اليوم التالي اختار كليفورد السيدة بولتون، ممرضة أبرشية تيفرشال. ومن الواضح أن السيدة بيتس هي التي اختارتها: وكانت السيدة بولتون مرهقة من واجبات الأبرشية، وتريد أعمالاً تمريضية خاصة. كان لدى كليفورد خوف غريب من تسليم نفسه لأيدي ممرضة غريبة. لكن السيدة بولتون كانت قد خدمته مرة أثناء الحمى القرمزية التي أصابته، فهو يعرفها.

على الفور استدعت الأختان السيدة بولتون، في أحدث منزل من

ss

المنازل في تيفرشال، كأنه اختير لتيفرشال. وجدتا امرأة حسنة المنظر بين الأربعين والخمسين، في ثياب التمريض بياقة بيضاء ومريلة، كانت تصنع الشاي لنفسها في غرفة جلوس صغيرة حاشدة.

كانت السيدة بولتون لطيفة مهذبة، تبدو جميلة هادئة، تتحدث الانكليزية بتجاوزات كثيرة ولكن بدقة، وبممارستها الاعتناء بعمال المناجم المرضى لسنوات مديدة، شكلت رأياً طيباً عن نفسها وحازت على كمية من الضمانة. باختصار كانت بطريقتها اللطيفة واحدة من الطبقة الحاكمة في القرية التي تحظى بكثير من الاحترام.

«بلى إن الليدي شاترلي لاتبدو على مايرام. اعتدنا أن نراها جيدة الصحة، لكنها ليست كذلك الآن. بيد أنها كانت منزوية طيلة الشتاء. كانت صعبة جداً وقاسية تلك الحرب، كليفورد، ياله من مسكين، وليس لدينا سوى القليل نجيب عنه».

وتأتي السيدة بولتون إلى راغبي فوراً إذا سرحها الدكتور شاردلو. فأمامها أسبوعان تماماً تقوم بهما في خدمة الأبرشية. «ولكن يمكن أن يكون هناك بديل، كما تعرفون».

راسلت هيلدا الدكتور شاردلو. وفي الأحد التالي انتقلت السيدة بولتون في سيارة ليفر إلى راغبي مع صندوقين من حوائجها. تحدثت هيلدا إليها. وكانت السيدة بولتون مستعدة للحديث في أي لحظة. وقد بدت فتية فطريقة انفعالها تتوهج في خديها الشاحبين. كانت في السابعة والأربعين.

قُتل زوجها تيد بولتون في الحفرة قبل اثنتين وعشرين سنة: قبل اثنتين وعشرين سنة من آخر عيد ميلاد: فقد قتل تماماً في ليلة الميلاد: تركها مع طفلتين، إحداهما رضيعة على ذراعيها. ـ أواه الرضيعة الآن اديث تزوجت من شاب في بوتس كاش كيمست في

ss

شيفلد. والطفلة الثانية هي الآن معلمة مدرسة في شسترفيلد، تأتي إلى البيت في نهايات العطل الأسبوعية عندما لاتُطلب إلى مكان آخر. إن الشابات يمتّعن أنفسهن في هذه الأيام - وليس مثل ايفي بولتون عندما كانت شابة.

كان تيد بولتون في الثامنة والعشرين عندما قُتل في انفجار حدث في الحفرة. فالعامل الذي في المقدمة صرخ بزملائه جميعاً أن ينبطحوا أرضاً بسرعة. كان هناك أربعة كلهم استلقوا على الأرض في الوقت المناسب ونجوا عدا تيد، فقتله الانفجار. وعندما قام أصحاب العمل بالتحقيق قالوا إن بولتون خاف وحاول الهرب، ولم يَطع الأوامر، فكانت الغلطة غلطته حقاً. وهكذا اقتصر التعويض على ثلاثمئة جنيه فقط، وقد دُفعت كإكرامية وليس كتعويض شرعي، لأن الغلطة كانت فعلاً غلطة الرجل. ثم إنهم لم يدفعوا لها المال: فقد أرادت أن تفتح دكاناً. لكنهم قالوا إنها ولاشك ستبدد المبلغ ربما في الشرب. وهكذا راحت تسحبه بمعدل ثلاثين شلناً في الأسبوع. بلى، فقد كان عليها أن تذهب كل صباح اثنين إلى الدوائر وتقف هناك ساعتين تنتظر دورها. بلى فقد ظلت طيلة أربع سنوات تذهب كل يوم اثنين. وماذا تفعل بالطفلتين الصغيرتين على حضنها. لكن أم تيد كانت جد طيبة معها. فعندما صارت الطفلة تدادي في مشيها، كانت تحتفظ بالطفلتين عندها بينما هي، أي ايفي بولتون، تذهب إلى شيفلد وتنضم إلى صفوف تعليم نقالة الاسعاف، نقالة الإسعاف الخاصة، وظلت أربع سنوات في دورة التمريض، إلى أن أجيزت. صممت أن تكون مستقلة وتربي أطفالها، ولهذا عملت مساعدة في مشفى يوثوايت، وهو مكان صغير، لمدة وجيزة. ولكن عندما رأت الشركة - شركة منجم تيفرشال والحقيقة شركة السير جيوفري - أنها تستطيع الاستمرار وحدها عاملوها معاملة طيبة وأعطوها تمريض الأبرشية، وأيدوها، وهي نفسها تقول ذلك عنهم. وراحت تقوم بهذا العمل منذ ذلك الحين، إلى أن تخلصت منه الآن قليلاً فهي

تريد عملاً أخف، فأنت تقوم بطواف مضن عندما تكون ممرضاً للمقاطعة.

«نعم، كان أصحاب الشركة يعاملونني جيداً، وأنا دائماً أقول هذا. ولكني لاأنسى ماقالوه عن تيد، لأنه كان شجاعاً لايخاف ولم يكن شاب يماثله في كل المنجم لكنهم وصفوه بأنه جبان. إلا أنه مات ولايستطيع أن يقول شيئاً عن أي واحد منهم».

كانت خليطاً عجيباً من مشاعر امرأة تظهر وهي تتحدث. لقد أحبت عمال المناجم الذين قامت بتمريضهم مدة طويلة: ولكنها كانت تشعر بأنها متفوقة كثيراً عليهم، تشعر تقريباً شعور الطبقة العليا، وفي الوقت نفسه تشعر بالاشمئزاز ضد الطبقة المالكة. السادة... في مسألة السادة والرجال، كانت دائماً إلى جانب الرجال. ولكن عندما لاتُطرح مسألة الصراع كانت تتشبث بأن تكون متفوقة، بأن تكون من الطبقات العليا. لقد سحرتها الطبقات العليا التي قدمت لها عاطفة انكليزية خاصة تُشعرها بالتفوق. كانت مندفعة للقدوم إلى راغبي. كانت متشوقة للحديث إلى الليدي شاترلي ـ وطالما كررت ـ كلماتي مختلفة عن زوجات عمال المناجم العاميات. ولها في ذلك كلام كثير.

ويمكن للمرء أن يرى تذمرها من آل شاترلي يظهر فيها: تذمّرها من السادة.

«ولم لا، بلى، طبعاً كانت الليدي شاترلي تتلاشى. ومن حظها أن لها أختاً هرعت لمساعدتها. الرجال لايفكرون في ذلك. الأعلون منهم والأدنون، إنهم ينظرون إلى ماتقدمه المرأة لهم على أنه أمر مفروغ منه ومسلم به. طالما أخبرتُ عمال المناجم ذلك، أخبرتهم مرات كثيرة. ولكن هذا، كما ترين، صعب أن يقال للسير كليفورد، لرجل مُقعد كهذا. كانوا دائماً أسرة رفيعة بطريقة خاصة ـ باعتبار أن لهم الحق أن يكونوا سادة ـ لكنهم سرعان ما انهاروا ـ ومن

ss

الصعب جداً على الليدي شاترلي هذا الوضع، ربما أصعب عليها. ماتفتقده كان عندي. عاش تيد معي ثلاث سنوات فقط. لكني عندما تزوجته إنما تزوجت رجلاً لا يمكن نسيانه. كان يساوي ألف رجل، كان بهيجاً مثل النهار. من كان يظن أنه سوف يُقتل. حتى اليوم لاأصدق أنه قُتل ـ إنه شيء لم أصدقه قط ـ مع أني غسلته بيدي هاتين. لكنه لم يمت بالنسبة لي. أنا لم أصدق موته ـ».

كان هذا صوتاً جديداً في راغبي، وجديداً جداً بالنسبة لكوني هزها حتى الصميم. لقد فتح فيها أذناً جديدة.

في الأسبوع الأول تقريباً كانت السيدة بولتون هادئة تماماً في راغبي. ثم تخلت عن طريقتها المهنية المتقنة وصارت عصبية. كانت خجلة من كليفورد، خائفة إلى حد ما وصامتة. وكان هو يحب ذلك، وسرعان ما استعاد تملكه الذاتي، فتركها تعمل الأشياء التي تخصه دون أن يراقبها.

قال «إنها تافهة مفيدة».

فتحت كوني عينيها بدهشة، لكنها لم تخالفه. وهكذا كانت الانطباعات مختلفة في شخصين مختلفين.

سرعان ماأصبح متعالياً، وإلى حد ما يعامل الممرضة بطريقة اللوردات. وكانت تتوقع هذا منه. وكان هو يقوم بهذا دون أن يعرف. وغالباً مانشك فيما نتوقعه من أنفسنا. فعمال المناجم كانوا يشبهون الأطفال، يتحدثون إليها ويخبرونها عما يؤذيهم عندما كانت تربط لهم العصابات أو تمرّضهم. كانوا دائماً يجعلونها تشعر أنها كائن أكبر وأسمى في تصرفها. الآن جعلها كليفورد تشعر بأنها صغيرة ومثل خادمة، فتقبلت ذلك دون كلمة، مكيفة نفسها مع الطبقات العليا.

كانت تدبر أموره بصمت، بوجهها الطويل الأنيق وعينيها

ss

الخفيضتين. وقالت بكل تواضع «هل أقوم بهذا العمل سير كليفورد؟ هل أقوم بذاك؟».

«لا دعيه فترة، أريد أن تعمليه فيما بعد».

«كما تريد سير كليفورد».

«تعالي مرة ثانية بعد نصف ساعة».

«حسناً سير كليفورد».

«وخذي خارجاً هذه الأوراق القديمة، أفهمت؟».

«حسناً سير كليفورد».

وهكذا عملت بنعومة: وفي نصف ساعة قرعت بلطف مرة ثانية، كانت مغلوبة على أمرها، ولكنها لم تكن لتبالي. كانت تختبر الطبقات العليا. لم تمتعض من كليفورد ولم تكرهه. إنما كان جزءاً من ظاهرة، ظاهرة أبناء الطبقة العليا غير المعروفين لديها، ولكنهم باتوا معروفين الآن. شعرت بأنها في بيتها مع الليدي شاترلي - وفوق ذلك بدت كأنها سيدة البيت.

ساعدت السيدة بولتون السير كليفورد في الصعود إلى سريره ليلاً، ونامت عبر الممر قرب غرفته، لتحضر متى قرع لها الجرس في الليل. كما ساعدته في الصباح فألبسته كل ثيابه حتى أنها قامت بالحلاقة، بطريقة المرأة الناعمة المجربة. كانت طيبة ومؤهلة. وعرفت حالاً كيف تجعله تحت سلطتها. لم يكن يختلف كثيراً بعد كل شيء عن عمال المناجم عند وضع رغوة الصابون على ذقنه ومسح شعره. لكن عناده وبعده عن الصراحة لم يزعجاها. لقد كانت أمام تجربة جديدة.

على أي حال لم يسامح كليفورد كوني تماماً لتخليها عن عنايتها الشخصية لامرأة غريبة مأجورة. لقد قَتلت - كما قال لنفسه - الزهرة الحقيقية للحميمية بينه وبينها. لكن كوني لم تفكر في ذلك.

SS

فالزهرة الجميلة للحميمية كانت بالنسبة لها أشبه بنبتة سحلبية وبنتوء دخيل على شجرة حياتها، فبدت أمام عينيها زهرة دنيئة.

بات لها المزيد من الوقت الآن لنفسها. فتستطيع أن تلعب على البيانو بكل راحة في غرفتها وتغني: «لاتلمس القريص ـ ـ ـ فروابط الحب المريضة تنحلّ». لم تتبينّ إلا مؤخراً كم كانت هذه الروابط مريضة. كانت جد مسرورة لكونها وحيدة، ليس عليها أن تحدثه. عندما كان وحيداً كان يقرقع على الآلة الكاتبة إلى مالانهاية. ولكن عندما لم يكن «يعمل» وتكون هي هناك، فإنه يتحدث، دائماً يتحدث، بتحليل صغير سائب للناس والدوافع والنتائج والسمات والشخصيات ـ وحتى الآن كانت تجد في هذا مايكفي. لقد أحبت هذا العمل لسنوات ـ إلى أن صار لديها الكفاية، عندئذٍ وجدته كثيراً. إنها شاكرة لكونها وحيدة.

كان كما لو أن آلافاً من الجذور والخيوط الدقيقة من الوعي فيه وفيها قد نمت معاً وتشابكت في كتلة مختلطة، إلّا أنها لم تستطع الاختلاط، فماتت النبتة. الآن تماماً لم تختلط بخليط وعيه ووعيها، فقطعت الخيوط كلها، الواحد بعد الآخر، بصبر ودونما صبر، لتتحرر. لكن روابط هذا الحب من المرض بحيث لاتنحل أكثر حتى من أعظم الروابط. لذا كان قدوم السيدة بولتون مساعدة عظيمة.

إنه مايزال يطلب أماسي الحديث القديمة الحميمية مع كوني: الحديث أو القراءة بصوت عال. ولكنها الآن تستطيع أن تجعل السيدة بولتون تأتي بموعد ثابت في العاشرة لتفسد عليهما حديثهما، وبات بإمكان كوني في العاشرة أن تصعد الدرج وأن تكون وحيدة. كان كليفورد بأفضل رعاية بين يدي السيدة بولتون.

كانت السيدة بولتون تأكل مع السيدة بيتس في غرفة مدبرة المنزل ـ مادامتا موافقتين. ومن الغريب كم كانت أجنحة الخدم تبدو متقاربة: تبدأ من أبواب غرفة مطالعة كليفورد، بينما كانت من قبل

بعيدة جداً. وكانت السيدة بيتس تجلس أحياناً في غرفة السيدة بولتون، وتسمع كوني أصواتهما الخفيضة وتشعر أحياناً بأصداء أخرى قوية من العمال تقتحم غرف الجلوس، عندما تكون هي وكليفورد وحدهما. وهكذا تغير راغبي بمجرد قدوم السيدة بولتون.

وشعرت كوني نفسها بالراحة في عالم آخر. شعرت أنها تتنفس على نحو مختلف. ولكنها ماتزال خائفة من جذورها، وربما جذورها الأخلاقية مختلطة بجذور كليفورد. ومع ذلك كأنها تتنفس بحرية أكثر. إن مرحلة جديدة طفقت تظهر في حياتها.

SS

الفصل الثامن

احتفظت السيدة بولتون أيضاً بعين العناية على كوني، شاعرةً أن عليها أن تُظلها بشخصيتها كأنثى وبحمايتها الحرفية. دائماً كانت تحضها على مشوار خارج البيت وقيادة السيارة إلى يوثوايت، حتى تكون في الهواء الطلق. إذ أن كوني اعتادت الجلوس قرب المدفأة متذرعة بالقراءة أو بالخياطة، وقلما ظهرت خارجاً.

كان يوماً عاصفاً يوم سافرت هيلدا، فقالت السيدة بولتون: «لماذا لاتخرجين الآن في مشوار عبر الغابة وتتفرجين على البنفسج البري خلف كوخ الحارس؟ إنها أجمل منظر سوف ترينه في مسيرة يومك. ويمكن أن تأتي ببعضها إلى غرفتك. إن البنفسج البري بهيج المنظر، أليس كذلك؟».

أخذت كوني كلامها ملء عقلها: البنفسج البري بدلاً من البنفسج. وليس على المرء أن يمزجه بعصيره الخاص. عاد الربيع، «تعود الفصول، أما الربيع فلايعود لي ـ ـ ـ».

والحارس ـ جسده الأبيض يبدو مثل مدقّة وحيدة لزهرة خفية. لقد نسيته في كآبتها التي لاتوصف. لكن الآن يبدو أن شيئاً ما ظهر، «شاحب خلف الرواق والعتبة» والشيء الذي يجب أن تفعله هو المرور من الأروقة والعتبات.

ss

كانت أقوى ـ باستطاعتها أن تتمشور أفضل. ولن تكون الريح متعِبة كما كانت عبر المتنزه تهب ضدها. أرادت أن تنسى، أن تنسى العالم وكل الناس أصحاب الجثث الميتة. «يجب أن تولدي ثانية ـ أنا مؤمنة بقيامة الأجساد ـ ماعدا حبة القمح التي تسقط في الأرض وتموت، إنها لن تنهض أبداً ـ عندما ينبت الزعفران سوف أنبثق وأرى الشمس». في شمس آذار تدفقت جمل لانهاية لها من خلال وعيها.

نفحت هبات من أشعة الشمس، ساطعة سطوعاً غريباً وأضاءت بقوة طرف الغابة، تحت قضبان البندق. تلألأت مشرقة صفراء. وكانت الغابة راكدة، أشد سكوناً، ولكن مع ذلك كانت هناك هبات ريح ترافق الشمس العابرة. وظهرت شقائق النعمان الأولى، وحتى الغابة بدت شاحبة بشحوب شقائق النعمان التي تنتشر على سطح الأرض المهتز. «كان العالم يزداد شحوباً مع أنفاسكم»، لكنها كانت أنفاس من بروسربين، ملكة الجحيم، هذه المرة. كانت خارجة من الجحيم في الصباح البارد. وهبت أنفاس باردة من الريح، وأمامها كان غضب من الريح المختلطة يزأر بين الثنايا. كانت الريح تزأر وتحاول أن تنال حريتها فتمزق نفسها كما فعل أبشالوم بن داوود. كم بدت باردة شقائق النعمان، وقد عرّت أكتافها البيضاء وارتدت تنانير خضراء. ولكنها عاندت الريح. بضع أزاهير ربيعية صوحتها الشمس كانت على الدرب وبراعم صفراء لم تكشف عن نفسها.

كان الزئير والعصف في الأعالي، أما في الأسفل فكانت هناك تيارات باردة فقط. وقد كانت كوني مثارة في الغابة على نحو غريب، وعاد اللون إلى خديها وتوهجت الزرقة في عينيها. سارت متهادية، تلتقط قليلاً من أزهار الربيع والبنفسجات الأولى، التي تفوح بالعذوبة والبرد، العذوبة والبرد. وقد انساقت من دون أن تعرف أين كانت.

إلى أن وصلت إلى الأرض مقطوعة الأشجار في الطرف البعيد

للغابة، ورأت الكوخ الحجري المشوب بالاخضرار، يبدو وردياً مثل النواة تحت الفطر، وقد بدت أحجاره دافئة تحت الشمس. وكانت هناك دوارة ياسمين قرب الباب: الباب الموصد. ولكن لايوجد صوت: لادخان من المدخنة: لاكلب ينبح.

راحت تدور بهدوء نحو الخلف، حيث يوجد الرصيف. لاعذر لها: أن ترى النرجس.

كانت الورود القصيرة هناك، تتمايل وترتجف أحياناً مشرقة حية، ولكن دون أن تجد مكاناً تخبئ فيه وجوهها، كلما أشاحت بعيداً عن الريح.

وتهز أسمالها القليلة المشمسة في نوبات من الألم. ولكن ربما كانت تحب ذلك. ربما تحبّ هذه الاهتزازات.

جلست كونستانس وأسندت ظهرها إلى شجرة صنوبر صغيرة، تتمايل بحياة نَضِرة رافعة رأسها بقوة تمده إلى الأعلى على عكس حياتها. كانت الشيء الحي المنتصب بقمته نحو الشمس. وراقبت النرجس يتشبع بالشمس ويتصوح، مما كان يدفئ يديها وأطرافها. كما أنها صارت تستنشق رائحة الأزهار الناعمة. إذ كانت متماسكة ووحيدة، فقد شعرت بأنها تمسك بتيار مصيرها الخاص. كانت مربوطة بحبل، وتتهادى مثل قارب مشدود إلى مراسيه. الآن كانت متحررة وطافية.

وأفسحت أشعة الشمس انتشار برودة معتدلة. فالنرجس كان في الظل يغوص صامتاً. وهكذا غاص طيلة النهار وغاص في الصمت. كان قوياً في هشاشته.

نهضت منقبضة قليلاً، وقطفت بعض النرجس وانحدرت. إنها تكره قطف الأزهار. لكنها أرادت واحدة أو اثنتين معها. لابد أن تعود قافلة إلى راغبي وأسواره. والآن تكرهه، وتكره على الأخص

أسواره السميكة. أسوار، أسوار، دائماً أسوار. ومع ذلك يحتاجها المرء في هذه الريح.

عندما رجعت إلى المنزل سألها كليفورد.

«أين ذهبت؟»

«عبر الغابة. انظر كم هو جميل النرجس الصغير، ولذلك ينبثق من الأرض».

قال «إنما ينبثق بسبب الهواء والشمس».

«ولكنه يتشكل في الأرض» ردت بمعارضة قوية أدهشتها قليلاً.

بعد الظهر التالي ذهبت إلى الغابة مرة ثانية. سارت في الطريق العريض عبر الصنوبر إلى نبع يسمى بير يوحنا. كان الطقس بارداً في سفح هذه التلة، ولم تكن هناك زهرة في ظل الصنوبرات. ولكن النبع المتجمد قليلاً يضغط برقة إلى الأعلى من قاع جبه الصغير على حصباء بيضاء محمرّة نقية. كم كان متجمداً وصافياً. لاشك أن الحارس وضع حصباء جديدة. سمعت التدفق الضعيف للماء، والمسيل الصغير يترقرق منحدراً من الهضبة. حتى فوق الهدير الخفيف لغابة الصنوبر التي تنشر ظلها الذئبي الأعجف على المنحدر، سمعت الرنين كأنه قادم من الأجراس الصغيرة للماء.

كان هذا المكان رطباً بارداً مشؤوماً. ومع ذلك لابد أن يكون النبع مَشْرباً للناس منذ مئات السنين. لاشيء من ذلك الآن. فمكانه الصافي صار مخضراً وبارداً وكئيباً.

نهضت وذهبت ببطء نحو المنزل. وإذ انطلقت سمعت طقطقة ضعيفة بعيداً من الناحية اليمنى. وقفت تنصت. هل هو صوت مطرقة أم قاطع أخشاب؟ لاشك صوت مطرقة.

تابعت سيرها مصغية. ثم لاحظت درباً ضيقاً بين أشجار التنوب. درب بدا أنه لايقود إلى أي مكان. ولكنها شعرت أنه

SS

مستخدَم. فانعطفت منحدرة فيه بروح المغامرة، بين أشجار التنوب الفتية الكثيفة، التي تكشفت عن غابة سنديان قديمة. تابعت الدرب، فصار صوت المطرقة يقترب أكثر، في صمت الغابة التي تلعب فيها الريح. فالأشجار تصنع الصمت حتى عندما تضج الريح فيها.

رأت بقعة مقطوعة الأشجار صغيرة سرية، وكوخاً سرياً مصنوعاً من الأغصان البالية. لم تكن قد جاءت إلى هنا من قبل. تأكدت أنه المكان الهادئ الذي تربى فيه طيور الدرّج. كان الحارس بكميه القصيرين يطرق وهو راكع. هرعت الكلبة نحوها بنبحة حادة قصيرة. رفع الحارس رأسه فجأة فرآها. ظهرت في عينيه نظرة قلقة.

انتصب واقفاً وحيا، وهو يراقبها بصمت كلما اقتربت إلى الأمام بساقين ضعيفتين. امتعض من الاقتحام: استيقظت فيه عزلته كأنها حريته الوحيدة والأخيرة في العالم.

«عجبت من أين يأتي صوت الطرق» قالت وهي تشعر بالضعف والانبهار، وبقليل من الخوف منه، كلما سلط نظرته عليها.

قال بلهجة موغلة في المحلية «إني أهيئ القنان لتكون جاهزة للطيور الصغيرة».

لم تُحرْ جواباً، وشعرت بالضعف.

قال «تعالي واجلسي في الكوخ» وسار أمامها إلى الكوخ، دافعاً من الجوانب بعض الأخشاب والمواد المقطوعة، وساحباً كرسياً قديماً مصنوعاً من قضبان البندق.

«هل أشعل لك ناراً صغيرة؟» سأل بلهجة عامية ساذجة.

قالت «لاتتعب نفسك».

لكنه نظر إلى يديها: كانتا زرقاوين. لذلك أسرع وتناول بعض قضبان التنوب إلى مكان قرميدي صغير مخصص للنار في الزاوية،

وبلحظة واحدة اندلعت اللهبة الصفراء في الموقد. لقد صنع موقداً من القرميد.

قال «اجلسي هنا قليلاً وادفئي جسدك».

أطاعته. كان له هذا النوع الغريب من سلطة الحماية التي أطاعتها على الفور. وهكذا جلست ودفأت يديها على اللهب ورمت بعض قطع الأخشاب في النار، بينما كان هو في الخارج يعود إلى الطرق ثانية. إنها في الحقيقة لم ترغب في الجلوس وتحريك النار في الزاوية. كانت تود أن تجلس وتراقب من خلال الباب. ولكنها كانت تحت نظراته فاضطرت أن تخضع.

كان الكوخ أليفاً، مزيناً بأدوات غير ملمّعة، وفيه طاولة قديمة وكرسي بلا سند، إلى جانب كرسيها، ومقعد وصندوق كبير، وألواح جديدة ومسامير وأشياء كثيرة معلقة بأوتاد: فأس وبلطة ومصائد وأشياء جلدية، وأشياء في أكياس ومعطفه. ليس للكوخ نافذة، فالنور يأتي من الباب المفتوح. كان ملخبطاً. ولكنه أيضاً كان نوعاً من المعبد الصغير.

أصغت لصوت مطرقة الرجل. لم تكن الطرقات تسعدها وكان هو حزيناً. فقد حدث خرق لخصوصيته، وخرق من نوع خطير. امرأة. لقد وصل إلى النقطة التي كل مايريده فيها أن يكون وحيداً. ومع ذلك لم يكن له حول في الاحتفاظ بخصوصيته. كان رجلاً مأجوراً وكان هؤلاء أسياده.

لم يكن يرغب أن يكون على اتصال بامرأة مرة ثانية. إنه يخاف من هذا الاتصال: كان فيه جرح كبير من الاتصال القديم. شعر أنه سوف يموت إن لم يكن وحيداً، وإن لم يُترك وحيداً. كان ابتعاده عن العالم الخارجي كاملاً. وكانت هذه الغابة ملجأه الأخير: حتى يختبئ فيها.

ازدادت كوني دفئاً قرب النار، التي جعلتها ناراً كبيرة: ثم

شعرت بارتفاع الحرارة، ذهبت وجلست على الكرسي الذي لامسند له في مدخل الباب، تراقب الرجل وهو يعمل. تظاهر أنه لايراقبها. ومع ذلك تابع العمل، كأنه مستغرق فيه، وقد أقعت كلبته على ذيلها قريباً منه وراحت تراقب العالم غير الجدير بالثقة.

أنهى الرجل بسرعة وهدوء القن الذي كان يصنعه، فتفحصه وجرب انزلاق الباب، ثم وضعه جانباً. عندئذٍ نهض والتفت إلى قن قديم وأخذه إلى الخشبة التي كان يعمل عليها. فانحنى وجرب القضبان. بعضها انكسر بيديه. وبدأ يضع المسامير، ثم قلب القن وتفحصه. دون أن يولي أي بادرة اهتمام لحضور المرأة.

وهكذا راقبته كوني بدقة. وكما شاهدته في وحدته عارياً، شاهدته الآن مرتدياً: وحيداً منكباً على عمله، وحيداً يعمل كحيوان ، ولكنه مدجن مثل نفس اعتادت التنحي بعيداً بعيداً عن كل تماس بشري. وبصمت وصبر كان يتنحى عنها الآن. كان السكون والصبر الذي لازمن له، في رجل نافد الصبر وعاطفي هو مالامس رحم كوني. رأت في رأسه المنحني ويديه السريعتين الهادئتين وانحناء خاصرتيه النحيلتين الحساستين شيئاً من الصبر والانسحاب. شعرت أن تجربته كانت أعمق وأوسع من تجربتها: أكثر عمقاً واتساعاً، وربما أشد قتلاً للنفس. وقد أراحها هذا من نفسها. شعرت أنها غير مسؤولة.

وهكذا جلست في مدخل الكوخ حالمة غير واعية للزمن وللظروف الخاصة. لقد فاتها أنه يلمحها بسرعة، فرأى السكون ونظرة الانتظار في وجهها. بالنسبة إليه كانت نظرة انتظار. وفجأة ارتجف لسان صغير من النار في خاصرتيه، في أسفل ظهره فحركت نفسه. كان يخاف خوف الموت أي تماس بشري وثيق. ودَّ قبل أي شيء لو أنها تبتعد وتتركه لخصوصيته. خاف من إرادتها، إرادتها الأنثوية، وتماسكها الأنثوي الحديث. وفوق كل شيء، خاف

SS

برودها، صفاقة الطبقة العليا في اتباعها طريقتها الخاصة. ثم فوق كل هذا إنه رجل مأجور: لقد كره حضورها هناك.

عادت كوني إلى نفسها بصعوبة فجائية. نهضت. وكان عصر النهار يميل إلى المساء. ومع ذلك لم ترجع أدراجها. اتجهت إلى الرجل، وقف في حالة اهتمام، فجمد وجهه وابيضّ وراح يراقبها بعينيه.

قالت «المكان جميل هنا، مريح، أنا لم آت إلى هنا من قبل».

«لا؟».

«أظن سوف آتي وأجلس هنا أحياناً».

«بلى».

«أتغلق الكوخ عندما لاتكون هنا؟».

«بلى، أيتها الليدي».

«أعتقد أنه يمكن أن يكون معي مفتاح أيضاً؟ بحيث أجلس أحياناً. هل هناك مفتاحان؟».

«حسب علمي، لايوجد».

انتقل إلى اللغة المحلية. ترددت كوني. كان يعترض. لكن بعد كل شيء هل هذا الكوخ له؟

«هل نحصل على مفتاح آخر؟» قالت بصوتها الناعم، بما يوحي أن المرأة مصممة على متابعة طريقها.

«آخر» قال وقد رمقها بغضب وسخرية.

قالت بحماسة «نعم، نسخة عنه».

«ربما يعرف السيد كليفورد» قال ذلك فأحرجها.

قالت «نعم قد يكون معه آخر. وإلا سوف نصنع نسخة من مفتاحك. لن يستغرق أكثر من يوم تقريباً كما أظن. أنت تستطيع أن تستغني عن مفتاحك طويلاً».

«لاأستطيع إخبارك ياسيدتي، فلاأعرف أحداً هنا في الجوار يصنع مفاتيحاً».

فجأة ركب الغضب كوني.

قالت «لابأس سوف أنظر في ذلك».

«كما تريدين أيتها الليدي».

التقت عيناهما. كانت في عينيه نظرة باردة قبيحة من الكراهية والازدراء واللامبالاة بما يجري. وكانت عيناها تحمران استنكاراً.

لكن قلبها كان غائصاً، لقد رأت إلى أي مدى يكرهها عندما عارضته. رأت فيه نوعاً من اليأس.

«طاب يومك».

«طاب يومك أيتها الليدي» - حيا وانعطف بعيداً. لقد أيقظت الكلاب النائمة للغضب الضاري القديم فيه، الغضب المعادي الأنثى التي تفرض إرادتها. كان بلا حول. بلا حول، إنه يعرف ذلك.

وكانت غاضبة من الذكر الذي يفرض إرادته. وخادم أيضاً. عادت متثاقلة إلى المنزل.

وجدت السيدة بولتون تحت شجرة الزان الكبيرة على التلة تبحث عنها. قالت السيدة بمرح «أراقب إن كنت تأتين أيتها الليدي».

قالت كوني «وهل تأخرت؟».

«أوه السيد كليفورد كان ينتظر شرب الشاي».

«لِمَ لمْ تصنعي الشاي أنتِ إذن؟».

«أوه، لاأعتقد أن ذلك هو مكاني، لاأظن السير كليفورد يوافق على ذلك أبداً ياسيدتي».

قالت كوني «لاأدري لماذا؟».

ss

مشت إلى الداخل، إلى غرفة مطالعة كليفورد، حيث كان الإبريق النحاسي القديم يغلي على الصينية.

«هل تأخرت ياكليفورد؟» قالت وهي تضع باقة أزاهير وتتناول علبة الشاي، وهي واقفة أمام الصينية بقبعتها ووشاحها. «أنا آسفة كل الأسف، لماذا لم تدعْ السيدة بونتون تصنع الشاي؟».

قال ساخراً «لم أفكر في ذلك، أنا لم أرها تترأس طاولة الشاي قط».

قالت كوني «لايوجد سر مقدس في وعاء الشاي الفضي».

رمقها بفضولية.

قال «ماذا فعلت كل بعد الظهر؟».

«تمشيت ـ جلست في مكان ظليل. هل تعرف أنه مايزال هناك حبات عليق في شجرة الإيلكس الكبيرة».

نزعت عنها وشاحها، ولم تنزع قبعتها، وجلست تصنع الشاي. سيكون التوست بالتأكيد قاسياً. وضعت علبة الشاي فوق وعاء الشاي، ونهضت لتأتي بكأس صغيرة لبنفسجاتها. وضعت الأزهار المسكينة لتعرج على سيقانها.

قالت «سينتعش ثانية» ووضعتهن أمامه وهن في الكأس ليشمهن.

استشهد ببيت من الشعر لشكسبير «أحلى من جفون عيني جونو».

قالت «لاأرى أي رابطة مع البنفسجات الحقيقيات».

«الإليزابيثيون كثيرو التنجيد في الشعر».

سكبت له شايه.

قالت «أتظن أن هناك مفتاحاً ثانياً للكوخ الصغير غير البعيد من بير يوحنا، حيث تربى طيور الدرّج؟».

«ربما، لماذا؟»

ss

«وجدته مصادفة اليوم ـ أنا لم أره من قبل. أعتقد أنه مكان عزيز. أود الجلوس فيه بعض الوقت. أيمكن؟».

«هل كان ميلورز هناك؟»

«نعم، وقد وجدته يطرق بالمطرقة. يبدو أنه لم يحب اقتحامي أبداً. والحقيقة أنه كان فجأ عندما سألته عن مفتاح ثان».

«ماذا قال؟»

«لم يقل شيئاً: وإنما طريقته. وقال إنه لايعرف شيئاً عن المفاتيح».

«قد يكون هناك واحد، في غرفة مطالعة والدي. بيتس تعرف كل المفاتيح: كلهن هناك. سأحضرهن لتختبريهن».

قالت «أوه، أحضرهن».

«إذن كان مليورز فظاً».

«الحقيقة لاشيء من هذا. ولكني أظن أنه لايريدني أن أملك حرية القلعة، هكذا بالضبط».

«لاأعتقد أنه هكذا».

«لاأرى سبباً ليفعل هذا. إنه ليس بيته، بعد كل شيء إنه ليس مسكنه الخاص. لاأدري لماذا يجب ألا أجلس هناك، إذا رغبت في ذلك».

قال كليفورد «تماماً. ذلك الرجل يبالغ كثيراً في قدر نفسه».

«أتظن أنه يبالغ؟».

«بكل تأكيد. يظن أنه شيء استثنائي. تعرفين أنه كانت له زوجة لم يُحضرها معه، وهكذا التحق عام 1915 وأرسل إلى الهند، كما أظن. على كل، كان حداداً للخيالة في مصر لفترة من الزمن، فعلاقته دائماً بالخيل. وهو خبير من هذه الناحية. وقد أُعجب به كولونيل هندي فرَقّاهُ إلى رتبة ليوتنانت. لقد منحوه براءة الترقية. أعتقد أنه

ss

قفل راجعاً إلى الهند مع كولونيله، وأُرسل إلى الحدود الشمالية الغربية. كان مريضاً، فمُنح مرتباً تقاعدياً. وأظنه لم يخرج من الجيش إلا في السنة الأخيرة. ـ ومن الطبيعي عندئذٍ أن يسهل على رجل كهذا أن يعود إلى مستواه الخاص. لابد أن يتخبط. لكنه يقوم بواجبه تماماً، حسبما أقدّر. على كل حال ليس فيه أي صفة من صفات الليوتنانت ميلورز».

«كيف جعلوه ضابطاً، في حين يتكلم لغة ديربي شاير العريضة».

«ليس كذلك ـ إنه يستخدمها على نحو متقطع. إنه يجيد التحدث تماماً. وأظن أنه يؤمن بفكرة، إذا عاد إلى صفوف العسكر ثانية فسوف يتحدث كما يتحدث العسكر تماماً».

«لماذا لم تخبرني عنه من قبل؟».

«أوه، لاصبر لي على هذه القصص. إنها الخراب لكل نظام. ومثل هذا يحدث آلاف المرات».

مالت كوني إلى موافقته. مافضل الساخطين الذين لايناسبهم مكان.

في فترة الطقس الجيد يقرر كليفورد فوراً الذهاب إلى الغابة. كانت الريح باردة، ولكنها غير مزعجة، وبدت أشعة الشمس مثل الحياة نفسها، دافئة ومشبعة.

قالت كوني «من المدهش كم تكون مشاعر المرء مختلفة في اليوم الجميل المنعش فعلاً. العادة أن يشعر المرء بأن الهواء الفعلي نصف ميت. والناس يقتلون الهواء الفعلي».

سألها «أتظنين الناس يفعلون ذلك؟»

«أظنهم يفعلون. إن بخار السخط والازعاج والغضب الذي يخرج من الناس يقتل الحيوية في الهواء. أنا متأكدة من ذلك».

ss

قال «لعل ظرفاً ما في الجو يخفض حيوية الناس».

أكدت «لا، إن الإنسان هو الذي يسمم الكون».

فعقب كليفورد «يخرب عشه».

تهادت الكرسي. في غيضة البندق تدلت العناقيد ذهبية شاحبة، وفي الأماكن المشمسة تفتحت شقائق نعمان. الغابة عريضة كأنها تتمتع بمباهج الحياة، تماماً كما في الأيام الماضية، عندما كان الناس يبتهجون معها. كانت لها رائحة ضعيفة من زهر التفاح. جمعت كوني لكليفورد بعضاً منها.

أخذها ونظر إليها باستغراب.

اقتبس بيتاً من قصيدة كيتس «نشيد على زهرية يونانية» «ماتزالين عروساً غير فاتنة للهدوء ـ أنت أشبه بأزاهير أفضل مما على الزهريات اليونانية».

قالت «غير فاتنة كلمة فارغة. فالناس وحدهم هم الأشياء الفارغة».

قال «لاأدري ـ الحلزونات والأشياء».

«حتى الحلزونات تأكلها. والنحل غير فاتن».

كانت غاضبة منه، إذ يحوّل كل شيء إلى كلمات. فالبنفسجات جفون جونو وأزهار الربيع عرائس غير فاتنة. ألا كم تكره الكلمات، فهي دائماً تقف بينها وبين الحياة. إنها تصنع الفتنة، إذا كان الشيء فاتناً: «الكلمات والجمل الجاهزة تمتص نسغ الحياة من الأشياء الحية».

لم يكن المشوار مع كليفورد ناجحاً تماماً. كان بينه وبين كوني توتر، كل واحد يزعم أنه لايلاحظه، لكنه كان موجوداً. فجأة، بكل قوة غريزتها الأنثوية شقت طريقها بصمت ضده. أرادت أن تكون واضحة له، وعلى الأخص لوعيه، لكلماته، لهاجسه مع نفسه ـ هاجسه الطاحن مع نفسه بلا نهاية وكلماته الخاصة.

ss

عاد الجو ماطراً مرة ثانية. ولكنها بعد يوم أو يومين خرجت في المطر. ذهبت إلى الغابة. وهناك أيضاً ذهبت نحو الكوخ. كان المطر يهطل لكن الجو غير بارد. وكانت الغابة صامتة هزيلة متأبية في عتمة المطر.

وصلت إلى البقعة المقطوعة الأشجار. لم يكن أحد هناك. كان الكوخ مقفلاً. لكنها جلست على درجة الباب الخشبية، تحت العتبة القديمة وتكورت لتدفأ. هكذا جلست تراقب المطر، مصغية إلى كثير من الضجة الصامتة له، وأنين الريح في أعالي الأغصان، عندما لايبدو أن هناك ريحاً. وانتصبت أشجار السنديان حولها، الجذوع القوية التي اسودت من المطر، مستديرة وحيوية وقد تدلت أطرافها الباقية. كانت الأرض خالية من نبات التربة وأزهار الربيع المنقطة، كان هناك عليقة أو اثنتان، وشجرة بيلسان أو شجرة كبة الثلج، ومجموعة من العليق الأرجواني - واللون الخمري القديم للسرخس غاب تقريباً تحت الأطواق الخضراء لشقائق النعمان. ربما كان هذا واحداً من الأمكنة غير الفاتنة.

بعض الأشياء لايمكن أن تكون فاتنة. أنت لاتجعل علبة السردين فاتنة. وكثير من النساء مثل علبة السردين: والرجال. لكن الأرض -

خف هطول المطر. ولم تعد هناك عتمة بين أشجار السنديان. نوت كوني أن ترجع. ومع ذلك تابعت الجلوس. لكنها ازدادت برودة. ومع ذلك سيطر عليها عجز من الامتعاض الداخلي أبقاها هناك كأنها مشلولة.

مفتتنة. كيف يمكن للمرء أن يفتتن من دون وصال. المفتتن بالكلمات الميتة يصبح داعراً، والأفكار الميتة تصبح وساوس.

كلبة بنية مبللة جاءت راكضةً، بلا نباح، ترفع ذيلها بشعرها الرطب. تبعها الرجل - بجاكيت جلدية زيتية سوداء مبللة مثل سائق

ss

سيارة، وبوجه يتوهج قليلاً. شاهدته يباطئ مشيته السريعة عندما رآها. هبت واقفة في المكان الذي لايصيبه المطر تحت العتبة القديمة. حياها من دون كلام مقترباً منها على مهل. بدأت بالانسحاب.

قالت «إني ذاهبة».

«لماذا تنتظرين هنا ولم تدخلي؟» سألها ناظراً إلى الكوخ بكل كرامة.

نظر إليها. بدت مبتردة.

سألها «إذن ليس لدى السير كليفورد مفتاح آخر؟»

«لا ولكن لايهم، يمكنني أن أجلس من دون بلل تماماً تحت العتبة. طاب نهارك»

كرهت الإفراط باللهجة العامية في كلامه.

راقبها عن كثب، وهي تبتعد. عندئذٍ علق جاكيته وبحث في جيبي بنطاله وأخرج مفتاح الكوخ.

«من الأفضل أن يبقى معك هذا المفتاح، وسوف أجد طريقة أخرى للطيور».

نظرت إليه.

قالت «ماذا تعني؟»

«أعني أني سأجد مكاناً آخر لتربية الدرّج. فإن أردت أن تكوني هنا، فلن يفوتك الوقت».

نظرت إليه تلتقط المعنى من غموض لهجته.

قالت ببرود «لماذا لاتتكلم الانكليزية العادية؟»

«أنا ـ أعتقد أنني أتحدث الانكليزية العادية».

صمتت غاضبة للحظات.

«إن أردتِ المفتاح، يمكنك أن تأخذيه. أو من الأفضل أن تأتي

ss

غداً وتنظفي كل الأشياء التي لالزوم لها أولاً. هل يمكنك عمل هذا؟»

صارت أشد غضباً.

قالت «لاأريد مفتاحك. لن أنظف شيئاً أبداً. أو على الأقل أنا لاأريدك أن تغادر كوخك. شكراً لك. أريد فقط أن أجلس هنا لبعض الوقت ـ كما فعلت هذا اليوم. وأنا يمكن أن أجلس جلسة مريحة تحت العتبة. فمن فضلك لاتعد إلى هذا الموضوع».

نظر إليها ثانية بعينيه الزرقاوين الخبيثتين.

بدأ بلهجة موغلة في العامية «إني أرحب بك كما أرحب بعيد الميلاد. خذي المفتاح وكل شيء سيكون هناك. فقط هذا الوقت من العام تضع الطيور وتفقس ومن النادر أن آتي إلى هنا، إلى هذا المكان في الشتاء. ولكن في الربيع يتفقد السير كليفورد طيور الدرّج ـ ـ ـ وأنت أيتها الليدي لاتريدين مني أن أبحث، بينما هي هنا في الوقت المناسب ـ».

أصغت بنوع من الحيرة الغامضة.

سألت «لماذا أفكر أنك أنت تكون هنا؟».

نظر إليها جاداً.

«هذا يزعجني» قال ذلك باختصار واهتمام. فتوردت.

قالت أخيرا «لابأس. لن أزعجك ولن أفكر أنني جلست هنا وشاهدتك تهتم بالطيور. أنا أحب ذلك. ولكن مادمت تفكر أن هذا تدخل في شؤونك، فلن أزعجك، فلاتخف، أنت حارس السير كليفورد ولست حارسي».

كان لجملتها وقع غريب. لم تكن تعرف لماذا. لكن تركتها تمر.

«لاأيتها الليدي. أنا حارس ليديتك أيضاً. ويفرحني دائماً أن أكون حارس ليديتك. تستطيعين أن تقدمي لي أي ملاحظة. أنا سوف فقط ـ».

قالت مرتبكة «فقط ماذا؟»

SS

رفع قبعته إلى الخلف بطريقة ساخرة غريبة.

«أنت تحبين هذا المكان لنفسك، فعندما تأتين فأنا لايهمني».

قالت بغضب «ولكن لماذا؟ ألست كائناً بشرياً متمدناً؟ أتظن أن عليّ أن أخافك؟ ولماذا آبه بك، سواء كنت هنا أم لم تكن؟ أي أهمية لذلك؟»

نظر إليها فتوهج وجهه بضحكة خبيثة.

قال «لاأقصد ليديتك. لاأبداً».

سألته «إذن لماذا ـ؟»

«هل لي أن أقدم لحضرتكِ مفتاحاً آخر؟»

«لا. شكراً أنا لاأريده».

«سوف أحضره على أي حال. فمن الأفضل أن يكون لدينا مفتاحان لهذا المكان».

قالت كوني وقد عاد لونها وأمسكت أنفاسها «إني أعتبرك وقحاً».

قال بسرعة «لاأبداً، لاتقولي ذلك. لا أبداً، أنا لاأقصد أي شيء. قصدت إن أنت جئت إلى هنا فلا بدّ أن يكون المكان نظيفاً. وعنيت أنني أستطيع أن أعمل عملي في مكان آخر، ولكن أرجو من حضرتك ألا تأخذي عليّ أي ملاحظة ـ إنه كوخ السير كليفورد وكل شيء سيكون كما تريد حضرتك: كل شيء يكون حسب مسرّتك، إلا أن تأخذي ملاحظة عليّ. اطلبي أي عمل مني وسوف ألبيه».

ابتعدت كوني مرتبكة. لم تكن متأكدة إن كانت أُهينت وهوجمت أخلاقياً أم لا. ربما يعني الرجل ماقاله فعلاً: ذلك أنه اعتقد أنها تريد منه أن يبتعد. كما لو أنها تحلم بالمكان، وكما لو كان مهماً جداً، هو وحضوره البليد.

عادت إلى المنزل مضطربة، لاتعرف بماذا تفكر أو تشعر.

SS

الفصل التاسع

فوجئت كوني بشعور المقت الخاص من كليفورد. فوق ذلك شعرت أنها دائماً كانت لاتحبه. ليس كراهية: فلا وجود لهذه العاطفة فيها. وإنما عدم حب جسدي عميق. وبدا لها أنها تزوجته لأنها لاتحبه، بطريقة جسدية سرية. لكن بالطبع تزوجته فعلاً لأنه جذبها وأثارها بطريقة فكرية. بدا لها، بطريقة ما، أستاذها، الذي لاتطاله.

تهرأت الإثارة الفكرية الآن وانهارت، فكانت تعي فقط المقت الجسدي. برز فيها من أعماقها: وقد تأكدت كيف كانت تلتهم حياتها.

شعرت بالضعف والهجران المطلق. رغبت أن تأتيها المساعدة من الخارج، ولكن لم تكن في العالم كله أي مساعدة، المجتمع مرعب لأنه مجنون.

المجتمع المتمدن مجنون، المال ومايسمى الحب هما هَوَساه الكبيران، والمال هو الأول والسابق الأكبر. فالفرد يؤكد نفسه في جنونه الساخط بهذين النمطين: المال والحب. انظر إلى ميكائيل. حياته ونشاطه مجرد جنون. كان حبه نوعاً من الجنون. وكانت مسرحياته نوعاً من الجنون.

وكليفورد ذات الشيء. كل مايتكلم به وكل مايكتبه وكل ذلك النضال الوحشي ليدفع نفسه إلى الأمام كان جنوناً محضاً وذلك يجر إلى الأسوأ وإلى الهوس الحقيقي.

شعرت كوني أنها تخلصت من الخوف، ولكن كليفورد على الأقل كان يغير قبضته منها إلى السيدة بولتون. إنه لم يعرف ذلك، ومثل كثير من الناس المجانين، ربما أمكن قياس جنونه بأشياء هو نفسه لايعيها: فالبقع الصحراوية الكبرى ماتزال في وعيه.

كانت السيدة بولتون تستحق الإعجاب من عدة نواح. ولكنها تملك ذلك النوع الغريب اللاواعي من المعلمية، في التأكيد المطلق لإرادتها الخاصة، التي هي إحدى إشارات الجنون في المرأة الحديثة. اعتقدت أنها التابعة المطلقة التي تعيش للآخرين. وقد سحرها كليفورد لأنه دائماً، أو غالباً، يحبط بهدوء إرادتها، كما لو كان ذلك بغريزة أرقى. إنه يملك إرادة أذكى وأرقى للتأكيد الذاتي أكثر منها هي نفسها. وهذا كان سحره عليها.

ربما كان هذا أيضاً سحره على كوني.

«إنه نهار جميل اليوم» تقول السيدة بولتون بصوتها المتقن المقنع «أعتقد أنك ستتمتع بدورة في كرسيك اليوم، فالشمس جميلة جداً».

«صحيح؟ هل تناوليني ذلك الكتاب ـ هناك، ذاك الكتاب الأصفر. وأعتقد أنه يجب أن تُخرجي هذه الزهور النقطية (الهايسنت) من هنا».

«لماذا؟ إنها جميلة» ولفظت الياء ممطوطة جميـــلة ـ «والرائحة رائعة».

قال «الرائحة هي ماأعترض عليه. إنها جنائزية قليلاً».

«أوتعتقد ذلك» استغربت مندهشة، بطريقة هجومية لكنها

انطباعية. وحملت زهور الهايسنت خارج الغرفة متأثرة برهافته النيّقة العليا.

«هل أحلق لك هذا الصباح، أو تحلق أنت بنفسك؟» ـ دائماً بالصوت ذاته الناعم الحذر الخاضع، والمتأني.

«لاأعرف. هل لك أن تنتظري لحظة. سأقرع الجرس عندما أكون مستعداً».

«عظيم جداً سير كليفورد» أجابت بنعومة وخضوع منسحبة بهدوء. ولكن كل ردع كان يخزّن طاقة جديدة من الإرادة فيها.

عندما قرع الجرس، بعد فترة، مثلت أمامه فجأة. فقال:

«أعتقد أنك ستحلقين في هذا الصباح».

أعلمها قلبها بإثارة قليلة فأجابت برقة بالغة:

«عظيم جداً سير كليفورد».

كانت رشيقة جداً بلمسة ناعمة منساقة بقليل من البطء. في البدء امتعض من الملامسة الناعمة لأناملها على وجهه. ولكنه الآن يحب ذلك، بشهوانية متزايدة. لقد تركها تحلق له تقريباً كل يوم: وجهها قرب وجهه، عيناها متمركزتان، تراقبان أن عملها دقيق. وبالتدريج عرفت أطراف أناملها وجنتيه وشفتيه، وفكه وذقنه وعنقه معرفة تامة، فأشرق منظره ووجهه وعنقه، وكان كامل الوسامة، وبدا جنتلماناً.

كما كانت هي أنيقة شاحبة وجهها يميل إلى الطول والسكون وكانت عيناها مشرقتين، ولكنهما لاتكشفان عن شيء. وبالتدريج وبنعومة مطلقة، وإلى حد ما بالحب كانت تمسكه من عنقه وكان يستسلم لها.

هي الآن تعمل كل شيء له تقريباً، فشعر بالطمأنينة معها، غير خجول من موافقته معها على الأعمال القذرة، أكثر مما كان مع

ss

كوني. لقد أحبت ترتيبه. أحبت امتلاك جسده في عملها حتى آخر الأعمال القذرة. في أحد الأيام قالت لكوني: «كل الرجال أطفال، عندما تصلين إلى أعماقهم. لقد عالجت بعض الزبائن الأشد عناداً كلما ذهبت إلى حفرة تيفرشال. ولكن دعي أي شيء يؤلمهم، بحيث يجب عليك التدخل، وسوف يكونون أطفالاً، مجرد أطفال كبار. أوه لايوجد فارق كبير بين الرجال».

في البداية اعتقدت السيدة بولتون أن هناك شيئاً مختلفاً حقاً في الجنتلمان، الجنتلمان الحقيقي، مثل سير كليفورد. وهكذا نال السير كليفورد بداية جيدة منها. ولكن بالتدريج، عندما وصلت إلى عمقه لتستخدم طريقتها الخاصة، وجدته مثل الباقين عبارة عن طفل ينمو بنسب رجولية: لكنه طفل بمزاج غريب وبطريقة أنيقة وأموال وسلطة في عنفوانها وكل أنواع المعرفة الغريبة التي لم تحلم بها أبداً، مايزال يشبعها بها.

كانت كوني أحياناً تنزع إلى أن تقول له «بالله عليك لاتغرق بين يدي تلك المرأة كل هذا الغرق المخيف» لكنها لاتجد نفسها مهتمة به إلى الدرجة التي تقول هذا الكلام.

استمرت عادتهما في قضاء المساء معاً، حتى الساعة العاشرة. عندها يتحدثان أو يقرأان معاً، أو يغوص في مخطوطته. لكن الإثارة ولّت منه. كانت ضجرة من مخطوطاته. ومازال من واجبها أن ترتبها له، ولكن مع الزمن لابد أن تفعل السيدة بولتون ذلك.

أما بالنسبة لكوني فقد اقترحت على السيدة بولتون أن تتعلم الآلة الكاتبة. وبدأت السيدة بولتون، الجاهزة دائماً، مباشرة تتدرب بمواظبة. وهكذا بدأ كليفورد الآن يملي عليها أحياناً الحرف، وكانت تضربه على الآلة ببطء، ولكن بدقة. وكان صبوراً في أن يهجي لها الكلمات الصعبة، أو الجمل الفرنسية الطارئة. وهكذا كانت متحمسة وكانت مسرورة من تعليمه لها.

زعمت كوني أن رأسها يؤلمها ليكون عذراً لها للصعود إلى غرفتها بعد الغداء.

قالت كوني لكليفورد «ربما تلعب السيدة بولتون معك لعبة البيكيت».

«سأكون ممتازاً. ماعليك إلا الصعود إلى غرفتك والاستراحة ياعزيزتي».

لكنها لم تذهب سريعاً، قبل أن يقرع الجرس للسيدة بولتون ويسألها أن تلعب البيكيت أو البيزيك أو الشطرنج. لقد علمها كل هذه الألعاب. وقد شعرت كوني باعتراض غريب على رؤية السيدة بولتون تشرق وترتجف مثل فتاة صغيرة، في إمساكها بوزيرها أو حصانها بأنامل مترددة، ثم تسحبها ثانية. ويكتفي كليفورد بمجرد الابتسام حتى يغيظها بتفوقه قائلاً لها.

«يجب أن تقولي J'adoube»

رفعت نظرها إليه بعينين قلقتين براقتين، ثم همست خجلة بكل طاعة:

«J'adoube!».

نعم، كان يثقفها. ويسرّ لتثقيفها، فقد منحه ذلك إحساساً بالسلطة. وكانت تتحفز بذلك. وسارت بخطى وئيدة إلى امتلاك كل ماتعرفه طبقة الجنتلمانات، كل مايجعلهم طبقة عليا: بغض النظر عن المال. وقد حفزها ذلك. وفي الوقت نفسه كانت تدعه يملكها هناك معه، كان تملقاً ذكياً عميقاً له حافزه الأصيل الذي شعر به.

بدا كليفورد لكوني أنه بصدد اكتساب ألوانه الحقيقية: قليل من الابتذال وقليل مما هو عادي، ولكن من دون إلهام، وبالأحرى غبي. أحابيل إيفي بولتون ومعلميتها المتواضعة كانتا شفافتين جداً. لكن كوني أعجبها الحافز الأصيل الذي نقلته المرأة إلى كليفورد. والقول إنها واقعة في حبه يضع المسألة في الناحية المغلوطة. كان

هذا الرجل المنحدر من الطبقة العليا حافزاً لها بحكم صلتها به، هذا الرجل الجنتلمان المزعوم، هذا المؤلف الذي يستطيع كتابة الكتب ونظم الشعر، والذي ظهرت صورته في الصحف المصورة. كانت مثارة إلى أبعد الحدود. و«تثقيفه» لها ألهب فيها عاطفة الاستثارة والاستجابة على نحو أعمق بكثير من أي علاقة حب يمكن أن تُلهبها. والحقيقة فإن واقع أنه لايمكن أن تكون هناك وضعية حب تركها حرة في أن تثار حتى العظم بعاطفة أخرى، عاطفة المعرفة، المعرفة كما هو يعرف.

ليس من الخطأ الزعم أن المرأة كانت بطريقة ما تحبه: مهما كانت القوة التي نعطيها لكلمة حب. لقد بدت أنيقة وفتية وكان شعرها البني أحياناً فاتناً. كان ثمة نوع خفي من الإشباع، حتى من النصر، وهذا ماكانت تكرهه كوني. النصر السري والإشباع الخاص. كم هو بشع هذا الإشباع الخاص، وكم تكرهه كوني.

ولكن لاعجب إذا كان كليفورد قد أسرته هذه المرأة. لقد أعجبته إعجاباً مطلقاً، بطريقتها الملحاحة، في وضع نفسها كلياً في خدمتها له حتى يتصرف بها كما يرغب. لاعجب إن كان متملقاً.

سمعت كوني محادثة طويلة تدور بين الاثنين. أو بالأحرى كانت السيدة بولتون هي التي تولت معظم الحديث. لقد أفضت له بكل القيل والقال الذي سمعته عن قرية تيفرشال. كان أكثر من القيل والقال، كانت الشائعة أن السيدة غاسكل وجورج إليوت والمس بيتفورد مشمولين في قضية واحدة، قضية كبرى وهي أن هؤلاء النسوة كن ساقطات. وحالما بدأت السيّدة بولتون كانت أعظم من أي كتاب عن حياة الناس. إنها تعرفهم جميعاً معرفة وثيقة، وتملك في قلبها هذه النكهة الخاصة المشتعلة في كل شؤونها، النكهة التي تجذب الإعجاب والدهشة، وإن كانت تواضعاً تافهاً، حتى يستمع إليها. في البداية لم تغامر في الدخول بـ «أحاديث تيفرشال» كما تسميها، وتُسمعها لكليفورد. ولكن حالما بدأت دخلت في هذه

ss

الأحاديث. كان يصغي لـ «المواد» ويجدها وافرة. وقد تحققت كوني من أن عبقريته المزعومة كانت هذه: موهبة خاصة في الاهتمام بالشائعات الشخصية الذكية والمنفصلة. وبالطبع كانت السيدة بولتون تتحمس عندما «تتحدث عن تيفرشال». كانت في الواقع تذهب بعيداً. وكانت تقدم له من المواد مايكفي عشرات المجلدات.

سُحرت كوني لدى استماعها لها. لكنها بعد ذلك كانت دائماً تخجل قليلاً. لم تضطر للاستماع بهذه الفضولية السريعة الغريبة. ومع ذلك يمكن للمرء أن يسمع أعظم القضايا الخاصة من الناس الآخرين، ولكن بروح احترام للشيء النضالي الساحق الكامن في كل نفس، وفي النفس الرفيعة العاطفية المميزة. فحتى الهجاء شكل من أشكال العاطفة. إنه السبيل الذي تتدفق فيه عاطفتنا ونستعيد فيه مايقرر حياتنا فعلاً. وهنا تكمن الأهمية الكبرى للرواية، وبنوع خاص معالجتها. يمكنها أن تعلمنا وترشدنا إلى أماكن جديدة يتدفق فيها وعينا العاطفي، وبإمكانها أن تقود عاطفتنا بعيداً لاستعادة أشياء بادت وانقرضت. لذلك فإن الرواية، وبالأخص المعالجة، يمكنها كشف معظم الأمكنة السرية للحياة: لأنها في الأمكنة السرية العاطفية للحياة، يضطر مدّ الوعي الحسي أولاً ومثل كل شيء أن يتقلص ثم يتدفق، وبذلك يقوم بعملية التنظيف والإنعاش.

ولكن الرواية، كالشائعة، يمكن أن تثير العواطف العليا والاستعدادات وكل ماهو ميكانيكي وموات إلى النفس. يمكن للرواية أن تمجد أحط المشاعر مادامت تقليدياً «صافية». ثم تصبح الرواية، مثل الشائعة، الإثم الأخير، ومثل الشائعة تصبح أعظم إثم لأنها دائماً من حيث الظاهر في جانب الملائكة. «وكان رجلاً سيئاً وكانت امرأة جميلة ـ» كما رأت كوني حتى من شائعة السيدة بولتون، أن المرأة كانت من النوع الثرثار فقط وأن الرجل شريف غضوب. لكن الشرف الغضوب جعل منه «رجلاً سيئاً» والثرثرة

ss

الفارغة جعلت منها «امرأة جميلة» في التسويق العامي الآثم لعاطفة السيدة بولتون.

لهذا السبب كانت الشائعة وضيعة. وللسبب ذاته تكون كل الروايات، وبالأخص الروايات الشعبية، وضيعة أيضاً. إن الشعب يستجيب اليوم لمعرفة آثامه.

على أي حال يمكن للمرء أن يحصل على رؤيا جديدة لقرية تيفرشال من حديث السيدة بولتون. فتبدو غلياناً هائجاً مرعباً من الحياة البشعة: فهي ليست الكآبة الواسعة التي تبدو من الخارج. طبعاً يعرف كليفورد بالنظر معظم الذين ذكرتهم السيدة بولتون، بينما لاتعرف كوني سوى واحد أو اثنين. ولكنها تبدو فعلاً أشبه بأدغال أفريقيا الوسطى منها بقرية انكليزية.

«أعتقد، سمعت بزواج المس ألسوب الأسبوع الماضي. أما سمعت؟ المس ألسوب، ابنة العجوز جيمس، ألسوب الأحذية والجزمات. وأنت تعرف أنهم شادوا بيتاً في أعالي بيكروفت. وقد توفي العجوز، العام الفائت من سقطة: كان في الثالثة والثمانين من عمره، وكان رشيقاً مثل فتى في ريعان الشباب. لقد انزلق من على هضبة البستوود على المنحدر الذي كان الشبان يتزحلقون عليه في الشتاء الماضي، فكسر فخذه، وهذا ماقضى عليه، هذا العجوز المسكين، فياله من حادث مخجل. وقد ترك أمواله لـ «تاتي»: لم يترك للصبيان مليماً واحداً، و«تاتي» أعرفها وهي في الخامسة من عمرها ـ بلى، آخر خريفها اليوم هو الخريف الثالث والخمسون. وأنت تعرف أنهم كانوا ملة كنيسة واحدة، ياسيدي، علمت في مدرسة الأحد ثلاثين سنة، إلى أن مات والدها. ومن ثم بدأت تظهر مع صديق من كنبروك، ولاأدري إن كنت تعرفه، وهو أسن صديق بأنف أحمر وكان يتغندر دائماً، واسمه ويلكوك يعمل في غابة هانسون. هو الآن في الخامسة الستين من عمره، ومع ذلك تعتقد أنهما زوج

SS

ss

فهجموا علي يصيحون: «لماذا لاتشكر الأميرة ماري الله في أنها تسير بأسمالها القديمة إذن، وتشكره في أنها لاتملك شيئاً. فالعامة مثلها ينتجون أحمال سيارة ومع ذلك لاأستطيع شراء معطف ربيع. إنه عار لعين. الأميرة، كل شيء للأميرة. المال والعتاد، ولأنها تملك المزيد فإنهم يقدمون لها المزيد، لاأحد يعطيني شيئاً، وأنا لي الحق أن أملك مثل أي إنسان آخر. لاتحدثيني عن الثقافة. إنها المال والعتاد. أريد معطف ربيع جديداً، أريد وسوف أحصل عليه، لأنه لايوجد معي مال ـ» هذا كل مايهتمون به، الثياب. إنهم يعتقدون أنهم لن يُمنحوا سبعة أو ثمانية جنيهات لمعطف الشتاء ـ هؤلاء بنات عمال المناجم، كما تعرف ـ ويريدون جنيهين لقبعة الأطفال الصيفية. وعندها يذهبون إلى الكنيسة بقبعتهم ذات الجنيهين، وستكون الفتيات فخورات لأني أقبض ثلاثة بنسات أو ستة بنسات في اليوم. وقد سمعت أنه في الكنيسة الأولية الطرائقية هذا العام، عندما بنوا قسم أطفال مدرسة الأحد مثل نصب كبير يرتفع تقريباً إلى السقف، سمعت المس تومبسون التي في الصف الأول للفتيات في مدرسة الأحد، تقول إنه يجب أن يكون هناك آلاف الجنيهات من أجل ملابس الأحد الجديدة تنفَق على ذلك القسم. وليُضاعف المبلغ مايُضاعف. إنك لاتستطيع إيقافهم. أصابهم الجنون بالثياب. والأولاد كذلك. الشبان ينفقون كل بنس على أنفسهم وثيابهم وتدخينهم وشربهم في المواينر ولفير، ويهرعون إلى شيفلد مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. إنه عالم آخر. هم لايخافون شيئاً، ولايحترمون شيئاً، الشبان لايوقِّرون أحداً. المسنون هم الطيبون الصابرون حقاً، فهم يدعون النساء يأخذن كل شيء. وهذا ماعرفته. فالنساء شياطين إيجابية. لكن الشبان لايشبهون آباءهم. فهم لايريدون أن يضحوا بأي شيء: إنهم يعملون من أجل أنفسهم، فإن طالبتهم بالإسهام بالقليل في البيت يقولون. ليسهم من يسهم، أنا أنفق مامعي على مسراتي. دع غيري يسهم ـ إنهم ـ إن أردت

ss

الحقيقة ـ فظون وأنانيون. كل شيء يقع على عاتق الشيوخ، وهذا شيء سيء يعم الجميع ـ».

بدأ كليفورد يطّلع على فكرة جديدة لقريته. فهذا المكان دائماً كان يخيفه، ولكنه كان يعتقد أنه مستقر إلى حد ما. الآن ـ؟

سأل «هل هناك كثير من الاشتراكية والبلشفية بين الناس؟».

قالت السيدة بولتون «أنت تسمع قليلاً من الأفواه الثرثارة. لكنهم بمعظمهم من النساء اللواتي عليهن ديون. الرجال لايلاحظون ذلك. أنا لاأصدق أنك ستحول رجال تيفرشال إلى حمر. إنهم أكثر احتشاماً من أن يكونوا كذلك. لكن بعض الفتيان يتحامقون أحياناً. والحقيقة أنهم لايأبهون بذلك. إنهم يرغبون بمجرد بعض الأموال في جيوبهم، حتى ينفقوها في الرفاهية، أو حتى يتسكعوا بها في شيفلد. هذا كل مايهتمون به. عندما لايحصلون على مال يصغون لدعايات الحمر. والحقيقة أنه لاأحد يؤمن بالبلشفية».

«إذن تظنين أنه ما من خطر؟».

«لاأبداً، لا إذا راجت التجارة، لن يكون. ولكن إذا ساءت الأحوال لفترة طويلة فإن الشبان ينفلتون. وأُعلمك أنهم أنانيون مفسدون. أنا لاأرى كيف يفعلون الأشياء. إنهم ليسوا جادين تجاه أي شيء إلا في استعراض أنفسهم على الدراجات النارية والرقص في قصر الرقص في شيفلد. أنت لاتستطيع أن تجعلهم جادين. والجادون منهم يرتدون أحسن البزات مساء ويظهرون إلى «بالي» أمام مجموعة من الفتيات ويرقصون رقصات الشارلستون الجديدة وغير الشارلستون. أنا واثقة من أن الحافلة ستكون غاصة بالشبان في الحفلات المسائية وستذهب سيدات عمال المنجم إلى «بالي»: ناهيك عن أولئك الذين ذهبوا على الموتورات مع فتياتهم أو على الدراجات النارية. إنهم لايفكرون في الشيء تفكيراً جاداً ـ باستثناء سباقات دانكستر ودربي: لأن معظمهم يشترك في كل سباق. وكرة القدم،

ss

تصوَّر أن كرة القدم لم تعد كما كانت. إنها أشبه بالعمل الشاق كما يقولون. لا. إنهم دائماً على دراجات نارية باتجاه شيفلد أو نوتنغهام، بعد ظهر السبت».

«ولكن ماذا يفعلون عندما يصلون هناك؟».

«أوه. يتجولون - ويشربون الشاي في بعض محلات الشاي الفخمة مثل محل الميكادو - ثم يذهبون إلى «بالي» أو السينما أو الأمباير، مع الفتيات. والفتيات حرّات مثل الشبان. إنهن يفعلن مايحلو لهن».

«وماذا يفعلون عندما لايكون معهم مال لهذه الأشياء؟».

«يبدو أنهم يحصلون عليه بطريقة ما، عندئذٍ يأخذون بالأحاديث الرديئة والبذيئة. ولاأدري ماذا تفعل بالبلشفية عندما يريد الشبان الحصول على المال فقط من أجل أن يتمتعوا، وكذلك الفتيات، بثيابهن الفاخرة: فلايهتمون بعدها بأي شيء. إن لديهم أدمغة ليكونوا اشتراكيين. ولكنهم لايملكون مايكفي من الجديّة ليعالجوا أي شيء معالجة جدية، ولن يملكوا».

فكرت كوني كيف تشبه بقية الطبقات هذه الطبقات المنحطة، الشيء ذاته يتكرر، في تيفرشال أو مايفير أو أوكنسينغتون. فاليوم هناك طبقة واحدة فقط: فتيان المال. فتى المال أو فتاة المال، والفارق هو كم تحصل وكم تريد.

تحت تأثير السيدة بولتون، بدأ كليفورد يهتم مجدداً بالمناجم. بدأ يشعر بانتمائه. لقد دب فيه نوع جديد من التأكيد الذاتي. ومع ذلك كان المعلم الحقيقي في تيفرشال، كان الحُفر الحقيقية للمناجم. إنه شعور جديد بالسلطة، شيء ناشئ حتى الآن من الرعب.

حُفر تيفرشال تضيق أكثر فأكثر. كان هناك فقط منجمان: تيفرشال نفسها نيولندن، كانت تيفرشال في يوم من الأيام المنجم الأشهر، ودرت أموالاً طائلة. لكن أيامها الذهبية ولَّت. لم تكن نيو

ss

لندن غنية جداً، وفي الأيام العادية تقدم شيئاً متواضعاً، لكن الأيام الآن سيئة، فكانت حفراً مثل حفر نيو لندن التي أُهملت.

قالت السيدة بولتون «هناك قسم من رجال تيفرشال تركوا وذهبوا إلى ستاكس غيت ووايت أوفر، إنك لم تناظر الأعمال الجديدة في ستاكس غيت، التي فُتحت في أعقاب الحرب، هل ناظرتها ياسير كليفورد؟ أوه أوه لابد أن تذهب في يوم من الأيام، إنها شيء جديد تماماً: أعمال كيميائية كبيرة جداً في قمة الحفرة، لاتبدو كأنها منجم أبداً. يقولون إنهم يحصلون على أموال من الانتاج الكيميائي أكثر بكثير مما يحصلون من الفحم ـ نسيت اسم المادة. والبيوت الجديدة الكبيرة للرجال هي بيوت جميلة. طبعاً استقدموا لها كمية من الدهماء من كل البلاد. ولكن كمية من رجال تيفرشال سكنتها أيضاً. يقولون إن تيفرشال انتهت: إنها مسألة سنوات قليلة، وسوف تغلق وسوف تتصدر نيولندن. إن كلمتي ليست عابثة عندما لايكون هناك عمل في تيفرشال. كانت سيئة بما فيه الكفاية أثناء الإضراب، لكني أقول إن إغلاقها سيكون مثل نهاية العالم. حتى عندما كنت فتاة كانت أفضل حفرة في البلاد، وكان الرجل يعد نفسه سعيد الحظ إذا انضم للعمل فيها. كان هناك أموال في تيفرشال. والآن يقول الرجال إنها سفينة تغرق، وآن الأوان لمغادرتها. ألا يبدو هذا مرعباً. ولكن طبعاً هناك أناس مازالوا باقين حتى يضطروا إلى الذهاب. إنهم لايحبون هذه الأنماط الجديدة من المناجم، حيث الأعماق السحيقة وكل مايعمل فيها عبارة عن آلات. بعضهم يخافون من أولئك الرجال الحديديين كما يسمونهم، تلك الآلات التي تستخرج الفحم، حيث كان الرجال دائماً يقومون بذلك من قبل. ويقولون إنها متلفة أيضاً، ولكن مايتلف تنقذه الأجور، وزيادة الكمية. وسرعان ماتبين أنه لاحاجة إلى الرجال الذين على سطح الأرض، يجب أن يستبدلوا بآلات. ولكنهم يقولون إن ذلك هو ماكانت تقوله العامة عندما كانت تنقل المواد الأولية. أتذكر

ss

واحداً أو اثنين منهم. وفي رأيي، أن الوضع هو مزيد من الآلات والمزيد من الرجال. يقولون إنك لاتستطيع أن تستخرج الكيماويات من فحم تيفرشال كما تستخرجها من فحم ستاكس غيت، وأن ذلك بات مضحكاً، إنهم لايبعدون عنها أكثر من ثلاثة أميال. لكنهم هكذا يقولون. كل شخص يقول إن هناك شيئاً معيباً لاتستطيع أن تقوم به، وهو تقليل الرجال، وتوظيف الفتيات. كل الفتيات يتسكعن نحو شيفلد يومياً. ورأيي أنه لابد من الحديث عن شيء ما إذا كان عمال مناجم تيفرشال اتجهوا اتجاهاً جديداً في الحياة، بعد أن قال كل واحد إنهم انتهوا، وإن السفينة غارقة وإن الرجال اضطروا أن يتركوا كما تترك الفئران السفينة الغارقة. ولكن العامة يتحدثون كثيراً في هذا الاتجاه. طبعاً يقولون حصل ازدهار ـ أثناء الحرب، عندما أقام السير جيوفري تروستاً لنفسه وحصل على الأموال فأنقذ مشروعه إلى الأبد نوعاً ما ـ هكذا يقولون، وإنما يقولون حتى إن الأسياد والملاكين لايحصلون على المال الوفير الآن. ولاتكاد تصدق ذلك، أتصدق. لماذا ـ أنا مؤمنة أن الحُفر سوف تستمر إلى الأبد. من كان يفكر عندما كنت فتاة. لكن نيوانكلاند أُغلقت وكذلك كولفيك وود: نعم إنه تجوال لطيف أن تمر في ذلك الحرج وترى كولفيك وود واقفة هناك مهجورة بين الأشجار، فينمو العليق على حوافي الحُفر والسكك الحديدية يعلوها الصدأ. في رأيي إنك تشعر بأنك تشاهد أشباحاً. إنها مثل الموت نفسه. منجم ميت. ومهما فعلنا أظن أن تيفرشال قد انتهت صفحتها. إنها لاتحتمل حتى التفكير بها. دائماً كانت مجمع حشود إلّا في الإضرابات، وحتى في الإضرابات لم تكن العجلات المروحية تتوقف إلا عندما يخرجون الأحصنة الصغيرة. أنا متأكدة أنه عالم مضحك، أنت لاتعرف أين تكون من سنة لسنة، فعلاً لاتعرف».

أشعل حديث السيدة بولتون حرباً جديدة في نفس كليفورد. دخْله، كما أشارت إليه، كان مضموناً من تروست أبيه، وحتى هذا

الدخل لم يكن كبيراً. فالحُفر لاتهمه حقاً. العالم الآخر الذي يريد أن يستولي عليه هو عالم الأدب والشهرة، العالم الشعبي، وليس عالم العمل.

تأكد له الآن الفارق بين النجاح الشعبي ونجاح العمل: عامية المتعة وعامية العمل. إنه كفرد خاص كان يزود عامية المتعة بقصصه. وقد أمسك بهم. ولكن تحت عامية المتعة تقع عامية العمل القاتمة أو بالأحرى المرعبة. وكان لهم هم أيضاً من يمدهم. كان عملاً قاتماً جداً، يمد عامية العمل، أكثر من عامية المتعة. وبينما كان يكتب قصصه و«تروج» في العالم، كانت تيفرشال ذاهبة إلى الإعدام.

تحقق الآن أن الربة العاهرة للنجاح لها شهيتان رئيسيتان: الأولى للتملق والمداهنة والملاعبة والتودد كما وصفها الكتّاب والفنانون، لكن الأخرى شهية ممضة للحم والعظام. ويُقدم اللحم والعظام للربة العاهرة للنجاح والرجال الذين يحققون الأرباح من الصناعة.

بلى هناك فئتان كبيرتان من الكلاب المتشاحنة من أجل الربة العاهرة: فئة المتملقين، أولئك الذين يقدمون لها التسلية والقصص والأفلام والمسرحيات: والفئة الأخرى أقل ظهوراً وأكثر وحشية، وهي أولئك الذين يقدمون لها اللحم، والمادة الحقيقية للمال. إن الكلاب المدجنة جيداً للتسلية تتشاحن وتتقاتل فيما بينها لمصلحة الربة العاهرة. لكن هذا لايُذكر أمام القتال الصامت حتى الموت الذي يجري بين من يجلبون العظام.

لكن تحت تأثير السيدة بولتون، تحمس كليفورد لدخول هذه الحرب الأخرى، لأسر الربة العاهرة بوسائل صارمة من الإنتاج الصناعي. استيقظت روحه إلى حد ما، على أي حال لقد جعلته السيدة بولتون رجلاً، كما لم تجعله كوني قط. لقد أبقته كوني بعيداً

ss

وجعلته حساساً واعياً لنفسه ولأحواله الخاصة. بينما السيدة بولتون جعلته واعياً للأشياء الخارجية. داخلياً بدأ يصبح ناعماً مثل العجينة. لكن خارجياً بدأ يصبح مؤثراً.

بل إنه نهض وخرج إلى المناجم مرات: وعندما كان هناك، نزل في حوض، وسُحب من حوض، ليشرف على الأعمال. الأشياء التي تعلمها قبل الحرب، والتي بدت منسية، عادت إليه الآن. جلس هناك يزحف في حوض مع مدير أعمال ماتحت الأرض ويريه بالمصباح اليدوي القوي عِرق الفحم. قال القليل لكن عقله بدأ يعمل.

بدأ يقرأ ثانية كتبه التقنية حول صناعة مناجم الفحم، فدرس تقارير الحكومة، وقرأ باهتمام آخر الأشياء عن التعدين وكيمياء الفحم والطين الحجري التي كُتبت بالألمانية. بالطبع كانت آخر المكتشفات يحتفظ بها سراً بقدر الإمكان. ولكن حالما تبدأ نوعاً من البحث في حقل التعدين الفحمي، فإن دراسة الطرائق والوسائل، دراسة الإنتاج الثانوي وإمكانات الفحم الكيميائية، كانت مذهلة، إنها عبقرية وذكاء العقل التكنيكي الحديث، كما لو أن الشيطان نفسه أطلق ذكاء عفاريته لعلماء الصناعة التكنيكية. كان أكثر من فن، أكثر من أدب وأقل عاطفة وذكاء ذلك العلم التكنولوجي للصناعة. في هذا الحقل كان الرجال مثل الكلاب أو الأبالسة، ينساقون متسابقين إلى الاكتشافات، ويتقاتلون لتنفيذها. وفي هذا النشاط كان الرجال أبعد من أي حساب للعمر العقلي. لكن كليفورد يعرف أنه عندما يأتي إلى الحياة العاطفية والإنسانية، فإن هؤلاء الرجال كانوا في عمر عقلي يناهز الثلاثين، كانوا فتياناً ضعفاء. التفاوت كان ضخماً ومروعاً.

لكن دعْ هذا يحدث. دعِ الرجل ينزلق إلى حضيض البلاهة العامة في العقل العاطفي و«الإنساني»، فكليفورد لايأبه بذلك. دع كل شيء معلقاً. كان مهتماً بتكنولوجيات التعدين الحديث وانتشال تيفرشال من الهاوية.

نزل في الحفرة يوماً بعد يوم، ودرس، ووضع المدير العام، والمدير الأعلى، ومدير أعمال ماتحت الأرض، ووضع المهندسين في طاحونة لم يحلموا بها. السلطة، شعر بإحساس جديد من السلطة يتدفق فيه: سلطة على كل هؤلاء الرجال، على المئات والمئات من عمال المناجم. لقد وجد نفسه: وجمع الأشياء في قبضته.

بدا حقاً كأنه ولد ثانية. الحياة ـ الآن ـ عادت إليه. كان يُحتضر تدريجياً، مع كوني، في حياة خاصة منعزلة للكائن الفنان والواعي. والآن لتذهب كل تلك الأشياء. فلتنم. شعر بالحياة تندفع فيه من الفحم، من الحفرة. فالهواء الراكد للمنجم كان أفضل له من الأوكسجين. لقد منحه الإحساس بالسلطة، السلطة. كان يعمل شيئاً ما: كان يذهب ليعمل شيئاً ما. كان يذهب ليربح، ليربح: ليس كما ربح بقصصه، الشعبية فقط، بين نباح الحسد والخبث. إنه انتصار الإنسان على الفحم، على قذارة حفرة تيفرشال.

اعتقد أولاً أن الحل يكمن في الكهرباء: تحويل الفحم إلى طاقة كهربائية، في مقدمة الحفرة، ثم يبيع الطاقة. لكن خطرت له فكرة جديدة. فقد ابتكر الألمان آلة قاطرة بتغذية ذاتية، بحيث لاتحتاج إلى وقّاد. كانت تغذيتها تتم بوقود جديد، يحترق بكميات صغيرة ويعطي حرارة كبيرة، ضمن ظروف خاصة.

كانت فكرة الوقود الممركز الجديد الذي يحترق ببطء شديد في حرارة عالية أول ماجذب كليفورد. هناك نوع من المحرضات الخارجية لاحتراق هذا الوقود، ليس فقط توافر الهواء. بدأ يجرب، واستحضر زميلاً فتياً أثبت ألمعية في الكيمياء ليساعده.

شعر بالانتصار. وأخيراً خرج من نفسه. لقد حقق التوق السري لحياته الطويلة: أن يخرج من نفسه. الفن لم يحقق هذا التوق فيه. الفن جعله أسوأ. لكن الآن، الآن، هو يحققه.

ss

لم يكن واعياً كم كانت السيدة بولتون تقف وراءه داعمة، لم يعرف كم اعتمد عليها. ولكن رغم ذلك، بدا واضحاً أنه عندما كان معها كان صوته ينحدر إلى إيقاع سهل للحميمية، ويصل تقريباً إلى الابتذال التافه.

مع كوني كان صلباً قليلاً. شعر أنه مدين لها بكل شيء، كل شيء، فأظهر لها أعظم الاحترام والاعتبار مادامت تمنحه مجرد احترام خارجي. لكن من الواضح أن رعباً سرياً منها كان يكمن فيه، إن آخيل الجديد فيه له عقِب، وفي هذا العقب يمكن للمرأة، مثل زوجته كوني، أن تجلب له قضاءه. لقد سار نصف تابع لها خائفاً منها وكان لطيفاً معها، لكن هذه الصوت كان قليل التوتر حين يتحدث إليها، فصار يصمت عندما تحضر.

فقط عندما يكون وحده مع السيدة بولتون يشعر حقاً أنه لورد وسيد، وأن صوته يجري معها بسهولة مثل صوتها. فتركها تحلق له أو تصوبن كل جسده كما لو كان طفلاً، فعلاً كما لو كان طفلاً.

الفصل العاشر

كوني وحيدة جداً هذه الآونة، فقلة من الناس يأتون إلى راغبي. لم يعد كليفورد يرغب بهم. لقد انقلب حتى ضد الحميمين. كان غريباً. فضّل الراديو الذي اشتراه بثمن باهظ مع نجاحه الكبير أخيراً. أحياناً يستمع إلى مدريد أو فرانكفورت، حتى هناك في الميدلاندز التي يصعب الالتقاط فيها.

يجلس ساعات وحيداً يصغي لمكبر الصوت وهو يلعلع. وقد أدهش هذا كوني. لكنه يجلس هناك بتعبير خالٍ في وجهه، مثل إنسان أضاع عقله، ويستمع، أو يبدو أنه يستمع لأشياء غير منطوقة.

أكان يستمع حقاً؟ أو كان هذا نوعاً من المخدر قد تعاطاه؟ لم تعرف كوني. تصعد إلى غرفتها: أو تخرج إلى الغابة. أحياناً يملأها نوع من الرعب: رعب من الجنون البدائي للأجناس البشرية.

لكن الآن انتقل كليفورد إلى هذا السياج الآخر من النشاط الصناعي، وتحول فجأة إلى مخلوق بصَدَفة قاسية خارجياً، وإلى عجينة في الداخل، كأحد السرطانات أو جراد البحر في العالم الصناعي والتجاري الحديث، أحد اللافقاريات من النظام القشري، بصدف من فولاذ، مثل الآلات، وفي الداخل أجسام طينية ناعمة، مما أدهش كوني إدهاشاً كاملاً.

ss

لم تكن حتى حرة، إذ يريدها كليفورد أن تكون هناك. بدا كأن فيه رعباً عصبياً بأنها سوف تتركه. فالجزء الطيني منه، الجزء العاطفي الفردي الإنساني يعتمد عليها برعب، مثل طفل، أو بالأحرى مثل أبله. يجب أن تكون هناك، هناك في راغبي، باعتبارها الليدي شاترلي، زوجته. وإلا طاش صوابه مثل أبله على مستنقع.

تحققت كوني من هذا الاعتماد المذهل عليها بنوع من الرعب. سمعته مع مديري حفرته، مع أعضاء مجلسه، مع العلماء الشبان، فذهلت من بصيرته القوية في الأشياء، من سلطته، من السلطة المادية المتهورة على من أسماهم الرجال العمليين. لقد صار هو نفسه رجلاً عملياً قوياً ومتسلطاً على نحو مذهل: صار سيداً. لقد عزت كوني ذلك لتأثير السيدة بولتون عليه، تماماً مثل أزمة في حياته.

لكن هذا الرجل العملي القوي الماكر، كان أقرب إلى غبي عندما يُترك وحده لحياته العاطفية. إنه يعبد كوني. كانت زوجته كائناً أعلى، عبدها بوثنية جبانة غريبة، مثل متوحش: عبادة قائمة على خوف كبير، بل حتى على كراهية لقوى الوثن، الوثن المرعب. كل مايطلبه من كوني أن تقسم، أن تقسم له بألا تتركه، ألا تتخلى عنه.

قالت له ـ ولكن هذه المرة كانت بعد أن أخذت منه مفتاح الكوخ ـ «ياكليفورد أتريد حقاً أن يكون لك ولد مني في يوم ما؟».

نظر إليها نظرة مخالسة بعينيه الشاحبتين البارزتين.

قال «لاأبالي، إن كان لايجعل فارقاً بيننا».

سألته «لايجعل فارقاً بالنسبة لماذا؟».

«بالنسبة لك ولي: لحب واحدنا للآخر. فإن أثر على ذلك فأنا ضده ـ أنا يمكن في يوم من الأيام أن يكون لي ولد يخصني».

نظرت إليه مندهشة.

«أقصد يمكن أن يعود إلي، في يوم من الأيام».

ss

ظلت محملقة في دهشة، وكان هو مضطرباً.

قالت «إذن أنت لاترغب إن كان لديّ طفل؟».

أجاب بسرعة مثل كلب محاصر «أخبرتك أني راغب تماماً، إن لم يؤثر على حبك لي. فإن أثر على حبك فإني ضده حتى الموت».

لم تستطع كوني سوى الصمت، في خوف بارد واحتقار. كان هذا الحديث فعلاً هذر أبله. لم يعد يعرف عما كان يتحدث.

قالت بسخرية معينة «إنه لن يجعل أي فارق في شعوري نحوك».

قال «هنا هي النقطة. في تلك الحالة لاأبالي على الأقل. أقصد سيكون جميلاً جداً أن يحبو طفل في البيت ويشعر المرء أنه يبني مستقبلاً له. سأملك شيئاً أناضل من أجله عندئذٍ. وسأعرف أنه طفلك، ألا أعرف، ياعزيزتي، وسيبدو كأنه طفلي تماماً. إذ أنت من يحسب الحساب في هذه المسائل. أنت تعرفين ذلك، أليس كذلك ياعزيزتي؟ أنا لاأتدخل. أنا صفر. أنت الأعظم، وأنا كحياة راحلة. أنت تعرفين ذلك ألا تعرفين؟ أقصد مادمت مهتماً. أقصد بالنسبة لك أنا لاشيء إطلاقاً. أنا أعيش من أجلك، ومن أجل مستقبلك. أنا لاشيء لنفسي -».

بازدراء ورفض عميقين سمعت كوني كل ذلك. كانت واحدة من أنصاف الحقائق الشاحبة التي تسمم الوجود الإنساني. أي إنسان بمشاعره يمكن أن يقول هذه الأشياء لامرأة، كما لو كانت نصف سيدة، نصف امرأة حاضنة له. وكانت السيدة بولتون تُلبسه بعناية ثياب المساء، لأنه سيأتي إلى البيت ضيوف من رجال الأعمال المهمين.

شعرت كوني فعلاً أنها ستموت في هذا الوقت. شعرت أنها تنسحق حتى الموت بهذه الأكاذيب المكبلة، وبهذا الظلم المذهل للبلاهة. فنشاط كليفورد الغريب بطريقته في العمل أخافها، وإعلانه

ss

عن عبادته الخاصة لها، أصابها بالرعب. ولاشيء بينهما. فهي حتى لم تلمسه في هذه الأيام، وهو لم يلمسها. إنه حتى لم يأخذ يدها ويرفعها بلطف. لا. ولأنهما كانا بعيدين عن الملامسة مطلقاً، آلمها بإعلانات وثنيته. كان ظلماً فادحاً. شعرت أن عقلها سيطير أو أنها ستموت.

خفّت مسرعة بمقدار ماتستطيع إلى الغابة. في عصر أحد الأيام جلست تراقب الماء يتفجر بارداً من بير يوحنا، سار الحارس نحوها.

قال محيياً وقدم لها المفتاح «أحضرت لك مفتاحاً مصنوعاً ياسيدتي».

قالت حائرة «أشكرك كثيراً».

قال «الكوخ ليس مرتباً جداً فقد نظفته بمقدار مااستطعت».

قالت «ولكني لاأريد إزعاجك».

«أوه، لم يكن ثمة أي إزعاج. أجلست الدجاجات زهاء أسبوع: ولكنهن لن يخفنك. أنا أتفقدهن صباحاً وليلاً. ولكني لن أزعجك بمقدار ماأساعدك».

فرجته «لكنك لن تزعجني. أنا لن أذهب إلى الكوخ إطلاقاً، إذا كنت في الطريق».

نظر إليها بعينيه الزرقاوين الحذرتين. بدا لطيفاً، ولكن بدا أيضاً مبتعداً. لكنه أخيراً بدا عاقلاً وأنيقاً وإن بدا نحيلاً ومريضاً. هناك رشح أزعجه.

قالت «أنت مصاب برشح».

«لاشيء، ـ مجرد برد. فآخر إلتهاب للرئة ترك هذا الرشح ـ لكن لا، لاشيء».

احتفظ بمسافة عنها، ولم يقترب أكثر من ذلك أبداً.

ذهبت بهدوء إلى الكوخ في الصباح أو العصر: لكنه لم يكن هناك. لاشك أنه تجنبها لغرض في نفسه. أراد أن يحتفظ بخصوصيته.

جعل الكوخ مرتباً، وضع الطاولة الصغيرة والكرسي قرب الموقد، وترك حزمة صغيرة من الحطب الخاص للوقود، ووضع الأدوات والمصائد بعيداً قدر الإمكان. في الخارج، قرب البقعة المقطوعة الأشجار بنى سقفاً صغيراً منخفضاً من الأغصان والقش، كملجأ للطيور، وتحته تقوم القنان الخمسة. وفي أحد الأيام حين جاءت، وجدت دجاجتين بنيتين تجلسان بهمة وعنف في القنان، تجلسان على بيوض الدرّج، وقد نفشتا ريشهن بفخر وعمق بكل ماأوتيتا من حرارة الأنثى المتأملة. حطم هذا قلب كوني إلى حد ما. إنها نفسها مهجورة وغير مستخدمة، وليست أنثى على الإطلاق، إنها مجرد شيء من الرعب.

ثم شغلت كل القنان الخمسة بدجاجات، ثلاث بنيات وواحدة رمادية وأخرى سوداء. كلهن سواء وقد جثمن يحتضن البيض في تأمل رقيق للعش نابع من الحاجة الأنثوية، من الطبيعة الأنثوية، نافشات ريشهن. وبعيون براقة راقبن كوني، حالما خطرت أمامهن، وأصدرن صوتاً ينم عن الغضب والإنذار، ولكنه غضب أنثى جرى الاقتراب منها.

وجدت كوني حبوباً داخل علبة الحبوب في الكوخ، قدمت الحب بيدها للدجاجات ـ لم يأكلنه. واحدة فقط نقرت يدها نقرة قوية قليلاً، فخافت كوني. لكنها كانت مصممة أن تقدم لهن شيئاً ما: تلك الأمهات الحواضن اللواتي لايطعمن أنفسهن ولايشربن. فأحضرت الماء بتنكة صغيرة، وقد ابتهجت حين شربت إحدى الدجاجات.

صارت تأتي كل يوم إلى الدجاجات: كنَّ الشيء الوحيد في العالم الذي يدفئ قلبها. احتجاجات كليفورد جعلتها باردة من رأسها حتى أخمص قدميها. وجعلها صوت السيدة بولتون باردة:

ss

وأصوات رجال الأعمال الذين يأتون. تأثرت برسالة عارضة من ميكائيل بشعور القشعريرة ذاته، شعرت فعلاً أنها يجب أن تموت إن استمر الوضع على هذه الحال.

جاء الربيع وتفتحت نباتات الأجراس الزرقاء في الغابة، وكانت براعم الأوراق على شجيرات البندق تتفتح مثل زخة مطر أخضر. كم كان مرعباً أن يكون هناك ربيع، وكل شيء بارد القلب. بارد القلب، الدجاجات فقط نفشن ريشهن بخيلاء على البيض وكنَّ دافئات: إنه دفؤهُنَّ، دفء أجساد أنثوية تقوم بالحضانة. شعرت كوني بأنها تعيش على حافة الإغماء طيلة الوقت.

عندئذٍ، في أحد الأيام، في يوم مشمس جميل بخصلات من زهر الربيع تحت شجيرات البندق، والبنفسج ينقط الدرب، جاءت عصراً إلى القنان، فكان هناك صوص صغير يرتجف برعب. كان الفرخ الصغير النحيل بنياً فاتحاً مع علامات غامقة، فكان أعظم شرارة صغيرة حية لمخلوق في الممالك السبع، في تلك اللحظة. اندفعت كوني لتراقب بنوع من الغبطة. الحياة. الحياة. حياة صافية طافحة بلا خوف. حياة جديدة. حياة صغيرة ولكنها بلا خوف. حتى عندما يرتجف قليلاً ويدخل إلى القن، ويختفي تحت ريش الدجاجة، استجابة لصراخ الدجاجة الأم الوحشي المنذر، فإنه ليس خائفاً حقاً، إنه يقوم بذلك كلعبة، لعبة الحياة. وفي لحظة كان يظهر رأس صغير حاد من تحت الريش البني الذهبي للدجاجة ويبصبص بعينيه في الكون.

كانت كوني مأخوذة. وفي الوقت نفسه لم تشعر فعلاً هكذا بألم هجرانها كأنثى. كان شيئاً غير محتمل.

إن فيها رغبة واحدة الآن: أن تذهب إلى البقعة المقطوعة الأشجار في الغابة، والباقي كان نوعاً من حلم مؤلم. ولكن أحياناً تبقى طيلة اليوم في راغبي، بسبب واجباتها كمضيفة. ثم تشعر أنها ترتمي في الخواء، مجرد خواء وجنون.

في أحد الأماسي هربت كوني بعد الشاي، دون أن تأبه بوجود أو عدم وجود ضيوف. كان الوقت متأخراً، فعبرت المتنزه بسرعة كمن يخاف أن يُستدعى ثانية. كانت الشمس وردية حين دخلت الغابة، ولكنها سارعت بين الأزهار. وكان النور يسابقها إلى الاختباء.

وصلت إلى البقعة المقطوعة الأشجار متوهجة ونصف واعية. كان الحارس هناك، بقميصه القصير الكمين، وكان يغلق القنان تحسباً من الليل، حرصاً على سلامة شاغلي الكوخ. ولكن مايزال فرخ من الفراخ الثلاثة يتبختر دائراً على قدميه الهزيلتين، ينقر السوس تحت قش الملجأ، رافضاً الاستجابة للأم القلقة.

قالت لاهثة ناظرة بخجل إلى الحارس، غير واعية تقريباً حتى له «عليّ أن آتي وأتفقد الفراخ. هل هناك المزيد؟».

قال «ستة وثلاثون. لَشن في حالة سيئة».

كان هو أيضاً مستمتعاً بمراقبة الأشياء الصغيرة المنبثقة.

اندفعت كوني أمام القن الأخير. دخل فيه الفراخ الثلاثة. ولكن ظلت رؤوسهن تظهر بشدة من خلال الريش الأصفر، ثم انسحبن، ثم واحد فقط برأس صغير يشبه الخرزة راح يبصبص من تحت جسد أمه الضخم.

«أحب أن ألمسهن» قالت ووضعت أصابعها بحذر من خلال قضبان القن، ولكن الدجاجة نقرت يدها نقرة قوية، فارتدت كوني قلقة خائفة.

قالت بصوت مندهش «كيف نقرتني. إنها تكرهني. لكني لن أؤذيهن».

ضحك الرجل الواقف فوقها، وانحنى إلى جانبها راكعاً جانباً ووضع يده بثقة كاملة وبهدوء في القن. ونقرته الدجاجة القديمة

ss

إياها، ولكن ليس بوحشية. وبهدوء ونعومة، وبأصابع لطيفة، شعر بريش فرخ أعمر سناً أطبق عليه يده.

قال وهو يرفع يده إليها «هاك».

أخذت هذا الشيء الصغير بين يديها، فوقف على ساقيه الهزيلتين النحيلتين، وراحت ذرّة توازن حياته ترتعد عبر قدميه المعدومتي الوزن تقريباً، في يدي كوني. رفع هذا الشيء الصغير رأسه الصغير النظيف بشجاعة ونظر بحدة حوله وأطلق صيحة صغيرة «بيييب».

قالت برقة «كم هو متباه، كم هو وقح».

الحارس الذي كان بجانبها، كان أيضاً يراقب بوجه ممراح الطائر الصغير الشجاع في يديها. فجأة رأى دمعة تسقط على خصرها.

انتصب ووقف بعيداً، منتقلاً إلى القن الآخر. لأنه انتبه فجأة إلى الشعلة المنطلقة القديمة التي طالت خاصرتيه، وكان يعتقد أنها انطفأت إلى الأبد. فكافح ضدها، مولياً ظهره لكوني. لكنها نطّت وارتمت إلى الأسفل، ملتفة على ركبتيه.

التفت ثانية ونظر إلى كوني. كانت راكعة ورافعة يديها ببطء نحو أعلى، بعشوائية، لتُمكن الفرخ من العودة إلى الدجاجة الأم ثانية. كان هناك شيء صامت ومهجور فيها، واندلعت عاطفة في أحشائه تجاهها.

أقبل نحوها سريعاً، من دون أن يدري، واندفع إلى جانبها ثانية، آخذاً الفرخ من يديها لأنها كانت خائفة من الدجاجة، فوضعه ثانية في القن. وعلى خلف خاصرتيه اندلعت النار أقوى.

نظر باستيعاب إليها. كان وجهها منقبضاً وراحت تبكي بشدة ألماً على هجران جيلها. وذاب قلبه فجأة، مثل نقطة ماء سقطت في أتون، فأخرج يده ووضع أصابعه على ركبتها.

قال برقة «يجب ألا تبكي».

لكنها عندئذٍ وضعت يديها على وجهها وشعرت بأن قلبها يتحطم فعلاً، ولاشيء غير ذلك.

ألقى يده على كتفيها، وبدأ بنعومة ولطف يُنزل يده إلى انحناء ظهرها، على نحو أعمى، بحركة ضاغطة على انحناء خاصرتيها المتكومتين. ومد يده، بنعومة إلى حنية خاصرتها، في تربيتة غريزية عمياء.

وجدت منديلها وحاولت بعشوائية أن تجفف وجهها.

قال بصوت هادئ حيادي «هل تأتين إلى الكوخ؟».

وأطبق يده بنعومة على زندها الأعلى، ليرفعها ويقودها ببطء إلى الكوخ، ولم يتركها حتى صارت في الداخل. ثم نحى جانباً الكرسي والطاولة وأخذ بطانية عسكرية بنية من صندوق الأدوات، ونشرها بهدوء. نظرت إلى وجهه كما لو أنها صارت جامدة لاحركة فيها.

كان وجهه شاحباً وبلا أي تعبير، كرجل يستسلم لقدره.

«اضطجعي هناك» قال بنعومة وأغلق الباب فكان ظلام، ظلام كامل.

وبطاعة غريبة اضطجعت على البطانية. ثم شعرت بيد ناعمة مفعمة بالرغبة تلامس جسدها، تتحسس وجهها. ووصلت اليد إلى وجهها بنعومة، نعومة، برقة متناهية وثيقة، وأخيراً انطبعت قبلة على خدها.

اضطجعت راكدة تماماً، بنوع من النوم، بنوع من الحلم. ثم ارتجفت حالما شعرت بيده تتلمس طريقها عشوائياً بين ثيابها. ومع ذلك عرفت اليد كيف تعريها في المكان المطلوب. فحل إلى الأسفل الغمد الحريري الرفيع ببطء وعناية، أسفل فأسفل فوق قدميها. ثم برجفة من المتعة الشديدة لمس جسدها الناعم الدافئ، وطبع قبلة رقيقة للحظة على سرتها. وعليه أن يدخل فيها دفعة واحدة، أن

ss

يدخل السلام على أرض جسدها اللدن. كانت لحظة السلام الصافي بالنسبة له أن يدخل في جسد المرأة.

ظلت مضطجعة، بنوع من النوم، دائماً بنوع من النوم. النشاط العضوي كان له، كله له: لم تعد تكافح من أجل نفسها أبداً. حتى تطويقها بذراعيه، حتى الحركة المكثفة لجسده، حتى دفق بذوره فيها، كان نوعاً من النوم، لم تبدأ بالاستفاقة منه إلى أن انتهى واضطجع بليونة لاهثاً فوق صدرها.

كانت منذهلة، منذهلة على نحو غامض، لماذا؟ لماذا كان هذا ضرورياً؟ لماذا انزاحت عنها غمامة كبيرة، واستقر فيها سلام عميق؟ أكان هذا حقيقياً؟ أكان حقيقياً؟

ظل عقلها الأنثوي الحديث الصاخب لايعرف الراحة. أكان حقيقياً؟ ـ إنها تعرف، إذا منحت ذاتها للرجل، فإن ذلك حقيقي. أما إذا احتفظت بذاتها لذاتها، فإن ذلك ليس شيئاً. كانت مسنة: شعرت أن عمرها ملايين السنين. وأخيراً لم تعد تتحمل عبء نفسها أكثر من ذلك. كان يجب أن تؤخذ، يجب أن تؤخذ.

استلقى الرجل بهدوء سرّاني، ماذا كان يشعر؟ بماذا كان يفكر؟ إنها لاتدري. كان رجلاً غريباً عنها، لم تعرفه. يجب أن تنتظر وحسب، لأنها لاتجرؤ أن تهشم هدوءه السراني. استلقى هناك وذراعاه تطوقانها وجسده على جسدها، جسده الرطب يلامس جسدها: متلاصقين جداً. ومجهولين تماماً. ولكن ليس من دون سلام، فقد كان هدوؤه سلاماً.

عرفت ذلك أخيراً عندما نهض وقام عنها. كان ذلك مثل الهجران. وضع ثوبها في الظلمة أسفل، على ركبتيها، ووقف لحظات قليلة، من الواضح أنه يرتب ثيابه. ثم بهدوء فتح الباب وخرج.

لاحظت قمراً مشعاً صغيراً يتوهج فوق السنديان. نهضت بسرعة ورتبت نفسها: كانت مرتبة، ثم ذهبت إلى باب الكوخ.

ss

كل الغابة السفلى كانت في الظل، تقريبا في الظلمة. ومع ذلك كانت السماء فوق بلورية. لكن قلما جاءت بنور. جاء من خلال الظل الأدنى باتجاهها، ووجهه مرتفع مثل لطخة شاحبة.

قال «ألا نذهب؟».

«أين؟».

«سأذهب معك حتى البوابة».

رتب أشياءه بطريقته الخاصة. أقفل باب الكوخ وتبعها.

سألها حين صار إلى جانبها «أنت لست نادمة، أليس كذلك؟».

قالت «أنا؟ لا. أأنت نادم؟».

قال «لهذه الشغلة؟ لا» ثم أضاف بعد هنيهة «لكن هناك بقية الأشياء».

قالت «أي بقية أشياء؟».

«السير كليفورد. الآخرون. كل التعقيدات»

قالت وهي غير مركزة «ولماذا التعقيدات؟».

«دائماً هكذا، بالنسبة لك كما بالنسبة لي، هناك دائماً تعقيدات». وسار بثبات في الظلمة.

قالت «أنا، أم أنت؟».

أجاب ناظراً إلى السماء «اعتقدت بطريقة ما أنني لن أفعل. الآن بدأت أفعل».

«بدأت ماذا؟»

«الحياة».

رددت بإثارة غريبة «الحياة».

قال «إنها الحياة. لاشيء يبقى رائقاً. فإن احتفظت بنفسك

رائقة تكونين مثل من تموت. وهكذا كان علي أن أنفتح مرة ثانية، كان علي ـ».

لم تر الأمر على هذا النحو، بل ظلت على رأيها ـ

قالت بمرح «إنه الحب تماماً».

أجاب «ليكن مايكون».

تابعا بصمت عبور الغابة المظلمة، إلى أن وصلا تقريباً إلى البوابة.

قالت بحزن «ولكنك لم تكرهني. هل كرهتني؟».

أجاب «لا لا أبداً». فجأة رفعها وضمها إلى صدره مع كل العاطفة التواصلية القديمة. «لا. بالنسبة لي كان عملاً جيداً، كان جيداً، أكان بالنسبة لك هكذا؟».

«بلى بالنسبة لي أيضاً» أجابت بقليل من عدم الصدق لأنها لم تكن قد استعادت وعيها كثيراً.

قبلها برقة، برقة، بقبلات كثيرة من الدفء.

قال لها بحزن «آه لو لم يكن هناك كثير من الناس الآخرين في العالم».

ضحكت، وقد وصلا إلى بوابة المتنزه. فتح البوابة لها.

قال «لن آتي مرة ثانية».

«لا» ورفعت يدها كما لو كانت تتصالح معه، ولكنه تناول يدها بكلتا يديه.

سألته بحزن «هل أعود ثانية؟».

«بلى، بلى».

تركته وسارت عبر المتنزه.

تراجع وراح يراقب خطوها في الظلام، في مواجهة شحوب

الأفق. راقبها بمرارة وهي تذهب. لقد اتصلت به ثانية، عندما كان يريد أن يكون وحيداً. لقد كلفته تلك الخصوصية المريرة لرجل أراد أخيراً أن يكون وحيداً.

استدار إلى ظلام الغابة. كل شيء كان ساكناً، وقد غاب القمر. لكنه كان يعي ضجيج الليل، والآلات في ستاكس غيت، وحركة المرور على الطريق الرئيسي. تسلق ببطء الرابية الجرداء. واستطاع من القمة أن يرى المقاطعة، وتلك الصفوف المنيرة من أضواء ستاكس غيت، وأضواء حفرة تيفرشال الأصغر منها، وأضواء تيفرشال الصفراء، وأضواء في كل مكان، هنا وهناك، في المقاطعة الدامسة، مع مسافة محمرّة من الأفران، الفاتحة والوردية، منذ أن يهبط الليل، واحمرار الحديد المتوهج المسكوب. أضواء حادة كهربائية في ستاكس غيت. وسرعة الشر فيها لاحد لها. وكلها صادرة عن رعب نوبات العمال المتصاعدة أبداً للّيل الصناعي في الميدلاندز. ويمكنه أن يسمع آلات الرفع في ستاكس غيت، تعمل حتى نوبة مناجم الساعة السابعة. فالحفرة تعمل على ثلاث نوبات.

هبط ثانية في عتمة الغابة وعزلتها. ولكنه يعرف أن عزلة الغابة كانت وهماً. فالضجيج الصناعي يحطم العزلة، والأضواء الحادة، وإن كانت لاتُرى، تسخر منها. الإنسان لم يعد باستطاعته أن ينسحب وتكون له خصوصيته. فلا مكان للنساك في العالم، والآن وقد أخذ المرأة، وجلب على نفسه دورة جديدة من الألم والدينونة. إنه بالتجربة يعرف ماذا يعني ذلك.

ليست خطيئة المرأة، ولاحتى خطيئة الحب، ولاخطيئة الجنس. الخطيئة تكمن هناك، هناك في الخارج، في الأضواء الكهربائية الشريرة وقعقعة الآلات الشيطانية. هناك في عالم الجشع الميكانيكي، الميكانيكية الجشعة، والجشع الممكنن، تقذف أضواء ومعادن مصهورة وضجيجاً في حركة المرور، هناك يكمن الشيء الشرير الضخم، الجاهز لتدمير كل مالايلائمه. وسوف يدمر عاجلاً

الغابة فأزهار الربيع لن تنبت ثانية. كل ماهو حساس يجب أن يتحطم تحت تدحرج الحديد وجريانه.

فكر بالمرأة بحنان لاحدود له. شيء مسكين مهجور، كانت أجمل مما تعرفه عن جمالها، أوه، كانت أجمل كثيراً في تماسكها أثناء الوصال. شيء مسكين، وهي، وفيها أيضاً حساسية الهايسنت البري، لم تكن متماسكة مثل المطاط والبلاتين، مثل الفتاة المودرن. إنهم يريدون جعلها في الداخل. وكما جعلوا الحياة في الداخل، سيجعلونها في الداخل كما يفعلون في كل حياة لطيفة طبيعية. اللطف! في مكان ما كانت لطيفة، لطيفة مع لطف الهايسنت النامي. اللطف انتهى من نساء هذه الأيام السيلولويديات. لكنه سوف يصونها بقلبه لفترة زمنية قليلة. لفترة زمنية قليلة قبل أن يجرفهما كليهما، هي وهو، العالم الحديدي عديم الإحساس ورب المال «مامون»(*)، رب الجشع الممكنن.

ذهب إلى البيت مع بندقيته وكلبته، إلى الكوخ المعتم الذي يضيئه مصباح، فأوقد النار، وتناول عشاءه من خبز وجبن، وبصل أخضر وبيرة. كان وحيداً أحب بصمت. كانت غرفته نظيفة ومرتبة، بل بالأحرى عارية. ومع ذلك كانت النار ساطعة، بيضاء، والمصباح البترولي معلقاً فوق الطاولة، مع غلافه الزيتي الأبيض. حاول أن يقرأ كتاباً عن الهند، لكنه لم يستطع أن يقرأ في هذه الليلة. جلس قرب النار بقميصه ذي الأكمام، لايدخن بل يشرب البيرة بكثرة. وفكر في كوني.

والحقيقة أنه كان نادماً على ماحدث، ربما في الغالب من أجلها. كان فيه إحساس يوجس شراً. لم يكن إحساساً بالخطأ أو الخطيئة: كان منزعجاً لعدم وعيه بهذا المجال. يعرف أن الوعي

(*) مامون هو رب المال، كانت عبادته محدودة ولكنها انتشرت فيما بعد مع تهافت الناس على المال.

كان بصورة رئيسية الخوف من المجتمع: أو خوف المرء من نفسه. لم يكن خائفاً من نفسه. لكنه كان واعياً لخوفه من المجتمع، إذ بغريزته يعرف أنه وحش شرير أهوج.

المرأة، هذا لو استطاعت أن تكون معه هناك، حيث لايوجد أحد آخر في العالم. عادت إليه الرغبة فبدأ هنوه يتحرك مثل عصفور حي، وشعر في الوقت نفسه بالاضطهاد، بالخوف من تعريض نفسه ونفسها لذلك الشيء الخارجي الذي ظهر شرُّه في الأضواء الكهربائية، والذي أرخى بثقله على كاهله. كانت هي، الشيء الفتي المسكين، مجرد مخلوق أنثوي يانع بالنسبة له: لكنها مخلوق أنثوي يانع دخل فيها، ويرغب فيها ثانية.

جرفته الرغبة، لأنه وحيد وبعيد عن الرجل أو المرأة منذ أربع سنوات، فنهض وتناول معطفه ثانية وبندقيته، وخفض نور المصباح وخرج مع الكلبة إلى الليل المرصع بالنجوم. وبدافع الرغبة وهذا الشيء الخارجي البغيض، طاف في الغابة بطيئاً هادئاً. أحب العتمة وبسط نفسه فيها، إنها تناسب تورم رغبته التي كانت، على الرغم من كل شيء، ثروة: القلق المثير لهنيه، النار المثيرة لخاصرتيه. أوه، لو أن هناك رجالاً آخرين معه، لحارب ذلك الشيء الخارجي الكهربائي المتوقد هناك، لصيانة لطافة الحياة، لطافة النساء، الغنى الطبيعي للرغبة. لو أن هناك رجالاً معه يقاتلون إلى جانبه. لكن الرجال كلهم في الخارج هناك، يمجدون الشيء، انتصاره، أو اندفاعه إلى الجشع الممكنن، أو المكننة الجشعة.

أسرعت كونستانس، من جانبها، في عبور المتنزه، البيت، تقريباً من دون تفكير. يجب أن تكون في الموعد المحدد للعشاء.

وجدت الأبواب مقفلة فتضايقت، فاضطرت أن تقرع الجرس ففتحت لها السيدة بولتون.

قالت بشيء من الخبث «أين كنت أيتها الليدي، بدأت أخشى أن

ss

تكوني ضعتِ. ومع ذلك لم يسأل عنك السير كليفورد: لقد أحضر السيد لنلي معه، وهما يتحدثان حول أمر ما. يبدو أنه ينتظر العشاء، أليس كذلك أيتها الليدي؟».

قالت كوني «على الأرجح».

«أأضع العشاء بعد ربع ساعة؟ إن هذا يتيح لك أن ترتدي الثياب المريحة».

«لعل ذلك أفضل».

كان السيد لنلي المدير العام للمناجم وهو متقدم في السن، من الشمال، وليس فيه مايناسب كليفورد: لايرقى إلى مستوى ظروف مابعد الحرب، ولامناجم مابعد الحرب بجشعها «البعيد النظر». لكن كوني أحبت السيد لنلي، مع أنها كانت مسرورة لأنها تصفح عن تملقه في حياته.

بقي السيد لنلي على العشاء، وكانت كوني المضيفة المحبوبة المتواضعة، ومع ذلك ظلت جذابة ويقظة بعينين زرقاوين كبيرتين واسعتين وهدوء ناعم يكفي لأن يخبئ حقاً ما كانت تفكر فيه. كثيراً مالعبت كوني دور هذه المرأة المضيفة، فكان طبيعة ثانية لها: ولكنه مايزال طبيعة ثانية بالتأكيد. ومع ذلك فإن من الغريب أن كل شيء يختفي من وعيها عندما تلعب هذا الدور.

انتظرت بصبر حتى صعدت الدرج لتتدبر أفكارها الخاصة. دائماً كانت تنتظر، ويبدو أن في الانتظار قوتها. لاتعرف بماذا تفكر. أي نوع من الرجال كان حقاً؟ هل يحبها فعلاً؟ ليس كثيراً. هكذا شعرت. ومع ذلك كان لطيفاً. هناك شيء ما، نوع من الدفء، من اللطف الساذج، الغريب والمفاجئ، وهو ماجعل رحمها ينفتح له. لكنها شعرت أنه قد يكون لطيفاً معها كما هو لطيف مع أي امرأة. ولكن حتى هذا كان مريحاً على نحو غريب. وهو رجل عاطفي،

مرتب وعاطفي. وربما لايكون فردياً إلى هذا الحد: قد يكون الشيء ذاته مع أي امرأة كان معها. لم يكن تصرفه يعبر عن شخصه، أنثى مجرد أنثى بالنسبة له، ليس غير.

ولكن ربما كان ذلك أفضل. ثم إنه كان لطيفاً للأنثى فيها، وهذا مالم يكُنهُ أي رجل. الرجال لطفاء لشخصها، لكنهم متجنون على الأنثى، يحتقرونها أو يتجاهلونها كلها. كان الرجال نوعاً مرعباً لكونستانس ريد أو الليدي شاترلي: ولكن لم يكونوا لطفاء لرحمها. إنه لم يلحظ كونستانس أو الليدي شاترلي: داعب بلطف خاصرتيها أو صدرها.

ذهبت إلى الغابة في اليوم التالي. كان العصر مايزال رمادياً، ونبات الحلبوب الأخضر الداكن ينتشر تحت أجمات البندق، وكل الأشجار تقوم تجهد صامت لتجعل براعمها تتفتح. اليوم يمكنها أن تتحسس بجسدها الخاص، العبء الكبير للبرعم في الأشجار الضخمة، عالياً عالياً حتى رؤوس البرعم، هناك في أوراق السنديان الصغيرة المتوهجة البرونزية كلون الدم. كان الوقت مثل مدّ يجري صاعداً وينتشر في السماء.

وصلت إلى البقعة المقطوعة الأشجار، لكنه لم يكن هناك. لم تكن تتوقع وجوده تماماً. كانت فراخ الدرّج تجري بخفة في الخارج، خفيفة كالحشرات، من القنان حيث الدجاجات الصفراء تقوقئ بصخب. جلست كوني وراقبتهن وانتظرت. لقد انتظرت فقط. حتى الفراخ لاتراهن. انتظرت.

مر الوقت بطيئاً مثل الحلم، ولم يأت. يجب أن ترجع إلى البيت من أجل الشاي. لابد أن تقسر نفسها على العودة.

حالما عادت أدراجها إلى المنزل، هطلت السماء رذاذاً.

قال كليفورد ناظراً إليها تهز قبعتها «أهي تمطر ثانية؟».

«مجرد رذاذ».

ss

سكبت الشاي بصمت، وارتشفت بنوع من العناد. لاتريد أن ترى الحارس اليوم، لترى إن كان حقيقياً فعلاً. إذا كان فعلاً حقيقياً!

قال كليفورد «هل لي أن أقرأ لك قليلاً بعد ذلك».

نظرت إليه. شَعَر بشيء ما.

قالت «الربيع يجعلني أشعر بأني غريبة ـ أظن يمكنني أن أستريح قليلاً».

«كما تشائين. لاتشعرين بأنك على مايرام، أليس كذلك؟».

«لا، إني بالأحرى تعبة ـ مع الربيع. أتريد أن تلعب معك السيدة بولتون لعبة ما؟».

«لا، أعتقد أنني سأستمع للمذياع».

سمعت إشباعاً غريباً في صوته. صعدت الدرج إلى غرفة نومها. وهناك سمعت مكبر الصوت يجأر، بصوت مخملي لطيف غبي، ويصدر شيئاً لسلسلة من صرخات الشارع، صرخات مؤثرة تقلد الصارخين المسنين. وضعت عليها معطفها البنفسجي، وانسلت من البيت، من الباب الجانبي.

كان رذاذ المطر أشبه بوشاح فوق العالم، كان سرّانياً مندفعاً، غير بارد. استردت الدفء حالما أسرعت تقطع المتنزه. وعليها أن تنشر واقي المطر.

كانت الغابة صامتة، راكدة وسرية في رذاذ مطر المساء، ملأى بأسرار البيض والبراعم نصف المفتحة، والأزهار الآخذة بالانكشاف. وفي غبشها بدت كل الأشجار عارية وقاتمة، كما لو أنها خلعت ثيابها، والأشياء المخضرّة على الأرض بدت ملتهبة بالاخضرار.

مازال لايوجد أحد في البقعة المقطوعة الأشجار. كل الفراخ تقريباً أوت تحت الدجاجات الأمهات، سوى فرخ أو فرخين دفعتهما

SS

المناحرة إلى فتح ثقوب تحت قش سطح الملجأ. وكانا غير متأكدين من نفسيهما.

إذن مايزال غائباً. إنه مبتعد لغرض ما. أو ربما لشيء كان خاطئاً. ربما يجب عليها أن تذهب إلى الكوخ وترى.

لكنها ولدت للانتظار. فتحت الكوخ بمفتاحها. كان كله مرتباً. الحبوب موضوعة في صندوقها، والبطانيات مفروشة على الرف، والقش نظيف مرتب في الزاوية: هناك حزمة جديدة من القش. والمصباح الذي تعصف الريح بشعلته معلق بالمسمار. الطاولة والكرسي أرجعتا إلى الخلف، حيث اضطجعت.

جلست على كرسي بلا مسند في المدخل. كم بقي كل شيء كما كان! ويهطل المطر الجميل بنعومة وتتابع، ولكن من دون أن تُصدِرَ الريح ضجيجاً. ولاشيء يصدر صوتاً. فالأشجار انتصبت مثل كائنات قوية قاتمة صامتة وحية. كم كان حياً كل شيء.

كان الليل يقترب مرة أخرى: عليها أن تذهب. يبدو أنه يتجنبها.

لكنه فجأة جاء يخطو في منطقة الأشجار المقطوعة، بمعطفه الزيتي الأسود مثل سائق يبرق من المطر. ألقى نظرة خاطفة على الكوخ، نصف تحية، ثم انتحى وذهب إلى القنان. وهناك اندفع بصمت متفقداً بعناية كل شيء، ثم أغلق على الدجاجات والفراخ خوفاً من الليل.

أخيراً جاء نحوها بطيئاً. ماتزال جالسة على الكرسي الذي لامسند له. وقف أمامها تحت العتبة.

قال مستخدماً لهجته المحلية «جئتِ إذن».

«بلى، وأنت تأخرت» قالت ورفعت نظرها إليه.

أجاب «إي» ونظر بعيداً في الغابة.

نهضت بتمهل وسحبت كرسيها جانباً.

سألته «أتريد أن تدخل؟».

رمى بصره عليها بعناد.

قال «ألا يفكر الناس بشيء، عندما تأتين هنا كل ليلة؟».

نظرت إليه في حيرة «لماذا؟ قلت سوف آتي. لا أحد يعرف».

أجاب «سرعان مايفكرون، ولكن ماذا يعني؟».

كانت مرتبكة بحثاً عن جواب.

قالت «ولماذا يعرفون؟».

قال بحزم «الناس دائماً يعرفون».

ارتجفت شفتها قليلاً.

تلعثمت وهي تقول «يمكن أن أعمل على تفادي ذلك».

قال «لا. تتفادين ذلك بعدم المجيء» وأضاف بنغمة خفيضة «إذا كنت تريدينَ».

نظر في الغابة بعيداً، وكان صامتاً.

أخيراً سألها «ماذا سيفكر الناس؟ فكري في ذلك. فكري كم تشعرين بالضعة إذا أحد من خدم زوجك ـ».

رفعت نظرها إلى وجهه المتقلص.

تلعثمت وهي تقول «إنه ـ يعني، إنه يعني أنك لاتريدني؟».

قال «فكري، فكري بما يقول الناس. خدم السير كليفورد وكل واحد سوف يتحدث».

«لابأس، يمكنني أن أرحل».

«إلى أين؟».

«إلى أي مكان. يجب أن أحصل على المال بنفسي. لقد تركت لي

أمي عشرين ألف جنيه ـ وأنا أعرف أن كليفورد لن يمسها. يمكنني أن أرتحل».

«لاترتحلي بسبب ماحدث لك».

«بلى بلى، أنا لاأهتم بما حدث لي».

«أنت تظنين ذلك، ولكنك تهتمين. وسوف تهتمين، وكل واحد يهتم. إن لك ذاكرة. حضرتك تتابعين حياتك مع حارس طرائد وليس كما لو كان جنتلماناً. لابد أن تهتمي. يجب أن تهتمي».

«لن أهتم. أنا لاأهتم بلقبي الليدي. إني أكرهه فعلاً. أشعر أن الناس يسخرون دائماً كلما قالوه. وهم فعلاً. هم فعلاً، حتى أنت تسخر عند تَلَفّظه».

«أنا».

لأول مرة نظر إليها مباشرة وفي عينيها.

قال «أنا لاأسخر منك».

نظر في عينيها فرأى عينيه تزدادان قتامة، قتامة، واتسع البؤبؤ.

سألها بصوت أجش «ألا تأبهين بأي شطر خطر؟ يجب أن تأبهي. لاتأبهي عندما يفوت الأوان ـ».

كان في صوته تحذير غريب.

قالت مشاكسة «لكني لاأملك ماأخسره، لو علمته ماهو لكنت مسرورة أن أفقده. ـ ولكن هل تخاف على نفسك؟».

قال باختصار «أنا خائف، خائف. أنا خائف من الأشياء».

سألت «أي أشياء؟».

ارتد إلى الوراء هازاً رأسه، مشيراً إلى العالم الخارجي.

«الأشياء. كل شخص. كل الناس».

وفجأة انحنى وقبّل وجهها الكئيب.

ss

قال «لا لا أبالي. فليكن. اللعنة على البقية، ولكن إن كنت تشعرين بالندم فلا تُقدمي على ذلك ـ».

رجته «لاتتخل عني».

وضع أصابعه على خدها وقبّلها فجأة.

قال بنعومة «دعيني إذن أدخل واخلعي معطفك».

علق بندقيته وخلع معطفه الجلدي ومد يده إلى البطانيات. قال «أحضرت بطانية أخرى، فيمكن أن نضع واحدة فوقنا إن شئنا».

قالت «لاأستطيع البقاء طويلاً، العشاء في السابعة والنصف».

نظر إليها سريعاً ـ ثم نظر إلى ساعته.

قال «لابأس».

أغلق الباب وأشعل لهبة صغيرة في المصباح المعلق.

قال «لابد أن يكون لنا فيما بعد وقت طويل».

وضع البطانيات بعناية على الأرض، واحدة وُضعت تحت رأسها. ثم جلس لحظة على الكرسي الذي لامسند له، وسحبها إليه وضمها بذراع واحدة، متحسساً جسدها بيده الحرة. شعرت بإطباق أنفاسه حالما وجدها. تعرت من تحت جاكيتتها الصغيرة الناعمة.

«كم لذيذ أن ألمسك» قال هذا وأصابعه تلاطف الجلد الواسع الدافئ السري لخاصرتيها ووركيها. وضع وجهه في الأسفل على بطنها وفخذيها، مرة بعد أخرى. وقد دهشت هي نفسها لما تقدمه له من غبطة. لم تدرك الجمال الذي وجده فيها، من خلال لمس جسدها السري الحي، حيث توجد كل غبطة الجمال. لأن العاطفة وحدها هي التي عادت إليها. وعندما تموت العاطفة أو تغيب، فإن النبضة الرائعة للجمال لايمكن استيعابها ولاحتى بقليل من الخساسة: فالجمال الحي الدافئ للتواصل أعمق بكثير من جمال الرؤية. شعرت بانزلاق خده على فخذيها وبطنها وعجزها، وبشاربيه يداعبان

ss

وبشعره الكثيف الناعم، فبدأت ركبتاها ترتجفان. بعيداً في أعماقها شعرت بإثارة جديدة، شعرت بعري جديد يتجلى. فكانت نصف خائفة، ورغبت تقريباً لو أنه لم يلاطفها بهذه الطريقة. إنه يستحوذ عليها تقريباً. ومع ذلك كانت تنتظر، تنتظر.

وعندما دخل فيها بكثافة من الراحة والاستهلاك كانت سلاماً صرفاً عنده، بينما كانت هي تنتظر. شعرت قليلاً أنها بعيدة: وهي تعرف جزئياً أنها كانت غلطتها الخاصة. هي أرادت نفسها في هذا الانفصال. ربما الآن كانت مدانة. ظلت مستلقية هامدة شاعرة بحركته داخلها، بإصراره العميق، وبارتجافة مفاجئة عندما بث بذوره، ثم باندفاعة جانبية بطيئة. كانت هذه الاندفاعة للردفين مضحكة قليلاً. بالتأكيد كان الرجل مضحكاً في هذا الوضع وفي هذا الفعل.

لكنها ظلت مستلقية من دون أن تستعيد وعيها. حتى عندما انتهى لم تهم لتحصل على إشباعها الخاص، كما فعلت مع ميكائيل. ظلت مستلقية والدموع تنحدر ببطء وتجري من عينيها.

وظل هو أيضاً مستلقياً. لكنه ضمها إليه وحاول أن يُغطي جسدها بجسده العاري، ليجلب لهما الدفء. استلقى عليها ملتصقاً ليضمن لها الدفء.

«أباردة أنت؟» سأل بصوت ناعم صغير، كما لو أنها ملتصقة به. بينما هي مبتعدة، مبتعدة عنه مسافة.

قالت بلطف «لا ولكن علي أن أذهب».

تنهد وضمها ثم أخلد للراحة ثانية، لم ينتبه لدموعها اعتقد أنها ماتزال معه.

كررت «عليّ أن أذهب».

نهض وركع بقربها لحظة، قَبّل سرّتها وفخذيها، ثم سحب

تنانيرها، مزرراً ثيابه بلا تفكير حتى بالتنحي جانباً في الضوء الخافت الضعيف للمصباح.

«لابد أن تأتي إلى الكوخ مرة أخرى» قال ناظراً إليها بوجه دافئ واثق لطيف.

لكنها استلقت هناك هامدة، وكانت تحدق إليه مفكرة: غريب، غريب. بل إنها امتعضت منه قليلاً.

لبس معطفه وبحث عن قبعته التي سقطت. ووضع بندقيته.

«تعالي إذن» قال ناظراً إليها تحثه بتلك العينين الدافئتين المسالمتين.

نهضت ببطء. لم تشأ أن تذهب. لكنها أيضاً استاءت من البقاء. ساعدها في ارتداء واقي مطرها، ورآها أنيقة.

عندئذٍ فتح الباب. كانت العتمة كاملة في الخارج. ونهضت الكلبة الأمينة من تحت العتبة بفرح ناظرةً إليه. كانت زخة المطر قد ولت قرابة العتمة. كانت عتمة كاملة.

قال «سأخفض المصباح قليلاً، فلاتخشي».

سار قبلها تماماً في الدرب الضيق، مؤرجحاً المصباح الخفيض، كاشفاً العشب الأخضر، وجذور الأشجار السوداء الشبيهة بالأفاعي، والأزهار الشاحبة. وكانت بقية الطريق ضباباً مشرباً بالمطر، وعتمة كاملة.

قال عندما وصلا إلى الدرب العريض وقد سار إلى جانبها «سوف تأتين إلى الكوخ مرة أخرى. أليس كذلك؟ فنحن نتوق إلى قطيع الخراف كما نتوق للخروف».

أدهشتها رغبته الغريبة الملحاحة بها، إذ لم يكن بينهما شيء، ولم يكن يتحدث إليها حديثاً حقيقياً. وعلى الرغم منها امتعضت من لهجته، فقوله «سوف تأتين ثانية» لايوجه لها بل لامرأة عادية.

ss

ميزت أوراق نبات قفاز الثعلب في الطريق، وعرفت تقريباً أين كانا.

قال «إنها السابعة والربع. ستأتين».

غيّر صوته، شعر أنها بعيدة عنه.

وإذا انعطفا آخر انعطاف في الطريق، باتجاه أسوار البندق والبوابة، أطفأ النور.

«يمكن أن نُرى من هنا» قال هذا وضمها بذراعه ضمة لطيفة.

ولكن كان من الصعب. فالأرض تحت أقدامهما كانت غائبة. لكنه تلمس طريقه بمداساته، فقد اعتاد على هذا.

عند البوابة أعطاها مصباحه الكهربائي.

قال «مازال النور أكثر في هذا المتنزه، ولكن خذيه حتى لاتخافي من الطريق».

وبالفعل فقد بدا لها مايشبه الشبح في المكان المكشوف من المتنزه.

فجأة ضمها إليه وأدخل يده تحت تنانيرها، شاعراً بدفء جسدها وبيده الرطبة المرتجفة.

قال من حلقه «أموت من أجل لمسة امرأة مثلك. أواه لو تستطيعين المكوث دقيقة أكثر ـ».

شعرت ثانية بقوة رغبته المفاجئة فيها.

قالت بشيء من الجفاء، «لا، يجب أن أسرع».

«بلى» أجاب وفجأة تغير وتركها تذهب.

انعطفت، وبلحظة التفتت إليه قائلة:

«قبّلني».

انحنى فوق وجهها غير الواضح وقبّلها ـ على عينها اليسرى.

ss

رفعت إليه ثغرها، فقبله بنعومة، ولكنه تراجع فوراً. إنه يكره قُبل الفم.

قالت وهي تنسحب بعيداً «سآتي غداً» ثم أضافت «إن استطعت».

«لا، لاتتأخري كثيراً» أجاب خارجاً من العتمة، بالكاد استطاعت أن تراه.

قالت «عم مساء».

فجاءها صوته «عمي مساء ياحضرة الليدي».

توقفت ونظرت وراءها في الظلام الرطب. شاهدت فقط كتلته.

قالت «لماذا تقول هكذا؟».

أجاب «لاشيء. عمي مساء، وأسرعي».

وغاصت في الظلام، في الليل المضطرب.

وجدت الباب الجانبي مفتوحاً فانسلت إلى غرفتها من دون أن يراها أحد. ولكن حالما أغلقت الباب قُرع الجرس. ومع ذلك ستأخذ حمّامها كما عادتها. يجب أن تأخذ حمّامها.

قالت لنفسها «لكن يجب ألا أتأخر أبداً، إنه لشيء مزعج».

في اليوم التالي لم تذهب إلى الغابة. ذهبت عوضاً عن ذلك مع كليفورد إلى يوثوايت. بات أحياناً يذهب الآن بالسيارة، فقد جاء بسائق قوي يساعده على الخروج من السيارة إن اقتضت الضرورة.

أراد الذهاب خصوصاً لرؤية عرابه، لسلي ونتر، الذي يعيش في شبلي هول غير البعيدة من يوثوايت. كان ونتر أكبر جنتلمان الآن - ثري، أحد أثرياء أصحاب الفحم الذي قضى وقته الذهبي أيام الملك ادوارد. وقد أقام الملك ادوارد أكثر من مرة في شبلي، طلباً للصيد. كانت قاعة مجصصة قديمة أنيقة، ومتقنة الترتيب، لأن ونتر كان عازباً ووطد نفسه على أسلوبه. لكن المكان كان محاطاً بالمناجم.

ss

كان لسلي ونتر معجباً بكليفورد، ولكنه شخصياً لم يكنّ له كبير احترام، بسبب الصور في الصحف المصورة وكتب الأدب. كان الرجل العجوز أنيقاً من مدرسة الملك ادوارد، وكان يعتقد أن الحياة حياة، وأن الأصحاب الكتّاب شيء آخر.

بالنسبة لكوني كان المالك دائماً ملاطفاً. اعتقد أنها عذراء محتشمة جذابة، وهي تزهق نفسها عند كليفورد، تعرضت لآلاف التفاهات دون أن يكون لها فرصة إنجاب وريث لراغبي. وهو نفسه لا وريث له.

دهشت كوني ماذا سيقول لو عرف أن حارس طرائد كليفورد قد ضاجعها وقال لها: لابد أن تأتي إلى الكوخ مرة أخرى. لابد أنه سينبذها ويحتقرها، لأنه يكره الطبقات العاملة المتدافعة. لكن لايهمه إن كان الرجل من طبقته.

لكن كوني كانت موهوبة بطبيعتها بمظهر احتشامها وخضوعها وعذريتها، وربما كان هذا جزءاً من طبيعتها. سماها ونتر: طفلتي. ودائماً كان يعطيها رسماً لسيدة من القرن الثامن عشر. دائماً يقدم لها شيئاً على الرغم منها.

لكن كوني كانت مشغولة بقضيتها مع الحارس. ثم إن السيد ونتر، الذي كان جنتلماناً حقيقياً ورجلاً عالمياً، عاملها كشخص وكفرد حيادي، إنه لم يكن يجمعها مع بقية النساء في قوله «حضرتك» و«أنت».

لم تذهب إلى الغابة في ذلك اليوم، ولافي اليوم التالي، ولا في اليوم الذي تلاه. إنها لم تذهب مادامت تشعر، أو خيل إليها أنها تشعر، بأن الرجل ينتظرها، ينتظرها.

لكن كانت في اليوم الرابع قلقة مضطربة خائفة. مازالت ترفض الذهاب إلى الغابة، وكشف أشيائها أكثر من ذلك للرجل. اعتقدت أن الشيء الوحيد الذي تفعله من بين كل الأشياء ـ الذهاب إلى شيفلد،

والقيام بزيارات. والتفكير بكل تلك الأشياء كان شيئاً كريهاً.

أخيراً قررت أن تقوم بمشوار، ليس نحو الغابة، وإنما في الاتجاه المعاكس. ستذهب إلى ماريهاي، عبر البوابة الحديدية في الجانب الآخر لسياج المتنزه.

كان يوماً ربيعياً قاتماً، لكنه دافئ تقريباً. سارت بلا هدف، تجرفها أفكار غير واعية لها. لم تكن واعية لأي شيء خارجها، إلى أن أقلقها نباح عالٍ للكلب في مزرعة ماريهاي. مزرعة ماريهاي، صورها تشبه سياج متنزه راغبي، فهما متجاوران. لكن كان قد مر وقت حتى تذكرتها كوني.

«بيل» قالت للكلب الأبيض الكبير «بيل هل نسيتني؟ ألا تعرفني؟».

كانت تخاف الكلاب. أقعى بيل وراح يجأر. وأرادت عبور باحة المزرعة إلى الدرب المفضية إلى الطرائد.

ظهرت السيدة فلينت. كانت امرأة من عمر كونستانس: إنها معلمة مدرسة: ولها طريقة أخاذة معها، لكن كوني تجاهلتها لكونها شيئاً صغيراً زائفاً.

«من؟ أنت ليدي شاترلي، أنت» ـ والتمعت عينا السيدة فلينت مرة ثانية وتوهجت مثل فتاة صغيرة. «بيل، بيل لاتنبح الليدي شاترلي ـ بيل، اهدأ» ـ اندفعت وساطت الكلب بثوب أبيض كانت تمسكه بيدها، ثم تقدمت إلى كوني.

«اعتاد أن يعرفني» قالت كوني وهي تصافحها. وكان آل فلينت من المستأجرين عند آل شاترلي.

«بالطبع يعرف حضرتك. إنه فقط يقوم باستعراض» قالت السيدة فلينت، وهي تبدو بنوع من الاضطراب المفاجئ. «ولكنه دائماً هكذا عندما يراك. أتمنى أن تكوني الآن أحسن؟».

«بلى، أشكرك، أنا على مايرام».

«طالما افتقدناك طيلة فصل الشتاء ـ ألا تأتين وترين الطفل؟».

ترددت كوني ثم قالت «لابأس، مجرد دقيقة».

هرعت السيدة فلينت، لتقوم بالترتيبات، وتبعتها كوني على مهل، مترددة في الدخول إلى ماهو أقرب، إلى مطبخ مظلم، حيث كان الوعاء يغلي على النار. ثم عادت السيدة فلينت.

قالت «آمل أن تعذريني. هلا جئت إلى هنا؟».

ذهبتا إلى غرفة الجلوس، حيث جلس طفل على سجادة موقد بالية، وكانت الطاولة معدة للشاي. وعبرت الممر فتاة خادمة صغيرة، خجلة ومرتبكة.

كان الطفل يقارب السنة من العمر، مغروراً بشعر أحمر يشبه والده، وبعينين زرقاوين فاتحتين وقحتين. كان الطفل فتاة، لم تظهر أسنانها بعد. جلست بين الوسادات محاطة بالدمى البالية والألعاب الأخرى، التي بولغ فيها كما يفعل العصر الحديث.

قالت كوني «كم هي جميلة. وكم هي نامية إنها فتاة كبيرة، فتاة كبيرة».

عندما ولدت قدمت لها شالاً وبطات بلاستيكية بمناسبة عيد الميلاد.

«هيا ياجوزفين. من جاء ليراك؟ من هذه ياجوزفين؟ إنها الليدي شاترلي. أنت تعرفين الليدي شاترلي. ألا تعرفينها؟»

حدقت هذه الفتاة الصغيرة بوقاحة في كوني. الليدية كانت ماتزال هي نفسها بالنسبة لها.

قالت كوني للطفلة «تعالي. ألا تأتين إليّ؟».

لم تأبه الطفلة، لابطريقة ولا بأخرى. فالتقطتها كوني ورفعتها إلى حضنها. كم هو دافئ وجميل أن ترفع طفلة إلى حضنها. بذراعين ناعمتين وساقين صغيرتين، بلا وعي.

«كنت على وشك أن أتناول كأس الشاي بنفسي فقد ذهب لوقا إلى السوق، لذلك أتناول كأس الشاي ساعة أشاء. أتريدين كأساً من الشاي ياليدي شاترلي؟ أنا أعرف أنه شاي من غير ماعتدت عليه ـ إن كنت ـ».

وأرادت كوني، مع أنها لم ترغب أن تتذكر مااعتادت عليه. وجُهزت الطاولة وأُحضرت أفضل أكواب الشاي، وأفضل وعاء للشاي.

قالت كوني «أتمنى ألا تزعجي نفسك».

ولكن إن لم تزعج السيدة فلينت فأين النكتة. وهكذا لعبت كوني مع الطفلة، وفرحت لعدم تسنين فمها، واغتبطت جداً بدفئها. حياة جديدة. معنى ذلك لاخوف، لاخوف، لأنها عاجزة، وعندما يشيخ الناس يقل خوفهم.

تناولت كوباً من الشاي، وكانت شاياً قوية، وشيئاً من الخبز الجيد والزبدة بكل إقبال، كما لو كانت كوني فارساً جريئاً. تبادلتا أحاديث أنثوية حقيقية، وكلتاهما سرتا بذلك.

قالت السيدة فلينت «إنه شاي متواضع».

قالت كوني بصدق «إنها أفضل من شاي بيتنا».

«أوه، أوه» قالت السيدة فلينت غير مصدقة طبعاً.

ولكن كوني نهضت أخيراً .

قالت «لابد أن أذهب، فزوجي لايعرف أين أنا. سوف تدور في رأسه الكثير من الوساوس».

«لن يصدق أنكِ كنت هنا» ضحكت السيدة فلينت ضحكة مثيرة. «إنه سوف يرسل منادياً يطوف باحثاً عنك».

«وداعاً ياجوزفين» قالت كوني وهي تقبّل الطفلة مرتبة لها شعرها الأحمر المضفّر.

ss

ألحت السيدة فلينت على فتح الباب الأمامي المغلق بالمزلاج. وخرجت كوني إلى الحديقة الأمامية الصغيرة للمزرعة، وقد أحيطت بسياج من نبات الربّاط. كان ثمة صفان من نبات الأذينية على الدرب، مخمليان وكثيفان.

قالت كوني «جميل جداً نبات الأذينية».

«يسميه لوقا النبات الطائش» ضحكت السيدة فلينت وأردفت «خذي بعضاً منه».

وبكل رغبة التقطت الأزهار المخملية القرمزية.

قالت كوني «كفى، كفى».

ووصلتا إلى بوابة الحديقة الصغيرة.

سألت السيدة فلينت «أي طريق تسلكين؟».

«طريق أرض الطرائد».

«سوف أرى ـ أوه، بلى، الأبقار مغلق عليها. إنما لم تسرح بعد. ـ لكن البوابة مقفلة وعليك أن تتسلقي».

قالت كوني «أستطيع التسلق».

«ربما بإمكاني أن أصل معك إلى النهاية».

وهبطت عبر مرعى الأرانب المدقع. كانت الطيور تزقو في الغابة وتفرح فرحاً وحشياً بالمساء. وراح رجل يصرخ بآخر بقرتين، تخلفتا متثاقلتين على مرعى الدرب الهزيل.

قالت السيدة فلينت بحدة «تأخرتا ويجب أن تُحلبا هذه الليلة. إنهما تعرفان أن لوقا لن يعود إلا بعد أن يعم الظلام».

وصلتا إلى السياج الذي تكاثفت خلفه غابة أشجار التنوب. كان هناك بوابة صغيرة، ولكنها كانت مغلقة. وفي داخل العشب انتصبت زجاجة فارغة.

ss

شرحت السيدة فلينت «هذه زجاجة الحارس الفارغة، المخصصة لحليبه. إننا نضعها هنا من أجله، وهو يبحث عنها بنفسه».

قالت كوني «متى؟».

«أوه، في أي وقت يكون فيه في هذه الجهات. الأغلب عند الصباح - لابأس. وداعاً ليدي شاترلي. زورينا مرة أخرى. كان جميلاً منك».

تسلقت كوني السياج إلى الطريق الضيق بين الدغل وأشجار التنوب الفتية الكثيفة، وعادت السيدة فلينت مسرعة عبر المرعى إلى أعلى الهضبة: بقلنسوة، لأنها فعلاً كانت معلمة مدرسة.

لم تحب كونستانس هذا القسم الجديد المُدغل في الغابة. يبدو مزعجاً وخانقاً. أسرعت، ورأسها إلى الأسفل تفكر بطفلة السيدة فلينت. كانت شيئاً صغيراً لطيفاً - لكنها ستكون كأبيها ذات ساقين مقوستين - ذلك الذي شاهدته. ولكن ربما تتخلص منه في كبرها، كم كان دافئاً وعظيماً أن يكون لها طفل. وكيف عرضتها لها السيدة فلينت: إنها تملك شيئاً لاتستطيع، على أي حال، أن تملكه كوني. بلى لقد أثارت السيدة فلينت فيها أمومتها. وقد تأثرت كوني، شعرت بقليل من الغيرة، إنها لاتستطيع أن تفعل ذلك.

بدأت تفكيرها، لكنها فجأة أطلقت صرخة. كان هناك رجل. كان الحارس يقف في الممر مثل حمارة بلعام، يقطع طريقها. قال مندهشاً «ماهذا؟».

لاطفته «كيف جئت؟».

«كيف جئت أنتِ؟ أفي طريقك إلى الكوخ؟».

«لا، لا، أنا في طريقي إلى ماريهاي».

نظر إليها باستغراب وتدقيق فرفعت رأسها قليلاً.

ss

سألها أو بالأحرى أصر عليها «ونحن في طريقنا إلى الكوخ الآن؟».

«لا أنا ذاهبة إلى ماريهاي. لاأحد يعلم أين أنا. تأخرت وعليّ أن أسرع ـ».

قال بابتسامة ضعيفة ساخرة «اخلعي بسرعة، أتودين؟».

«لا. لا. لا. ذلك. فقط ـ».

قال «وماذا غير ذلك» وصعد إليها، ووضع ذراعه حولها. فشعرت بمقدمة جسده تقترب منها.

«أوه، ليس الآن، ليس الآن» صرخت وحاولت دفعه بعيداً.

«لم لا؟ إنها الساعة السادسة فقط. معك ساعة ونصف الساعة. لا. لا. أنا أريدك».

رفعها بسرعة، وشعرت بإلحاحه. راحت غريزتها القديمة تصارع من أجل حريتها. لكن شيئاً آخر فيها كان غريباً وعاجزاً وثقيلاً. كان جسده يطلبها بشدة، فخارت عزيمة مقاومتها له.

التفت حوله.

«تعالي، تعالي هنا، من هنا» قال ذلك ناظراً بدقة إلى أشجار التنوب الكثيفة، التي كانت فتية واستطالت أكثر من نصف نموها.

نظر خلفه إليها. رأت عينيه حادتين ومشرقتين ووحشيتين غير محببتين. لكن إرادتها تخلت عنها، هناك ثقل غريب حط على أطرافها. فتراخت... استسلمت.

قادها من خلال سور الأشجار، وكان ذلك صعب العبور، إلى مكان فيه شيء من الفراغ الكافي، وفيه أغصان ميتة. رمى غصناً أو غصنين جافين ووضع معطفه وصدريته عليهما، فاضطجعت هي فوراً هناك تحت أغصان الشجرة، مثل حيوان، بينما انتظر هو واقفاً هناك بقميصه وبنطاله، يراقبها بعينين متابعتين. ولكنه ظل المتحكم

ـ جعلها تضطجع خصوصاً. خصوصاً. ثم خلع عنها ماتحت ثيابها، لأنها لم تساعده، فاستلقت عاجزة.

خلع هو أيضاً ـ الجزء الأمامي من ثيابه فأحست بلحمه العاري عليها عندما همّ بها. وللحظة، وكان مايزال فيها، ارتعدت وارتجفت. ولكن حالما بدأ يتحرك في هزة الجماع المفاجئة، استيقظت هناك فيها إثارات جديدة تترقرق في داخلها، تترقرق، تترقرق، مثل ألسنة اللهب الناعمة، ناعمة مثل الريش، تجري في نقاط مشرقة حادة، حادة، تصهرها، تصهر كل مافي داخلها. إنها مثل الأجراس، تعلو وتعلو حتى تبلغ الذروة. استلقت غير واعية للصرخات البرية الصغيرة التي أطلقتها أخيراً. لكن كان كل شيء قد انتهى سريعاً، سريعاً جداً.

هي الآن لاتستطيع أن تفعل شيئاً بقوتها الخاصة. هذه المرة كانت مختلفة، إنها لاتستطيع شيئاً. لم تعد قادرة الآن أن تقوي وتضبط إشباعها منه. تنتظر فقط، تنتظر وتئن في روحها كلما شعرت به فيها، ينسحب، ينسحب، ويتقلص ويأتي إلى اللحظة المرعبة عندما ينزلق منها، ويذهب، بينما كل رحمها كان ينفتح وضجيج ناعم مثل شقائق البحر تحت المد، تضج له حتى يأتي ثانية ويحقق راحتها.

بلا وعي التصقت به عاطفياً، وهو لمّا ينزلق منها تماماً. شعرت ببرعمه الناعم داخلها يثيرها وبإيقاعات غريبة تندلع فيها، بحركة إيقاعية غريبة متعاظمة، تتورم وتتورم حتى تملأ كل وعيها المفلوع. عندئذٍ بدأت ثانية الحركة التي لاتوصف بالكلام، والتي لم تكن في الحقيقة حركة، بل مجرد دوامات عميقة من الاحساس تنزل أعمق وأعمق من خلال كل نسيجها ووعيها، إلى أن أصبحت كلها سائلاً مركزاً كاملاً من الشعور. استلقت هناك صارخة بلا وعي صرخات عاجزة عن الإفصاح، صوت خارج من الليل، إنه هتاف الحياة. سمعها الرجل تحته بنوع من الخوف كأن حياته تدفقت

فيها. وحالما ارتخت ارتخى هو أيضاً، واستلقى خامداً غير مدرك، بينما تراخت قبضتها عنه واستلقت عاجزة.

استلقيا لايعرفان شيئاً، ولاحتى واحدهما الآخر، كلاهما ضاعا.

إلى أن بدأ أخيراً ينهض ويصبح مدركاً لعريه الكامل. وكانت هي مدركة أن جسده قد حلّ إطباقه عليها، فقد كان يتنحى. لكن في صدرها شعرت أنها لاتتحمله يتركها مكشوفة. يجب أن يغطيها الآن إلى الأبد.

أخيراً ابتعد وقبّلها وغطاها ثم بدأ يغطي نفسه. استلقت تنظر من خلال أغصان الشجرة، غير قادرة بعد على الحركة، وقف وزرر بنطاله، ناظراً حوله. كل شيء، كان كثيفاً وصامتاً، عدا الكلبة الجبانة، التي استلقت ومخالبها على أنفها.

جلس ثانية على الأغصان المقطوعة، وأخذ يد كوني بصمت. التفتت ونظرت إليه.

قال «وصلنا هذه المرة إلى النشوة معاً».

لم تقل أي شيء ولم تجب.

قال كأنه يتكلم في حلم «شيء جيد عندما يكون الأمر هكذا. معظم الناس يعيشون حيواتهم من خلال ذلك ولايعرفون».

نظرت إلى وجهه المتفكر.

قالت «هل هم حقاً هكذا، هل أنت مسرور؟».

نظر إليها بطرف عينيه.

قال «مسرور. لابأس. لايهم» ماأرادها أن تتحدث.

انحنى فوقها وقبلها فشعرت أن عليه أن يقبّلها إلى الأبد.

أخيراً جلست.

سألت بفضول ساذج «أليس من عادة الناس أن يتوافقوا دائماً بنشوة العملية؟».

«أوه. أغلبهم لايتوافق أبداً. تدركين ذلك من نظرتهم الجامدة».
تحدث من دون رغبة وقد ندم لأنه تحدث.

«هل كنت هكذا مع النساء الأخريات؟».

نظر إليها مسروراً.

قال «لاأعرف، لاأعرف».

تعلم أنه لن يخبرها أي شيء، لايريد إخبارها به. راقبت وجهه، والعاطفة التي تحركت في أحشائها تجاهه. قاومتها بقدر ماتستطيع، لأنها كانت ضياعاً لنفسها هي، لنفسها.

ارتدى صدريته ومعطفه، وانطلق عبر الدرب مرة ثانية. وكانت أواخر أشعة الشمس تلامس الغابة.

قال «لن آتي معك. الأفضل ألا آتي».

نظرت إليه بحزن، قبل أن تنعطف. كان كلبته تنتظره بفارغ الصبر حتى يذهب. وبدا أنه ليس لديه شيء يقوله: لم يبق شيء.

ذهبت كوني بهدوء إلى البيت وقد تأكدت من عمق الشيء الآخر فيها. ذاتٌ أخرى كانت حية فيها، تلتهب حساسة ناعمة في رحمها وأحشائها. وبهذه الذات هامت به، هامت به حتى ضعفت ركبتاها كلما سارت. كانت الآن حية في رحمها وأحشائها ومستسلمة لهيامها به كامرأة ساذجة.

قالت لنفسها «أشعر بهذه الذات كأنها طفل، أشعر بها طفلاً في داخلي».

وهكذا كان. كما لو أن رحمها، الذي كان مغلقاً دائماً قد انفتح وامتلأ حياة جديدة، إنه عبء، ولكنه جميل.

فكرت في نفسها «لو أنه يكون طفلاً. ليته يكون طفلاً في داخلي».

وإذ فكرت راحت أطرافها تذوب. تأكدت من الفارق الكبير بين أن تملك طفلاً لذاتها، وأن تملك طفلاً لرجل تحن إليه أحشاؤها. الأول بدا لها عادياً. لكن أن تملك طفلاً لرجل تهيم به في أحشائها، في رحمها، يجعلها تشعر أنها مختلفة عن ذاتها القديمة، كما لو كانت تغرق عميقاً عميقاً إلى مركز الأنوثة، إلى حيث يهجع الخلق.

لم تكن العاطفة هي الجديدة بالنسبة إليها. كان الهيام التواق. تعرف أنها دائماً تخاف هذا الهيام. لأنه يدعها بلا حول. يتركها في خوف. لأنها إن هامت به شغفاً، فسوف تفقد نفسها، تصبح ممسوحة. وهي لاتريد أن تكون ممسوحة. عبدة، مثل امرأة متوحشة. يجب ألا تصبح عبدة.

خافت من هيامها. ومع ذلك راحت تحارب ضده. وهي تعرف أنها قادرة أن تحاربه. إنها تملك شيطان إرادة ذاتية في صدرها يستطيع محاربة الهيام المفعم الثقيل لرحمها وأحشائها، وسحقه. تستطيع، وتستطيع الآن. أو هي فكرت هكذا. وعندها تستطيع أن تسوق عاطفتها مع إرادتها.

بلى، أوه، أن تكون عاطفية مثل إحدى عابدات الإله باخوس تهيم بوحشية في الغابات. أن تستدعي باخوس، القضيب المشرق الذي ليس خلفه شخصية مستقلة، بل هو إله خادم للمرأة. لا. الرجل، الفرد لايدعه يتطفل. لم يكن سوى حارس معبد، الحامل والحارس للقضيب المشرق، قضيبها الخاص بها.

وهكذا في تدفق اليقظة الجديدة، التهبت العاطفة القديمة فيها لفترة من الزمن، وتدنى الرجل إلى موضوع محتقر، إلى مجرد حامل قضيب، يمزَق إرباً عندما ينفذ مهمته. شعرت بقوة الباخيات، عابدات باخوس، في أطرافها وفي جسدها: المرأة تومض فتسرع فتصرع الذكر.

ولكن عندما شعرت بهذا، شعرت أن قلبها ثقيل. إنها لاتريد هذا. إنه معروف وعقيم لايولد. الهيام كنزها. كان بلا غور، ناعماً،

عميقاً ومجهولاً. لا، لايجب أن توقظ فيها قوة الأنثى المشرقة الصامدة. كانت متعبة به، منهكة به. سوف تغرق في حمام الحياة، في أعماق رحمها وأحشائها تغوص أغنية هيام لاصوت لها. إنه من المبكر عليها أن تخاف الرجل منذ الآن.

قالت لكليفورد «سرت بمحاذاة ماريهاي، وشربت الشاي مع السيدة فلينت. أردت أن أرى طفلتها. إنها جميلة بشعر يشبه بيت العنكبوت الأحمر. كانت جميلة. كان السيد فلينت قد ذهب إلى السوق، لذلك شربنا الشاي معاً: أنا وهي والطفلة. هل دُهشت أين كنت؟».

«لابأس، دُهشت، لكني حزرت أنك تتناولين الشاي في مكان ما» قال كليفورد بغيرة.

بنوع من نظرة ثانية، أحس بشيء جديد فيها، بشيء لايستطيع هو استيعابه. لكنه كان قد طالب بطفل. اعتقد أن كل مايؤلم كوني أنها لاتملك طفلاً: فلابد أن تأتي بالطفل هكذا، أوتوماتيكياً، إن صح القول.

قالت السيدة بولتون «رأيتك ياسيدتي تقطعين المتنزه إلى البوابة الحديدية، فاعتقدت أنك ربما دعيت لمنزل القسيس».

«كدت أفعل ذلك. لكني بدلاً من ذلك اتجهت إلى ماريهاي».

والتقت عينا المرأتين: عينا السيدة بولتون المشرقتان الباحثتان، وعينا كوني الزرقاوان المتكتمتان والجميلتان جمالاً غريباً. كانت السيدة بولتون متأكدة تقريباً أنها عاشقة. ومع ذلك كيف يمكن أن يكون هذا؟ أيمكن أن يكون؟ أين هو الرجل؟

قالت السيدة بولتون «أوه، من الأفضل لك لو أنك خرجت وشاهدت الشركة في بعض الأحيان. كنت أقول للسير كليفورد إن حضرتها تخلق عالماً من الخير لو هي خرجت إلى وسط الناس».

«نعم أنا مسرورة أنني خرجت. ـ ورأيت هذه الطفلة الجميلة المكتنزة ياكليفورد» قالت كوني ثم تابعت «لها شعر يشبه بيت

العنكبوت وهو أحمر براق، والأغرب عيناها الصينيتان الزرقاوان الشاحبتان. طبعاً هي فتاة أو أنها لابد أن تكون شجاعة، أشجع من أي سير صغير مثل فرانسيس دريك».

قالت السيدة بولتون «معك حق أيتها الليدي: إن آل فلينت منظمون. هُم دائماً أسرة متقدمة».

«ولكن ألا تريد أن تراها ياكليفورد؟ لقد دعوتهم إلى الشاي حتى ترى الطفلة».

«من؟» سأل ناظراً إلى كوني بقلق كبير.

«السيدة فلينت والطفلة ـ الاثنين القادم».

قال «يمكنك استقبالهما على الشاي في غرفتك».

صاحت «لماذا؟ ألا تريد أن ترى الطفلة؟».

«أوه، بلى، سوف أراها. لكن لاأريد أن أجلس معهما في فترة الشاي».

«أوه» قالت كوني وهي تنظر إليه بعينين واسعتين متكتمتين. إنها في الواقع لم تره. كان رجلاً آخر.

قالت السيدة بولتون «يمكن ياسيدتي أن يكون لديك في غرفتك شاي دافئ جميل، وستأخذ السيدة فلينت راحتها أكثر مما لو كان السير كليفورد موجوداً».

كانت متأكدة أن لدى كوني عشيقاً. شيء ما في نفسها قال لها هذا، ولكن من هو، من هو؟ قد تقدم السيدة فلينت دليلاً.

لم تستطع كوني أن تأخذ حمامها هذا المساء. فالإحساس بجسده مازال يلامسها، وطعنه القوي فيها، كان عزيزاً عليها، وبمعنى ما، كان مقدساً.

كان كليفورد قلقاً جداً. لن يسمح لها بالخروج بعد الغداء. وهي تريد أن تكون وحيدة. نظرت إليه، ولكنها كانت مأخوذة أخذاً غريباً.

ss

سأل قلقاً «ألا نلعب لعبة؟ ـ أو أقرأ لكِ ـ أو ماذا تريدين؟»

قالت كوني «أن تقرأ لي».

«ماذا أقرأ؟ شعراً أم نثراً؟ أم دراما؟».

قالت «اقرأ راسين».

كانت إحدى براعاته في الماضي، أن يقرأ راسين بطريقة فرنسية رائعة. إنه فعلاً أفضل من مكبر الصوت.

لكن كوني كانت تخيط ثوباً حريرياً صغيراً من الحرير الأحمر وقد قصته من ثيابها، لطفلة السيدة فلينت. كانت قد قصته بين المجيء إلى البيت والعشاء. وجلست في غبطة نفسها الهادئة الناعمة تخيط، بينما ضجة القراءة مستمرة. وفي داخل نفسها تمكنت من الشعور بهمهمة العاطفة مثل الهمهمة التي تعقب الأجراس العميقة.

قال لها كليفورد شيئاً عن راسين. التقطت المعنى بعد أن ولَّت الكلمات.

قالت ناظرة إليه «بلى، بلى، إنه رائع».

أيضاً كان خائفاً من عينيها الزرقاوين الملتهبتين، ومن هدوئها الناعم، وجلوسها هناك. إنها لم تكن أبداً ناعمة وهادئة. لقد سحرته، كما لو أن عطراً حولها أسكره. وهكذا استمر في قراءته مأخوذاً بها، فكانت الأحرف الحلقية للغة الفرنسية أشبه بريح في المدافئ عندها. وسمعت من راسين ليس مقطعاً واحداً فقط.

غاصت في غبطتها الناعمة، مثل غابة تغمرها العتمة، ومثل الأنين العذب للربيع وهو يُخرج البراعم. استطاعت أن تشعر بهذا العالم ذاته مع رجلها، مع الرجل، مع الرجل الذي لااسم له، يمشي على قدمين جميلتين، جميلتين في السر القضيبي. وفي نفسها، في كل عروقها، شعرت به وبطفله، وبه وبطفله. كان طفله في كل عروقها، مثل الفجر.

«الذي لايملك يدين ولاعينين ولاقدمين
ولاكنزاً ذهبياً من الشَعْر ـ».

كانت مثل غابة، مثل أضافير غابة السنديان، تهمهم بلا صوت عشرات آلاف براعمها المتفتحة. بينما كانت طيور الرغبة تهجع في التعقيدات المتشابكة لجسدها.

لكن صوت كليفورد استمر موقعاً ومقعقعاً بأصوات غير عادية. كم كان فائقاً. كم كان غير عادي، وقد انحنى فوق الكتاب، غريباً مغتبطاً متحضراً، مع كتفيه العريضين، وساقيه غير الحقيقيتين. أي مخلوق غريب، بإرادة حادة باردة لاتنثني كما هي عند بعض الطيور، بلا دفء ولاحرارة على الإطلاق. أحد المخلوقات التي جاءت متأخرة، التي لاروح فيها، بل إرادة ناجزة، إرادة باردة. ارتعدت قليلاً، خائفة منه. لكن شعلة الحياة الدافئة عندها كانت أقوى منه، والأشياء الحقيقية مخفية عنه.

انتهت القراءة. كانت مضطربة. نظرت إلى أعلى، فكانت أشد قلقاً من أن ترى كليفورد يراقبها بعينين شاحبتين غير مريحتين، مثل الكراهية.

قالت برقة «أشكرك جداً، لقد قرأت راسين قراءة جميلة».

قال بشدة «جميلة كما لو كنت تصغين إليه».

سألها «ماذا تصنعين؟».

«أصنع ثوب أطفال، لطفلة السيدة فلينت».

تنحى بعيداً. طفل، طفل، هذا هو وسواسها.

قال بصوت إعلاني «بعد كل هذا يحصل المرء على كل مايريد من راسين. فالعواطف المرتبة التي تأخذ شكلاً هي أهمُ من العواطف المبعثرة».

ss

راقبته بعينين واسعتين كتومتين غامضتين.

قالت «بلى أنا متأكدة أنها كذلك».

«إن العالم الحديث لايملك سوى العاطفة المبتذلة لأنه تركها حرة. مانريده هو الضبط الكلاسيكي لها».

«بلى» قالتها ببطء وقد ظنت أنه يصغي بوجه فارغ للغباء العاطفي للراديو. «فالناس يدّعون أنهم يملكون عواطف، في حين أنهم لايشعرون بشيء. أعتقد أن هذا هو الرومانتيكي».

قال «بالضبط».

والحقيقة أنه كان متعباً، فقد أتعبه هذا المساء. فهو إما أن يكون مع كتبه التكنيكية، أو مدير حفرته، أو يصغي للراديو.

جاءت السيدة بولتون بكوبين من الحليب: واحد لكليفورد حتى ينام، وواحد لكوني حتى يسمنها قليلاً، كان كوباً منظماً ليلياً تحضره دائماً.

كانت كوني مسرورة لأنها ستذهب عندما تشرب كوبها: وشاكرة لأنها لن تقلّ كليفورد إلى السرير. أخذت كوبه ووضعته على الصينية، ثم أخذت الصينية لتغادر.

«تصبح على خير ياكليفورد. نم نوماً جيداً ـ إن راسين يدخل في المرء مثل حلم. عم مساءً».

اندفعت إلى الباب. همَّت أن تذهب من دون قبلة عم مساءً. راقبها بعينيه الحادتين الباردتين. ومع ذلك لم تشأ أن تقبله قبلة عم مساءً، بعد أن أمضى أمسية يقرأ لها. هكذا كانت أعماقها قاسية. حتى لو كانت القبلة شكلية، فإن الحياة تقوم على هذه الشكليات. حدق ببرودة وغضب في الباب عندما غادرت. الغضب.

مرة أخرى جاءه رعب الليل. كان شبكة من الأعصاب، وعندما

لايكون على رأس عمله، أو يكون مشحوناً بالطاقة: أو عندما كان لايصغي، أو عندما يكون حيادياً: عندئذٍ تركبه الوساوس وينتابه القلق وحس الخطر والفراغ المحدق. كان خائفاً. وبإمكان كوني أن تنزع الخوف منه، إن شاءت. لكن الواضح أنها لاتريد، لا، لاتشاء أن تخلصه من الخوف. كانت قاسية، باردة، قاسية تجاه كل مافعله لها. لقد كرس حياته لها، وكانت قاسية تجاهه. إنها لاتريد سوى طريقها الخاص. «إن الليدي تحب إرادتها، كما يحب الأيل أعلى الآكام وكما يحب الأرنب التلة وكما يحب الفارس سيفه البراق». الآن هي مهووسة بالطفل. إنه سيكون لها، لها بخاصة، وليس له.

كان كليفورد صحيحاً معافى. بدا جيداً، تورد وجهه وازداد عرضاً وتقوّى منكباه، فغاص صدره، لقد اكتنز لحماً. ومع ذلك، في الوقت نفسه، كان يخاف الموت. هناك خوف مرعب بدا كأنه يهدده في مكان ما، أو عن طريق شخص ما، أو عن طريق الخواء، ففي هذا الخواء سوف تنهار طاقته. بلا طاقة، إذن يشعر أنه ميت، أنه ميت فعلاً.

صارت تبدو عليه إمارات جحوظ العينين وشحوبهما والمنظر الغريب، والمكر مع شيء من التجبر والقسوة: وفي الوقت نفسه العجز. كان مظهره غريباً حقاً، هذا المظهر من العجز: كما لو أنه انتصر على الحياة رغم أنف الحياة. «منذا الذي يعرف أسرار الإرادة: إذ أنها يمكن أن تنتصر حتى على الملائكة ـ».

لكن هذا الرعب يحصل في الليالي التي لايؤاتيه فيها النوم. فيكون هناك رعب حقيقي، عندما يطبق عليه الإحساس بالانسحاق من كل الجهات. كان مروعاً إذن أن يوجد بلا أي حياة: ففي الليل هو موجود بلا حياة.

لكنه الآن يستطيع أن يقرع الجرس للسيدة بولتون. وسوف تحضر دائماً. كان ذلك راحة كبيرة. سوف تأتي بثوبها النسائي، بشعرها مجدولاً خلف ظهرها، بعناية وشبابية مع أن الجديلة البنية

فيها شيء من الشيب. وتصنع له القهوة أو الشاي مع البابونج، وتلعب معه الشطرنج أو البيكيت. إن لها قدرة غريبة أنثوية كافية حتى للعب الشطرنج، عندما تكون ثلاثة أرباعها نائمة، إذ تبقى مقتدرة على هجومها الكفؤ. وهكذا يجلسان في الحميمية الصامتة لليل، أو تجلس هي بينما يستلقي هو على السرير، مع مصباح القراءة بضوئه الوحيد عليهما، فتكون تقريباً شبه نائمة، ويغوص هو تقريباً في نوع من الخوف، ومع ذلك يلعبان ويلعبان معاً ـ ثم يأخذان كوباً من القهوة والبسكويت معاً ـ ومن النادر أن يتحدثا، في صمت الليل ـ وإنما كل واحد يحاول تأكيد وجود الآخر.

وفي هذه الليلة كانت تتساءل عمن يكون عشيق الليدي شاترلي. وهذا ماجلب لها التفكير بزوجها تيد، الذي مات منذ أمد طويل، ولكنه عندها لم يمت أبداً. وعندما فكرت به عاد إليها حقدها القديم، القديم، ضد العالم الناشئ حديثاً، وعلى الأخص ضد السادة ـ ذلك أنهم هم الذين قتلوه. هم لم يقتلوه فعلاً. ومع ذلك قتلوه بالنسبة لها عاطفياً. وهناك في مكان عميق في نفسها، وبسبب هذا المكان، كانت نهلستية عدمية، وكانت فعلاً فوضوية.

وعندما تكون نصف نائمة تختلط أفكارها عن زوجها وأفكارها عن عشيق الليدي شاترلي المجهول، وعندئذٍ تشعر أنها تشارك المرأة الأخرى حقداً فظيعاً ضد السير كليفورد وكل مايدافع عنه. وفي الوقت نفسه كانت تلعب البيكيت معه، وكانا يقامران بستة بنسات. وكان مصدر راحتها أن تلعب البيكيت مع بارونيت وإن خسرت أمامه البنسات الستة.

عندما يلعبان الورق فإنهما يقامران دائماً. وهذا مايجعله ينسى نفسه. والأغلب أنه يربح. وقد ربح هذه الليلة أيضاً. وهكذا لم يذهب إلى النوم حتى تظهر الخيوط الأولى للفجر. ولحسن الحظ أنها بدأت تظهر في الرابعة والنصف أو قرابة ذلك.

كانت كوني في سريرها، وقد نامت طيلة هذا الوقت. لكن

الحارس أيضاً لايستطيع أن يستريح. لقد أغلق القِنان وقام بجولته في الغابة، ثم ذهب إلى البيت وتناول عشاءه. ولكنه لم يذهب إلى السرير، بدلاً من ذلك جلس قرب النار وفكر.

فكر بصباه في تيفرشال، وبالسنوات الخمس أو الست من الحياة الزوجية. فكر بزوجته، ودائماً بمرارة. بدت له ظالمة كل الظلم. لكنه لم يرها حتى الآن منذ عام 1915 في الربيع عندما قطع صلته بها. ومع ذلك كانت هناك، ليس أبعد من ثلاثة أميال، وهي أشد ظلماً من قبل. وتمنى ألا يراها أبداً مادام حياً.

فكر في حياته خارج بلاده، كجندي: في الهند وفي مصر، ثم في الهند مرة ثانية: الحياة العمياء التي لافِكر فيها مع الخيول: الكولونيل الذي أحبه كما أن الكولونيل أحبه: السنوات العديدة التي كان فيها ضابطاً، ليوتنانت مع فرصة ثمينة جداً لأن يكون كابتناً. ثم موت الكولونيل بمرض التهاب الرئة، ونجاته العسيرة من الموت: صحته المتدهورة: قلقه العميق: تركه الجيش وعودته إلى انكلترا ليكون عاملاً مرة أخرى.

كان يساير الحياة. ظن أنه سيكون آمناً، على الأقل لفترة من الزمن، في هذه الغابة. لايوجد إطلاق نار: إنه يربي طيور الدرّج. لايوجد بنادق يقوم على خدمتها. سيكون وحيداً، بعيداً عن الحياة، وهذا كل مايتمنى. ولكن له خلفية. وهي مكانه الأصلي. وله أيضاً أمه، وإن كانت لاتعني الكثير عنده. وهكذا يمكنه أن يستمر في الحياة، فيستمر يوماً بعد يوم، من دون اتصال، ومن دون أمل أيضاً. لأنه لايعرف ماذا يفعل بنفسه.

إنه لايعرف ماذا يفعل بنفسه. ومنذ أن كان ضابطاً لبعض السنين، واختلط مع الضباط الآخرين والخدم المدنيين، مع زوجاتهم وعائلاتهم، فَقَد أي طموح في أن «يتقدم». كان هناك خشونة، خشونة أصحاب الأعناق السمينة، وعدم حياة في الطبقتين الوسطى

والعليا، كما عرفهم، مما جعله يشعر بالبرودة نحوهم وأنه مختلف عنهم.

وهكذا عاد إلى طبقته الخاصة. ليجد هناك ماكان قد نسيه أثناء غيابه سنوات، وهو التفاهة وتبذّل السلوك القليل الذوق جداً. والآن استسلم أخيراً، مهما كان السلوك. واستسلم أيضاً مهما كان هاماً حتى الادعاء بعدم الاتهام بنصف البنس وبالأشياء الصغيرة في الحياة. لكن بين عامة الناس لم يكن ثمة ادعاء. فدفع بنس تقريباً لقاء لحم خنزير مقدد كان أسوأ من تغيير كلام الإنجيل. إنه لايستطيع إصلاح شيء.

مرة أخرى كان هناك شِجار حول الأجور. وإذ عاش بين طبقات المالكين فإنه يعرف العقم المطلق لتوقع أي حل لمسألة شِجار الأجور. لم يكن هناك حل، لايحسمه إلا الموت. وهو الشيء الوحيد الذي لم يكن يهتم به، فهو لايأبه بالأجور.

ومع ذلك فإنك سوف تهتم إن كنت فقيراً بائساً. على أي حال فإنه كان الشيء الوحيد الذي كانوا يهتمون به. فالاهتمام بالمال كان مثل سرطان كبير، يلتهم الأفراد من كل الطبقات. رفض أن يهتم بالمال.

ثم ماذا بعدئذٍ؟ ماذا قدمت الحياة غير الاهتمام بالمال؟ لاشيء.

ومع ذلك بإمكانه الحياة وحيداً، برضاه الشاحب في أن يكون وحيداً: ويجفّل طيور الدرّج فيطلق عليها الرجال السمان النار بعد طعام الإفطار. كان ذلك عقماً، عقماً إلى أقصى حد.

لكن لماذا يهتم، لماذا ينزعج. وقد اهتم وانزعج حتى الآن، عندما دخلت هذه المرأة حياته. كان أكبر منها بعشر سنوات تقريباً. وفي التجربة كان أكبر منها بآلاف السنين، بدأ من القاع. والتواصل بينهما كان ينمو أكثر فأكثر. إنه يستطيع رؤية النهار عندما يستقيم،

SS

فيستطيعان أن يصنعا الحياة معاً. «فروابط الحب واهية سرعان ماتنحلّ».

ثم ماذا؟ ماذا إذن؟ أعليه أن يبدأ ثانية، ولاشيء بيديه يبدأ به؟ أيجب أن يختلط بهذه المرأة؟ هل عليه أن يدخل في شجار مرعب مع زوجها القعيد؟ - وأيضاً يدخل في نوع من الشجار المرعب مع زوجته الظالمة، التي كرهته؟ البؤس، الكثير من البؤس. إنه لم يعد قط فتىً ولامبتهجاً. ولاكان حتى من النوع غير المبالي. فكل مرارة وبشاعة تؤذيه: والمرأة.

لكن حتى لو خُلت المسائل مع السير كليفورد وزوجته هو، ماذا بإمكانهما أن يفعلا؟ ماذا بإمكانه هو نفسه أن يفعل؟ ماذا بإمكانه أن يفعل بحياته؟ إذ عليه أن يفعل شيئاً ما. إنه لن يكون مجرد طفيلي، يعيش على مالها وعلى معاشه التقاعدي الضئيل جداً.

لاحل. يمكن أن يفكر فقط في السفر إلى أميركا، ليجرب الهواء الجديد. لم يؤمن بالدولار اطلاقاً. بل ربما، ربما كان ثمة شيء آخر.

إنه لايستطيع الراحة، ولاحتى الذهاب إلى السرير. وبعد أن جرفه سبات من الأفكار المريرة حتى منتصف الليل، نهض فجأة وتناول معطفه وبندقيته.

«هيا أيتها الفتاة الصغيرة» قال ذلك لكلبته ثم أردف «سنكون أفضل في الخارج».

كان ليلاً تضيئه النجوم، لكنه بلا قمر. سار على مهل حائراً بخطوات متقاربة وجولة مخالسة. الشيء الوحيد الذي كان يحذره هو الأشراك التي وضعها عمال المناجم للأرانب وعلى الأخص عمال مناجم ستاكس غيت، على طرف ماريهاي. إنه فصل التناسل، وحتى العمال لايحترمونه كثيراً. على أي حال فإن سيره المخالس في الجولة بحثاً عن المنتهكين أراح أعصابه وخلّص عقله من أفكاره.

ولكن عندما قام بتفقده الحذر البطيء لحدوده - زهاء خمسة

ss

أميال من السير ـ كان متعباً. صعد إلى قمة التلة ونظر بعيداً. لم يكن ثمة صوت سوى الضجة، الضجة الضعيفة القادمة من منجم ستاكس غيت، الذي لايتوقف عن العمل: وقلما كانت هناك أضواء باستثناء الصفوف الكهربائية المشعشعة تقوم بعملها. العالم مستغرق في نوم عميق ضبابي. كانت الساعة هي الثانية والنصف. لكن حتى في نومه كان عالماً قلقاً ظالماً تثيره ضجة قطار أو شاحنة على الطريق وظهور أضواء ساطعة حمراء من الأفران. كان عالماً من حديد وفحم، قساوة الحديد ودخان الفحم والجشع المريع الذي يدفعه كله. الجشع فقط، الجشع يثيره في نومه.

كان الوقت بارداً، وكان هو يسعل. هب تيار هوائي بارد جميل على التلة. فكر بالمرأة. سيمنح الآن كل مايستطيع أو كل مايملك ليحفظها دافئة بين ذراعيه، ليتعانقا معاً ويناما تحت بطانية واحدة. كل آمال الأبدية وكل ماحصل عليه من الماضي يجب أن يقدمها ليملكها، لتلتف دافئة معه في بطانية واحدة ويناما، فقط يناما، يبدو أن النوم مع امرأة بين ذراعيه كان الضرورة الوحيدة.

ذهب إلى الكوخ، ولف نفسه بالبطانيات واستلقى على الأرض ونام. لكنه لم يستطع، فقد كان بارداً. ثم إنه شعر إلى جانب ذلك بقسوة طبيعته التي لاتنتهي. شعر بظرف قسوة وحدته الذي لايزول. إنه يريدها، يلمسها، يلصقها به في لحظة تكامل ونوم.

نهض ثانية وخرج، لكن هذه المرة باتجاه بوابات المتنزه: ثم ببطء على طول الطريق باتجاه المنزل. كانت الساعة تقرب من الرابعة، وهناك صفاء وبرد، لكن لم تظهر إشارة واحدة من الفجر. لقد اعتاد على الظلام، ويستطيع أن يرى جيداً.

ببطء، ببطء جذبه المنزل الكبير كمغناطيس. أراد أن يكون قربها. لم تكن رغبة، لم تكن كذلك. كانت إحساساً قاسياً بالوحدة الرهيبة، التي تحتاج إلى امرأة صامتة يلفها بذراعيه. قد يجدها. قد يدعوها إليه، أو يجد طريقة للوصول إليها. فالحاجة كانت ملحة.

ببطء تسلق صامتاً منحدر الهضبة. عندئذٍ دار حول الأشجار الكبيرة في قمة التلة، على الطريق الذي يقود إلى المدخل. بإمكانه أن يرى شجرتي الزان الرائعتين اللتين وقفتا في هذا المضلع المعين الكبير أمام المنزل، وقد انفردتا بنفسيهما في الهواء القاتم.

هناك كان المنزل، المنخفض والطويل والغامض، مع ضوء واحد يتوهج في أسفل الدرج، في غرفة السير كليفورد. عرف أنها غرفة السير كليفورد. ولكن في أي غرفة تكون هي، هي المرأة التي تمسك الطرف الآخر من الخيط الذي يسحبه بلا رحمة، إنه لم يحزر الغرفة.

اقترب قليلاً، والبندقية في يده، ووقف بلا حراك على الدرب، مراقباً المنزل. ربما حتى الآن يمكنه أن يجدها، أن يأتي إليها بطريقة ما. لم يكن البيت منيعاً: كان ذكياً كما تكون اللصوص. فلماذا لايدخل إليها.

وقف بلا حراك منتظراً، بينما راح الفجر يظهر بضعف وشحوب خلفه. رأى الليل ينجلي عن المنزل. لكنه لم ير السيدة بولتون تأتي إلى النوافذ وترفع الستائر الحريرية الزرقاء الداكنة القديمة، وتقف في الغرفة المظلمة باحثة عن غبش النهار المقترب، منتظرة الفجر طويلاً، منتظرة، منتظرة كليفورد ليكون التأكيد الفعلي بأن الفجر قد حل. إذ عندما يتأكد أن الفجر حل فإنه سوف ينام فوراً تقريباً.

وقفت يغالبها النعاس عند النافذة، منتظرة. وحالما وقفت تحركت، يمكن القول إنها صرخت تقريباً. إذ هناك رجل على الدرب، شكل أسود في الفجر. استيقظت حقاً وراقبت، ولكن دون أن تُصدر صوتاً يزعج السير كليفورد.

بدأ ضوء النهار ينتشر في العالم، وبدا الشكل الأسود وقد بات أصغر وأشد تحديداً. ميزت البندقية والجرموق والجاكيت ذات

ss

الحقائب ـ لابد أنه أوليفر مليورز ـ الحارس. بلى إذ هناك الكلبة التي تشمشم حوله مثل ظل، ينتظره.

ماذا يريد الرجل؟ أيريد أن يوقظ المنزل؟ ومن أجل أي شيء يقف جامداً ناظراً إلى البيت مثل كلب مُدنف حباً، خارج البيت الذي تسكنه الكلبة.

طيب. التمعت الحقيقة في السيدة بولتون مثل طلقة. إنه عشيق الليدي شاترلي، ها، ها!

فكرت، إنها هي إيفي بولتون، شعرت بالحب تجاهه، عندما كان شاباً في السادسة عشرة وكانت امرأة في السادسة والعشرين. كان ذلك عندما كانت تدرس، وكان يساعدها كثيراً في مادة التشريح وفي أشياء كانت تتعلمها. كان ولداً ذكياً، تلقى تعليمه في «مدرسة القواعد» في شيفلد، وتعلم الفرنسية وعلم الأشياء: وبعد ذلك صار حداداً يضع الحدوات للخيول، لأنه كان معجباً بالخيل كما قال: لكن الحقيقة أنه صار حداداً لأنه كان يخاف مواجهة العالم، الذي لم يتقبله قط.

لكنه كان شاباً جميلاً، شاباً جميلاً، ساعدها كثيراً، وهو ذكي في توضيح الأشياء لك. إنه ذكي مثل السير كليفورد. وكان مرغوباً من النساء. من النساء أكثر من الرجال كما قالوا.

إلى أن تزوج تلك التي تدعى بيرتا كوتس، كما لو كان بالرغم منه. بعض الناس يتزوجون ليغيظوا أنفسهم، لأنهم خابوا في شيء ما. فلا عجب أن صار فاشلاً. ـ سافر لعدة سنوات، كل فترة الحرب: ووصل إلى رتبة ليوتنانت وهذا كل شيء: يشبه الجنتلمان، فعلاً يشبه الجنتلمان! ـ ثم عاد إلى تيفرشال وصار حارس طرائد! ـ بالفعل بعض الناس لايستغلون الفرص عندما تسنح لهم. وحديثه بالعامية الديربي شايرية جعله الأسوأ، بينما هي، إيفي بولتون تعرف أنه يتحدث مثل أي جنتلمان فعلاً.

لابأس، لابأس، إذن ليديتها وقعت مغرمة به. لابأس ـ حضرتها لم تكن الأولى: هناك شيء ما حوله. لكن هذا خيال. طفل تيفرشالي يولد ويترعرع، وهي حضرتها في راغبي هول. في رأيي أن هذا انحدار تراجعي عن قمة آل شاترلي وقوتها.

ولكن ما إن ظهر النهار حتى أدرك الحارس أنه ليس حسناً، ليس حسناً أن تحاول التحرر من وحدتك الخاصة. يجب أن تحول دون ذلك، طيلة حياتك. لكن في الوقت المناسب، في الوقت المناسب فقط يمكن ردم الهوة. في الوقت المناسب. عليك أن تنتظر الوقت المناسب. اقبل وحدتك ودافع عنها طيلة حياتك. ثم اقبل الوقت المناسب عندما تُردم الهوة، حين يصل. لكن لابد أن يصل الوقت المناسب. أنت لاتستطيع أن تَقْسِرَه.

بلحظة واحدة تحطمت الرغبة النازفة التي جرته وراءها. لقد حطمها، لأنه يجب أن يحطمها. يجب أن يكون هناك اقتراب من قِبَل الطرفين معاً. فإن لم تأتِ إليه فإنه لن يتعقبها. يجب ألا يتعقبها. يجب أن يبتعد إلى أن تأتي.

التفت بطيئاً وراح يتثاقل، راضياً بوحدته مرة ثانية عرف أن هذا هو الأفضل. يجب أن تأتي إليه: فلا فائدة من السير خلفها. لافائدة.

شاهدته السيدة بولتون يتوارى ويغيب، وشاهدت كلبته تجري وراءه.

قالت «لابأس، لابأس. إنه الرجل الوحيد الذي لم أفكر به، والرجل الوحيد الذي يجب ألا أفكر به. كان لطيفاً معي عندما كان فتى، بعد أن فقدت تيد. لابأس، لابأس. ماذا يمكن أن يقول لو عرف».

ألقت نظرة انتصار على كليفورد النائم، حين خطت ببطء من الغرفة.

ss

الفصل الحادي عشر

كانت كوني تفرز إحدى غرف راغبي المبعثرة الأثاث. كانت هناك أنواع عدة: فالمنزل كان آهلاً، ولم تبعْ العائلة أي شيء. والد السير جيوفري أحب الصور وأم السير جيوفري أحبت أثاث القرن السادس عشر. وأحب السير جيوفري نفسه الصناديق السنديانية المحفورة القديمة، صناديق غرفة الاجتماعات. هكذا راحت تمر بين الأجيال. وقد جمع كليفورد صوراً حديثة جداً ـ بأسعار معتدلة جداً.

وهكذا كان هناك في الغرفة المبعثرة أشياء السير ادوين لاندسير السيئة، وأعشاش طيور وليام هنري هنت الحميمة: ومواد أكاديمية أخرى، كافية لأن تخيف ابنة أ.م (الأكاديمية الملكية). قررت أن تتفقدها في أحد الأيام، وأن تجليها كلها. وقد أعجبها أثاث الغروتسك.

سرير المهد القديم للعائلة لفّ بعناية صيانة له من التلف والتسوس، وهو مصنوع من الخشب الأحمر. كان عليها أن تحل لفافاته حتى تراه. إن له سحراً خاصاً: تمعّنت فيه مدة طويلة.

تنهدت السيدة بولتون التي كانت تساعدها وقالت «آلاف الأشياء لن يستخدمها الناس، وهكذا فإن سرائر المهد التي تشبه هذا صارت مهملة في هذه الأيام».

«قد أستخدمه. ربما صار لي طفل» قالت كوني ذلك بلهجة عادية كما لو كانت تقول إنه قد يصير لها قبعة جديدة.

«تقصدين ـ إذا حدث شيء، للسير كليفورد؟» قالت السيدة بولتون متلعثمة.

«لا. أقصد الأشياء كما تقع تماماً. إن الشلل الذكوري فقط عند السير كليفورد ـ لايؤثر فيه» قالت كوني وهي تستلقي ملتقطة أنفاسها على نحو طبيعي.

أدخل كليفورد في رأسها الفكرة. قال «طبعاً قد يكون لي طفل فيما بعد. أنا لست مشوّهاً على الإطلاق. يمكن للقدرة أن تعود بسهولة، حتى لو كانت عضلات الردفين والساقين كاملة الشلل وعندئذٍ يمكن للبذور أن تنطلق».

وقد شعر فعلاً، عندما كان في مراحل طاقته وعمل بمشقة في مسألة المناجم، كما لو أن طاقته الجنسية كانت تعود إليه. نظرت إليه كوني برعب. ولكنها كانت ذكية بما يكفي لاستغلال اقتراحه حرصاً عليها. إذ سوف تحصل على طفل إن استطاعت: ولكنه ليس طفله.

انبهرت السيدة بولتون مصعوقة للحظة. ثم إنها لم تصدق هذا: رأت فيه حيلة. ومع ذلك فإن الأطباء قد يصنعون مثل هذه الأشياء في هذه الأيام، إنهم يتمكنون من تطعيم البذور.

«لابأس ياسيدتي. آمل وأصلي من أجل أن تتمكني من الحصول على طفل. سيكون جميلاً في عينيك: وفي عيني كل شخص. في رأيي أن طفلاً في راغبي سوف يُحدث تغييراً وأي تغيير».

«لن يحدث شيئاً» قالت كوني.

واختارت ثلاث صور لأعضاء الأكاديمية الملكية تعود إلى ستين عاماً، لإرسالها إلى دوقة اسكوتلاندا من أجل البازار الخيري التالي لهذه السيدة. كانت تسمى «دوقة البازار»: وهي تطلب من كل

المقاطعة أن ترسل لها الأشياء لبيعها. وسوف تُسرّ بهذه الصور الثلاث للأكاديميين. يمكن أيضاً أن تعلن كدعاية لرفع الثمن. أواه، كم سيغضب كليفورد عندما تعلن.

ولكن آه ياعزيزتي. فكرت السيدة بولتون في نفسها ـ إنه ابن أوليفر ميلورز الذي تعدّيننا له أليس كذلك؟ أوه ياعزيزتي. إنه سيكون ابن تيفرشال في سرير مهد راغبي، في رأيي. لاعار في ذلك أبداً.

من بين الأشياء الوحشية في هذه الغرفة المبعثرة كان يوجد صندوق أسود عريض مطلي باللكّ، صنع بدقة وعبقرية منذ ستين أو سبعين سنة، يضاهي أي شيء يمكن تصوره. في العتمة تركزت مجموعة تواليت: فراشي أسنان وزجاجات ومرايا وأمشاط وصناديق صغيرة، وحتى ثلاث شفرات جميلة صغيرة حُفظت بقطعة من الشيت، وطاسة حلاقة، وكل مايلزم. ويأتي تحت ذلك نوع من المستلزمات المكتبية: نشافات وأقلام ومحابر وورق ومغلفات ودفاتر مذكرات: ثم أدوات خياطة، مع ثلاثة مقصات مختلفة الأحجام، وكشاتبين وإبر وخيوط حريرية وقطن وبيضة خشبية للرفو، وكلها متقنة ومن النوع الرفيع. ثم هناك مستودع صغير طبي، مع زجاجات عليها لصاقات اللوداليوم وتنكتورات المير والايس. وقفازات وهكذا: ولكنها كلها فارغة. كل شيء كان جديداً كل الجدة. وكل الأشياء الصغيرة أو الكبيرة عندما يطبق الصندوق تصبح كأنها في حقيبة كبيرة من حقائب العطل الأسبوعية. وفي الداخل مرتبة ترتيباً مناسباً كأنها لغز. فالزجاجات لايمكن أن تنسكب لعدم وجود فراغ بينها.

كان هذا الشيء مصنوعاً صناعة مدهشة، بحِرفية النظام الفكتوري الأعظم. ومع ذلك كان وحشياً. ولابد أن بعض آل شاترلي شعروا بذلك، لأن الأشياء التي فيه لم تستعمل قط. كان له انفراده الخاص وعزلته الخاصة.

لكن مع ذلك أثيرت السيدة بولتون.

ss

«انظري كم هي جميلة الفراشي وكم هي غالية، حتى فرشاة الحلاقة. انظري إلى فراشي الأسنان الجميلة، ثلاث كاملات الوصف. لا. وكذلك هذه المقصات. إنها أفضل من المال الذي دُفع لشرائها. أوه إني أراها جميلة».

قالت كوني «أترينها جميلة؟ إذن خذيها».

«أوه، لا ياسيدتي».

«طبعاً خذيها وإلا ستبقى هنا إلى يوم القيامة. إن لم تأخذيها، فإني سأرسلها إلى الدوقة مثل الصور - وهي لاتستحقها كثيراً. خذيها».

«أوه سيدتي، لن أكون قادرة على شكرك -».

ضحكت كوني «لاتحتاجين إلى أن تحاولي شكري».

وقد هبطت السيدة بولتون بالصندوق الضخم والأسود جداً بين ذراعيها، وقد جعلتها الإثارة حمراء بلون القرنفل المتوهج.

دفعها السيد بيتس بحيلة إلى بيتها في القرية مع الصندوق. إذ لابد أن لها بعض الأصدقاء سوف تعرضه عليهم: معلمة المدرسة وزوجة الكيميائي والسيدة ويدون زوجة معاون المحاسب. حسبوه أعجوبة. ومنذئذٍ بدأ الهمس عن طفل الليدي شاترلي.

قالت السيدة ويدون «لاتذهب عني دهشتي».

لكن السيدة بولتون مقتنعة أنه إن جاء فسوف يكون من دون شك ابن السير كليفورد. تماماً -

ليس بعد ذلك بكثير قال القس بلطف لكليفورد:

«ألا تحلم فعلاً بوريث لراغبي؟ آه، ستكون عندئذٍ يد الله في رحمته حقاً».

«يمكن أن نحلم» قال ذلك كليفورد بسخرية باردة، وفي الوقت نفسه بقناعة مؤكدة. لقد بدأ يصدق فعلاً أنه يمكن أن يكون له طفل، وأن يكون طفله، هو.

في العصر من أحد الأيام جاء لسلي ونتر أو القاضي ونتر كما يسميه كل الناس: الهزيل الطاهر الذي في السبعين من عمره: كل شبر فيه يدل على الجنتلمانية، كما قالت السيدة بولتون للسيدة بيتس. والحقيقة كل مليمتر فيه يدل على الجنتلمانية. وبدا بدقته القديمة أو بالأحرى بطريقة حديثه هاها ملفوظاً من الزمن أكثر من موضة شبكات الشعر. فالزمن في طيرانه يفرفط تلك الرياش القديمة الجميلة.

تناقشوا حول المناجم. كانت فكرة كليفورد أن هذا الفحم وإن كان من النوع الرديء، يمكن تحويله إلى وقود مركّز قاسٍ يمكن أن يحترق في الحرارة الكبيرة إذا غذيناه بهواء رطب حمضي تحت ضغط قوي جداً. وهذا معروف منذ أمد طويل أنه تحت قوة خاصة، قلما تعطي الرياح الرطبة لرصيف الحفرة المحترق بشدة أي ضباب، فتخلف بودرة جميلة من الرماد، بدلاً من الحصى القرنفلية.

سأل ونتر «ولكن أين ستجد الآلات الخاصة لإحراق وقودك؟».

«سأصنعها بنفسي. وسوف أستخدم وقودي بنفسي. وسوف أبيع الطاقة الكهربائية. أنا متأكد أنني أستطيع عمل هذا».

«إن استطعت عمل هذا فإنك عندئذٍ رائع رائع ياغلامي العزيز. هاها. رائع. إن كنت تحتاج إلى مساعدة فسأكون مسروراً. أخاف أن أكون ملفوظاً من الزمن، ومناجمي مثلي. ولكن من يعرف، إذ عندما أولّي سيكون ثمة رجال من أمثالك. رائع، عندئذٍ سأوظف كل الرجال مرة ثانية، وعندها لاتضطر أن تبيع فحمك، أو تفشل في بيعه. يالها من فكرة رائعة أتمنى لها النجاح. لو أن لي أبناء من صلبي، فلاشك كانوا سيأتون بأفكار حديثة إلى شبلي: لاشك - وبالمناسبة ياغلامي العزيز، هل هناك أساس للشائعة التي قد تنعش آمالنا في ورِيث لراغبي؟».

سأل كليفورد «هل هناك شائعة؟».

«لابأس ياغلامي العزيز، مارشال من فيلنغ وود سألني ـ وهذا كل مايمكن أن أقوله عن الشائعة. طبعاً لن أكررها للعالم إن لم يكن لها أساس».

قال كليفورد، ولكن ببريق غريب في عينيه «لابأس أيها السير، هناك أمل، هناك أمل».

قطع ونتر الغرفة وشد على يد كليفورد.

«ياغلامي العزيز، يافتاي العزيز، أتصدق مايعني لي سماع ذلك ـ وأن أسمع أنك تعمل على أمل أن يكون لك ابن: وأنك سوف توظف كل رجل في تيفرشال مرة ثانية. ـ آه ياغلامي ـ يعني الحفاظ على مستوى المنافسة، والعمل بانتظار أي رجل يهتم بالعمل ـ».

تأثر الرجل العجوز تأثراً حقيقياً.

كانت كوني في اليوم التالي ترتب زنابق صفراء طويلة في زهرية من زجاج.

قال كليفورد «كوني، أتعرفين أن ثمة شائعة بأنك سوف تمدين راغبي بابن ووريث؟».

شعرت كوني بكآبة مع خوف، ومع ذلك انتصبت ولمست الأزهار.

قالت «لا، أهي مزحة؟ أم مكر؟».

تريث قليلاً قبل أن يجيب:

«لا، لا هذه ولا تلك. أتمنى، أتمنى أن تكون نبوءة».

تابعت كوني ترتيب أزهارها.

قالت «وصلتني رسالة من والدي هذا الصباح يريد أن يعرف إن كنت أعرف أنه قَبِلَ دعوة السير الكسندر كوبر لي في تموز وآب، إلى فيلا اسميرالدا في البندقية».

قال كليفورد «تموز وآب؟».

«أوه، سوف أبقى كل هذه المدة. ـ أمتأكد أنك لن تأتي؟».

قال كليفورد بخيلاء «لاأسافر إلى الخارج».

أخذت أزهارها إلى الشباك.

قالت «أتنزعج إن ذهبت؟ تعرف أنه وعْدك لهذا الصيف».

«كم سيطول غيابكِ؟»

«ربما ثلاثة أسابيع».

وران صمت لفترة من الوقت.

قال كليفورد ببطء وبقليل من التجهم «لابأس، أعتقد أنني قادر على الصبر ثلاثة أسابيع، إن أنا تأكدت تماماً بأنك سوف تعودين».

«سوف أعود» قالت ببساطة هادئة وإيمان راسخ. كانت تفكر بالرجل الآخر.

شعر كليفورد بإيمانها الراسخ، وصدقها إلى حد ما، وآمن أنها له. شعر بالراحة والحبور على الفور.

قال «في هذه الحالة سيكون كل شيء على مايرام ـ أليس كذلك؟».

قالت «هكذا أعتقد».

«أتحبين التغيير؟».

نظرت إليه بعينين زرقاوين غريبتين.

قالت «أود أن أرى البندقية مرة ثانية وأستحم في إحدى البحيرات في الجزر المفروشة بالحصى. لكنك تعرف أنني أقرف من جزيرة ليدو. ولاأتخيل أن أحب السير الكسندر كوبر والليدي كوبر. ولكن إن كانت أختي هيلدا هناك ـ ولدينا جندول خاصة بنا: بلى فسوف يكون ذلك جميلاً. أتمنى لو تأتي».

قالت هذا بجدية مَنْ تحب أن تجعله سعيداً، بهذه الطرق.

ss

«ولكن تذكريني عند محطة غارادي نورد (محطة الشمال) وفي محطة كاليس».

«ولكن لم لاتأتي. شاهدت رجالاً يُحملون في كراسٍ صغيرة، أصيبوا في الحرب. يضاف إلى ذلك أن لدينا محركاً طيلةَ الرحلة».

«نحتاج أن نأخذ معنا رجلين».

«أوه، لا، مع فيلد دائماً سيكون رجل آخر هناك».

لكن كليفورد هز رأسه.

«ليس هذه السنة ياعزيزتي. ليس هذه السنة. ربما أحاول في السنة التالية».

واستغرقت بعيداً في عقم الكآبة. السنة التالية. ماذا ستجلب السنة التالية؟ إنها نفسها لاتريد أن تذهب إلى البندقية: ولكن ليس الآن، الآن هناك الرجل الآخر، ولكنها تذهب كنوع من «الديسبلين» المنظم: وكذلك لأنها تحمل طفلاً، ولايفكر كليفورد أن لها عشيقاً في البندقية.

جاء أيار وفي حزيران يُفترض أن ينطلقوا. دائماً توجد هذه الترتيبات، دائماً تنظم حياة الإنسان من أجل واحد. العجلات دائماً تشغل واحداً وتدفع آخر، ويعتليها من لاسيطرة له عليها.

جاء أيار، لكنه أيضاً بارد وممطر. أيار بارد وممطر يفيد القمح والتبن. والقمح والتبن هامان في هذه الأيام. فكان على كوني أن تذهب إلى يوثوايت، التي كانت مدينتها، حيث كان الشاترليون مايزالون آل شاترلي. ذهبت وحدها وقاد سيارتها فيلد.

على الرغم من أيار والخضرة الجديدة كان الريف موحشاً. كان بالأحرى يرتجف، فكان هناك دخان في المطر وشعور خاص للبخار الضائع في الهواء. فالمرء يعيش بمقاومة ذلك. فلاغرابة إن كان أولئك بشعين وغلاظاً.

ss

راحت السيارة تشق طريقها في الهضبة عبر التيه الطويل لتيفرشال، المساكن القرميدية المسوّدة، السقوف الاردوازية التي برقت أطرافها بحدة، الطين الأسود مع غبار الفحم، الأرصفة المبتلة والسوداء. كأن الكآبة كانت منقوعة في كل شيء، كل شيء. كان مرعباً النفي المطلق للجمال الطبيعي، النفي المطلق لمسرة الحياة، الغياب المطلق لغريزة تشكيل الجمال في كل طير ووحش، الموت المطلق لقدرة البصيرة الإنسانية. أكوام من الصابون في دكاكين البقالين، الراوند والليمون في دكاكين بائعي الخضرة، القبعات المرعبة في محلات بائعي القبعات، كلها بانت بشعة، بشعة، بشعة، رعب اللصاقات المذهبة للسينما مع إعلانات أفلامها المبتلّة لفيلم «حب امرأة» والكنيسة البدائية الكبيرة الجديدة، البدائية بما يكفي كما يدل قرميدها المتصلب وألواحها الكبيرة من الزجاج المخضر المشوب بلون الفريز في الشبابيك. وكانت كنيسة ويسليان، المرتفعة كثيراً، قد صُنعت من قرميد مسودّ ووقفت خلف السكك الحديدية وأشجار الشرنب المسودّة. وكانت كنيسة القساوسة التي تظن نفسها متفوقة على غيرها، مبنية من الحجر الرملي الريفي ولها برج، لكنه غير عالٍ كثيراً. خلفها مباشرة قامت الأبنية المدرسية، من القرميد القرمزي الغالي، وباحة لعب مفروشة بالحصى داخل السكك الحديدية، فكل شيء رهيب، إذ اختلط السجن بالكنيسة. كانت طالبات «ستاندرد فايف» يغنين درساً، وقد انتهين تماماً من تدريبات لا ـ مي ـ دو ـ لا وبدأت بـ «أغنية الأطفال الطيبين». كل شيء كان لايشبه الأغنية، الأغنية العفوية، لايشبهها بشكل لايمكن تخيله: صراخ غريب مرعب يتلو مسارات النغمة. لم يكن كأغاني المتوحشين: فللمتوحشين إيقاعاتهم الذكية. ولم يكن كالحيوانات: فالحيوانات تعني شيئاً ماعندما تصرخ. لم يكن يشبه شيئاً في الأرض، ومع ذلك يسمى غناء. جلست كوني تصغي، وقلبها في جزمتها، بينما كان فيلد يملأ السيارة بالبنزين. ماذا يمكن أن يصبح

ss

هذا الشعب، الشعب الذي ماتت قدرته الحدسية الحية موت الأظافر، سوى صراخ ميكانيكي غريب وبقايا من قوة إرادة غير حكيمة؟

كانت عربة فحم تنحدر من الهضبة تقعقع في المطر. بدأ فيلد في الصعود، ماراً بالمخازن الكبيرة ولكن البالية المظهر للأجواخ والثياب، ودائرة البريد، في مكان مهجور من السوق الصغير، حيث كان سام بلاك يخالس النظر من باب «الشمس» الذي يدّعي أنه فندق، وليس حانة، وحيث يقيم السائحون التجاريون، وراح ينحني لسيارة الليدي شاترلي.

كانت الكنيسة بعيدة على اليسار، بين الأشجار السوداء. وانحدرت السيارة من الهضبة فمرت بـ «المايئرز آرمز». وكانت قد مرت من قبل بولنغتون ونلسون والثري تانز وفندق الشمس، والآن تمر بالمايئرز آرمز، ثم بالميكانيك هول، ثم بالمايئرز ويلفير الجديدة، ولكن للبهرجة ـ وهكذا مرت بالفيلات الجديدة وهي تخرج منها إلى الطريق المسودّ بين الأطراف المسودّة والحقول الخضراء الداكنة، باتجاه ستاكس غيت.

تيفرشال! تلك كانت تيفرشال! انكلترا ميري، انكلترا شكسبير! لا، وإنما انكلترا اليوم، كما تأكدت كوني منذ أن جاءت تعيش فيها. كانت تنتج عِرقاً جديداً من البشرية، ساد فيه الشغف بالمال والجانب الاجتماعي والسياسي، على الجانب الحدسي العفوي الذي يُحتضَر، بل الذي مات. أنصاف جثث، كلهم أنصاف جثث: ولكن بوعي مرعب للنصف الآخر. هناك شيء ما غير حكيم وخفي في كل شيء. شيء تحت العالم. شيء لايمكن حسابه. كيف يمكن أن تفهم ردات الفعل في أنصاف الجثث؟ عندما رأت كوني اللوريات غاصة بعمال الحديد من شيفلد، بكائنات صغيرة مشوهة تشبه الرجال، وقد خرجت في نزهة إلى ماتلوك، تهاوت أحشاؤها وفكرت: ياإلهي، ماذا فعل الإنسان بالإنسان؟ ماذا فعل قادة الرجال برفاقهم الرجال؟ لقد

أرجعوهم إلى أقل من بشر، والآن لن تكون هناك صداقة. إن هذا كابوس.

شعرت ثانية بموجة من اليأس الرمادي الرملي في كل شيء. فمع تلك المخلوقات التي تعمل في الكتل الصناعية، ومع الطبقات العليا، كما خبِرتها، لايوجد أمل، لاأمل على الإطلاق. ومع ذلك كانت تريد طفلاً، ووريثاً لراغبي. وريثاً لراغبي. لقد هزها الرعب.

ومع ذلك خرج ميلورز من كل هذا. ـ بلى كان بعيداً عنه كما كانت هي. فحتى فيه لم تكن قد بقيت صداقة. ماتت. ماتت الصداقة. هناك انفصال وحسب، ويأس، إذا مانظرنا إلى كل هذا. وهذا ماكانته انكلترا، الكتلة الضخمة لانكلترا: كما تعرفها كوني، منذ أن طافتها من مركزها.

كانت السيارة تصعد باتجاه ستاكس غيت. كان المطر قد توقف، وبدت لأيار بارقة غريبة. وراح الريف ينسبط في تموجات طويلة، جنوباً باتجاه بيك، وشرقاً باتجاه مانسفيلد ونوتنغهام. كانت كوني تسافر جنوباً.

إذ وصلت كوني إلى الريف الأعلى، تمكنت من أن ترى على يسارها، في الأعلى فوق الأرض المنبسطة، أرض الكتلة الضخمة القوية الظليلة لقلعة وارسوب شمطاء قاتمة، وتحتها تقوم مساكن المُعدِّنين المتلاصقة المحمرة، الجديدة، وتحت هذا تتصاعد غيوم الدخان الأسود والبخار الأبيض من المنجم الكبير الذي يضع كثيراً من آلاف الجنيهات سنوياً في جيوب الدوق وشركائه الآخرين. كانت القلعة القوية القديمة قد صارت خراباً، ومع ذلك ظلت كتلتها معلقة بالأفق المنخفض، فوق الغيوم السوداء والبيضاء التي تتحرك بالهواء الرطب في الأسفل.

بعد منعطف واحد صاروا يسيرون في المستوى العالي لستاكس غيت. وكانت ستاكس غيت، كما تبدو من الطريق العالي،

SS

مجرد فندق جديد ضخم جميل، كونينغسبي آرمز، تنتصب حمراء بيضاء في عزلة بربرية بعيداً عن الطريق. ولكنك إن نظرت، فسوف ترى على اليسار صفاً من المساكن «الحديثة» الأنيقة، وقد شُيّدت مثل لعبة الدومينو، مع فراغات وحدائق، لعبة غريبة من الدومينو يلعبها «أسياد» سحريون على الأرض المنذهلة. وخلف مجموعات المساكن، إلى الخلف، قامت النصب السامقة المخيفة المدهشة لمنجم حديث فعلاً، حيث تقوم أعمال وغاليرهات ضخمة ذوات أشكال لم يعرفها إنسان من قبل. والستوكات الأمامية ورصيف الحفرة للمنجم نفسه لم تبد هامة بين المنشآت الضخمة الجديدة. وأمام هذا قامت لعبة الدومينو الأبدية على نحو مفاجئ، منتظرة من يلعب بها.

كانت هذه هي ستاكس غيت، جديدة على وجه الأرض منذ الحرب. ولكن الحقيقة، وإن كانت كوني لاتعرفها، أنّه في سفح الهضبة وتحت «الفندق» بنصف ميل كانت تقوم ستاكس غيت القديمة، مع منجم صغير قديم، ومساكن قرميدية قديمة مسودّة، وكنيسة أو اثنتين، ومخزن أو مخزنين، وخمارة صغيرة أو اثنتين.

لكن هذا لايُحسب حسابه. فالغيوم الضخمة من الدخان والبخار ارتفعت من الأعمال الجديدة ومافوق، وهي الآن ستاكس غيت الجديدة: لاكنائس ولاخمارات ولامخازن. فقط «الأعمال» الكبرى، التي هي أولمبيا الحديثة مع معابد لكل الآلهة، ثم المساكن النمطية: ثم الفندق. والحقيقة أن الفندق لم يكن سوى خمارة المُعدِّنين، وإن كان يبدو من الدرجة الأولى.

حتى منذ وصول كوني إلى راغبي قام هذا المكان الجديد على وجه الأرض، وغصت المساكن النموذجية بالغوغاء والدهماء المتدفقين من كل صوب، ليصيدوا بالأشراك أرانب كليفورد، إلى جانب أعمال أخرى.

انطلقت السيارة على طول الأرض العالية، وقد بدا الريف

المنبسط ينتشر واسعاً. الريف. كان ياماكان مرة من المرات ريفاً لوردياً فخوراً. في المقدمة تشابكت وتعلقت بحاجب الأفق الكتلة الضخمة والرائعة لشادفيك هول، بشبابيك أكثر من الجدران، وهي نموذج من أشهر نماذج البيوت الاليزابيثية. نبيلة في وقفتها وحيدة فوق متنزه كبير، ولكنها خارج الزمن، لقد عفا عليها الزمن وتجاوزها. مازالوا يحافظون عليها ولكن كمكان للفرجة. «انظروا كيف شادها الأجداد».

كان هذا ماضياً. الحاضر يستلقي دون ذلك. والله وحده يعرف أين سيستلقي المستقبل. كانت السيارة تنعطف، بين أكواخ المُعدِّنين السوداء القديمة الصغيرة، لتهبط إلى يوثوايت. وكانت يوثوايت في هذا اليوم الماطر ترسل إلى الأعلى صفوفاً من غيوم الدخان والبخار، إلى الآلهة مهما كانت. وتغوص يوثوايت في الوادي، بكل الخيوط الفولاذية للسكك الحديدية الممتدة إلى شيفلد والمرسومة في الوادي، ومناجم الفحم وأعمال الفولاذ ترسل دخاناً وتحدق بالسماء بأنابيبها الطويلة، والقبة الملتفة الصغيرة للكنيسة، التي تكاد تتشقلب، ماتزال تثقب الأدخنة، فأثّر كل ذلك في كوني. كانت مدينة تسويق قديمة، كانت مركزاً للوديان. وكان شاترلي آرمز من الفنادق الرئيسية. وهناك، في يوثوايت، اشتهر راغبي باسم راغبي، كما لو كان مكاناً عاماً، وليس بيتاً، كما يعرفه الجوار: راغبي هول، قرب تيفرشال. راغبي «المقر».

انتصبت أكواخ المُعدِّنين المسودّة على الرصيف بتلك المساكن الحميمة والصغيرة لعمال المناجم التي تعود لأكثر من مئة سنة. لقد اصطفت جميعها على طول الطريق. الطريق صار شارعاً، وكلما غصت، نسيت على الفور الريف المنبسط المفتوح، حيث ماتزال تسود القلاع والبيوتات الكبيرة، ولكنها مثل الأشباح. أنت الآن تماماً فوق تشابك الخطوط الحديدية المكشوفة والمسابك و«الأعمال» الأخرى المنتصبة حولك، فأرجوك أن تأخذ حذرك من الأسوار. ويرن الحديد

ss

مع الضجيج المتردد، واللوريات الضخمة التي تهز الأرض، والصفارات الصارخة.

ومع ذلك حالما تميل يميناً إلى الأسفل، في مركز المدينة المعقوف والمجدول، وراء الكنيسة، فأنت في عالم من قرنين، ففي الشوارع المعقوفة حيث ينتصب شاترلي آرمز، والصيدلية القديمة، الشوارع التي استخدمت لتؤدي إلى العالم المفتوح للقلاع والبيوت الراكدة الرابضة.

وفي الزاوية يقف شرطي رافعاً يده كلما مرت ثلاث لوريات محملة بالحديد، تهز الكنيسة القديمة البائسة. ولاينتظر حتى تمرّ اللوريات لتحية حضرتها.

هكذا. فوق حشد الشوارع المعقوفة القديمة لأعظم اكتظاظ لمساكن المُعدِّنين السوداء، تقع الطرق الذاهبة إلى الخارج. وعلى الفور بعد هذه تأتي الصفوف الأكثر قرمزية وحداثة عن البيوت الكبرى الملاصقة للوادي: إنها بيوت العمال الأكثر حداثة. وفي الخلف أيضاً، في المنطقة المنبسطة العريضة للقلاع، يتصارع الدخان والبخار، وبقعة بعد بقعة من القرميد الأحمر الأولى، تظهر مساكن التعدين الأكثر جدة، أحياناً في التجاويف، وأحياناً على طول خط الأفق المنحدر، على نحو مرعب بشع. وبينهما النفايات البالية لانكلترا الأكواخ المتدربة القديمة، حتى انكلترا روبن هود، حيث يطوف المُعدِّنون بقباحة غرائزهم الرياضية المقموعة، عندما لايكونون على رأس عملهم.

انكلترا، يانكلتراي. ولكن أي منهما هي انكلتراي؟ فالبيوت الضخمة لانكلترا تقدم صوراً فوتوغرافية جيدة وتخلق وهم الارتباط بانكلترا الاليزابيثية. والقاعات القديمة الأنيقة موجودة هناك منذ أيام الملكة الطيبة آن وتوم جونز. لكن السخام يتساقط أشد اسوداداً على التزيينات الجصية الكئيبة التي لم تعد أبداً ذهبية. وواحداً بعد الآخر هُجرت كما هُجرت البيوت الضخمة. الآن يهدمونها. أما

بالنسبة لانكلترا الأكواخ فهاهي هناك ـ التصاقات كبيرة من المساكن القرميدية على الريف البائس.

الآن يهدمون البيوت الضخمة، وقد ولت القاعات التي شُيدت أيام الملك جورج. وقد ظل فرتشلي وهو قصر من أيام الملك جورج تاماً حتى الآن، وحين مرت كوني بالسيارة، رأته يُهدم. كان صالحاً تماماً: حتى الحرب كانت أسرة ويذربيس تعيش هناك. لكن الآن كان كبيراً جداً، مكلفاً جداً، وقد صار الريف بعيداً عن الأصالة جداً. فالنبلاء كانوا يرتحلون إلى الأماكن الأمتع، حيث ينفقون نقودهم دون أن يروا كيف أتت هذه النقود.

هذا تاريخ. انكلترا تشطب انكلترا الأخرى. المناجم جعلت التلال غنية. الآن تُشطب كما شَطبت هي من قبل الأكواخ. انكلترا الصناعية تشطب انكلترا الزراعية. معنى يشطب الآخر. انكلترا الجديدة تشطب انكلترا القديمة. والاستمرارية ليست عضوية بل ميكانيكية.

تمسكت كوني، المنتمية إلى الطبقات المرفهة، ببقايا انكلترا القديمة. لقد أمضت سنواتها لتتحقق أن انكلترا الجديدة المرعبة قد شطبتها فعلاً، وأن الشطب سوف يستمر حتى يتم كاملاً. فرتشلي ولى، وولت الإيست وود، وولت شبلي: شبلي العزيزة على قلب ونتر القاضي.

تذكرت كوني للحظة شبلي. بوابات المتنزه، في الخلف، تنفتح تماماً قرب تقاطع سكة حديد المنجم، ومنجم شبلي نفسه يقوم تماماً وراء الأشجار. والبوابات مفتوحة، لأنه كان يمر في المتنزه طريق يستخدمه عمال المناجم. إنهم يطوفون حول المتنزه.

اجتازت السيارة البرك المزخرفة، التي يرمي فيها عمال المناجم صحفهم، ويتخذون طريقهم الخاص إلى المنزل. ويقف فوق ذلك، على طرف، بناء مزين جداً بالجص، من القرن الثامن عشر، وله حليف جميل من أشجار الطقسوس، التي اقتربت من البيت

الأقدم، وتنتشر القاعة بهدوء فتغمز شبابيكها الجورجية كما لو كانت مبتهجة. وفي الخلف توجد فعلاً حدائق جميلة.

أحبت كوني الداخل أكثر مما أحبت راغبي. كان أكثر إشراقاً وأفعم بالحياة وأروع عظمة وأجمل شكلاً. وزُينت الغرف بلوحات طويلة مع دهان بلون الكريمة، وطليت السقوف بالذهب، وكل شيء وضع في ترتيب رائع، وكل الأثاث كان كاملاً، بغض النظر عن كلفته. حتى الممرات رُتبت لتكون فعالة وجميلة ومنعطفة بنعومة، وملأى بالحياة.

لكن لسلي ونتر كان وحده. زين بيته. لكن متنزهه تتاخمه ثلاثة مناجم خاصة به. كان رجلاً كريماً في أفكاره. فهو يرحب بعمال المناجم في متنزهه. ألم يجعله العمال غنياً. ولكن عندما رأى أفواجاً من الرجال الرثين يتسكعون قرب مياهه المزينة ـ ولكن ليس على الجزء الذي يعود إليه من المتنزه، لا، فقد رسم خطاً هناك ـ كان لابد أن يقول: «ربما لايكون عمال التعدين مزخرفين مثل الغزال، ولكنهم أكثر تقديماً للربح».

لكن ذلك كان ـ مالياً ـ في النصف الثاني الذهبي لعصر الملكة فكتوريا. كان عمال المناجم آنذاك «رجال عمل طيبين».

ألقى ونتر هذا الخطاب، نصف الاعتذاري، لضيفه أمير ويلز. ورد عليه الأمير بلغته الانكليزية الحلقية:

«أنت مصيب تماماً. فلو وُجد فحم تحت ساندرنغهام، فسوف أفتح منجماً في المروج، وأظنه مشهداً حدائقياً من الدرجة الأولى. أوه، أنا أريد تماماً أن أبادل غزال الرو بعمال المناجم فيما يتعلق بالسعر. وأعرف أن رجالك رجال طيبون أيضاً».

لكن قد يكون الأمير بالغ بفكرة جمال المال، وبركات التصنيع.

على أيّ حال، صار الأمير ملكاً والملك مات، والآن يعتلي العرش ملك آخر يبدو أن وظيفته فتح مطابخ مساء.

وطوق العمال الطيبون شبلي. واحتشدت الآن قرى عمالية على المتنزه، فشعر القاضي ونتر أن السكان كانوا غرباء. واعتاد أن يشعر بطبيعته الطيبة، ولكن بطريقة عظيمة تماماً، أنه لورد على مايسيطر عليه وعلى عمال مناجمه الخاصة. الآن، بعد التفشي الماكر للروح الجديدة، نُحّي جانباً. كان هو الذي لاانتماء له. ولم تكن الخطيئة خطيئته. فالمناجم، أو قل الصناعة لها إرادتها الخاصة، وكانت هذه الإرادة ضد المالك الجنتلماني. كل المناجم ساهمت في الإرادة، فكان من الصعب أن تقف ضدها. إنها ستطيح بك من المكان، ومن الحياة معاً.

أُحيل ونتر، كجندي أصيل إلى التقاعد. لكنه لم يعد يهتم بالسير في المتنزه بعد الغداء. غالباً مايختبئ داخل البيت. مرة سار حاسر الرأس، وبحذائه الجلدي وجواربه الحريرية الأرجوانية، مع كوني حتى البوابة، متحدثاً إليها بطريقة مهذبة أكثر من طريقته ها ـ ها. ولكن عندما جاء ليمر من قرب جماعات عمال المناجم الذين وقفوا وحملقوا من دون تحية أو أي شيء آخر، شعرت كوني كيف ارتجف هذا العجوز حسن التربية، ارتجف مثل ظبي بري في قفص راح يرتجف من التحديق المبتذل، لم يكن العمال معادين له شخصياً: لاأبداً، لكن روحهم كانت باردة فنحته جانباً. فهناك في الأعماق تغوص شكوى أليمة. إنهم «يعملون له». وفي قباحتهم يستاؤون من وجوده الرفيع المهذب الأنيق. «ومن يكون هو». إنهم يستاؤون من «الفارق».

في مكان ما من قلبه الانكليزي السري، لكونه يتحلى بأخلاق جندي، آمن أنهم على حق في الامتعاض من الفارق. شعر هو نفسه أنه أخطأ قليلاً، لأنه استأثر بكل هذه الامتيازات. على أي حال مثّلَ نظاماً ويجب ألا يُنحّى جانباً.

إلا بالموت. الذي حل عليه فجأة بعد دعوة كوني. وقد تذكر كليفورد في إرادته الصلبة.

أعطى الورثة الأمر حالاً بتهديم شبلي. فالحفاظ عليها كمؤسسة يكلف كثيراً. فلا أحد يقبل أن يعيش هناك. ولذلك تحطمت. شارع من أشجار الطقسوس قطعوها ورموها أرضاً. عُرّي المتنزه من أشجاره، ووزع حصصاً على الورثة. كان قريباً من يوثوايت. في هذه الصحراء الصلعاء الغريبة لهذه الأرض التي مازالت ليست لأحد، بدأت شوارع صغيرة منفصلة تُشق، حسب الرغبة. هذه هي إقطاعية شبلي هول.

حدث هذا خلال سنة واحدة من دعوة كوني الأخيرة. هناك تقف إقطاعية شبلي هول، صفاً من «الفيلات» القرميدية الحمراء نصف المنفصلة عن بعضها في الشوارع الجديدة. لم يحلم أحد أن القاعة المزينة كانت موجودة هناك قبل اثني عشر شهراً فقط.

لكن هذه كانت آخر مرحلة لنوع الحدائق ذات المناظر من مراحل الملك ادوارد، التي كان يزينها منجم الفحم في المرج.

كل انكلترا تشطب الأخرى. انكلترا آل ونتر وقاعات راغبي ولت وماتت. والشطب لمّا يكتمل بعد.

ماذا يلي ذلك؟ لاتستطيع كوني أن تتخيل. تستطيع أن ترى فقط الشوارع القرميدية المنتشرة في الحقول، والمباني الجديدة المنشأة عند المناجم، والفتيات الجديدات في جواربهن الحريرية، وشبان المناجم الجدد يصخبون في بالي أو ويلفير. الجيل الأصغر لم يكن واعياً إطلاقاً لانكلترا القديمة. ثمة فجوة في متابعة الوعي، فجوة أميركية تقريباً: ولكنها صناعية في الواقع. ماذا بعد؟

دائماً كانت كوني تشعر أنه لايوجد بعد. أرادت أن تخبئ رأسها في الرمل: أو على الأقل في حضن رجل حي.

كان العالم معقداً وآثماً ومرعباً. فالعامة يتكاثرون والحقيقة أنهم صاروا مرعبين. بذلك فكرت وهي في طريق عودتها إلى البيت، ورأت عمال المناجم يتقاطرون من الحفر، وقد كلحت وجوههم، وتشوهوا وصار لهم كتف أعلى من كتف، يجرون جزماتهم ذات

ss

النعال الحديدية الثقيلة. تحت الأرض وجوه رمادية، وراح بياض الأعين يتسع وقد انحنت الرقاب من سقف الحفرة، وأكتافهم لاشكل لها. رجال، رجال، أواه سواء المريض أو المعافى. وبكلام آخر: لاوجود لهم. هناك شيء ما يربى فيهم ويُقتل بالرغم عنهم. ومع ذلك كانوا رجالاً. ينسلون أطفالاً. ويمكن أن تحمل المرأة بابن منهم. فكرة، فكرة مرعبة. كانوا طيبين ولطفاء. ولكنهم كانوا أنصافاً. الرمادي فقط نصف كائن بشري. ومع ذلك كانوا «طيبين». ولكن حتى الطيبة كانت طيبة نصفهم. لنفرض أن النصف الميت فيهم قد نهض من الموت. ولكن لا. إن هذا أفظع من أن نفكر فيه. كانت كوني خائفة خوفاً مطلقاً من الجماهير الصناعية. بدوا لها سداً. حياة لاجمال فيها لابصيرة، فهم دائماً في الحفرة.

أطفال من هؤلاء. ياإلهي، ياإلهي.

ومع ذلك انحدر ميلورز من أب مثل هؤلاء. ليس تماماً. أربعون عاماً تجعل هناك فارقاً، فارقاً كبيراً في الرجولة. فالحديد والفحم يتغلغل عميقاً في أجساد الرجال ونفوسهم.

بشاعة متجسدة، ومع ذلك أحياء. مامصيرهم كلهم؟ ربما يختفون ثانية بعد انتهاء الفحم، ينتهون من الأرض كلها. لقد ظهروا بآلافهم من لامكان، عندما دعاهم الفحم. ربما كانوا حيوانات المنطقة، شكّلهم البخار الفحمي. مخلوقات من واقع آخر، كانوا عناصر يخدمون عنصر الفحم، مثلما كان عمال المعادن عناصر، يخدمون عنصر الحديد. رجال ولارجال، وإنما هم جوانب أنثوية، أنيمات من فحم وحديد وطين. إنهم حيوانات العناصر، الكربون، الحديد، السليكون: أنيمات عنصرية. ربما يملكون بعض الجمال غير الإنساني للمعادن، رونق الفحم، ثقل وزرقة ومقاومة الحديد، شفافية الزجاج. مخلوقات عناصرية، غريبة ومشوهة، من عالم المعادن. إنهم ينتمون للفحم والحديد والطين كما ينتمي السمك

ss

للبحر، وكما تنتمي الديدان للأخشاب اليابسة. إنهم أنيما «anima» التفتت المعدني.

سُرَّت كوني لعودتها إلى البيت، لتدفن رأسها في الرمل. كانت مسرورة حتى في الثرثرة لكليفورد. لأن خوفها من التعدين وحديد ميدلاندز أدخل فيها شعوراً غريباً استولى عليها برمتها مثل الانفلونزا.

قالت «من الطبيعي أن يكون معي شاي من مخزن المس بنتلي».

«طبعاً، لابد أن ونتر أعطاك شاياً».

«أوه، بلى، لكن لم أجرؤ أن أخيب المس بنتلي».

كانت المس بنتلي خادمة عجوز شاحبة بأنف ضخم وتصرّف رومانتيكي، تقوم بتحضير الشاي بكثافة دقيقة يستحق أن يقدم في العشاء السري.

سأل كليفورد «هل سألتْ عني؟».

«طبعاً قالت هل لي أن أسأل حضرتك كيف السير كليفورد ـ أعتقد أنها تصنفك أعلى حتى من أديث كافيل الممرضة التي هرّبت المعتقلين من سجون الألمان».

«وأزعم أنك قلت بأنني أتحسن».

«بلى. وقد نظرت إلي بغبطة كأني قلت إن السموات انفتحت لك. وقلت إنها إن جاءت إلى تيفرشال فلتعرج وتراك».

«أنا، ومن أجل أي شيء تراني».

«بلى. لن تكون معبوداً هكذا من دون القيام ببعض التنازل البسيط. ففي رأيها أن قديس كبادوقيا جورج ليس شيئاً أمامك في نظرها».

«هل تظنين أنها ستأتي؟».

«أوه، خجلت وبدت جميلة للحظة، هذه المسكينة، لماذا لايتزوج الرجال النساء اللواتي يعبدونهن فعلاً؟».

«النساء يعبدن متأخرات جداً. ـ ولكن هل قالت ستأتي؟».

قلدت كوني المس بنتلي المبهورة الأنفاس وقالت «أوه، حضرتك، إن كنت أجرؤ، أن أزعم ـ».

«تجرؤ أن تزعم: يالها من سخيفة. ولكن آمل من الله ألا تأتي ـ وكيف وجدت شايها؟».

«إنها شاي لبتون. قوية جداً. ولكن ياكليفورد ألا تتأكد بأنك «حكاية الوردة» عند المس بنتلي وأمثالها كثيرون؟».

«أنا لاأتملق، حتى لو كان كما تقولين».

«إنهم يحتفظون بكل صورة من صورك المنشورة في الصحف المصورة ـ ويصلّون لك كل ليلة. إنه مدهش».

صعدت الدرج لتبدل ثيابها.

في ذلك المساء قال لها:

«أنت تعتقدين، ألا تعتقدين أن هناك شيئاً ما أبدياً في الزواج؟».

نظرت إليه.

«لكن ياكليفورد أنت تجعل الصوت الأبدي غطاءً ـ أو سلسلة طويلة تتقاطر الحلقة بعد الأخرى، مهما كانت الحلقة بعيدة».

نظر إليها منزعجاً.

قال «ماأعنيه هو أنك إن ذهبت إلى البندقية، فإنك لن تضعي في آمالك بعض شؤون الحب التي تأخذينها على محمل الجد، أليس كذلك؟».

«شؤون حب على محمل الجد في البندقية؟ لا، أؤكد لك. لا لن آخذ الحب في البندقية إلا بأقل مايمكن من الجدية».

تكلمت بطريقة غريبة من الاحتقار. لقد زوى حاجبيه وهو ينظر إليها.

ss

نزلت كوني في الصباح، فوجدت كلبة الحارس تجلس في الممر خارج غرفة كليفورد تهر هراً ضعيفاً.

قالت برقة «فلوسي، ماذا تفعلين هنا؟».

وفتحت باب كليفورد بهدوء. كان كليفورد يجلس في السرير، مع طاولة السرير وآلة كاتبة متنحية جانباً، وكان الحارس يقف منتبهاً عند قدم السرير. فدخلت فلوسي. وبإشارة بسيطة من الرأس والعينين أمرها ميلورز أن ترجع إلى الباب فانصاعت وخرجت.

قالت «صباح الخير. ماكنت أعتقد أنك مشغول» ثم التفتت إلى الحارس قائلة له صباح الخير. تمتم بجوابه ناظراً إليها كما لو أنه لايعرفها. لكنها شعرت بنفحة من العاطفة تلفحها، من حضوره فقط.

«هل قاطعتك ياكليفورد؟ أنا آسفة».

«لا. إنه شيء لاأهمية له».

انسحبت من الغرفة ثانية، وصعدت إلى حجرتها الخاصة في الطابق الأول. جلست في الشباك ورأته ينزل في الدرب بحركته الصامتة الحذرة. إن فيه نوعاً طبيعياً من التمايز الهادئ، وهو كبرياء العزلة، وله أيضاً مظهر ما من الهشاشة. مستأجر. أحد مستأجري كليفورد. «الخطأ ياعزيزي بروتس ليس في نجومنا، بل في نفوسنا وهذا مانخضع له».

هل كان خاضعاً؟ هل؟ ماذا يفكر بها؟

كان يوماً مشمساً، وكانت كوني تعمل في الحديقة، والسيدة بولتون تساعدها. لسبب ما انجرفت المرأتان معاً، في واحدة من الدفقات والانحسارات التعاطفية التي توجد بين الناس. كانتا تخفضان القرنفل، وتغرسان نباتات صغيرة للصيف. وهو عمل تحبه الاثنتان. شعرت كوني بشكل خاص بالبهجة في وضع جذور النباتات الصغيرة في بركة صغيرة موحلة وهي تغرزها. شعرت في

هذا الصباح الربيعي برجفة في رحمها أيضاً كما لو أن أشعة الشمس لمسته فجعلته سعيداً.

قالت للسيدة بولتون وهي تأخذ نبتة صغيرة أخرى وتضعها في الثقب «هل فقدت زوجك منذ سنوات طويلة؟»

«منذ اثنتين وعشرين» قالت السيدة بولتون وهي تفصل بعناية الجلنسرينات الصغيرة في نباتات موحدة. «اثنتان وعشرون سنة منذ أن جلبوه إلى البيت».

سألت «لماذا مات قتلاً، أتذكرين؟ كان سعيداً معك».

كان سؤال امرأة لامرأة. ردت السيدة بولتون خصلة شعر من وجهها بقفا يدها.

«لاأعرف ياسيدتي. إنه من النوع الذي لايستسلم للأشياء: هو في الحقيقة لايسير مع البقية. ثم كره أن يحني رأسه، لأي شيء في الأرض. كان من النوع العنيد، فعرّض نفسه للقتل. ترين أنه لم يكن مهتماً. أنا استسلمت لنزوله الحفرة. وكان يجب ألا ينزل في الحفرة. ولكن أباه جعله ينزل لأنه كان شاباً، ثم إنك عندما تكونين فوق العشرين لايكون من السهل عليك الخروج للعيان».

«هل قال إنه يكره الحفرة؟».

«أوه لا، أبداً. لم يقل إنه يكره أي شيء، كان ذا وجه سافر. كان واحداً من أولئك الذين لايأبهون: مثل الشبان الأوائل الذين يخرجون فرحين إلى الحرب ويُقتلون بعيداً. لم يكن مشوش العقل. لكنه لم يكن يبالي. اعتدت أن أقول له: أنت لاتهتم بشيء ولابشخص ـ ولكنه في الحقيقة يبالي. عرفت ذلك من طريقة جلوسه عندما ولد طفلي الأول، بلا حراك، ومن النوع المتشائم لعينيه اللتين نظر بهما إلي عندما استتبت أمور الولادة. مررت بزمن عسير ـ ولكني كنت أريحه. قلت له «لابأس لابأس أيها الشاب». فرماني بنظرة وبذلك النوع الساخر من الابتسام. لم يقل أي شيء. ولكني لاأعتقد أنه استمتع معي حقاً في الليالي التي تلت ذلك ـ كان في الحقيقة يمنع نفسه من الذهاب.

ss

اعتدت أن أقول له: اذهب أيها الفتى ـ كنت أحادثه بالعامية أحياناً. ـ لكنه لم يقل شيئاً. لم يدع نفسه يذهب ـ أو أنه لايستطيع. فهو لايريد أي مزيد من الأطفال. دائماً كنت ألوم أمه، لتركها إياه في الغرفة. لايحق له أن يظل هناك. إن الرجال يقومون بأشياء أكثر مما يجب، حالما يشبون عن الطوق».

قالت كوني مندهشة «هل يهتم بذلك كثيراً؟».

«بلى ـ هو من النوع الذي لايمارسه طبيعياً ـ كل ذلك الألم. وقد أنفق متعته في حبه الزوجي. قلت له: إذا كنت لاأهتم فلماذا تهتم أنت؟ إنه شكلي الخارجي. لكن كل ماقاله هو: ليس صحيحاً».

قالت كوني «ربما كان حساساً جداً».

«فعلاً. عندما تريدين معرفة الرجال، فهم هكذا: حساسون جداً، في الموقف الخطأ. وأعتقد أنه كره الحفرة من دون أن يشير إلى ذلك: كرهها تماماً. بدا هادئاً عندما كان ميتاً، كما لو كان حراً. بدا شاباً جميل المنظر. وهذا ما حطم قلبي في أن أراه بمنظر جامد صاف، كما لو أنه أراد أن يموت. حطم قلبي، أوه، حطمه. لكنها الحفرة ـ».

بكت قليلاً بدموع مريرة، وبكت كوني كثيراً. كان يوماً ربيعياً دافئاً، مع عطر يفوح من الأرض والأزهار الصفراء، وأشياء كثيرة تتبرعم، وكانت الحديقة النسغ الحقيقي لأشعة الشمس.

قالت كوني «كان ذلك فظيعاً عليك».

«أوه ياسيدتي، لم أتأكد أول الأمر. أستطيع فقط أن أقول: آه يافتاي ما الشيء الذي أردته حتى تتركني من أجله ـ ذلك كان نواحي ـ ولكني إلى حد ما شعرت أنه سوف يعود ـ».

قالت كوني «ولكنه لم يكن يريد أن يتركك».

«لايا سيدتي. ذلك كان مجرد نواحي البليد. فقد بقيت أنتظر عودته. وعلى الأخص في الليالي. أبقى مستيقظة أفكر: لماذا هو

ليس معي في السرير ـ كما لو أن مشاعري لم تصدّق أنه ذهب. شعرت تماماً أنه يجب أن يعود ويستلقي قبالتي، بحيث أستطيع أن أشعر أنه معي. ذلك كل ماأريد، أن أشعر به هناك معي دافئاً. وقد تعرضت لألف صدمة قبل أن أعرف أنه لن يعود ـ لقد تعرضت للصدمات سنوات».

قالت كوني «هذا تأثير منه».

«هكذا في الواقع ياسيدتي. تأثير منه. ولم أخلص منه حتى هذه الأيام، ولن أخلص منه. فإن كانت توجد فوقنا سماء، فلابد أن يكون بقربي، وسوف يستلقي قبالتي فأستطيع أن أنام».

حدقت كوني في الوجه الأنيق المكتنز بخوف. هذه امرأة عاطفية أخرى، من خارج تيفرشال. تأثير منه. فروابط الحب المريضة تنحل.

قالت «شيء مرعب أن يكون في دمك رجل».

«آه ياسيدتي، ذلك مايجعلك تشعرين بالمرارة. تشعرين أن الناس أرادوه أن يُقتل. تشعرين كأن الحفرة أرادت أن تقتله. آه شعرتُ أنه إن لم يمت في الحفرة فإنهم لن يتركوني. بل إنهم جميعاً يريدون فصل الرجل عن المرأة، إن كانا معاً».

قالت كوني «إذا كانا معاً جسدياً».

«صحيح ياسيدتي. هناك الكثير من الناس الغلاظ القلوب في العالم. وفي كل يوم ينهض ويذهب إلى الحفرة، كنت أشعر أن ذلك خطأ، خطأ. ولكن ماذا يستطيع أن يفعل غير ذلك؟ ماذا يستطيع الإنسان أن يفعل؟».

وبدت تحديقة كراهية من المرأة.

سألتها كوني فجأة «ولكن أيمكن أن يستمر التأثير كل هذه المدة؟ بحيث تشعرين به طويلاً هكذا».

«آه ياسيدتي. وأي شيء آخر يستمر؟ الأطفال يكبرون بعيداً

ss

عنك. ولكن الرجل ـ لابأس. ولكن حتى هذا يريدون قتله فيك، قتل فكرة تأثيره. حتى هذا. حتى أطفالك. آه لابأس. قد ننفصل من يعرف. لكن الشعور شيء مختلف. ـ الأفضل ألا نهتم به ـ ولكن هناك، عندما أنظر إلى النساء اللواتي لم يشعرن بالدفء من خلال الرجل ـ لابأس، إنهن يظهرن لي مثل الأشباح، ولاقيمة لِما يلبسن ولِما يتسكعن. لا. إني أركن لِما يخصني. أنا لاأكنّ احتراماً كبيراً للناس ـ».

ss

الفصل الثاني عشر

ذهبت كوني إلى الغابة بعد الغداء مباشرة. كان حقاً يوماً جميلاً، فالهندباء البرية الأولى تصنع أقراصاً، وصارت أزهار الربيع الأولى بيضاء. وأجمة البندق كانت نصف مفتحة الأوراق، وتصنع آخر العسائل العمودية المغبرة. البقلة متكاثفة ومتسعة، وانضغطت إلى الخلف مكرَهة، وتألقت الصفراء منها من تلقاء نفسها. إنه اللون الأصفر، الأصفر القوي المنتصر للصيف المبكر. وامتد ورد الربيع وامتلأ بالهجران الشاحب، والعناقيد الكثيفة لزهر الربيع لم تعد خجولة. وكان الأخضر الداكن للهايسنت بحراً، ببراعم تشمخ مثل القمح الشاحب، بينما في الدرب كانت تزغب أزهار «لاتنسني»(*) وكانت ورود زهر الحمام تنشر كشاكشها الأرجوانية، وكان هناك الكثير من قشور بيض الطيور تحت العليقة. في كل مكان كانت البراعم تتفتح والحياة تقفز.

لم يكن الحارس في الكوخ. كل شيء كان هادئاً والفراخ البنية تركض فرحة. سارت كوني باتجاه الكوخ، لأنها أرادت أن تراه.

انتصب الكوخ في الشمس، بعيداً عن طرف الغابة. وفي الحديقة الصغيرة راحت النراجس الكبيرة ترتفع بعناقيدها قرب الباب

(*) forget - me - nots

العريض المفتوح، وقد شكلت أزهار الربيع الكبيرة حداً للممر. كان هناك نباح كلب، وظهرت فلوسي في العتبة.

الباب العريض المفتوح! إذن هو في البيت. ونور الشمس يسقط على سقف القرميد الأحمر. حالما صعدت في الممر رأته من خلال النافذة، جالساً إلى طاولة بقميصه القصير الأكمام يأكل. هرت الكلبة بلطف، وبلطف هزت ذيلها.

نهض وجاء إلى الباب ماسحاً فمه بمنشفة حمراء، وهو مايزال يمضغ الطعام.

قالت «هل لي أن أدخل؟».

«ادخلي».

أضاءت الشمس الغرفة العارية، التي ماتزال فيها رائحة شرائح لحم خروف مصنوعة في فرن هولندي أمام النار - لأن الفرن الهولندي مايزال قائماً على الحاجز، مع مقلاة البطاطا السوداء على قطعة من ورق إلى جانبه على الموقد الأبيض. كانت النار حمراء، ومنخفضة، وقد سقط الرتاج، وراحت غلاية الشاي تغني.

على الطاولة كان صحنه، مع البطاطا وبقايا من قطع اللحم: وكذلك خبز في السلة، وملح، وكوز أزرق ملأته البيرة. وكان غطاء الطاولة زيتياً. وقف في الظل.

قالت «متأخر جداً في غدائك. تابع».

جلست على الكرسي الخشبي تحت أشعة الشمس قرب الباب.

قال وهو يجلس إلى الطاولة ولكنه لم يأكل «اضطررت للذهاب إلى يوثوايت».

قالت «كُلْ».

لكنه لم يلمس الطعام.

سألها «هل عندك شيء؟ أتأخذين كوباً من الشاي؟ - فالغلاية

ss

على وشك أن تغلي» ـ نهض ثانية نصف نهضة من كرسيه.

قالت ناهضة «إن كنت تسمح لي أن أصنعها بنفسي».

بدا حزيناً، وشعرت أنها تزعجه.

«لابأس وعاء الشاي هناك ـ» وأشار إلى خزانة زاوية صغيرة ـ «الأكواب والشاي تحت الغطاء فوق رأسك».

جاءت بوعاء الشاي الأسود، وعلبة الشاي من الرف. فغسلت وعاء الشاي بالماء الحار، ووقفت لحظة محتارة أين تسكبه.

«اسكبيه خارجاً» قال ذلك وحذرها «إنه نظيف».

ذهبت إلى الباب وسكبت نقاط الماء على الممر. كم كان المنظر جميلاً هنا، إنها ماتزال منطقة غابة حقيقية. وكانت السنديانات تُخرج أوراقها الصفراء المحمرة، وفي الحديقة كانت أزهار الربيع الحمراء مثل أزرار لماعة حمراء. نظرت إلى فجوة حجارة الرمل الجوفاء للعتبة، الآن تمر بها أقدام قليلة.

قالت «لكن المكان هنا جميل. سكينة جميلة. كل شيء حي وهادئ».

عاد إلى الطعام يأكل ثانية، ولكن ببطء وبلا رغبة، وقد شعرت أنه غير متشجع. صنعت الشاي بصمت، ووضعت الشاي على الحاجب، فهي تعرف أن الناس يفعلون هكذا. دفع صحنه جانباً ورجع إلى المكان الخلفي. سمعت قرقعة، ثم عاد مع الجبنة في الصحن، والزبدة.

وضعت كوبين على الطاولة: لم يكن سوى كوبين.

قالت «أتريد كوباً من الشاي؟».

«إذا تفضلت. السكر في الخزانة ـ وهناك إبريق للقشدة. والحليب في إبريق في حجرة المؤونة».

سألته «هل أبعد صحنك؟».

ss

نظر إليها بضحكة ساخرة ضعيفة.

«إذا شئت» قال، وببطء أكل الخبز والجبنة.

تراجعت إلى الخلف، إلى حجرة غسل الأطباق حيث كانت توجد مضخة. على اليسار كان هناك باب، لاشك أنه باب حجرة الغسيل. فتحته وضحكت تقريباً من المكان الذي سماه حجرة غسل الأطباق: منحدر طويل ضيق من خزانة. ولكنه منظم ليوضع فيه برميل صغير من البيرة، وكذلك بضعة صحون وكميات من الطعام. أخذت قليلاً من الحليب من إبريق أصفر.

سألته عندما عادت إلى الطاولة «من أين تحصل على حليبك؟».

«من آل فلينت، يتركون لي زجاجة في نهاية أرض المطردة. وأنت تعرفين ذلك إذ قابلتك هناك».

لكنه لم يتشجع في متابعة الحديث.

سكبت الشاي، وأجلست إبريق القشدة.

قال «لاأريد حليباً».

ثم بدا أنه يسمع ضجة، فنظر بحذر من خلال العتبة.

قال «الباب مفتوح ومن الأفضل إغلاقه».

أجابت «يبدو شيئاً تافهاً، فلا أحد سوف يأتي، أليس كذلك؟».

«لاأريد ولاحتى واحداً بالألف. وأنت لاتعرفين متى».

قالت «وحتى لو حصل الواحد بالألف، لايهم إنه مجرد كوب من الشاي. أين الملاعق؟».

خطا وسحب درج الطاولة. جلست كوني على الطاولة في أشعة شمس العتبة.

قال للكلبة التي كانت مستلقية على حصيرة صغيرة في أول الدرج «فلوسي. اذهبي وراقبي».

ss

رفع إصبعه فكانت «المراقبة» قوية جداً، وراحت الكلبة تعدو للاستكشاف.

سألته «هل أنت حزين اليوم؟».

أدار عينيه الزرقاوين بسرعة وحدق فيها مباشرة.

«حزين. لا. منزعج. علي أن ألبي دعوتين قضائيتين ضد اثنين من المنتهكين أمسكت بهما - و - أوه حسناً، أنا لاأحب الناس -».

تحدث ببرودة وبانكليزية سليمة، فلم يكن في صوته غضب.

سألت «هل تكره أن تكون حارس طرائد؟».

«حارس طرائد؟ لا - مادمت متروكاً وحيداً. ولكن عندما يكون عليّ الذهاب في فوضى إلى نقطة البوليس والأماكن الأخرى، وأنتظر الحمقى حتى يستدعوني - أوه - أصبح مجنوناً». وابتسمَ بمرح خفيف.

قالت «ألا تستطيع أن تكون مستقلاً فعلاً؟».

«أنا؟ أعتقد أنني أستطيع، إن كنت تقصدين تدبير عيشي من مرتبي التقاعدي. أستطيع، ولكن يجب أن أنخرط في العمل، وإلا فسأموت، أي يجب أن أملك شيئاً مايبقيني منشغلاً. وأنا لست في وضع جيد حتى أعمل لنفسي. إنه نوع من العمل لشخص آخر، وإلا فسأترك العمل في شهر إذا ساء مزاجي. على أي حال أنا مبسوط هنا - وعلى الأخص مؤخراً -» وضحك منها مرة أخرى، بمرح ساخر.

قالت «ولماذا يسيء مزاجك؟ هل تعني أنك في مزاج سيء دائماً؟».

قال ضاحكاً «لابأس، أنا لاأستطيع أن أهضم الصفراء».

سألت «ولكن ماهي الصفراء؟».

قالت «الصفراء؟ ألا تعرفين ماهي؟»

صمتت وأُحبطت. لكنه لم يلحظها.

قالت «أنا راحلة لفترة في الشهر القادم».

«أنت؟ أين؟».

«البندقية».

«البندقية مع السير كليفورد؟ كم المدة؟».

أجابت «لشهر أو زهاء ذلك. كليفورد لن يذهب».

سأل «سيظل هنا؟».

«بلى، يخجل أن يسافر، وهو في هذه الحالة».

قال بعطف «آه، ياللشيطان المسكين».

كان هناك فترة صمت.

سألت «لن تنساني عندما أسافر، أليس كذلك؟».

أدار عينيه ونظر إليها نظرة كاملة.

قال «أنسى، أنت تعرفين أنه لاأحد ينسى. إنها ليست مسألة ذاكرة».

أرادت أن تقول «إذن ماذا؟» لكنها لم تستطع. بدلاً من ذلك قالت بصوت حنون خافت:

«أخبرت كليفورد بأنني قد أحمل بطفل».

الآن نظرَ فعلاً إليها، بكثافة واستطلاع.

قال أخيراً «قلت له. وماذا قال؟».

«أوه، قال إنه لايأبه. سيكون مسروراً فعلاً، طالما أن الطفل يكون له» لم تجرؤ أن تنظر إليه.

كان صامتاً لوقت طويل. عندئذٍ حدق ثانية في وجهها.

قال «طبعاً لاإشارة إلي؟».

قالت «لا، لاإشارة إليك».

ss

«لا، لن يبتلعني كمُنسِل بديل. ـ ثم متى تعتقدين أنك ستنجبين الطفل؟».

قالت «قد أتعرض لمسألة حب في البندقية».

أجاب ببطء «قد. إذن لماذا تذهبين؟».

«لا ليكون لي مسألة حب» قالت ونظرت إليه راجية.

قال «من أجل المظهر فقط».

كان هناك صمت. جلس محدقاً خارج النافذة بقليل من التكشيرة ونصف سخرية ونصف مرارة في وجهه. كرهت تكشيرته.

«أنتِ لم تتخذي ترتيبات لمجيء الطفل إذن؟» سألها فجأة «لأنه ليس لدي ترتيبات».

قالت كوني بضعف «لا. أكره ذلك».

نظر إليها عندئذٍ ثانية، بتكشيرة خاصة، خارج الشباك، فكان هناك صمت متوتر.

أخيراً التفت إليها وقال ساخراً:

«هذا هو إذن السبب في أنك تريدنني، أليس كذلك؟ لتنجبي طفلاً؟».

رفعت رأسها.

قالت «لا، ليس صحيحاً».

سألها بقسوة «ماالصحيح إذن؟».

نظرت إليه راجية.

قالت ببطء «لا أعلم».

انفجر ضاحكاً.

قال «إذن اللعنة علي إن فعلت».

رانت فترة طويلة من الصمت، والصمت البارد.

ss

أخيراً قال «لابأس. كما تريد حضرتك. إذا صار لك طفل، فسوف يرحب به كليفورد. أنا لم أفقد شيئاً، على العكس. اكتسبت خبرة جميلة جداً: جميلة جداً بالفعل» ومد ذراعيه في تثاؤب نصف مضغوط. قال «إذا كنتِ استخدمتني، فإنها ليست المرة الأولى التي استُخدمت فيها: ولاأفترض أنها كانت ممتعة مثل هذه المرة: إذن لايستطيع المرء أن يشعر بالكبرياء تجاهها». مد ذراعيه، مرة ثانية، وتثاءب فارتجفت عضلاته، وأطبق فمه بطريقة غريبة.

قالت متضرعة «ولكني لم أستخدمك».

أجاب «في خدمة حضرتك».

قالت «لا، أحببت جسدك».

أجاب «حقا؟» وضحك «إذن تساوينا، لأنني أحببتك».

نظر إليها بعينين داكنتين غريبتين.

سأل بنوع من الصوت المشنوق «هل تحبين أن تصعدي الدرج الآن؟».

قالت بجد «لا، ليس الآن، ليس هنا». ومع ذلك فلو أنه استخدم أي سلطة عليها، لسارت أمامه، فلا قوة لها تقف في وجهه.

أشاح بوجهه ثانية، وبدا أنه يتناساها.

قالت «أريد أن ألمسك مثلما لمستني. أنا لم ألمس فعلاً جسدك».

نظر إليها وكشر ثانية.

قال «الآن؟».

«لا، لا، لا ليس هنا، في الكوخ، هل عندك مانع؟».

«متى تلمسينني؟».

«عندما تشعر بي».

نظر إليها، وقابل عينيها القلقتين.

ss

سأل ضاحكاً من جمودها «وتحبين ذلك عندما أشعر بك؟».

قالت «بلى أليس كذلك؟».

غيّر عندئذٍ لهجة حديثه «أوه. أنا. بلى. تعرفين من دون أن تسألي».

وكان ذلك صحيحاً.

نهضت والتقطت قبعتها.

قالت «يجب أن أذهب».

أجابها بلطف «أتذهبين؟».

أرادته أن يلمسها، أن يقول لها شيئاً ما، لكنه لم يقل شيئاً. انتظر بلطف فقط.

قالت «أشكرك على الشاي».

قال «لم أشكر حضرتك لتشريفي بتهيئة وعاء الشاي».

انحدرت في الممر، فوقف على العتبة يكشر تكشيرة ضعيفة. عادت فلوسي راكضةً، رافعةً ذيلها. راحت كوني تتوغل في الغابة صامتة، وهي تعرف أنه كان ينظر إليها بتكشيرة وجهه التي لم تدرك كنهها.

عادت إلى البيت محطمة ومضطربة. ما أحبّت قوله إنها استخدمته: لأن ذلك كان صحيحاً بمعنى ما. ولكنه اضطر أن يقول ذلك. لذا كانت منقسمة بين شعورين: الامتعاض منه، والرغبة في الممارسة معه.

أمضت فترة الشاي منزعجة قلقة، فصعدت فوراً إلى غرفتها. وعندما كانت هناك، لم تكن في حالة جيدة. لم تكن تستطيع الجلوس ولا الوقوف. يجب أن تقوم بعمل ما، عليها أن تعود إلى الكوخ. إن لم يكن هناك فذلك حسن وجيد.

انسلت من الباب الجانبي، واتخذت طريقها مباشرة مع قليل من

SS

التجهم. عندما وصلت إلى الأرض المقطوعة الأشجار كانت قلقة قلقاً مرعباً. لكنه كان هناك بقميصه القصير الأكمام ينحني قليلاً على الدجاجات خارج القنان، بين الفراخ التي كبرت مع قليل من الرعونة، ولكنها كانت مزركشة أكثر من فراخ الدجاج.

ذهبت إليه مباشرة.

قالت «هاأنت ترى أنني عدت».

«أعرف» قال ذلك وقد عدّل من ظهره ونظر إليها بقليل من الفرح.

سألته «هل تترك الدجاجات في الخارج الآن؟».

قال «بلى ـ إنها تدرب أجسادها بحرية. فالآن لاتقلق بأن تخرج لتناول الغداء. فلا خير في الدجاجة القَعود: إنها كلها في البَيض والفراخ».

الأمهات البائسات: إنها تكرس أنفسها تكريساً أعمى، فحتى البَيض ليس لها. نظرت كوني إليها بتعاطف. وهبط صمت يائس بين الرجل والمرأة.

سأل «هل ندخل الكوخ؟»

سألت وقد رمقته بنوع من عدم الثقة «أتريدني؟»

«بلى إن رغبت أن تدخلي».

قالت «أدخل إذن».

وذهبت معه إلى الكوخ. حل ظلام كامل عندما أغلق الباب، لذلك جعل المصباح يشع ضوءاً شحيحاً، كما من قبل.

سألها «هل خلعت ثيابك التحتانية؟».

«بلى».

«لابأس سأخلع ثيابي بدوري».

مدّ البطانيات، واضعاً إحداها جانباً كغطاء. نزعت قبعتها وأسبلت شعرها. وجلس هو أرضاً يخلع حذاءه وجرموقه، وراح يحل الخيوط السميكة.

«استلقي إذن» قال ذلك عندما وقف بقميصه. أطاعته بصمت، واستلقى إلى جانبها وغطاها معه بالبطانية.

قال «حتى هنا».

فشمرت ثوبها إلى الخلف، إلى أن وصل حتى صدرها، قبل ثدييها بنعومة، ودغدغ الحلمتين بشفتيه بكل اهتمام.

قال «أوه أنتِ جميلة، جميلة جداً، وفجأة هبط بحركة تماس إلى بطنها الدافئ.

وضعت ذراعيها حوله، تحت قميصه. لكنها كانت خائفة، خائفة من جسده العاري النحيل، الذي بدا قوياً، خائفة من العضلات العنيفة. انكمشت خوفاً.

وعندما قال مع تنهيدة صغيرة «أوه، أنت جميلة» ارتجف شيء فيها، وشيء في روحها قاوم بعناد: العناد تجاه الحميمية الجسدية المرعبة، ومن السرعة الخاصة لامتلاكه. لكن الغبطة الحادة لعاطفتها في هذه المرة لم تتغلب عليها، فاستلقت بيديها على جسده الذي يعمل بكفاح، وفعلت كل مااستطاعت، وبدا لها أن روحها برزت من قمة رأسها، وبدت هضبتا وركيه مضحكتين لها، ونوع قلق قضيبه في أزمة تفريغه الصغيرة بدا لها أشبه بمسرحية ساخرة. نعم، هذا هو الحب، هذا التأرجح لوركيه، وارتخاء قضيبه الصغير الرطب التافه المسكين. هذا هو الحب المقدس. ثم إن المحدثين كانوا على حق في شعورهم بالاحتقار تجاه تنفيذه: لإنه كان عملية تنفيذ. إنه لصحيح تماماً، كما قال بعض الشعراء، بأنه كان عند الله الذي خلق الإنسان شعور شرير بالفكاهة، إذ خلقه كائناً عقلانياً، ومع ذلك أجبره أن يتخذ هذا الوضع المضحك، ودفعه برغبة عمياء

SS

لهذا التنفيذ الوضيع. فحتى غي دي موباسان رآه ذروة عكسية وضيعة. فالرجال يحتقرون عملية الإيلاج، ومع ذلك يفعلونها.

تنحى جانباً عقلها الأنوثي البارد الساخر الغريب. ومع أنها استلقت ساكنة تماماً، فغريزتها كانت تريد سحب ردفيها وإلقاء الرجل خارجاً، والخلاص من تكشيرته البشعة وهذا الامتطاء لردفيه السخيفين عليها. كان جسده شيئاً أحمق عاجزاً ناقصاً، مثيراً للقرف بخراقته التي لاتنتهي. ولاشك أن التطور الكامل سوف يقضي على هذا التنفيذ، على هذه «الوظيفة».

ومع ذلك عندما انتهى استلقت بسرعة هامدة جداً متراجعة وداخلة في الصمت والابتعاد من دون حراك ابتعاداً غريباً، أبعد من أفق وعيها، وطفق قلبها يبكي. شعرت به يتراجع بعيداً، بعيداً، وقد تركها هناك مثل حجر على شاطئ. كان ينسحب، كانت روحه تتخلى عنها. وهو يعرف ذلك.

وفي عمق حزنها عَذَّبها وعيها الكبير وردة فعلها، فراحت تبكي. لم يلحظ ذلك: أو أنه لم يعرف بذلك أبداً. اجتاحتها عاصفة البكاء وهزتها: وهزته.

قال «آه. لم يكن وقتاً مناسباً. أنت لم تكوني معي».

إذن هو يعرف، صارت تنهداتها عنيفة.

قال «لكن أين الخطأ. كلها تحدث بلحظة على هذه الطريقة».

«لا. أنا لاأستطيع أن أحبك» تنهدت وشعرت فجأة أن قلبها يتحطم.

«لابأس، لاتقلقي. ليس هناك قانون يفرض عليك ذلك. فلا تبالي مهما كان».

ظل مستلقياً ويده على صدرها. لكنها سحبت كلتا يديها منه.

كانت كلماته قليلة الراحة لها. فراحت تنشج بصوت عالٍ.

«لا. لا» قال وتابع «عليك أن تقبلي الغث مع السمين. وهذا لن يحدث لك مرة واحدة فقط».

راحت تبكي بمرارة وتنشج:

«ولكني أردت أن أحبك ـ وأنا لاأستطيع. إن ذلك يبدو مرعباً».

ضحك قليلاً بنصف مرارة ونصف متعة.

قال «ليست العملية مرعبة حتى لو اعتقدت أنها كذلك. وأنت لاتستطيعين أن تجعليها مرعبة. فلاتزعجي نفسك بحبي. فأنت لاتقدرين على قسر نفسك على ذلك. لاشك أنها نواة رديئة تلقى في سلة المهملات. وعليك ألا تكوني فظة مع اللطافة».

أبعد يده عن صدرها، واستلقى هامداً، دون أن يلمسها. الآن لاشيء يمسها. شعرت بإشباع شاذ في العملية. كرهت لغته العامية: كرهت: ذاي ـ ذاو ـ ذيسن. بإمكانه أن ينهض لو رغب: ويقف هناك فوقها يزرر بنطاله السخيف، أمامها تماماً. ثم كان في ميكائيل من الحشمة ماجعله يقف بعيداً عنها. هذا الرجل واثق من نفسه، فهو لايرى أي مهرج يرى الآخرون فيه: صديقاً قليل التربية.

ومع ذلك حالما انسحب، لينهض بصمت ويتركها تمسكت به مرتعبة.

«لا، لاتذهب، لاتدعني، لاتزعل مني. ضمَّني، ضمَّني بقوة». همست بجنون أعمى، حتى أنها لم تعرف ماذا تقول، وتمسكت به بقوة هوجاء. لقد أرادت الخلاص من نفسها، من غضبها العميق، من مقاومتها. ألا كم كانت قوية تلك المقاومة الداخلية التي تملكتها!

أخذها بين ذراعيه مرة أخرى وسحبها إليه، وفجأة صارت صغيرة بين ذراعيه، صغيرة وفرخة هزيلة. راحت، بلى راحت المقاومة وتلاشت، وصارت تنصهر في سلام مدهش. وإذ انصهرت صغيرة رائعة بين ذراعيه، صارت راغبة فيه رغبة لاحدود لها، فكل عروقها راحت تنبض برغبة حارقة ولكنها لطيفة، لها، لنعومتها،

ss

لجمالها الخارق بين ذراعيه، عابرة في دمه. وبتربيتة ناعمة ساحرة تشبه الغيبوبة من يده برغبة ناعمة، راح يخوض المنحدر الحريري لخاصرتيها أسفل أسفل بين ردفيها الناعمين الدافئين، مقترباً أكثر فأكثر من الشيء الأسرع فيها. فشعرت به مثل لهيب من الرغبة، لكنه لهيب ناعم، ومع ذلك لهيب لطيف، وشعرت أنها تنصهر في اللهيب. تركت نفسها تذهب. شعرت بقضيبه يقوم عليها بقوة صامتة مذهلة، وبثقة، فشعرت بنفسها تذهب إليه. استسلمت لرجفة تشبه الموت، فانكشفت بكاملها له. أوه، إن لم يكن لطيفاً معها الآن، فكم يكون ظالماً، لأنها كانت مفتوحة له، مستسلمة.

ارتجفت ثانية لدى الدخول القوي فيها، فكان شيئاً غريباً ومرعباً. قد يصاحبه اندفاع سيف في جسدها الناعم المفتوح، وسيكون هذا هو الموت. وغاصت في ألم مفاجئ من الرعب. لكنها انساقت مع هجمة بطيئة غريبة من السلام، هجمة غامضة من السلام ومضجرة، مع لطافة بدائية، مثل تلك التي صنعت العالم في البداية. وانزاح الرعب من صدرها، واستطاع صدرها أن ينجرف بالسلم، لم تتمسك بشيء. تركت كل شيء ينساب، تركت كل نفسها، وغاصت في الطوفان.

شعرت أنها مثل البحر، لاشيء سوى أمواج غامضة تشرئب وتنخبط، تنخبط بضخامة عظيمة، بحيث أن كل عتمتها كانت تتحرك ببطء، وكانت محيطاً يبسط عتمته، كتلته الصامتة. أوه، وبعيداً هناك في داخلها انفصلت الأعماق متناثرة، في أمواج طويلة مسافرة بعيداً، ولدى ارتجافها انفصلت الأعماق وانبسطت متناثرة، من مركز الغوص الناعم، حالما غاص الغطاس أعمق وأعمق، لامساً الأسفل، فكانت منكشفة أعمق وأعمق، وتدحرجت أثقل أمواجها بعيداً إلى أحد الشواطئ، كاشفة الغطاء عنها، فغاص أكثر فأكثر المحسوس المجهول، وأكثر فأكثر تدحرجت أمواج نفسها بعيداً عن نفسها، وتركتها، إلى أن فجأة وباضطراب خفيف، لامستها رجفة في كل

ss

جبلتها، فعرفت أنها تلقت الملامسة، فالاستحواذ كان فوقها، وراحت في غيبوبة. راحت، فلم تكن هي، بل وُلدت: ولدت كامرأة.

آه، جميل جداً، جداً. تحققت في الانحسار من كل الجمال. الآن يلتصق جسدها مع الحب اللطيف بالرجل المجهول، والتصقت بعماء بالقضيب الذابل، حالما انسحب بلطف مجهول، بعد طعنة وحشية من طاقته. وحالما انسحب وترك جسدها، حالما انسحب هذا الشيء السري الحساس، أصدرت صرخة غير واعية لضياعها الكامل، فحاولت أن تعيده ثانية. لقد تكاملت وهكذا أحبت القضيب.

الآن فقط صارت واعية للقضيب الصغير المتكتم واللطيف كالبرعم، وصرخة من العجب واللذعة أنقذتها ثانية، أنقذت قلب امرأتها الصارخ من الهشاشة اللطيفة لذلك الذي كان قوياً.

أنّت «كان جميلاً، كان جميلاً» لكن ميلورز لم يقل شيئاً، اكتفى بأن قبّلها بنعومة، مستلقياً هادئاً فوقها. وقد أنّت بنوع من البركة، كضحية، كشيء حديث الولادة.

الآن استيقظ في قلبها إعجاب شديد به. بالرجل، بالقوة الغريبة للرجولة فوقها. وضاعت يداها فوقه، وماتزال خائفة قليلاً. خائفة من ذلك الشيء المقرف المعادي الغريب الذي كان لها، الرجل. والآن لمسته فكان ذلك كزواج أبناء الآلهة من بنات الناس. كم شعرت شعوراً جميلاً، كم كان ناعماً في نسيجه. كم هو جميل، جميل قوي، ومع ذلك قوي وعذب، ذلك هو هدوء الجسد الحساس. هذا الهدوء المطلق للقوة والجسد العذب. كم هو جميل، كم هو جميل. وتراخت يداها بخوف إلى أسفل ظهره، إلى الرابيتين الصغيرتين لردفيه. جمال وأي جمال، شعلة صغيرة مفاجئة من وعي جديد تخللتها. هل هذا ممكن، هذا الجمال هنا، حيث كانت من قبل ترفضه؟ الجمال الصامت للمسة، للدفء، للردفين الحيين. الحياة داخل الحياة، الدفء الخالص، الحيوية القوية. والثقل الغريب للكرتين بين ساقيه.

ss

أي سر، أي ثقل غريب للسر، الذي يكمن ثقيلاً ناعماً في يد واحدة. الجذور، جذور كل ماهو جميل، الجذور الأولية لكل جمال كامل.

التصقت به بهسيس الدهشة التي كانت مخيفة ومرعبة. شدها أقرب إليه، لكنه لم يقل شيئاً. لن يقول شيئاً أبداً. زحفت أقرب إليه، أقرب، فقط لتكون أقرب من دهشته الحسية. وخارج الهدوء المطلق الذي لايستوعب شعرت أيضاً بالانتصاب البطيء الفوري الجائش للقضيب مرة ثانية، شعرت بالقوة الأخرى. وانصهر قلبها بنوع من الخوف.

كونه داخلها هذه المرة كان ناعماً وملوناً كقوس قزح، ملوناً كقوس قزح، بحيث لايمكن للاوعي أن ينتزعه. كل نفسها ارتجفت غير واعية وحية مثل جبلتها. لاتستطيع أن تعرف ماذا كان. لاتستطيع أن تذكر ماذا يكون. كان فقط أجمل من أي شيء. هذا فقط. وبعد ذلك كانت هادئة مطلقاً غير عارفة بأي شيء، ولاتعرف إلى أي مدى من الزمن. وكان هادئاً معها، في صمت لاغور له معها. وفي هذا لايمكنهما أبداً أن يتكلما.

عندما بدأ وعي الخارج يعود، التصقت بصدره، هامسة «ياحبي، ياحبي» فضمها بصمت وانحنت على صدره تماماً.

لكن صمته كان لايسبر. رفعتها يداه كما ترفع الأزهار، هدوء وغرابة. «أين أنت؟» همست له. «أين أنت؟ كلمني. قل لي شيئاً ما».

قبلها بنعومة، هامساً «هنا ياحبيبتي».

لكنها لم تعرف ماذا قصد، إنها لم تعرف أين كان. بدا في صمته ضائعاً عنها.

همهمت «أنت تحبني، أليس كذلك؟».

قال «أنت تعرفين».

رَجَتْه «ولكن أخبرني».

«إي، إي، ألا تشعرين بذلك؟» قال ذلك بغموض ولكن بنعومة

وثقة. فالتصقت به أكثر. كان أكثر سلاماً في الحب مما كانت، وأرادته أن يعيد التأكيد لها.

«أنت تحبني» همست مؤكدة. أمسكت يداه بنعومتها، كما لو أنها كانت زهرة، من دون رجفة رغبة، ولكن مع اقتراب عذب. وماتزال هناك تطاردها حاجة لاتستقر للقبض على الحب.

رجته «قل إنك دائماً تحبني».

«إي» قال على نحو تجريدي. فشعرت أن أسئلتها تبعده كثيراً عنها.

قال لها أخيراً «ألا يجب أن ننهض؟».

قالت «لا».

ولكنها استطاعت أن تشعر بوعيه يشرد، مصغية للضجيج في الخارج.

قال «خيم الليل تقريباً». فسمعت ضغط الظروف من صوته. قبّلته، بحزن امرأة استسلمت لقدرها.

نهض ورفع نور المصباح، ثم بدأ يرتدي ثيابه، وبسرعة اختفى فيها. ثم وقف هناك، فوقها، مزرراً بنطاله ناظراً إليها من علٍ بعينين قاتمتين واسعتين، وتوهج وجهه قليلاً وقد تجعّد شعره، فرأته هادئاً جميلاً في الضوء الكابي للمصباح، جميلاً إلى درجة أنها لاتستطيع أن تخبره كم هو جميل. وهذا ماجعلها تريد الالتصاق به سريعاً، أن تضمه، لأنه كان هناك دفء، ابتعاد ناعس، في جماله حدا بها لأن تصرخ وتتشبث به، أن تملكه. لن تملكه. وهكذا اضطجعت على البطانية بخاصرتين منثنيتين عاريتين، ولم تكن لديه فكرة بماذا كانت تفكر، لكنها كانت بالنسبة له شيئاً جميلاً ناعماً مدهشاً يمكن أن يدخل فيه، خلف كل الأشياء.

قال «أحبك بحيث يمكن أن أذهب معك».

قالت وقلبها يخفق «أتحبني؟».

ss

«حبك شفائي، بحيث يمكن أن أدخل فيك. أحبك لأنك انفتحت لي. أحبك لأنني أدخل فيك».

انحنى وقبل كشحها الناعم، ومرمغ خده فيه، ثم أزاح الغطاء عنه.

قالت «ولن تتركني أبداً؟».

قال «لاتسألي هذه الأسئلة».

قالت «ولكن أتصدق أنني أحبك؟»

«أحببتني الآن فقط، أكثر من أي وقت مضى أحببتني فيه. ولكن من يعرف ماذا يجري، حالما تبدئين تفكرين في ذلك».

«لا، لاتقل هذه الأشياء ـ وأنت لاتفكر أبداً أنني أردت استخدامك أليس كذلك؟».

«كيف؟».

«لأملك طفلاً؟».

«أي إنسان في العالم يمكنه الآن أن يملك طفلاً» قال ذلك وجلس أرضاً يربط غطاء ساقيه.

صرخت «لا. أنت لاتقصد ذلك».

قال «لابأس». ناظراً إليها من تحت حاجبيه «ليس هذا هو الأفضل».

استلقت هادئة. فتح الباب بهدوء. كانت السماء زرقاء داكنة، مع إطار كريستالي تركوازي. خرج يغلق أقفاص الدجاجات، متحدثاً بنعومة إلى كلبته. واستلقت هي مندهشة من دهشة الحياة، ومن وجودها.

عندما عاد كانت ماتزال مستلقية هناك، متوهجة مثل غجرية. جلس بقربها على الكرسي الذي لامسند له.

ss

«تستطعين أن تأتي إلى كوخك في أي ليلة، قب أري، أليس كذلك؟».

رددت مغتاظة «قب أري» (قبل أن تسافري).

ابتسم.

كرر «أليس كذلك؟».

قالت مقلدة صوت لهجته «إي».

فقال «يي».

فرددت «يي».

قال «وتنامين معي. أنا أريد ذلك. متى ستأتين؟».

قالت «متى يجب أن آتي؟».

قال «لا. أنت لاتستطيعين دائماً. متى تأتين إذن؟».

قالت «أح، إي».

«أح. إي».

قالت «إي».

ضحك من سرعتها.

اعترض «لا. لاتستطعين يوم الأحد».

فقالت «لم لا أ الأح؟».

ضحك. فمحاولتها تقليد لهجته كان مضحكاً.

قال «تع. إذ. يج أهبي» (تعالي إذن، يجب أن تذهبي)

قالت «ياج أ؟».

فصحّح لها «يج أ».

«لماذا أقول يج، مادمت أنت تقول يج» قالت ذلك معترضة «أنت لاتلعب لعباً صحيحاً».

قال منحنياً إلى الأمام وقبّل وجهها «إنك تملكين أعظم فرج، أليس كذلك؟ أعظم فرج في الأرض، فتعالي متى ترغبين».

قالت «وماهو الفرج؟».

«آه، ألا تعلمين؟ الفرج. إنه في الأسفل هناك. هو ما أحصل عليه عندما أدخل فيك ـ وماتحصلين عليه عندما أكون فيك ـ وذكوشي» (وهذا كل شيء).

اغتاظت «ذكوشي، الفرج. يشبه النكاح إذن».

«لا. النكاح هو ماتفعلين فقط. الحيوانات تقوم بالنكاح. لكن الفرج هو أكثر من ذلك. إنه أنت، انظري: أنت لاتشبهين الحيوان. أليس كذلك؟ ـ حتى نكاحك هو الفرج. وهذا هو الجميل فيك ياحبيبتي».

نهضت وقبّلته بين عينيه، فبدا لها دافئاً قاتماً ناعماً، بدا لها جميلاً جمالاً لايُحتمل.

قالت «أتهتم بي؟».

قبّلها من دون جواب.

قال «يجب أن تذهبي ـ دعيني أرافقك».

مرت يده فوق ثنايا جسدها، بثقة، من دون رغبة، ولكن بمعرفة ناعمة حميمية.

حالما عادت إلى البيت في الغسق، بدا العالم لها حلماً، كما بدت لها الأشجار في المتنزه متموجة متأرجحة فوق الممر، مربوطة بمرساة، وكان إيقاع المنحدر إلى المنزل حياً.

SS

الفصل الثالث عشر

أراد كليفورد أن يذهب إلى الغابة يوم الأحد. كان صباحاً جميلاً، فقد ظهرت براعم الإجاص والدراق فجأة في العالم، في بياض مدهش هنا وهناك.

كان من الظلم لدى كليفورد أن يضطر إلى المساعدة في الانتقال من الكرسي إلى كرسي الاستحمام، بينما العالم يزهر. لكنه نسي عجزه، بل يبدو أنه أفسد نفسه في عجزه. وماتزال كوني تتألم من رفع ساقيه العاجزتين إلى مكانهما في الكرسي. لكن السيدة بولتون أو فيلد يقومان برفعهما.

انتظرته عند قمة الدرب، على طرف حاجز أشجار الزان. جاء كرسيه متثاقلاً بنوع من أهمية السقيم. وإذا التقى بزوجته قال:

«السير كليفورد على مهره المزبد».

قالت ضاحكة «فليصهل على الأقل».

توقف ونظر مستعرضاً واجهة المنزل البنية الطويلة القديمة. قال «راغبي لايغمض له جفن. ولكن لماذا يغمض. إني أمتطي منجزات عقل الإنسان، وذلك يحفز الحصان».

قالت «فعلاً كما أظن. فالأرواح عند أفلاطون الصاعدة إلى السماء بعربة يجرها حصانان سوف تذهب الآن بسيارة فورد».

«أوه. بسيارة الرولزرايز. فأفلاطون كان أرستقراطياً».

«تماماً. فلم يبق ثمة حصان أسود يُساط وتُساء معاملته. لم يفكّر أفلاطون أبداً أننا سنكون أفضل من حصانه الأسود وحصانه الأبيض، ولانملك خيولاً أبداً، بل آلة».

قال كليفورد «آلة فقط ـ وغاز. آمل أن أنجز بعض الاصلاحات للمكان القديم في العام التالي. أعتقد أن علي توفير ألف لذلك: لكن العمل يكلف غالياً».

قالت كوني «جيد. إن لم يكن ثمة المزيد من الإضرابات».

«ومانفع استخدام الاضرابات مرة أخرى. إنها تدمر الصناعة ومابقي منها: وقد طفقت أفواج البوم ترى ذلك».

قالت كوني «ربما لاتهتم أفواج البوم بتدمير الصناعة».

«أوه. لاتتحدثي كامرأة، إن الصناعة تملأ بطونهم، حتى لو لم تحفظ جيوبهم منتفخة» قال ذلك مستخدماً الكلام الذي فيه الخنة الغريبة للسيدة بولتون.

سألت كوني بخبث «ولكن ألا تقول بعكس ماكنت تقول يومَ كنت فوضوياً ـ محافظاً؟».

فأجاب برد مماثل «وهل فهمت ماأعنيه؟ ماأعنيه؟ كل ماأعنيه هو أن الناس يمكن أن يكونوا كما يحبون ويشعرون بما يحبون وأن يفعلوا مايحبون، بشكل خاص دقيق، ماداموا يحافظون على شكل تواصل الحياة، على جهاز الحياة».

سارت كوني بصمت بضع خطوات. ثم قالت بعناد:

«إن هذا يشبه القول أن تصبح فاسدة كما تحب، مادامت تحتفظ بقشرتها سالمة. لكن البيض الفاسد لايكسر قشوره».

قال «لاأظن الناس كالبيض. لا ولاحتى بيض ملائكة، ياعزيزتي الإنجيلية».

ss

كثر الريش في هذا الصباح المشرق. وكانت القبرات تغرد فوق المتنزه، والحفرة البعيدة في الثقب كانت تنفث البخار الصامت. كان يوماً يشبه تقريباً الأيام القديمة، قبل الحرب. لم تكن كوني في الحقيقة تريد أن تجادل. ولكنها في الوقت نفسه لم تكن تريد أن تذهب مع كليفورد إلى الغابة. وهكذا سارت إلى جانب كرسيه بشيء من عناد الروح.

قال «لا. لن تكون هناك إضرابات أخرى إن رُتبت الأمور ترتيباً خاصاً».

«لم لا؟».

«لأن الإضرابات ستكون جيدة بقدر الإمكان».

سألت «ولكن هل يدعك الرجال؟».

«لن نسألهم. سنعمل دون أن يراقبوا: من أجل صالحهم، لإنقاذ الصناعة».

قالت «ولصالحك أيضاً».

«طبيعي، من أجل كل إنسان. ولكن من أجل صالحهم أكثر مما هو من أجل صالحي. أنا يمكنني أن أعيش من دون حُفر. هم لايستطيعون. سوف يموتون جوعاً إن لم تكن هناك حُفر. أنا أحصل على احتياط آخر».

تطلّعا إلى الوادي الضحل عند المنجم، وخلفه، إلى البيوت المغطاة بالسواد لتيفرشال زاحفة مثل حية تصعد الهضبة. وكانت الأجراس تقرع من الكنيسة البنية القديمة: الأحد، الأحد، الأحد.

قالت «ولكن هل يدعك الرجال تفرض إرادتك؟».

«ياعزيزتي، عليهم أن يفعلوا ذلك: إن قام المرء بعمله على نحو لطيف».

«ولكن ربما لايكون ثمة فهم متبادل؟».

«مطلقاً: عندما يتحققون أن الصناعة تأتي قبل الفرد».

«ولكن أيجب أن تملك الصناعة؟».

«لايجب. ولكن إلى حد ما أملك الصناعة، بلى، ولكن بأشد تصميماً. فحيازة الملكية تغدو الآن مسألة دينية: كما كانت أيام المسيح والقديس فرانسيس. المسألة ليست أن تمنح كل مامعك للفقراء، ولكن أن تستخدم كل مامعك لتشجيع الصناعة وتقدم العمل للفقير. إنها الطريقة الوحيدة لإطعام كل الأفواه، وإلباس كل الأجساد. فأن نتخلى عما نملك للفقراء يسبب الجوع للفقراء كما يسببه لنا. والجوع العالمي ليس مثلاً أعلى. حتى البؤس العام ليس شيئاً محبباً. البؤس بشع».

سألت «ولكن التفاوت؟».

«هذا قدر. لماذا النجم جوبتر أكبر من النجم نبتون؟ أنتِ لاتستطيعين تغيير الأشياء المصنوعة».

«ولكن عندما يبدأ هذا الحسد والغيرة والسخط ـ». هكذا بدأت حديثها.

«ابذلي كل مافي جهدك لوقفها. فلابد لشخص ما أن يكون سيد الموقف».

سألت «ولكن من هو سيّد الموقف؟».

«الرجال الذين يملكون ويسيّرون الصناعات».

حلت فترة طويلة من الصمت.

قالت «يبدو أنهم سيّد سيء».

«إذن اقترحي ماذا يجب أن يفعلوا».

قالت «إنهم لم يحملوا السيادة على نحو جدي».

قال «إنهم يحملونها بجدية أكثر مما تحملين لقب الليدي».

«لقب أُقحم علي إقحاماً. أنا لاأريده حقاً» زلقت بهذا الكلام. فأوقف كرسيه ونظر إليها.

ss

«من يتهرب من مسؤوليته الآن. ومن يريد أن يتخلص الآن من مسؤولية السيادة، كما تسميها؟»

اعترضت «ولكني لاأريد أية سيادة».

«آه، لكن هذا جبن. أنت حزت السيادة: قدرك أن تكون لك. ويجب أن تعيشي لها. من أعطى عمال المناجم كل مايجب أن يملكوه بجدارة: كل حريتهم السياسية، وثقافتهم وعقلانيتهم وظروفهم الصحية، وكتبهم، وموسيقاهم وكل شيء. من أعطى ذلك لهم؟ فهل عمال المناجم أعطوا ذلك لعمال المناجم؟ لا. كل آل راغبي وآل شبلي في انكلترا قدموا حصتهم، ويجب أن يستمروا في التقديم. إنها مسؤوليتك».

استمعت كوني له وقد احمرّت جداً.

قالت «أود أن أقدم شيئاً ما، ولكن لايتاح لي. كل شيء يباع ويُشرى الآن، وكل الأشياء التي أشرت إليها الآن، تبيعها راغبي وشبلي للناس، بربح وفير. كل شيء يباع. أنتم لاتقدمون نبضة واحدة من قلبكم فيها عاطفة. ثم من انتزع من الناس حياتهم الطبيعية ورجولتهم، وقدم لهم هذا الرعب الصناعي؟ من فعل ذلك؟».

سأل بحماقة «وماذا يجب أن أفعل؟ أأناشدهم أن يأتوا ويسلبوني؟».

«لماذا تيفرشال بشعة هكذا وشنيعة؟ لماذا حياتهم بائسة؟».

«إنهم يبنون تيفرشالهم ـ وذلك جزء من مظهر حريتهم. إنهم بأنفسهم يبنون تيفرشالهم الجميلة، ويعيشون حياتهم الخاصة الجميلة. أنا لاأستطيع أن أعيش حياتهم من أجلهم. كل خنفساء تعيش حياتها الخاصة».

«ولكنك جعلتهم يعملون من أجلك. إنهم يعيشون حياة منجم فحمك».

ss

«لا أبداً، كل خنفساء تجد طعامها الخاص. لاأحد مكره أن يعمل لي».

«حياتهم صارت مصنّعة ويائسة، وكذلك حياتنا» قالت كوني ذلك بصوت صارخ.

«لاأعتقد أنها كذلك. إن هذا نوع من الكلام الرومانتيكي، بقايا من الرومانتيكية الدائخة والمحتضرة. فأنت لاترين أبداً النوع اليائس الموجود هناك، ياعزيزتي كوني».

وكان ذلك صحيحاً. لأن عينيها الزرقاوين الداكنتين توهجتا، واحمرّ خداها، فبدت ملأى بعاطفة التمرد بعيداً عن كآبة البؤس. لاحظت، في الأماكن النامية من العشب، أزهار العصر القطنية اليانعة ماتزال تذرف من أسفلها. فعجبت غاضبة لماذا شعرت أن كليفورد كان مخطئاً، بينما لاتستطيع أن تقول له ذلك، لاتستطيع أن تقول له أين يخطئ بالضبط.

قالت «لاعجب أن الرجال يكرهونك»».

أجاب «لايكرهونني. لاتقعي في الخطأ: بالمعنى الذي تقصدينه من الكلمة، إنهم ليسوا رجالاً. إنهم حيوانات لاتفهمينها، ولن تفهميها. فلاترمي أوهامك على الآخرين. إن عبيد نيرون كانوا مختلفين قليلاً جداً عن عمال شركة فورد للسيارات. أقصد عبيد منجم نيرون وعبيد حقله. إنها الجماهير. قد ينبثق الفرد من الجماهير ولكن الانبثاق لايغير الجماهير. الجماهير غير قابلة للتغيير. وهذه حقيقة من أخطر حقائق علم الاجتماع. الخبز والألعاب. اليوم فقط صارت التربية أحد البدائل السيئة للسيرك. الخطأ اليوم هو أننا أحدثنا صدعاً عميقاً في قسم السيركات من برنامجنا، وسممنا جماهيرنا بالتربية القليلة».

عندما صعد كليفورد بمشاعره حقاً إلى العامة، شعرت كوني بالذعر. لكنها كانت حقيقة قاتلة. ولما رآها كليفورد شاحبة

ss

صامتة، أطلق كرسيه من جديد، ولم يقل شيئاً إلى أن توقف ثانية عند بوابة الغابة، ريثما فتحتها هي.

قال «ومانحتاج أن نتخذه اليوم هو السياط وليس السيوف. لقد حُكمت الجماهير منذ بداية الزمن، وسوف يُحكمون حتى نهاية الزمن. فمن النفاق والتخريف القول إنهم يستطيعون أن يَحكموا أنفسهم».

سألت «لكن هل تستطيع أن تحكمهم؟».

«أنا؟ أوه بلى. فلا عقلي عاجز ولاإرادتي متهاوية، فأنا لاأحكم بساقيّ. يمكن أن أشارك في الحكم: أن أقوم بحصتي في الحكم تماماً. أعطني ابناً وسوف يتمكن من القيام بدوره في الحكم من بعدي».

تمتمت «ولكنه لن يكون ابنك، لن يكون من طبقتك الحاكمة الخاصة ـ أو ربما ليس من ـ».

«لايهمني من يكون أباه، مادام إنساناً في صحة جيدة ليس دون الذكاء العادي. أعطني طفلاً من أي رجل سليم ذي عقل عادي وسأجعله من أكفأ آل شاترلي. فالمسألة ليست مسألة من يُنسلنا، بل مسألة أين يضعنا القدر. ضعي أي طفل بين الطبقات الحاكمة وسوف ينمو حاكماً بمقدار قواه الخاصة. ضعي أبناء الملوك والأدواق بين الجماهير، وسوف يكونون من الغوغاء، من إنتاج الجماهير. إنه ضغط البيئة المهيمن».

«العامة إذن ليسوا عرقاً ـ والأرستقراطيون ليسوا دماً» ردت عليه.

قال «لاياطفلتي. كل ذلك وهم رومانتيكي. الأرستقراطية وظيفة، جانب من قَدَر. والجماهير تقوم بوظيفتها من الجانب الآخر للقدَر. قلما يؤبه بالفرد. إنها مسألة أية وظيفة اعدتِ لها

وأية وظيفة تلائمك. الأفراد لايصنعون الأرستقراطية. ووظيفة الجماهير هي التي تصنع الرجل العامي كما هو».

«إذن لاتوجد إنسانية تربط فيما بيننا».

«تماماً كما تقولين كلنا نحتاج أن نملأ بطوننا. ولكن عندما نقوم بوظيفتنا التعبيرية والتنفيذية، أعتقد أن هناك فجوة، وفجوة مطلقة، بين الطبقات الحاكمة والطبقات الخادمة. الوظيفتان متعارضتان. والوظيفة تحدد الفرد».

نظرت إليه كوني بعينين ذاهلتين.

قالت «ألا تدخل؟».

دفع كرسيه. قال ماأراد قوله. الآن انتقل إلى قضاياه الخاصة، أو بالأحرى إلى السخافة الفارغة، كما تراها كوني. على أية حال صمّمت ألا تتناقش معه في الغابة.

أمامهم ظهر الصدع المكشوف للطريق، بين أسوار البندق والأشجار البنية الفرحة. اندفع الكرسي ببطء يشق أزهار «لاتنسني» التي ارتفعت في الطريق مثل الحليب، خلف ظلال البندق. واتجه كليفورد إلى المسار الأوسط، حيث حفرت الأقدام العابرة قناة من خلال الأزهار. لكن كوني، التي تسير خلفه، لاحظت الدواليب تسير فوق كشكش الغابة وأبواق الزهر، وتسحق الكؤوس الصفراء الصغيرة للإناث الزاحفة. لقد استيقظت الآن من خلال أزهار «لاتنسني».

كل الأزهار كانت هناك، وأولها الأجراس الزرقاء في برك زرقاء، مثل الماء الراكد.

قال كليفورد «أنت محقة تماماً في أن الغابة جميلة. إنها مذهلة. أين الجمال الذي يضاهي ربيع انكلترا».

اعتقدت كوني أنه يتحدث كما لو كان حتى الربيع يزهر بقرار من البرلمان. ربيع انكليزي. ولم لايكون ربيعاً إيرلندياً، أو يهودياً.

تحركت الكرسي ببطء إلى الأمام، عابرة الأجراس الزرقاء القوية التي انتصبت مثل سنابل القمح، جائسة على أوراق نبات البردوك. وعندما وصلا إلى المكان المكشوف حيث قُطعت الأشجار، تدفق النور حاداً. وصنعت أزهار الأجراس الزرقاء شراشف من لون أزرق مشرق، هنا وهناك، مشعشعة في الليلك والأرجوان. وبين ذلك يرفع السرخس رؤوسه المحنية البنية، مثل فيالق من فراخ الأفاعي جاءت تهمس لحواء بسرّ جديد.

أبقى كليفورد الكرسي تتقدم حتى وصل إلى طرف الهضبة وخلفه سارت كوني ببطء. ومن الصلابة القديمة خرج كل ماهو لطيف. فحتى أشجار السنديان الضخمة المخددة أنتجت أنعم الأوراق الفتية، تنتشر أجنحة رفيعة بنية صغيرة كأجنحة الخفاش في النور. فلماذا الناس لايتجددون من ذاتهم، فلا تخرج منهم طزاجة؟ الناس تافهون.

أوقف كليفورد الكرسي في قمة المرتفع ونظر إلى أسفل. أزهار الأجراس الزرقاء فرشت الأزرق مثل ماء الطوفان على طريق عريض، وأنارت سفح الهضبة بزرقة دافئة.

قال كليفورد «إنه لون رائع الجمال بحد ذاته، ولكنه لاينفع في الرسم الزيتي».

قالت كوني غير مبالية أبداً «تماماً».

قال كليفورد «هل أغامر كالربيع؟».

قالت «هل ستصعد الكرسي إلى الأعلى مرة ثانية؟».

«سوف أحاول. من دون مغامرة، من دون ربح».

وبدأت الكرسي تتقدم ببطء، وتهرس الطريق العريض المفروش بأزهار الهايسنت المنقطة الزرقاء. آه ياآخر السفن الماخرة عبر

ss

بحار أزهار الهايسنت، آه ياقارباً على آخر المياه البرية، أبحر الآن في آخر رحلة لحضارتنا. وإن كنتِ، أيتها السفينة ذات العجلات تقومين بجولتك البطيئة ـ جلس كليفورد هادئاً راضياً فوق عجلات المغامرة: بقبعته السوداء القديمة وجاكيته الصوفية، حذراً بلا حراك. ياأيها الكابتن، ياكابتني، انتهت رحلتنا الرائعة. لاليس بعد. وفي سفح الهضبة تقدمت كونستانس بثوبها البني، تراقب الكرسي وهي ترتج في نزولها.

قطعا الممر الضيق إلى الكوخ. والشكر لله أنه لم يكن عريضاً بما يكفي للكرسي: فهو لايكاد يتسع لشخص واحد. ووصلت الكرسي إلى قاع المنحدر، وانحرفت دائرة، لتختفي. وسمعت كوني صفرة خفيفة وراءها. بحثت بعينيها حولها: كان الحارس يخطو إلى السفح باتجاهها، وكلبته تحافظ على مسافة خلفه.

سأل ناظراً في عينيها «هل السير كليفورد ذاهب إلى الكوخ؟».

«لا وإنما إلى البئر فقط».

«لابأس. إذن أستطيع أن أغيب عن النظر. ولكن يجب أن أراك الليلة. سأنتظرك عند بوابة المتنزه ـ قرابة العاشرة».

نظر مرة أخرى إلى عينيها مباشرة.

قالت متلعثمة «نعم».

سمعا بيب بيب من زمور كليفورد، يزمر لكوني. أطلقت صوتاً «كووو ـ ييييد» كجواب. والتمعت على وجه الحارس تكشيرة صغيرة، وبيده مسح صدرها من الأسفل إلى الأعلى. نظرت إليه، وبدأت تركض هابطة الهضبة، صائحة «كووو ـ ييييد» لكليفورد. والرجل الذي في الأعلى يراقبها ـ ثم التفت وبتكشيرة ضعيفة عاد إلى طريقه.

وجدت كليفورد يصعد ببطء إلى النبع، الذي كان في منتصف

ss

الطريق إلى منحدر غابة الصنوبر القاتمة. كانت هناك في الوقت الذي استلم فيه بداية المنحدر.

قال مشيراً إلى الكرسي «لقد قامت بهذا خير قيام».

نظرت كوني إلى أوراق البردوك البنية الكبيرة التي نمت كالأشباح من طرف غابة الصنوبر. يسميها الناس راوند روبن هود. ألا كم تبدو صامتة ومزهرة قرب البئر. ومع ذلك يتدفق الماء رائعاً مشعشعاً، وهناك تفرقت مجموعات من الأعشاب البراقة ونباتات البوق الأزرق القوية. وهناك، تحت الرصيف كانت الأرض الصفراء تتحرك. خلد. ظهر يجدف بيديه القرمزيتين ويحرك المثقب الأعمى لوجهه، مع أرنبة أنفه الصغيرة المرفوعة.

قالت كوني «يبدو أنه يبصر بنهاية أنفه».

قال «أفضل من أن يبصر بعينيه. أتشربين؟».

«أتشرب أنت؟».

تناولت إبريقاً مطلياً من شبكة على شجرة وانحنت لتملأه له. شرب على دفعات. فانحنت ثانية وشربت قليلاً.

قالت منقبضة «إنه كالصقيع».

«طيب. ليس صقيعاً. هل أحببته؟».

«هل أحببته أنت؟».

«بلى. أحببته. لكن لن أخبرك».

كانت واعية لصوت نقار الخشب - ثم للريح ناعمةً تئز من خلال الصنوبرات. نظرت إلى الأعلى. كانت غيوم بيضاء تعبر السماء.

قالت «غيوم».

أجاب «خراف بيض ليس إلا».

واجتاز ظل الأرض المقطوعة الأشجار الصغيرة خلد سبح سريعاً إلى الأرض الصفراء الناعمة.

قال كليفورد «حيوان صغير كريه ـ يجب أن نقتله».

قالت «انظر إنه يشبه شخصاً اعتلى منبر الوعظ».

جمعت بعض الأغصان من كشكش الغابة وأحضرتها إليه.

قالت «تبن جديد، ألا ينوح مثل سيدات القرن الماضي الرومانتيكيات، اللواتي يملن برؤوسهن إلى اليمين؟

كانت تنظر إلى الغيوم البيضاء.

قالت «سأُسر إن هطل المطر».

«تمطر؟ لماذا؟ هل تريدينها أن تمطر؟».

بدأا رحلة العودة، فراح كليفورد يرج بحذر نحو السفح. وصلا القاع الداكن للتجويف، وانعطفا نحو اليمين، بعد مئة ياردة، منحرفين مع سفح المنحدر الطويل حيث انتصبت أزهار الأجراس الزرقاء في النور.

«الآن أيتها الفتاة القديمة» قال كليفورد ذلك واضعاً الكرسي عليها.

كان تسلقاً شاهقاً ووعراً. توقَّلت الكرسي ببطء بطريقة نضالية غير إرادية. واشتمت طريقها إلى الأعلى متقلقلة، إلى أن صارت في مكان تحيطها أزهار الهايسنت، عندئذٍ راحت تكافح مترنحة قليلاً على طريق خارج الأزهار، ثم توقفت.

قالت كوني «من الأفضل أن تطلق الزمور فترى إن كان الحارس سيأتي. يمكن أن يدفع الكرسي قليلاً. ولكن لايهم سوف أدفعها، إنها مطواعة تساعدني».

قال كليفورد «سنمنحها وقتاً تلتقط أنفاسها. هل تفكرين أن تضعي الاسكوتلاندي تحت العجلة؟».

وجدت كوني حجراً، وانتظرا. بعد فترة أدار كليفورد موتور الكرسي ثانية، وجعل الكرسي تتحرك. راحت تترنح وتكافح مثل أي شيء مريض، بضجة غريبة.

تحركت كوني ووقفت خلفه وقالت «دعني أدفعها».

قال بغضب «لا. لاتدفعي. مانفع هذا الشيء اللعين، إن كان يحتاج إلى دفع. ضعي الحجر تحتها».

كانت هناك فترة توقف أخرى ثم إقلاع آخر، لكن أقل قوة من قبل.

قالت «دعني أدفعها أو اضرب الزمور للحارس».

«انتظري».

انتظرت. قام بمحاولة أخرى فأساء أكثر مما أحسن.

قالت «اضرب الزمور إذن، إن كنت لاتريدني أن أدفعها».

«ياللجحيم. اهدئي لحظة».

هدأت للحظة: بذل جهوداً ضائعة مع الموتور الصغير.

قالت محتجة «إنك ياكليفورد تحطم هذا الشيء كله، كما أنك تستنفد طاقتك العصبية».

قال ساخطاً «آه لو كنت أستطيع أن أنزل وأرى هذا الشيء اللعين» وأطلق زموراً حاداً «ربما يستطيع ميلورز أن يرى أين العطل».

انتظرا، بين الأزهار المهروسة، تحت سماء احتشدت فيها غيوم ناعمة. وفي الصمت، انطلقت يمامة الغابة تزقو روو - هووهوو. روو - هووهوو فأسكتها كليفورد بزعقة من الزمور.

مباشرة ظهر الحارس يخطو باحثاً حول الزاوية. تقدم وحيا.

ss

سأل كليفورد بحدة «هل تعرف أي شيء عن الموتورات؟».

«أخشى ألا أعرف. هل تعطل؟».

جأر كليفورد «كما هو واضح».

اندفع الرجل يتفحص العجلة ونظر إلى الآلة الصغيرة.

قال بهدوء «أخشى ألا أعرف شيئاً عن هذه الأشياء الميكانيكية ياسير كليفورد. إن كانت تحوي الكفاية من البنزين والزيت -».

جأر كليفورد «تفقدها بحرص وانظر إن كنت ترى أي شيء مكسوراً».

أسند الرجل بندقيته إلى شجرة، وخلع معطفه ورماه إلى جانبها. وجلست الكلبة حارساً. ثم ركع على ركبتيه واختلس النظر تحت الكرسي، لاكزاً بإصبعه الآلة الصغيرة المشحّمة، مستاءً من علامات الشحم على قميص يوم الأحد النظيف.

قال «لايبدو أن هناك شيئاً مكسوراً» ونهض دافعاً قبعته إلى الخلف ليبعدها عن جبهته، ماسحاً جبينه، ودارساً الوضع في الوقت نفسه.

سأل كليفورد «أنظرت إلى القضبان تحت؟ انظر إن كانت سليمة كلها».

تمدد الرجل أرضاً على بطنه ورفع رقبته خلفاً، داخلاً تحت الآلة وتحسسها بإصبعه. فكرت كوني: أي نوع عاطفي كان هذا الرجل، الذي يبدو هزيلاً ضئيلاً، عندما كان مستلقياً على بطنه فوق الأرض الكبيرة.

جاء صوته المكبوت «تبدو كلها سليمة بمقدار مااستطعت أن أراها».

قال كليفورد «أنا لاأعتقد أنك تستطيع عمل أي شيء».

ss

«يبدو أنني لاأستطيع» ـ نهض وجلس على عقبيه ثانية، كما هي عادة عامل المنجم. «بالتأكيد لايوجد شيء مكسور».

«انتبه سوف أقلع ثانية».

أدار كليفورد آلته ثم دفع حركة السرعة. ولم تتحرك.

اقترح الحارس «أتحب أن أجعلها تجري قليلاً».

امتعض كليفورد من تدخله: ولكنه جعل آلته تئز مثل ذبابة زرقاء. ثم سعلت وجأرت، وبدت أنها أفضل.

قال ميلورز «تبدو كما لو أنها صارت سليمة».

لكن كليفورد كان قد أدخل فيها عيار السرعة. فبدت منها هزة مريضة، ثم نطت بضعف إلى الأمام.

قال الحارس وهو يذهب إلى الخلف «لو دفعتها لعملت».

«ابق بعيداً» جأر كليفورد «سوف تعمل من تلقاء نفسها».

قالت كوني من الرصيف «ولكن ياكليفورد تعرف أنه فات عليها الكثير. لماذا أنت عنيد هكذا؟».

كان كليفورد شاحباً من الغضب. ضربها على رافعاتها. أبدت الكرسي نوعاً من الهمة، فتقدمت بضع ياردات، وتوقفت وسط بقعة مزهرة من أزهار الأجراس الزرقاء.

قال الحارس «اشتغلت ولكن لاتوجد قوة كافية».

قال كليفورد ببرود «اعتلَت هذا المكان من قبل».

قال الحارس «لن تفعل هذه المرة».

لم يجب كليفورد. بدأ يعمل بأشياء في الآلة، فيعطيها كثيراً من الوقود ويخفف عنها، كما لو كانت تصدر عنها نغمة.

رددت الغابة أصوات الضجة العفريتية. ثم شحنها بالسرعة مرة أخرى بخضة، وقد خض في الوقت نفسه مكبحه.

تمتم الحارس «يجب أن تصلحها من الداخل».

ونطت الكرسي نطة جعلتها قريبة من الخندق.

صاحت كوني مندفعة إلى الأمام «كليفورد».

لكن الحارس أمسك الكرسي من قفاها. وإذ وضع كليفورد كل ضغطه، إنما أراد أن يجعلها على الطريق، وبضجة غريبة كانت الكرسي تقاتل الهضبة. راح ميلورز يدفع بقوة من الخلف، فذهبت صعداً، كما لو كانت تستعيد أنفاسها.

«أرأيت كيف راحت تعمل» قال كليفورد منتصراً ناظراً من فوق كتفه. عندها رأى وجه الحارس.

«أأنت الذي تدفعها؟».

«لن تعمل من دون دفع».

«دعها. لم أطلب منك».

«لن تعمل».

«دعها تحاول» جأر كليفورد بكل عزيمة.

تراجع الحارس: ثم التفت يبحث عن معطفه وبندقيته. يبدو أن الكرسي شُلت حركتها للحظتها. توقفت عاجزة. فابيضّ كليفورد، الجالس كالسجين، من الغيظ. راح يخبط على الرافعات بيده ـ لم تكن قدماه صالحتين. جعل أصواتاً غريبة تصدر عنها. وبضجر وحشي عالجها قليلاً فحصل على المزيد من الضجيج منها. لكنها أصرت ألا تتزحزح. لا. لن تتزحزح. أوقف الآلة وجلس متجمداً من الغضب.

جلست كونستانس على الرصيف تتطلع إلى أزهار الأجراس الزرقاء، المداسة البائسة. «لاشيء جميل مثل الربيع الانكليزي». «أستطيع أن أقوم بدوري في الحكم» «مانحن بحاجة إليه الآن هو السياط وليس السيوف» «الطبقات الحاكمة».

سار الحارس بمعطفه وبندقيته، وفلوسي تتعقبه بحذر. طلب

كليفورد من الرجل أن يفعل شيئاً أو سواه للآلة. جلست كوني التي لاتعرف شيئاً بتكنيكات الموتورات، والتي عانت الإحباطات، على الرصيف، كما لو كانت صفراً. واستلقى الحارس على بطنه مرة ثانية. الطبقات الحاكمة والطبقات الخادمة.

انتصب على قدميه وقال بصبر:

«جربها مرة أخرى إذن».

تكلم بصوت هادئ، كما لو كان طفلاً.

حاول كليفورد، فهرع ميلورز إلى الخلف وطفق يدفع. كانت تسير، الآلة تقوم بنصف العمل، والرجل بالباقي.

تطلع كليفورد حوله، مصفرّاً من الغضب.

«اتركها هناك».

أنزل الحارس قبضته عنها فجأة، فأضاف كليفورد: «كيف أعرف ماذا تفعل الآلة ـ».

وضع الرجل بندقيته أرضاً وبدأ يخلع معطفه: يجب أن يعمل. بدأت الكرسي تجري إلى الوراء ببطء.

صرخت كوني «كليفورد. اضغط مكبحك».

وتحركت هي وميلورز وكليفورد دفعة واحدة، وكانت كوني والحارس أسرع. توقفت الكرسي. ورانت لحظة من الصمت القاتل.

قال كليفورد «من الواضح أني مدين بالشكر لكل منكما» كان مصفرّاً من الغضب. لم يجب أحد. كان ميلورز يعلق بندقيته على كتفه، وكان وجهه غريباً ولاتعبير فيه إلا نظرة مجردة من الصبر. وكان الكلبة فلوسي، الواقفة حارساً بين ساقي سيدها، تتحرك قلقةً، ترمق الكرسي بكراهية وبشك كبير، وحيرة عظيمة بين الكائنات البشرية الثلاثة. وظلت «اللوحة الحية» قائمة بين أزهار الأجراس الزرقاء، دون أن ينطق أحد بكلمة.

«اعتقد أنه يجب دفعها» قال كليفورد أخيراً بتأثير الدم البارد.

لم يجب أحد. بدا وجه ميلورز المجرد كما لو أنه لم يسمع شيئاً. فرنت كوني قلقة إليه. تطلع كليفورد كثيراً حوله.

قال بلهجة باردة مترفعة «يجب أن تدفعها إلى البيت ياميلورز». ثم أضاف بلهجة اشمئزاز «آمل أني لم اقل شيئاً يهينك».

«لاشيء أبداً سير كليفورد. أتريدني أن أدفع الكرسي؟».

«إذا تكرمت».

فخطا الرجل إلى الكرسي: لكن هذه المرة كان بلا نتيجة. فقد عض المكبح على العجلات. عالجوا وشدوا وخلع الحارس معطفه مرة أخرى. هذه المرة لم يقل كليفورد أي كلمة. أخيراً سحب الحارس ظهر الكرسي عن الأرض، وبدفعة عاجلة من قدمه حاول حلحلة المكبح عن العجلات. فشل، وغرقت الكرسي. تشبث كليفورد بالجوانب. وراح الرجل يلهث من جراء ثقله.

صرخت كوني «لاتفعل».

«لو تسحبين العجلة هذه الناحية ـ هكذا» قال لها وبيّن لها كيف.

قالت وقد توهجت الآن من الغضب «يجب ألا ترفعها. يجب أن تضبط نفسك».

لكنه نظر في عينيها وهز رأسه. وكان عليها أن تذهب وترفع العجلة. رفع هو وشدت هي، واستقامت الكرسي.

«ياالله» صاح كليفورد رعباً.

لكنه ظل سليماً وتحلحل المكبح. وضع الحارس حجراً تحت العجلة، وذهب ليجلس على الرصيف، خافق القلب أبيض الوجه من جراء جهده، كان نصف واعٍ. نظرت إليه كوني وكادت تصرخ من

الغضب. رانت فترة من التوقف والصمت القاتل. رأت يديه ترتجفان على فخذيه.

سألت وهي تذهب إليه «هل أصابك مكروه؟».

التفت بعيداً غاضباً «لا ـ لا».

وكان هناك صمت قاتل. قفا رأس كليفورد الأشقر لم يتحرك. حتى الكلبة وقفت بلا حراك. واحتشدت الغيوم في السماء.

أخيراً مخط أنفه على منشفته الحمراء.

قال «لقد نال مني التهاب الرئة».

لم يجب أحد. حسبت كوني كمية القوة التي يجب أن تُبذل لسحب الكرسي، وجثمان كليفورد الضخم: إنها كمية كبيرة جداً، كبيرة جداً جداً. لابد أن الرجل يملك قوة غير عادية حقاً. إن لم تقتله.

نهض ثم التقط مرة ثانية معطفه، وعلق بندقيته على يد الكرسي.

«هل أنت جاهز الآن ياسير كليفورد؟».

«عندما تكون جاهزاً».

عندئذٍ انحنى ورفع الاسكوتلاندي، ثم وضع ثقله الضخم في الكرسي. كان أشد شحوباً مما رأته كوني من قبل: وأكثر ضياعاً. كان كليفورد رجلاً ثقيلاً: وكانت الهضبة منحدرة. وذهبت كوني إلى ناحية الحارس.

قالت «سوف أدفع أيضاً».

وبدأت تدفع مع الرجل بطاقة امرأة من الغضب الصاخب.

تسارعت الكرسي. ونظر كليفورد حوله.

قال «هل كان ذلك ضرورياً؟».

«جداً. أتريد أن تقتل الرجل. رحت تجعل الموتور يعمل بينما كان ـ».

ss

لكنها لم تكمل. كانت تلهث. تباطأت حركتها قليلاً، فقد كان عملاً شاقاً مذهلاً.

«آه أبطأ» قال الرجل بجانبها مع نظرة خفيفة من عينيه.

قالت كوني بشدة «أمتأكد أنت أنك لم تؤذ نفسك؟».

هزّ رأسه. نظرت إلى يده القصيرة الصغيرة القوية وقد جعلها الجو بنيّة. كانت اليد التي لاطفتها. إنها لم تتطلع قط إليها من قبل. بدت هادئة مثله، هدوءاً داخلياً غريباً، جعلها تتشبث بها كأنها لاتطالها. فجأة انجرفت نفسها كلها باتجاهه: كان صامتاً، ومنذهلاً. وشعر بأن أطرافه تنتعش. وإذ يمسك بيده اليسرى، فقد ألقى يده اليمنى على معصمها الأبيض المستدير، فبسطت معصمها، ولاطفته. هذه القوة اللاهبة راحت تسري في ظهره وردفيه وتبعث فيها الحياة. فانحنت فجأة وقبلت يده. بينما كان قفا رأس كليفورد أمامهما مباشرة، ولكنه هامد لاحراك فيه.

استراحوا على قمة الهضبة، وكانت كوني مسرورة لهذا السير معاً. كانت لديها أحلام هاربة عن الصداقة بين هذين الرجلين: الأول زوجها والآخر والد طفلها. واليوم تبصر السخافة الصارخة في أحلامها. كان الذكران عدائيين كالنار والماء. كل واحد يلغي الآخر على نحو متبادل. وتحققت لأول مرة كم تكره هذا الشيء الماكر الغريب. لأول مرة كرهت كليفورد بوعي ودقة، كرهاً مشبوباً: كما لو كان يجب أن يُمحى من على وجه الأرض. وكان غريباً كيف جعلتها الحياة الحرة المليئة تشعر، كيف تكرهه وتجعل الحياة كلها لنفسها. - «الآن كرهته، لن أكون قادرة أبداً أن أعيش معه» طرأت هذه الفكرة على ذهنها.

في السهل تمكن الحارس أن يدفع الكرسي وحده. أدار كليفورد حديثاً قصيراً معها ليبرز رباطة جأشه الكاملة: عن العمة إيفا، التي كانت في ميناء ديبي، وعن السير مالكولم، الذي كتب سائلاً إن كانت

كوني تذهب معه في سيارته الصغيرة إلى البندقية، أو أنها تذهب هي وهيلدا عن طريق القطار.

قالت كوني «أفضّل أن أذهب عن طريق القطار. أنا لاأحب القيادة الطويلة للموتور، وعلى الأخصّ عندما يكون هناك غبار. ولكنني أريد أن أقف على رغبة هيلدا».

«تريد أن تقود سيارتها الخاصة وأن تأخذكِ معها».

«ربما ـ يجب أن أساعد في الدفع هنا فالمكان في صعود. ليس لديك فكرة كم هي ثقيلة هذه الكرسي».

ذهبت إلى خلف الكرسي وسارت جنباً إلى جنب مع الحارس، خارقين الدرب القرنفلي. إنها لم تهتم كيف بدا لها.

قال كليفورد «لم لاتدعينني أنتظر وأفتش عن فيلد. إنه قوي بما يكفي أن يقوم بالمهمة».

قالت وهي تلهث «صار المكان قريباً».

مسح كل من كوني وميلورز العرق المتصبب عن وجهيهما عندما وصلا إلى القمة. كان غريباً، لكن هذا العمل القليل جعلهما ألصق مما كانا من قبل.

«أشكرك كل الشكرياميلورز» قال كليفورد عندما وصلوا إلى باب المنزل. «يجب أن أحصل على نوع مختلف من الموتورات، هذا كل مافي الأمر. ـ ألا تأتي إلى المطبخ وتتناول وجبة؟ ـ أعتقد أننا قرابة موعد الوجبة».

«أشكرك ياسير كليفورد، كنت ذاهباً إلى أمي لأتناول الغداء هناك اليوم ـ الأحد».

«كما ترغب».

ارتدى ميلورز معطفه، نظر إلى كوني، حيا، وذهب. صعدت كوني الدرج والرعب يتلبسها.

ss

لم تستطع خلال الغداء أن تكتم شعورها.

قالت له «لماذا أنت متعجرف كل هذا التعجرف المقيت؟».

«ممن؟».

«من الحارس. إن كان هذا ماتسميه الطبقات الحاكمة، فإني أرثي لك».

«لماذا؟».

«رجل مريض وليس قوياً. رأيي أنني لو كنت الطبقات الخادمة، لتركتك تنتظر من يخدمك. لتركتك تصفّر».

«أنا أؤمن بذلك تماماً».

«لو كان يجلس في كرسي بساقين مشلولتين، وتصرف كما تصرفت، فماذا كنت تفعل به؟».

«ياإنجيليتي العزيزة، هذا الخلط بين الأشخاص والشخصيات يتم لديك عبر ذوق رديء».

«ورغبتك العقيمة في التعاطف العام هي أسوأ ذوق يمكن تصوره. الالتزام النبيل. أنت وطبقتك الحاكمة».

«وبأي شيء ألتزم؟ أن تكون لدي كمية من العواطف غير الضرورية لحارس طرائدي؟ إني أرفض. تركت كل ذلك لإنجيليتي»

«برأيي كما لو لم يكن رجلاً مثلك».

«حارس طرائدي يكرّم، فأنا أدفع له جنيهين في الأسبوع، وأقدم له بيتاً».

«تدفع له. لقاء أي شيء تعتقد أنك تدفع له بجنيهين ومنزل أسبوعياً؟».

«لقاء خدماته».

«ياه. سأقول لك بأن توفر الجنيهين في الأسبوع وبيتك».

«ربما يود هو ذلك: لكنه لايتمتع بالرفاهية».

قالت «أنت والحكم. أنت لاتحكم، لاتكذب على نفسك. أنت تسعى فقط للحصول على أكثر من حصتك من المال، وأن تجعل الناس يعملون لك لقاء جنيهين أسبوعياً، أو تهددهم بالمجاعة. الحكم. وماذا قدمت للحكم؟ أنت تجف باستمرار. أنت تنتفخ فقط بالمال، مثل أي يهودي أو أي مستغل».

«أنيقة جداً في حديثك ياليدي شاترلي».

«أوكد لك أنك أكثر أناقة هناك في الغابة. كنت خجلى جداً بك، لماذا يفوقك أبي عشرة أضعاف في الإنسانية: في جنتلمانيتك».

أخذ الجرس وقرعه للسيدة بولتون. لكنه كان أصفر حتى الخيشوم.

صعدت إلى غرفتها يأكلها الرعب وهي تقول لنفسها: «يشتريه ويشتري كل الناس. لابأس، لن يشتريني، ولذلك لاحاجة أن أبقى معه. جنتلمان؟ إنه سمكة ميتة بروحه البلاستيكية. كيف يصطادون المرء بطرائقهم وأناقتهم ولطفهم المضحك. إنهم في شعورهم مثل البلاستيك».

وضعت خططها لليل، وصممت أن تطرد كليفورد من عقلها. لم تكن تريد أن تكرهه. لاتريد أن تختلط اختلاطاً حميمياً معه بأي نوع من الشعور. أرادته ألا يعرف عنها شيئاً على الإطلاق: وعلى الأخص ألا يعرف شيئاً عن شعورها تجاه الحارس. شجاره حول موقفها من الخدم كان شجاراً قديماً. وجدها عادية جداً، ووجدته غبياً عديم الحس وقاسياً ومطاطاً هندياً، كما يراه الناس.

هبطت الدرج بهدوء، باحتشامها القديم، في وقت العشاء. كان مايزال أصفر غضباً حتى الخيشوم: في واحدة من فوراته العارمة،

ss

قد يبدو غريباً جداً بالفعل. كان يقرأ كتاباً فرنسياً.

سألها «هل قرأت مرة مارسيل بروست؟».

«حاولت ولكنه أضجرني».

«إنه في الحقيقة رائع جداً».

«يمكن. لكنه يزعجني. كل مافيه تعقيد. لايملك مشاعر، لايملك سوى سيول من الكلمات عن المشاعر. وأنا تضجرني العقلانيات التي لاتهم سوى الذات».

«ألا تفضلين العقلانيات التي لاتهم سوى الذات؟».

«ربما ولكن لابد أن يحصل المرء على شيء ما غير هام ذاتياً».

«لابأس، أنا أُعجب بذكاء بروست، وبفوضويته المهذبة».

«إنه يجعلك ميتاً حقاً».

«هاكم زوجتي الإنجيلية الصغيرة تتكلم».

وعادا إلى الشجار ثانية وثانية. لكنها لاتستطيع أن توقف القتال ضده. بدا لها وهو جالس هناك مثل هيكل عظمي، يقذف إرادة باردة من هيكل عظمي ضدها. تكاد تشعر بإمساك الهيكل العظمي لها وضغطه عليها حتى حنايا الصدر. كان قوياً فعلاً في ذراعيه: وكانت تخافه قليلاً.

صعدت الدرج بكل مافيها من سرعة، وارتمت في السرير مبكراً جداً. ولكنها نهضت في التاسعة والنصف، وذهبت إلى الخارج لتستمع. كان هناك صوت. وضعت عليها تفريعة وهبطت الدرج. كان كليفورد يلعب الورق ويقامر مع السيدة بولتون. من الأرجح أن يستمرا في ذلك حتى منتصف الليل.

عادت إلى غرفتها، ورمت بيجامتها على السرير المشعث وارتدت ثوباً ليلياً خفيفاً وفوقه ارتدت ثوباً صوفياً، وانتعلت حذاء تنس مطاطياً، ثم وضعت معطفاً خفيفاً، فصارت جاهزة. فإن

صادفها أحد فإنها تزعم أنها تتمشور في الخارج لبضع دقائق، وإن صادفها في الصباح زعمت أنها تقوم بمشوار في وقت الندى، كما هي عادتها، قبل طعام الإفطار. ولايبقى من الأخطار سوى أن يقتحم أحد غرفتها أثناء الليل. لكن ذلك لم يكن مرجحاً: فلا توجد فرصة واحدة بالمئة.

بيتس لم يكن قد أقفل الباب. إنه يقفل الباب في العاشرة، ويفتحه في السابعة صباحاً. تسللت صامتة غير منظورة. كانت الليلة نصف مقمرة، وهذا يكفي لإضفاء ضوء قليل على العالم، لكنه لايكفي أن يفضحها بمعطفها البني الداكن. سارت مسرعة عبر المتنزه، غير خائفة من تركها المنزل، بل كان يتأجج في نفسها غضب ما وتمرد ما. وهو ليس النوع الصحيح للقلب الذي تصطحبه للقاء غرامي. ولكن فلتؤخذ القسوة بالتأني.

ss

الفصل الرابع عشر

عندما اقتربت من بوابة المتنزه، سمعت طقطقة المزلاج. كان هناك، إذن، في عتمة الغابة، وقد رآها.

قال خارجاً من العتمة «أنت جيدة ومبكرة. كل شيء جيد».

«وسهل تماماً».

أغلق البوابة بهدوء خلفها، وجعل نقطة ضوء على الطريق المظلم، فظهرت الأزهار الشاحبة ماتزال منتصبة هناك متفتحة في الليل. فسارا على طرف، في صمت.

سألت «أمتأكد أنت أنك لم تؤذ نفسك هذا الصباح بتلك الكرسي؟».

«لا، لا».

«متى أصبت بالتهاب الرئة، وهل يؤثر فيك؟».

«أوه، لاشيء. لم يترك قلبي قوياً جداً ـ ولا الرئتين مرنتين. ولكن دائماً يحدث ذلك».

«وعليك ألا تقوم بمجهود جسدي عنيف؟».

«ليس غالباً».

وتابعت سيرها بصمت غاضب.

أخيراً قالت «هل تكره كليفورد؟».

«أكرهه، لا. قابلت كثيراً من أمثاله، فلماذا أنقلب إلى كرهه. أعرف من قبل أني لاأهتم بنوعه، فاتركه يذهب لحاله».

«أي نوع هو نوعه؟».

«أنت تعرفين أفضل مني. إنه نوع الجنتلمان الصغير فهو يشبه السيدة، ولاكرات له».

«كرات؟ وماالكرات؟».

«كرات. كرات الرجل».

دهشت من كلامه.

«ولكن هل تلك المسألة؟» قالت بقليل من الانزعاج.

«أنت تقولين ليس في الرجل عقل عندما يكون أحمق: ولا قلب عندما يكون وضيعاً، ولامعدة عندما يكون جباناً. وعندما لايكون عنده شيء من الوحش الحي للرجل، فأنت تقولين إنه رجل من النوع المدجن عندما لا يكون عنده عنده كرات، لاكرة العقل ولا غيرها».

عجبت من هذا.

سألت «وهل كليفورد مدجّن؟».

«مدجّن وقذر: مثل معظم نظرائه، عندما تقفين ضدهم».

«وهل تعتقد أنك لست مدجّناً؟».

«ربما، ربما ليس تماماً ـ تماماً».

أخيراً رأت عن بعد ضوءاً أصفر. وقفت جامدة.

قالت «هناك ضوء».

قال «دائماً أترك ضوءاً في المنزل».

تابعت سيرها ثانية إلى جانبه، لكنها لم تلمسه، مندهشة لماذا تذهب معه أصلاً.

فتح القفل، ودخلا، وأنزل المزلاج على الباب خلفهما. كما لو

كان البيت سجناً، حسبما فكرت. كان الوعاء يجيش فوق النار، وكانت هناك أكواب على الطاولة.

جلست على الذراع الخشبي قرب النار. كان البيت دافئاً بعد الرعشة القارسة في الخارج.

قالت «سأخلع حذائي، إنه مبتل».

جلست بقدميها المجوربتين على الحاجز الحديدي البراق. ذهب إلى غرفة المؤونة، وأحضر طعاماً: خبزاً وزبدة ومعلبات من اللحم. كانت قد صارت دافئة: خلعت معطفها. قام هو بتعليقها على الباب.

سأل «هل تشربين الكاكاو أو الشاي أو القهوة؟».

«لاأعتقد أني أريد شيئاً» قالت ونظرت إلى الطاولة «ولكنك تناولت الطعام».

«لا. لاآبه بالطعام أبداً. سأطعم الكلبة فقط».

جاس على الأرض القرميدية، واضعاً الطعام للكلبة في وعاء بني. نظرت الكلبة إليه بقلق.

قال «هذا عشاؤك ـ لاتنظري وكأنكِ لم تحصلي على عشاء».

وضع الوعاء على حصير قاعدة الدرج، وجلس هو نفسه على كرسي قرب الحائط، ليخلع حذاءه وغطاء ساقيه. وبدلاً من أن تأكل الكلبة جاءت إليه ثانية، وجلست تنظر إليه، بقلق. وقام بخلع غطاء ساقيه بهدوء. فاقتربت الكلبة منه أكثر قليلاً.

«ما الذي ينقصك إذن؟ هل أنت منزعجة لأن شخصاً آخر هناك؟ أنت أنثى. بلى. اذهبي وكلي طعامك».

وضع يده على رأس الكلبة فأحنت رأسها باتجاهه. فشد بنعومة أذنها الطويلة الحريرية.

قال «هناك، هناك. هيا اذهبي وكُلي عشاءك، كلي».

ss

أومأ بذقنه إلى الصحن على الحصير فذهبت وراحت تأكل.

سألته كوني «هل تحب الكلاب؟».

«لا، ليس تماماً. فهم مدجنون جداً ومتطفلون».

كان قد خلع غطاء ساقيه، وحل أربطة حذائه الثقيل. ارتدّت كوني عن النار. كم كانت عارية هذه الغرفة الصغيرة. ومع ذلك ففوق رأسه على الجدار علق صورة فوتوغرافية كبيرة لزوجين شابين، من الواضح أنه هو وامرأة شابة جريئة الملمح، لاشك أنها زوجته.

سألته كوني «أهو أنت؟».

التوى ونظر إلى الصورة فوق رأسه.

نظر إلى الصورة من دون تأثر «أُخذت قبل الزواج تماماً. كنت في الحادية والعشرين».

سألته كوني «أتحب الصورة؟».

«لا. لا. أبداً أنا لم أحب الأشياء في حياتي. ولكنها علّقتها هناك، وأصرتْ على ذلك، مثل ـ».

وعاد ينزع حذاءه.

قالت «إن كنت لاتحبها، فلماذا تحفظها معلقة هناك؟ ربما أحبت زوجتك أن تملكها».

نظر إليها بتكشيرة مفاجئة.

قال «أخذت كل مايستحق أن يؤخذ من البيت، لكنها تركت هذه».

«إذن لماذا تحتفظ بها؟ لأسباب عاطفية؟».

«لا، أنا لم أنظر إليها. أنا لاأكاد أعرف أنها موجودة هناك. إنها هناك منذ أن أتينا إلى هذا المكان ـ».

قالت «لماذا لاتحرقها؟»

فاستدار ثانية ونظر إلى الصورة الفوتوغرافية الكبيرة. كانت موضوعة ضمن اطار بني مذهب بشع. إنها تُبرز فتى صغيراً قوياً طفولي النظر، حليق الذقن، بياقة عالية نسبياً، وامرأة صبية جريئة ممتلئة، بشعر منفوش ومجعد، وترتدي بلوزة من الساتان الغامق.

قال «لن تكون فكرة سيئة. أليس كذلك؟».

خلع جزمته، ووضع قدميه في خفين. وقف على الكرسي وأنزل الصورة، فتركت وراءها مكاناً كبيراً باهتاً على ورق الجدار المخضر.

أسند الصورة إلى الجدار وقال «لافائدة من تنظيفها الآن».

ذهب إلى غرفة غسل الأطباق، وعاد بمطرقة و«بينسة». جلس حيث كان يجلس من قبل، وبدأ ينزع الورقة الخلفية من الإطار الكبير، وخلع المسامير التي تمسك اللوح الخارجي، عاملاً كعادته بهدوء.

نزع المسامير بسرعة: ثم رفع اللوح الخلفي، ثم الصورة نفسها بمظهرها الجامد. نظر إلى الصورة بابتهاج.

قال «تُبين هذه الصورة كم كنت مثل راعي أبرشية صغير، وكم كانت متنمرة سمينة ومتعجرفة».

قالت كوني «دعني أنظر».

بدا فعلاً فتى حليقاً، ونظيفاً عموماً، كان فتى من الفتيان النظيفين منذ عشرين عاماً. ولكن حتى في الصورة كانت عيناه قويتين وجريئتين. وكانت فعلاً غير متنمرة كثيراً على الرغم من ضخامة فكها الأسفل. كان ثمة لمسة من ضراعة فيها.

قالت كوني «يجب ألا يحتفظ الإنسان بهذه الأشياء».

«يجب ألا يحتفظ بها. يجب ألا يصنعها أصلاً».

ss

راح يمزق الصورة ويضع القطع على ركبته، وعندما صارت صغيرة، وضعها في النار.

قال «لقد وسخت حتى النار».

الزجاج واللوح الخلفي وضعهما بعناية على الدرج، وراح يضرب ضربات قليلة بمطرقته، فجعل الزينة الجصية تتطاير، ثم أخذ النتف إلى غرفة غسل الأطباق.

قال «سوف نحرق هذه القطع غداً فعليها طلاء كبير».

بعد أن نظف يديه جلس.

سألته «أتحب زوجتك؟».

قال «حب؟ هل تحبين السير كليفورد؟».

ولم يسبب سؤاله حرجاً لها.

ألحت «ألم تكن تهتم بها؟».

كشر «أهتم».

قالت «ربما تهتم بها الآن».

اتسعت عيناه «أنا، لا» قال بهدوء «لاأستطيع التفكير بها».

«لماذا؟».

اكتفى بهز رأسه.

قالت كوني «لماذا لم تطلّق؟ فقد تعود إليك في يوم ما».

نظر إليها بحدة.

«لن تأتي حتى على بُعد ميل مني. إنها تكرهني أكثر مما أكرهها».

«سترى أنها ستأتي إليك في يوم ما».

«هذا ما لن تفعله. لن يقع. إن مرآها يمرضني».

«ستراها. فأنت غير منفصل عنها انفصالاً شرعياً. أليس كذلك؟».

«لا».

«لابأس. إذن سوف تعود، وستضطر أن تقبلها».

ثبت نظره في كوني، وقام بهزة غريبة من رأسه.

«قد تكونين على صواب. سأكون أحمق إن عادت إلى هنا. لكني أشعر أنها ابتعدت وذهبت إلى مكان ما. ذهبت مع شخص مسكين متشرد. لكنك على حق ـ سأطلّقها وانتهى. أنا أكره هذه الأشياء كما أكره الموت ـ الدوائر والمحاكم والقضاة. ولكن علي أن أذهب. يجب أن أحصل على الطلاق».

رأته يطبق فمه. فأعجبت به بينها وبين نفسها.

قالت «أعتقد أني سأشرب كوباً من الشاي الخفيف».

نهض ليصنعه. لكن وجهه كان مصمماً.

جلسا إلى الطاولة فسألته:

«لماذا تزوجتها؟ كانت عامية أكثر منك. أخبرتني عنها السيدة بولتون. إنها لاتفهم أبداً لماذا أنت تزوجتها».

ثبت نظره فيها.

قال «سأخبرك. إنها أول فتاة أعرفها. بدأت معها عندما كنت في السادسة عشرة. كانت ابنة معلم في أولرتون ـ لطيفة جميلة حقاً. والمفروض أن تكون نوعاً ذكياً من المتخرجين من مدرسة القواعد في شيفلد، مع معرفة قليلة بالفرنسية والألمانية. كانت من النوع الرومانتيكي التي تكره العامة. لقد حضتني على قراءة الشعر والمطالعة: وبطريقة ماجعلت مني رجلاً. فقرأت وفكرت من أجلها كما لو كنت بيتاً يحترق. كنت كاتباً في دوائر بترلي، أبيض الوجه أُعجَب بكل الأشياء التي قرأتها. وتحدثت معها عن كل شيء: كل

شيء. فقد تحدثنا عن برسيبوليس وتسبوكتو. كنا أعظم مثقفين في جميع المقاطعات العشر في الأدب. كنت أنتشي بها، أنتشي إيجابياً. وببساطة رحت أدخن. كما أنها أعجبت بي. ـ كانت الأفعى التي في القش شهوانية. لكن في الحقيقة ليس لديها شيء من هذا ـ على الأقل ليس في الأماكن التي يُفترض وجودها فيها. صرت أنحل وأكثر حماقة. قلت لابد أن نكون عاشقين. وكالعادة تحدثت عن ذلك معها. وعلى أثرها تركتني. فأثارتني ورفضت. ماأرادت أن تمارس. إنها معجبة بي. أحبتني حتى أقرأ لها وأقبلها: بهذه الطريقة كانت تفصح عن عاطفتها تجاهي. لكن الممارسة الأخرى كانت ترفضها تماماً. وهنا افترقنا. فكنت ظالماً وتركتها. ـ ثم كانت لي علاقة مع فتاة أخرى، معلمة، كانت لها سمعة بأنها ذهبت مع رجل متزوج وأفقدته عقله. كانت ناعمة بيضاء البشرة، امرأة من النوع الناعم، وهي أكبر مني، تعزف على الكمنجة. لكنها كانت شيطانة. أحبت كل شيء عن الحب، ماعدا الجنس. تجذب وتلاطف وتزحف إليك بكل طريقة: ولكن إن أنت أكرهتها على الجنس أصرت على أسنانها وأظهرت كراهيتها. أنا أكرهتها على الجنس فكرهتني بسبب ذلك. فأُحبطت ثانية ونفرت، فأنا أريد امرأة تريدني وتريد الجنس. عندئذٍ ظهرت بيرتا كوتس. كانت العائلة تعيش في البيت المجاور لنا عندما كنت شاباً صغيراً، فأنا أعرفهم تماماً. وكانوا من العامة. ذهبت بيرتا إلى مكان أو آخر في برمنغهام وعملت كما قالت كوصيفة لامرأة، لكن الآخرين كلهم قالوا إنها عملت نادلة في فندق. وفي الوقت الذي كنت فيه مع الفتاة الأخرى، عندما كنت في الحادية والعشرين، تعود بيرتا من جديد، بنوع من الثياب الأنيقة والمزركشة جداً، وفيها شيء من التورد: نوع من التورد الجنسي تراه عادة في المرأة، أو في العاهرة القوية. كنت في حالة ارتكاب جريمة. تركت وظيفتي في بترلي لاعتقادي أنها كانت ضارة: وحصلت على وظيفة حداد في رصيف تيفرشال: أنعل الخيول. وهي مهنة أبي، وقد كنت ألازمه

دائماً. كانت الوظيفة التي أحبها: معالجة الخيول: وجاءت مناسبة لي. ولذلك توقفت عن الحديث بأناقة كما يقولون - الانكليزية الصافية - وعدت إلى التحدث باللهجة العامية. ومازلت أقرأ الكتب في البيت حتى اليوم: لكني عملت حداداً، واخترعت أشراكاً للأفراس الصغيرة. وعندما توفي والدي ترك لي ثلاثمئة جنيه. - فذهبت بالجنيهات إلى بيرتا، وسررت لأنها كانت عادية، وأنا أريدها عادية. أنا نفسي أردتها كذلك. - تزوجتها ولم تكن سيئة. أولئك النسوة «الطاهرات» يثرن غيظي، لكنها كانت ممتازة في هذه الناحية. لقد أرادتني، وهي لم تُخفِ ذلك عني. وقد سررت بذلك كثيراً. ذلك ماكنت أريده: امرأة تريدني حتى أنكحها. ونكحتها بكل كفاءة. وأعتقد أنها احتقرتني لأنها سرّت بالعملية، وأحياناً تأتي بإفطارها إلى السرير. كانت تهمل الأشياء فلا تقوم بتحضير الطعام الخاص في الغداء عندما أعود من العمل إلى البيت، وكانت تثور إذا تفوهت بشيء وتهجم علي. وتراجعت. رمت بكوب عليّ فأمسكت بها من قفا عنقها وعصرتها حتى كادت حياتها تخرج منها. هذا ماجرى. ولكنها عاملتني بإهانة. وهكذا صارت تنفر مني عندما أريدها: لم تكن ترغب أبداً. إنها تضعني خارجاً. وعندما تنسجم معي ولاأكون أريدها، تصبح وديعة وتدخل فيَّ. ولاأكون معها. ولكن عندما أكون فيها لاتكون معي. إنها تنتظر فقط. حتى لو بقيت معها نصف ساعة فإنها تبقى أكثر. وعندما أشارف على الانتهاء، تكون هي قد بدأت تستلذ، وأتوقف في داخلها، فتنتفض وتصرخ، إلى أن تحصل على لذتها. وعندما أحاول الإخراج قليلاً تلتصق بي وتسترخي في غبطة جميلة. ثم تقول لي: كان جميلاً. - وبالتدريج مرضت من ذلك: وصارت أسوأ فأسوأ. وصار من الصعب إيصالها إلى لذتها أكثر فأكثر، وكانت نوعاً من الذروة يحل علي، كانت مثل ذروة تتهاوى عليّ. إنك تظنين المرأة تستلقي مثل ثمرة تين. لكني أقول لكِ إن بين ساقيهن هياجات مخزونة قديمة لها ذرى سامقة،

وستمزق هذه الهياجات الرجل تمزيقاً حتى تمرضه. أناني أناني أناني. يمزقن ويصحن. إنهن يتحدثن عن أنانية الرجال الشهوانية، ولكني أشك في أن تصل هذه الشهوانية إلى الشهوة العمياء للمرأة، إذا سارت في هذا الطريق. مثل شاحنة قديمة. وهي لاتقوم بالمساعدة في العملية. قلت لها ذلك، وقلت لها كيف أني أكره عمليتها، لكنها لم تحاول تنفيذ ماطلبته منها. كل ماتفعله أنها تستلقي فقط وتدعني أقوم بالعملية وحدي، بمفردي. إنها لاتحاول. فذلك لم يكن جيداً. إنها لاتحصل على شعور من العملية، أقصد من عملي أنا. عليها أن تقوم بالعمل بنفسها، يجب كما يقال أن تطحن قهوتها بيدها. فإن صادف وشعرت فإنها تترك نفسها لتتابع، فتمزق وتمزق كأنها لاتملك أي شعور سوى شعورها بقمة لذتها، قمة خارجية، تلك التي تحك وتمزق من أجل الوصول إليها. وهكذا تعمل العاهرات المسنات فيصلن إلى قمة اللذة بالحك والتمزيق، كما يقول الرجال عادة. كانت إرادتها الذاتية من النوع الضعيف، كان نوعاً هشاً من الإرادة: تشبه إرادة امرأة مخمورة. ثم إني لاأستطيع أن أُرضيها، فصرنا ننام منفصلين. هي التي بدأت بذلك في نوباتها عندما كانت واضحة معي وقالت إني أفترعها بشدة. فصار لها غرفة خاصة بها. ولكن وصلنا إلى وقت كنت أنا لاأريدها أن تأتي إلى غرفتي. أنا لاأريد. كرهتها. وكرهتني هي أيضاً. ياإلهي كم كانت تكرهني قبل أن تلد طفلتنا. أُرجّح أنها حبلت بها خارج الكراهية. على أي حال تركتها وحدها بعدما ولدت ابنتنا. ثم وقعت الحرب والتحقت بها. ولم أعد حتى عرفت أنها صارت مع صديقها في ستاكس غيت».

أنهى حديثه شاحب الوجه.

سألت كوني «ومن هذا الرجل الذي في ستاكس غيت؟».

«إنه صبي كبير، قليل الكلام. أحكمت قبضتها عليه. وكلاهما يسكران».

ss

«ياإلهي لو عادت ثانية»

«ياالله. وقتها سوف أذهب أنا ـ سوف أختفي ثانية».

وحل صمت. كان لوح الصورة قد صار رماداً في الموقد.

قالت كوني «إذن عندما تكون لديك المرأة التي تريد فإنك تكون قد حزت شيئاً نفيساً».

«يبدو هكذا. ومع ذلك فحتى عندئذٍ أملكها أكثر من الملكيات المتخيلة: حبي في صباي وحب تلك الزنبقة ذات الرائحة المسممة والباقيات».

سألت كوني «ماذا عن الباقيات ومن هن؟».

«الباقيات؟ لايُوجد باقيات. إن جماهير النساء بالنسبة لتجربتي هن على النحو التالي: معظمهن يردن رجلاً، لكنهن لايردن الجنس، يمارسنه، كجزء من الصفقة. واللواتي يسِرن على العادة القديمة يضطجعن فقط ويدعن الرجل يمارس عمله. ولايفكرن في العواقب: ثم هن يحببن. لكن الشيء الحقيقي بحد ذاته ليس شيئاً بالنسبة لهن، إنه شيء قليل الذوق. معظم الرجال يحبون هذه الطريقة. أنا أكرهها. النوع الخبيث من النساء اللواتي يردن هذه الطريقة يزعمن أنهن لايردنها. يدعين أنهن يصلن إلى التواصل العاطفي والشعور باللذة. إنهن يصطنعن ذلك. ـ ثم هناك نساء يحببن كل شيء، كل أنواع الشعور، ويستسلمن لها، لكل نوع ماعدا النوع الطبيعي. إنهن يجعلنك تنطلق عندما لاتكون في المكان المحدد الذي يحب أن تكون فيه، عندما تأخذ بالانطلاق. ـ ثم هناك النوع القاسي العنيد، فحتى الشيطان لايستطيع استدراجهن إلى اللذة، فيأتيهن وقت يشأن، مثل زوجتي. إنهن يردن أن يكن الطرف الإيجابي. ـ ثم هناك النوع الميت داخلياً: بلى الميت، وهن يعرفن ذلك. وهناك نوع يجعلك في الخارج قبل أن تهم بالدخول تماماً في العملية، ويتابعن فرك أردافهن بفخذيك حتى يدخلن في اللذة. لكن معظم هؤلاء من السحاقيات. من

ss

المدهش كيف تكون النساء السحاقيات واعيات وغير واعيات معاً. ويبدو لي تقريباً أنهن كلهن سحاقيات ـ».

سألت كوني «وهل تهتم؟».

«أتمنى قتلهن. عندما أكون مع امرأة سحاقية فعلاً فإن نفسي ترتعب وأريد أن أقتلها».

«وماذا تفعل؟»

«أهرب فقط بمقدار ماأستطيع من السرعة».

«أعتقد أن السحاقيات أسوأ من الرجال الشاذين جنسياً؟»

«أسوأ فعلاً لأني عانيت منهن. بشكل عام ليس عندي فكرة. وعندما أضاجع سحاقية، سواء كانت تعرف ذلك أم لاتعرف، فإني أخجل. لا. لا. أنا لاأريد أن أمارس أبداً مع أي امرأة. تُبت عن هذه الممارسة، أريد حفظ نفسي: حفظ خصوصيتي واحتشامي».

نظرت إليه شاحبة، وكان حاجباه كئيبين.

سألت «وهل أسفت عندما دخلت أنا؟».

«أسفت وسررت».

«وماذا أنت الآن؟».

«آسف من الخارج: فكل التعقيدات والبشاعات والاتهامات سوف تأتي، عاجلاً أم آجلاً. وهذا يكون عندما يغوص دمي وأشعر بأني هويت أسفل. ولكن عندما يفور دمي أكون مسروراً. إني جد مسرور. كنت أتعذب فعلاً. كنت أقول لم يبق بعد جنس حقيقي: لاتوجد امرأة تدخل فعلاً مع الرجل: ماعدا الزنجيات ـ على أي حال ـ لابأس نحن بيض: هم أشبه بالطين».

سألت «والآن هل أنت مسرور مني؟».

«بلى عندما أستطيع أن أنسى الباقيات. وعندما لاأستطيع

نسيان الباقيات فإني أود أن أختفي تحت الطاولة وأموت».

«لماذا تحت الطاولة؟».

ضحك «لماذا؟ أختبئ فقط، أعتقد أني مثل الطفل».

قالت «يبدو أن لك تجارب مرعبة مع النساء».

«كما ترين إني لاأخادع نفسي. وهذا مايفعله معظم الرجال. أنا أعرف ماذا أريد من المرأة ـ ولاأستطيع القول بأني أحصل عليه عندما لايكون في قبضتي».

«وهل حصلت عليه الآن؟».

«يبدو أنه يمكن الحصول عليه».

«إذن لماذا أنت شاحب وحزين؟».

«من جراء التذكر: وربما خوفاً من نفسي».

جلست بصمت. وكان الوقت متأخراً.

سألته «وتعتقد أن هذا مهم للرجل والمرأة؟».

«بالنسبة لي مهم. إنه صميم حياتي إن كانت لي علاقة صحيحة مع امرأة».

«وإن لم تحصل عليه؟».

«إذن أمارس العملية من دونه».

وقد عجبت قبل أن تسأل:

«وهل تعتقد أن علاقتك كانت دائماً صحيحة مع النساء؟».

«ياالله، لا. تركت زوجتي تصل إلى ماهي عليه: كانت غلطتي كبيرة. أتلفتها. وأنا صرت قليل الثقة بنفسي. وعليك أن تتوقعي ذلك. أن تجعلي إنساناً يثق بنفسه داخلياً، فذلك يستغرق طويلاً. ربما أنا أيضاً مخادع. أنا قليل الثقة. ويجب ألا أحيد عن اللطافة».

نظرت إليه.

«أنت لست قليل الثقة بجسدك، عندما يفور دمك» قالت ثم تابعت «أنت عندئذٍ لست قليل الثقة، أليس كذلك؟».

«لا ياحسرتي. هذا ماسبب لي كل المشكلات. وهذا ماجعل عقلي لايثق بعمق».

«دع عقلك لايثق. لايهم ذلك».

تنهدت الكلبة بانزعاج على الحصير. وترمّدت قطعة خشب فغاصت.

قالت كوني «إننا زوج من المحاربين المدحورين».

ضحك «وأنت مدحورة أيضاً؟ وهنا نعود إلى الشجار».

«بلى أشعر أنه مرعب حقاً».

«إي».

نهض ووضع حذاءيها ينشفان، ومسح حذاءيه، ثم وضع حذاءيها وحذائيه قرب النار. في الصباح سوف يدهنهما. حرك نار لوح الصورة قدر الإمكان خارج النار. قال «حتى لو احترق يظل قذراً» ثم جاء بقضبان وكومها استعداداً للصباح. ثم خرج لفترة مع الكلبة.

عندما عاد قالت كوني:

«أنا أيضاً أريد أن أخرج لدقيقة إلى الخلاء».

ذهبت وحدها في العتمة. كانت النجوم فوق رأسها. شمت رائحة الأزهار من هواء الليل. وشعرت أن حذاءها المبلل قد صار مبللاً أكثر الآن. لكنها شعرت كأنها تبتعد، تبتعد تماماً عنه وعن كل شخص.

كان هناك برد. ارتجفت وعادت إلى المنزل. كان يجلس أمام النار الخفيفة.

ارتجفت وهي تقول «أخ. برد».

وضع القضبان في النار وبحث عن المزيد، وراح يغذي النار حتى حصلا على لهبة جيدة في الموقد. إنَّ تراقُصَ اللهب الأصفر جعل الاثنين سعيدين، فأدفأ وجهيهما ونفسيهما.

قالت ممسكة يده وهي تجلس صامتة بعيدة «لاتهتم. إن واحدنا يبذل قصارى جهده».

«إي» ـ تنهد مبتسماً قليلاً.

انزلقت إليه، وبين ذراعيه، وجلسا هناك أمام النار.

همست «انس إذن انس».

ضمها أكثر إليه وحرارة النار ترتفع أكثر. فصارت النار نفسها شبه منسية. وبنعومتها ودفئها والتصاقها أعادت إليه دمه، وبدأ الضعف يتراجع وعادت إليه القوة مرة أخرى.

قالت «لكن ربما كانت النساء يردن فعلاً أن يكنَّ هناك وأن يحببنك على نحو خاص، ربما فقط لأنهن لم يستطعن أن يكنَّ هناك. ربما، ربما لم تكن الغلطة غلطتهن».

«أعرف ذلك. أتظنين أني لاأعرف أني أنا كنت الأفعى المكسورة الظهر التي ديست، أنا نفسي».

التصقت به فجأة لم تشأ أن تبدأ معه هذا مرة ثانية. إلا أن حماقتها دفعتها.

قالت «لكنك لاتعرف. فأنت لم تكن يومئذٍ ماأنت عليه الآن: الأفعى المكسورة الظهر التي ديست».

«لاأعرف من أنا. إن أمامنا أياماً سوداً».

عارضته ملتصقة به «لا. لماذا؟ لماذا؟».

كرر بكآبة نبوئية «أيام سود قادمة ـ لنا كلينا ولكل ابن أنثى».

«لا. ماكنت لتقول هذا».

ss

صَمَتَ. لكنها لم تشعر بالفراغ الأسود من اليأس في داخله. وهو موت كل رغبة، موت كل حب: كان هذا اليأس مثل الكهف المظلم داخل الرجال، والذي فيه تضيع روحهم.

قالت «إذن هكذا تتحدث ببرود عن الجنس. تتحدث كما لو كنت تريد فقط متعتك الخاصة وإشباعك الخاص».

كانت تعارضه بعصبية.

قال «لا. أردت أن أملك متعتي وإشباعي من امرأة، ولكني لم أحصل عليها: لأني لاأستطيع أن أحصل على رغبتي وإشباعي منها مالم تحصل على متعتها وإشباعها مني في الوقت ذاته. وهذا مالم يحدث. إن العملية تشمل الاثنين».

قالت «ولكنك لم تؤمن قط بنسائك، بل إنك لم تؤمن حتى بي أنا».

«لاأعرف ماذا يعني الإيمان بامرأة».

«ذلك هو كما ترى».

كانت ماتزال تلتف في حضنه. لكن روحه كانت كئيبة وغائبة، لم يكن مكرساً لها. وكل ماتفوهت به أبعده أكثر.

ألحفت «ولكن بماذا أنت تؤمن؟».

«لاأعرف».

قالت «لاشيء ـ مثل كل الرجال الذين عرفتهم».

صمت الإثنان معاً. ثم رفع نفسه وقال:

«بلى أؤمن بشيء ما. أؤمن بوجود قلب دافئ أؤمن خصوصاً بوجود القلب الدافئ في الحب، في النكاح بقلب دافئ. أؤمن أن الرجال إذا نكحوا بقلب دافئ، وأن النساء إذا تلقين ذلك بقلب دافئ، فإن كل شيء يستقيم ويصبح صحيحاً. كل هذه النكاحات بقلب بارد ليست سوى موت وبلادة».

عارضته «لكنك لم تضاجعني بقلب بارد».

«لم أشأ مضاجعتك أصلاً. فقلبي بارد كحبات البطاطا الآن».

قالت وهي تقبّله ساخرة «أوه ـ إذن دعنا نأخذ البطاطا مقلية».

ضحك واستقام في جلسته.

قال «الحقيقة أن كل شيء بحاجة إلى دفء قلبي. لكن النساء لايرغبن فيه. حتى أنتِ لاتحببينه فعلاً. أنت تحببين النكاح الجيد الحاد الضاغط البارد، ثم تزعمين أنه حلو كالسكر. فأين لطافتك معي؟ أنت تشكين بي شك الهرة بكلب. أنا أخبرتك بأن العملية تشمل الاثنين معاً في اللطافة ودفء القلب. أنت تحبين النكاح على أصوله: لكنك تريدين أن تسميه شيئاً عظيماً وسرانياً، حتى تتملقي أهميتك الذاتية الخاصة. إن أهميتك الذاتية الخاصة بالنسبة لك أكبر بخمسين مرة من أي رجل، أو من كونك مع رجل».

«ولكن هذا ماكنت سأقوله لك. فأهميتك الذاتية الخاصة هي كل شيء عندك».

قال متحركاً كما لو كان يريد أن ينهض «لابأس إذن فلنبق منفصلين. فأنا أفضل الموت على أن أقوم بأي نكاح بارد».

انسحبت منه ووقفت.

قالت «أوتظن أني أريده؟».

أجاب «آمل ألا تريدينه. على أي حال اذهبي إلى السرير وأنا أنام هنا».

نظرت إليه. كان شاحباً، عاقد الحاجبين، كان بعيداً في تراجعه كالقطب البارد. الرجال دائماً هكذا مثله.

قالت «لاأستطيع العودة إلى البيت إلا في الصباح ـ».

«لا. اذهبي إلى السرير. إنها الواحدة إلا الربع».

قالت «بالتأكيد لاأريد».

ذهب متقاطعاً معها والتقط جزمته.

قال «إذن أخرج أنا».

ss

بدأ ينتعل جزمته فحملقت فيه.

قالت متلعثمة «انتظر، انتظر ماذا حدث بيننا؟».

كان منحنياً فوق جزمته يربطها فلم يجب. ومرت لحظات. حلت عليها ظلمة أشبه بغيبوبة. مات كل وعي فيها، فوقفت تنظر إليه بعينين واسعتين من المجهول، فهي لم تعد تعرف أي شيء.

دفعه الصمت أن ينظر إلى الأعلى فرأى اتساع عينيها وضياعها. وكما لو أن ريحاً دفعته نهض وهبّ إليها، بقدم حاف وقدم منتعل، وأخذها بين ذراعيه، وضغطها على جسده، الذي شعر بالأذى يخترقه. وهناك ضمها وهناك مكث.

امتدت يداه على نحو أعمى إلى أسفل وشعر بها، امتدت إلى ماتحت ثيابها حيث كانت رقيقة ناعمة.

همس «ياجميلتي، ياجميلتي الصغيرة، لاتدعينا نتحارب، يجب ألا نتحارب أبداً. إني أحبك، لقد لامستني. دعينا من الحديث. لاتتناقشي معي، لا، لا، لا. فلنكن معاً».

رفعت رأسها ونظرت إليه.

قالت بقوة «لاتنزعج. لاأحب أن تنزعج. أتريد حقاً أن تكون معي؟».

نظرت في وجهه بعينين قويتين واسعتين. توقف وجمد فجأة وأدار وجهه جانباً. كل جسده صار جامداً تماماً. لكنه لم ينسحب. عندئذٍ رفع رأسه ونظر في عينيها بابتسامته الضعيفة الغريبة وقد هدأ انفعاله.

قال «إي، فلنكن معاً. فلنكن معاً مقسمين على ذلك».

قالت والدموع تملأ عينيها «أحقاً؟».

«حقاً. القلب والبطن والديك ـ».

ظل ينظر إليها بابتسامة ضعيفة، مع ومضة من سخرية في عينيه، ومسحة من مرارة.

ss

كانت تبكي بصمت، فاستلقى معها ودخل فيها هناك على سجادة الموقد، فعاد إليها جأشها. عندئذٍ قاما سريعاً إلى السرير، لأن العملية كانت تسير إلى الرعشة، وقد تعب كل من الآخر لأنه مايزال خارجاً. استكانت إليه شاعرة بأنها صغيرة ومنفتحة، فأخلدا للنوم معاً، بسرعة في نومة واحدة. وهكذا اضطجعا ولم يتحركا، حتى ارتفعت الشمس فوق الغابة تعلن بداية النهار.

عندئذٍ استيقظ ونظر إلى النور. سحب الستائر. استمع إلى النداء الوحشي العالي للشحارير والسمنات في الغابة. سيكون صباحاً رائعاً، الخامسة والنصف، موعد نهوضه. لقد نام سريعاً. كان نومه مثل نهار جديد. كانت المرأة ماتزال ملتفة تنام بهدوء. تحركت يده عليها، ففتحت عينيها الواسعتين المندهشتين، مبتسمة في وجهه بلا وعي.

قالت له «هل نهضت؟».

كان ينظر في عينيها. ابتسم وقبّلها. وبعدها استيقظت وجلست.

قالت «تخيل أنني هنا».

نظرت حولها في كل غرفة النوم بسقفها المنحدر وشباكها الجملون حيث ماتزال الستائر البيضاء مسدلة. كانت الغرفة عارية باستثناء صندوق من الأدراج دهن بالأصفر، وكرسي: والسرير الأبيض الصغير الذي نامت فيه معه.

«تخيل أننا هنا» قالت ونظرت إليه. كان مستلقياً يراقبها، مداعباً صدرها بأصابعه من تحت ثوب النوم. وحين شعر بالدفء بدا شاباً وأنيقاً. صارت عيناه تبدوان دافئتين. وكانت هي ريّانة فتية مثل زهرة.

«أريد أن أنزع هذا» قال هذا وجمع قميص النوم وسحبه من فوق رأسها. فجلست بكتفين عاريتين وصدر واسع يميل قليلاً إلى

ss

اللون الذهبي. وهي تحب أن تجعل نهديها يتأرجحان بنعومة مثل جرسين.

قالت «وعليك أن تخلع بيجامتك أيضاً».

«أوه، لا، لا».

قالت بلهجة آمرة «بلى، بلى».

فخلع جاكيت بيجامته القطنية القديمة، وأنزل بنطاله. وماعدا يديه ومعصميه ووجهه وعنقه، كان أبيض مثل الحليب، بجسد هزيل بانت عضلاته. وبدا لكوني فجأة أنه جميل مرة ثانية، كما شاهدته يغتسل في أصيل ذلك اليوم.

لامست أشعة الشمس الستائرَ البيضاء المسدلة. شعرت أنها تريد أن تدخل.

قالت «أوه، دعنا نسحب الستائر. فالعصافير تغني، ولندع الشمس تدخل».

نزل من السرير وظهره إليها، عارياً أبيض نحيلاً، منحنياً قليلاً، ساحباً الستائر، ناظراً إلى الخارج نظرة سريعة. كان ظهره أبيض جميلاً، وكانت خاصرتاه صغيرتين مع رجولة لطيفة، وكان قفا عنقه أحمر وجميلاً وقوياً أيضاً. كانت هناك قوة داخلية لاقوة خارجية في هذا الجسد اللطيف الجميل.

قالت «ولكنك جميل نقي ولطيف، تعال» وفتحت ذراعيها.

كان خجلاً من الالتفات إليها، بسبب عريه. أمسك بقميصه من الأرض وضمه إليه وجاء إليها.

«لا» قالت وماتزال تفتح ذراعيها الرقيقتين الجميلتين من صدرها الوثاب «دعني أراك».

ترك القميص ووقف جامداً ينظر باتجاهها. وأرسلت الشمس من النافذة المنخفضة شعاعاً سقط على فخذيه وبطنه النحيل، وهنه

ss

المستشار ينظر نظرة حارة من أعماق غيمة صغيرة من الشعر الأحمر الذهبي. كانت قلقة وخائفة.

قالت ببطء «كم يبدو غريباً، غريباً يقف هناك، كبيراً وقاتماً واثقاً ثقة الديك. أهو كذلك؟».

نظر الرجل إلى تحت، إلى مقدمة جسده الأبيض العضلي، وضحك. بين صدره النحيل كان الشعر قاتماً، أو بالأغلب أسود. لكن في أسفل بطنه، حيث بان عُريه ناهضاً، كان الشعر أحمر ذهبياً حيوياً، التم واجتمع في غيمة صغيرة.

همست «ياله من فخور. إنه لورد. الآن عرفت لماذا يتغطرس الرجال. ولكنه جميل حقاً. مثل أي كائن آخر. مرعب قليلاً، لكنه جميل فعلاً. وهو آتٍ إلي ـ». وعضت على شفتها السفلى، في خوف وإثارة.

بصمت نظر الرجل إلى الأسفل، إلى هنه، الذي لم يتغير ـ «إي» قال أخيراً بصوت خفيض «إي ياجميلتي. أنت تقولين الصواب تماماً. ومع ذلك يجب أن تبعدي رأسك. ليس لديك إلا ملكك هذا. أليس كذلك؟ فلاتحسبي حساب أحد. أما أنت فقد تفوقت علي ياهني ياجون توماس. ألست معلماً فناناً؟ ألست معلمي؟ إيه، لابأس، أنت ديك متباه أكثر مني، مع أنك لاتقول إلا القليل. آه ياجون توماس. ألا تريدها؟ ألا تريد سيدتي جين؟ فاجعلني اغطس فيها مرة أخرى، أسرع. هيا انتصب مبتسماً. ـ افترعها اذن. افترع الليدي جين وقل: افتحي مصاريعك أيتها البوابات، فقد يصل ملك المجد ويعبر. ضع خدك عليه، فهذا ماستفعله فيما بعد. أخبر الليدي جين أنك تريد الإبحار فيه ـ».

«أوه، لاتغظني، لاتحرقصني» قالت كوني زاحفة على ركبتيها على السرير باتجاهه واضعة ذراعيها حول خاصرتيه البيضاوين، وسحبته إليها حتى لامس صدرها المتأرجح الواثب رأس السير

ss

جون توماس المستثار، ولامست قطرة من فمه. رفعت الرجل بسرعة.

قال «استلقي، استلقي، دعيني أدخل».

كان الآن مسرعاً.

بعد ذلك عندما هدأ تماماً كشفت المرأة الغطاء عن الرجل ثانية، لتنظر في سر جون توماس.

قالت «هو ذا الآن صغير ناعم مثل برعم حياة» وأخذت الصغير الناعم بيدها. «إنه جميل، جميل بحد ذاته، وغريب. وأيضاً بريء. لقد ذهب بعيداً في داخلي. ويجب ألا توجه إليه إهانة. افهم ذلك. إنه لي أيضاً. ليس لك وحدك فقط. إنه لي. لذلك هو جميل وبريء». ورفعته بيدها.

ضحك.

قال «مباركة الربطة التي تعقد قلبينا بحب لطيف».

قالت «طبعاً. حتى عندما يكون صغيراً ناعماً أشعر أن قلبي مرتبط به. وكم جميل شعرك هنا. إنه شعر مختلف تماماً».

قال «إنه شعر جون توماس وليس شعري».

«آه ياجون توماس، ياجون توماس» وبسرعة قبّلت جون توماس الناعم، الذي بدأ يثار مرة أخرى.

قال الرجل ممدِداً جسده بألم تقريباً «آه. إنه يضرب جذره في نفسي، هذا الجنتلمان. وأحياناً لاأعرف ماذا أفعل به. إن له إرادته الخاصة، ومن الصعب إرضاؤه. ومع ذلك لاأريد أن يقتل».

قالت «لاعجب إذا كان الرجال يخافونه، إنه بالأحرى مرعب».

كان الرجفة تسري في جسد الرجل، حالما غيّر تيّار الوعي اتجاهه، نحو الأسفل. وكان يائساً، حالما راح جون توماس يتهادى

ss

مرتفعاً ممتلئاً ناهضاً، قوياً، متباهياً بنفسه، على شكل برج غريب. وقد ارتجفت المرأة قليلاً عندما شاهدته.

قال الرجل «هناك. إنه هناك. تناوليه إنه رفيع».

ارتعدت وانصهر عقلها. أمواج ناعمة حادة من المتعة غير الناطقة تغسلها كلما أوغل فيها، وبدأت الإثارة المنصهرة الغريبة تنتشر وتنتشر إلى أن حملتها بعيداً مع آخر ومضة من ذروتها.

سمع الصياحات البعيدة لستاكس غيت، في الساعة السابعة. كان صباح يوم الاثنين. ارتعد قليلاً ووجهه بين ثدييها يرفعهما بأذنيه، حتى يصمانه.

إنها لم تسمع حتى الصياحات. استلقت هامدة تماماً، وصارت نفسها شفافة.

همس «يجب أن تنهضي، أليس كذلك؟».

جاء صوتها بلا لون «كم الساعة الآن؟».

«قرعت الساعة سبع ضربات منذ قليل».

«اعتقد أنه يجب أن أنهض».

كانت ممتعضة كعادتها دائماً، الاضطرار يأتي من الخارج.

نهض ونظر من النافذة بلا هدف.

سألته بهدوء «تحبني، أنت تحبني، أليس كذلك؟».

تطلع إلى أسفل، إليها.

قال متلعثماً قليلاً «إنك تعرفين ماتعرفين. ماالذي جرى لكِ».

قالت «أريدك أن تحتفظ بي ـ لاتدعني أذهب».

بدت عيناه مليئتين بالدفء، وبعتمة داكنة، لاتمكناه من التفكير.

«متى؟ الآن؟».

«الآن في قلبك. ثم أريد أن آتي لأعيش معك دائماً ـ حالاً سآتي».

ss

جلس عارياً في السرير، منكساً رأسه غير قادر على التفكير.

سألت «ألا تريده؟».

قال «إي».

ثم نظر إليها بالعينين ذاتهما الكامدتين بلهيب آخر من الوعي، يشبه النوم.

قال «لاتدخليني الآن. دعيني. أحبك. أحبك عندما تضطجعين هناك. فالمرأة هي أجمل شيء عندما تغوص في الضجاع ويكون فرجها ممتازاً، أحبك، أحب ساقيك، وأحب شكلك فوقهما، وأنوثتك التي فوقك. آه أحب الأنوثة فيك، أحبك مع كراتي، ومع قلبي. ولكن لاتدخلي فيّ الآن. ولاتقولي لي شيئاً. دعيني أتوقف كما أنا تماماً بقدر ماأستطيع. إنك تستطيعين أن تدخلي في ماتريدين فيما بعد. الآن دعيني كما أنا، دعيني كما أنا».

وبنعومة وضعت يدها على تلة فينوس، على شعر التلة الناعم، وقد جلس هو هامداً على السرير عارياً، وجهه بلا حركة في تجريد جسدي، يشبه وجه بوذا. بلا حركة وبلهيب غير مرئي لوعي آخر، جلس ويده عليها، وانتظر أن تنهض.

بعد لحظة تناول قميصه ووضعه عليه وراح بسرعة يرتدي ثيابه وبصمت، ناظراً إليها وهي ماتزال هامدة عارية ذهبية مثل غلواردي ديجون نهض من السرير وذهب. سمعته يفتح الباب عند الدرج.

ظلت مستلقية مستمتعة مستمتعة. من الصعب عليها أن تذهب: أن تخرج من هالته. قال وهو في أسفل الدرج: «السابعة والنصف». تنهدت ونهضت من السرير. الغرفة الصغيرة العارية! لاشيء فيها إطلاقاً إلا صندوق الأدراج الصغير والسرير الصغير. لكن أرض الغرفة كانت في غاية النظافة. وفي زاوية، قرب النافذة الجملون رف مع بعض الكتب من مكتبة التداول. نظرت. هناك كتب عن روسيا

البلشفية، وكتب عن الرحلات والأسفار والكهرباء، وآخر عن تركيب باطن الأرض، وأسباب الزلازل والهزات: ثم بضع روايات: ثم ثلاثة كتب عن الهند. إذن كان قارئاً رغم كل هذا.

سقطت الشمس على أطرافها العارية من خلال النافذة الجملون. ورأت في الخارج الكلبة فلوسي تطوف دائرة. وحاجز البندق جعله الضباب أخضر وأخضر كامداً. كان صباحاً رائقاً صافياً، بطيوره التي تحلّق وتغني مبتهجة. آه لو أنها تستطيع أن تبقى. آه لو لم يكن هناك العالم الشبحي الآخر للدخان والحديد. لو أنه يجعلها عالماً له وحده.

هبطت الدرج إلى العشب والدرجات الخشبية الضيقة. ماتزال راضية بهذا البيت الصغير ـ لو أنه فقط يحتفظ بعالمه الخاص.

غسل وجهه فانتعش وكانت النار ملتهبة.

قال «أي شيء تريدين أن تأكلي؟».

«لاشي، أعرني مشطاً فقط».

وتبعته إلى غرفة غسل الأطباق، ناظرة إلى الأزهار التي بللها الندى، إلى سرير القرنفل المبرعم.

قالت «أتمنى لو اختفى سائر العالم كلهم، وأعيش معك هنا».

قال «لن يختفي».

ذهبا بصمت عبر الغابة الندية. لكنهما كانا معاً في عالمهما الخاص.

الأفضل لها أن تذهب إلى راغبي.

قالت عندما تركته «بأسرع مايمكن سآتي وأعيش معك».

ضحك من دون أن يجيب.

بهدوء ومن دون أن يلاحظ أحد دخلت البيت وصعدت إلى غرفتها.

الفصل الخامس عشر

كانت هناك رسالة من هيلدا على صينية الافطار. ـ «ذهب الوالد إلى لندن هذا الأسبوع، وسوف أدعوك يوم الخميس في السابع عشر من حزيران. عليك أن تكوني جاهزة بحيث نذهب فوراً. لاأريد أن أهدر الأيام في راغبي، ياله من مكان مرعب. سأقيم هذه الليلة مع كولمانز، وبذلك أستطيع أن أكون عندك على الغداء يوم الثلاثاء. ويمكن أن ننطلق وقت شرب الشاي، وربما نبيت في غرانتهام. لافائدة من تمضية المساء مع كليفورد. إن كان يكره ذهابك، فهذا لن يجلب له السرور».

إذن كانت مندفعة حول رقعة الشطرنج مرة أخرى.

كان كليفورد يكره ذهابها، فقط لأنه لايشعر أثناء غيابها بالأمان. فحضورها، لسبب ما، يُشعره بالأمان، والحرية في أن يعمل أشياء يهتم بها. كان له اهتمام كبير بالحُفر، ويعالج تقريباً القضايا اليائسة لتوفير الشكل الاقتصادي الأمثل لفحمه وبيعه في الأسواق، عندما يتوافر هذا الشكل الاقتصادي. وهو يعرف أن عليه أن يجد طريقة ما لاستخدامه، أو تحويله، بحيث لايضطر إلى بيعه، ولا الفشل في بيعه. ولكن إذا حوله إلى طاقة كهربائية فهل يستطيع بيعها؟ أو استخدامها؟ أما التحويل إلى زيت فقد كان باهظ الكلفة ومتطوراً جداً. وللحفاظ على الصناعة حية لابد أن يكون هناك

صناعات كثيرة، صناعات كثيرة وصناعات كثيرة، مثل الجنون.

كان جنوناً، ويحتاج إلى مجنون حتى يكون ناجحاً في ذلك. على أي حال كان هو مجنوناً صغيراً. هكذا اعتقدت كوني. فحذاقته الواسعة وحصافته في شؤون الحفر بدت لها أشبه ببيان عن الجنون، فإلهاماته كانت إلهامات الجنون.

حدثها بكل مشاريعه الجادة، فأصغت بنوع من الإعجاب، وتركته يتحدث. ثم توقف الجريان، وانقلب إلى مكبر صوت في راديو وصار أجوف، بينما تراكمت مشاريعه في داخله مثل حلم.

في كل ليلة الآن يلعب بالورق لعبة العوامة ـ لعبة الجنود البريطانيين في الحرب ـ مع السيدة بولتون، مقامراً بالبنسات الستة. كما أنه في القمار أيضاً كان ينجرف مع حالة من اللاوعي، أو التسمم الخاوي، أو تسمم الخواء لافرق. لم تعد كوني قادرة أن تتحمله. ولكن عندما كانت تأوي إلى فراشها كان يستمر بالقمار مع السيدة بولتون حتى الثانية أو الثالثة صباحاً، بأمان وبشهوة غريبة. وكانت شهوة السيدة بولتون لاتقل عن شهوة كليفورد في اللعب: لكن تقريباً كانت دائماً تخسر.

أخبرت كوني في أحد الأيام: «خسرت ثلاثة وعشرين شلناً مع السير كليفورد الليلة الماضية».

فسألتها مشدوهة «وهل أخذ منك النقود؟».

«طبعاً ياسيدتي. إنه دين شرف كأي دين قمار».

راحت كوني تعنف بشدة، وكانت غاضبة من الاثنين معاً. كانت النتيجة أن رفع السير كليفورد أجور السيدة بولتون مئة جنيه في السنة، فصار بإمكانها أن تقامر. بينما بدا كليفورد لكوني أثناء ذلك أنه يسير على نحو أشد هلاكاً حقاً.

أخيراً أخبرته أنها ستغادر في السابع عشر.

قال «السابع عشر، ومتى ستعودين؟».

«في العشرين من تموز على أقصى حد».

«نعم. في العشرين من تموز».

نظر إليها بخواء وغرابة، وبغموض طفل، ولكن بمكر أجوف خبيث لرجل عجوز.

قال «لن تدعيني الآن، أليس كذلك؟».

«كيف؟».

«إذ تكونين بعيدة. أقصد أنك متأكدة من العودة؟».

«متأكدة مثلما أنا متأكدة من أي شيء آخر، بأني سأعود».

«بلى، لابأس، في العشرين من تموز».

نظر إليها مستغرباً.

ومع ذلك فقد كان يريدها أن تذهب. وكان ذلك غريباً. أرادها أن تذهب، بكل إيجابية، لتقوم بمغامراتها الصغيرة، وربما تعود إلى البيت حاملاً، وهذا مايريده. وفي الوقت نفسه كان خائفاً من ذهابها، بلى كان خائفاً تماماً.

كانت ترتجف وهي تراقب الفرصة الحقيقية لتركها له كلياً، منتظرة الوقت المناسب لها وله.

جلست وتحدثت إلى الحارس عن رحلتها إلى الخارج.

قالت «ثم عندما أعود يمكنني أن أخبر كليفورد بأني يجب أن أتركه. ويمكن لي ولك أن نرحل بعيداً. ليس من الضروري حتى أن يعرفوا أنك أنت. يمكن أن نذهب إلى بلاد أخرى، أليس كذلك؟ إلى أفريقيا أو أستراليا. أليس كذلك؟».

أثارته خطتها كل الإثارة.

سألها «أنت لم تذهبي إلى المستعمرات، أليس كذلك؟».

«لا. وأنت؟».

ss

«كنت في الهند وجنوب أفريقيا ومصر».

«لم لانذهب إلى جنوب أفريقيا؟».

قال ببطء «قد نذهب».

سألت «أو لاتريد أنت؟».

«لاأبالي. أنا لاأهتم كثيراً فيما أفعل».

«ألا يجعلك هذا سعيداً؟ لم لا؟ لن نكون فقراء. أنا أملك قرابة ستمئة جنيه في العام، وقد كتبت وسألت. ليس كثيراً جداً ولكنه يكفي أليس كذلك؟».

«إنه غنى كبير بالنسبة لي».

«أوه، كم سيكون ذلك جميلاً».

«ولكن عليَّ أن أحصل على الطلاق ـ وكذلك أنت ـ إلا إذا أردنا أن نقع في التعقيدات ـ».

كان هناك فُسْحة كبيرة للتفكير.

في يوم آخر سألته عن نفسه. كانا في الكوخ، وكان هناك عاصفة.

«ألم تكن سعيداً عندما كنت ليوتنانتاً وضابطاً وجنتلماناً؟».

«سعيد؟ لابأس أنا أحب كولونيلي».

«وهل أحببته؟».

«بلى أحببته».

«وهل أحبك؟».

«بلى أحبني».

«أخبرني عنه».

«ماذا أخبركِ؟ ترقى من بين صفوف الجيش. أحب الجيش. لم يتزوج أبداً. كان يكبرني بثمان وعشرين سنة. كان رجلاً لطيفاً:

وكان في الجيش وحده كما يكون الرجل: عاطفي على طريقته: وضابط ذكي جداً. عشت تحت إمرته، عندما كنت معه. تركته يوجه حياتي. وأنا لن أندم على ذلك».

«وهل تتذكر شيئاً عنه عندما مات؟».

«كنت قريباً من الموت أنا نفسي. وعندما عدت إلى نفسي عرفت أن قسماً مني قد انتهى. ـ ولكني أعرف أن كل شيء سوف ينتهي بالموت دائماً. كل الأشياء تعمل، مثل تلك التي تمضي».

جلست وراحت تفكر. برقت العاصفة في الخارج. فكان الكوخ أشبه بفلك صغير في الطوفان.

قالت «يبدو أن وراءك كمية من هذا الشيء».

«صحيح؟ يبدو لي أنني مت مرة أو مرتين من قبل. ومع ذلك فأنا هنا. مزروع كالوتد، من أجل المزيد من المزعجات».

كانت تفكر بشدة، ومع ذلك تصغي إليه.

«ألم تكن سعيداً كضابط وجنتلمان، عندما مات كولونيلك؟».

ضحك فجأة «لا. لأني لم استمر سوى فترة ضئيلة. اعتاد الكولونيل أن يقول: أيها الفتى إن الطبقات الانكليزية الوسطى تضطر أن تمضغ كل لقمة ثلاثين مرة لأن أحشاءها ضيقة، فلقمة البازلاء صغيرة كانت أو كبيرة تسبب انسداداً. إنهم أصغر جهاز اختُرع من الشحارير المخنثة: إنهم مليئون بفساد أنفسهم، يخافون إذا لم تكن سيور الجزمة صحيحة، فاسدون مثل لحم الطيور المتفسخة، ودائماً على صواب. وهذا مايقضي علي. يتزلفون ويتزلفون كالحمار اللاحس إلى أن تخشن ألسنتهم: ومع ذلك هم دائماً على صواب. متعجرفون في قمة كل شيء. متعجرفون. جيل من المتعجرفين، بنصف كرة مع كل واحد ـ».

ضحكت كوني، وكان المطر يهطل بغزارة.

«كان يكرههم».

قال «لا. إنه لم ينزعج. إنما لم يكن يحبهم. وهناك فرق. إذ، كما قال، يملك الجنود الانكليز التعجرف ونصف الكرة والأحشاء الضيقة. إن مصير البشرية أن تسير في ذلك الطريق».

«والعامة أيضاً ـ والعمال؟».

«كلهم بلا استثناء. حيويتهم تموت ـ امتصت السيارات والسينمات والطائرات آخر قطرة منهم. وليكن في علمكِ أن كل جيل ينسل جيلاً أشد جبناً، مع أقنية مطاطية هندية لأحشائهم وسيقانهم الهزيلة ووجوههم الرقيقة. أناس هزيلون. إنه نوع قوي من البلشفية ـ كل مايفعلونه قَتْل الشيء الإنساني وعبادة الشيء الميكانيكي. المال. المال. المال. إن كل الأجيال الحديثة تقوم على قتل الشعور الإنساني القديم من الإنسان، جاعلين من آدم القديم وحواء القديمة لحماً مفروماً. والعالم كله متشابه: اقتل الواقع الإنساني، مضغة لكل قلفة، ومضغتان لكل زوج من الكرات. فما الفرج سوى آلة نكاح. ـ وكل الآلات متشابهة. ادفع مالاً لتقضي على زعيم العالم. ادفع مالاً، مالاً، مالاً لهم وسوف تأخذ كل حيوية البشرية، وتتركهم آلات تقعقع».

جلس هناك في الكوخ، ورانت على وجهه سخرية هازئة. ولكن حتى عندئذٍ، كانت له أذن في ظهره تصغي للعاصفة التي تضرب الغابة. جعلته يشعر أنه وحيد.

قالت «أما من نهاية لهذا أبداً؟».

«بلى، هناك نهاية. إنها تحقق انعتاقهم. وتحل هذه النهاية عندما يُقتل آخر إنسان حقيقي فيصيروا جميعاً مروَّضين: بيض وسود وصفر، وكل الألوان: وقتها يصيرون كلهم مجانين. لأن أصل الجنون موجود في الكرات. ـ سيكونون جميعاً مجانين، ويقومون جميعاً بالأوتودافي. هل تعرفين أن الأوتودافي تعني فعل الإيمان؟

ss

أوه ـ لابأس ـ إنهم يقومون بفعل إيمانهم الخاص الصغير العظيم. سوف يدفع واحدهم الآخرين».

«تقصد أن يقتل الواحد الآخر؟».

«أقصد ياحبيبتي. إن سرنا على هذا المنوال فبعد مئة عام فقط لن يكون في هذه الجزيرة من السكان أكثر من عشرة آلاف: ربما لايكون هناك عشرة. وكل واحد سوف يزيح الآخر» ـ كانت العاصفة قد انداحت بعيداً.

قالت «كم هو جميل».

«جميل جداً تأمّل نهاية الأنواع البشرية، والتوقف الطويل الذي يتبعه قبل أن تنشأ أنواع أخرى، إن ذلك يهدئ أعصابك أكثر من أي شيء آخر. ـ فإن تابعنا في هذا الطريق، مع أي إنسان، مع المثقفين والفنانين والحكومة والصناعيين والعمال، فإن كلاً منهم يقتل الشعور الإنساني، وهو الجزء الأخير من بصيرتهم، آخر غريزة سليمة ـ. فإذا استمر في تقدم جبري، وهو مستمر الآن: إذن السلام على الأنواع البشرية، وداعاً أيها الأعزاء. إن الأفعى تبلع نفسها من ذيلها، وتترك فراغاً، قد يكون ضيقاً ولكنه لايصل إلى اليأس. جميل جداً. عندما تنبح الكلاب البرية المتوحشة في راغبي وتترافس البغال الصغيرة في رصيف حفرة في تيفرشال. إننا نمجدك أيها الرب! تي ديوم لوداموس».

ضحكت كوني ولكن ليس بسعادة كبيرة.

قالت «إذن أنت مسرور جداً لأنهم جميعاً بلاشفة. يجب أن تُسرّ لأنهم يسرعون نحو النهاية».

«وهكذا أنا. أنا لاأوقفهم. لن أستطيع إن حاولت».

«إذن لماذا أنت مكروب؟».

«لاأبداً، أنا لايهمني إن صاح ديكي آخر صيحة».

قالت «فإن صار لدينا طفل؟».

أسدل رأسه.

أخيراً قال «لماذا ـ يبدو لي أنه خطأ، وإنه شيء مرير نفعله أن نأتي بطفل إلى هذا العالم».

رجته «لا، لاتقل ذلك، لاتقل ذلك، أظن أنني بصدد أن أحمل بطفل. لذا يجب أن تسرّ» وألقت يدها على يده.

قال «مسرور لأنك أنت مسرورة. أما بالنسبة لي فأعتبرها خيانة مرعبة للمخلوق الذي لم يولد».

قالت وقد صدمت «أوه. لا. إذن أنت لاتريدني فعلاً. أنت لاتستطيع أن تتقبلني إن كان هذا هو شعورك».

عاد إلى الصمت مرة ثانية. تجهم وجهه. في الخارج لم يكن هناك سوى زخات المطر.

همست «ليس صحيحاً تماماً. ليس صحيحاً تماماً. هناك حقيقة أخرى». شعرت أنه كان حزيناً جزئياً الآن لأنها سوف تتركه، لأنها سوف تسافر إلى البندقية. وهذا الجزء أدخل السرور إلى قلبها.

رفعت ثيابه وكشفت بطنه وقبلت سرّته. ثم أراحت خدها على بطنه ودفعت بذراعها حول ردفيه الدافئين الصامتين. وحدهما كانا في الطوفان.

همست وهي تضغط وجهها على بطنه «أخبرني أنك تريد طفلاً، قل إنك تأمل. أخبرني».

أخيراً قال: «لماذا!» فشعرت برجفة غريبة من الوعي المتقلب واسترخت على جسده. «أفكر أحياناً. لماذا. إذن. يعني أن المرء يحاول هنا حتى بين عمال المناجم. إنهم يكدحون الآن ببؤس

ولايكسبون كثيراً. لو أن إنساناً يستطيع القول لهم: لاتفكرون إلا بالمال الآن. فإذا نظرتم إلى حاجاتكم فإنها قليلة. فدعونا لانعيش من أجل المال ـ».

مسحت وجهها بنعومة على بطنه وجمعت كرتيه بيدها. وراح عضوه يتحرك بنعومة، بحياة غريبة، ولكنه لم يستثر. وصار المطر يضرب بشدة في الخارج.

«دعونا نعيش لشيء آخر. دعونا لانعيش من أجل كسب المال، لا لأجلنا ولا لأجل أي إنسان آخر. إننا الآن مكرَهون على ذلك من أجل أنفسنا، والحصة الكبرى للمعلمين. فلنوقف ذلك خطوة خطوة، فلنوقف ذلك. لانريد شيئاً آخر مزعجاً. خطوة خطوة نتخلص من الحياة الصناعية، ونعود إلى سيرتنا. وتكفينا كمية قليلة جداً من المال، تكفي كل إنسان: أنا وأنتِ والمعلمين والسادة وحتى الملك. والمال القليل يمكن تحصيله بسهولة. اعمل عقلك في هذا وسوف تخرج سليماً». توقف قليلاً، ثم تابع:

«أتمنى أن أقول لهم: انظروا انظروا إلى «جو». إنه يتحرك حركات جميلة. انظروا كيف يتحرك، حياً وواعياً. إنه جميل. وانظروا إلى «جوناه» إنه كئيب، وبشع، لأنه لايريد أن يرتقي. ـ أوه أن أقول لهم: انظروا انظروا إلى أنفسكم. كتف أعلى من كتف، والساقان منجدلتان، والقدمان متكومتان. ماذا فعلتم لأنفسكم بهذا العمل الشنيع؟ أفسدتم أنفسكم وحياتكم. فلاتعملوا لإفساد أنفسكم. لستم بحاجة إلى هذا العمل الكبير. انزعوا ثيابكم وتطلعوا. يجب أن تكونوا أحياء ورائعين، لا بشعين ونصف موتى. ـ أتمنى أن أقول لهم. وسأفرض على رجالي أن يرتدوا ثياباً أخرى: سراويل حمراء، حمراء فاقعة، وجاكيت قصيرة صغيرة. فإن لبس الناس الأحمر وكانت السيقان جميلة فإن هذا وحده يغيرهم في ظرف شهر. سوف يبدؤون بأن يصيروا رجالاً من جديد، بأن يكونوا رجالاً. أما النساء فليلبسن كما يشتهين. إذ حالما يسير الرجال بسيقان قرمزية

SS

وردفين جميلين يُظهران القرمز من تحت جاكيت بيضاء صغيرة: عندئذٍ تبدأ النساء تصير نساءً. ولأن الرجال ليسوا رجالاً، صارت النساء هكذا. ـ وفي الوقت المناسب أهدم تيفرشال وأبني بضعة بيوت كبيرة جميلة، وهي كافية لتؤوينا. ونقوم بتنظيف المقاطعة مرة ثانية. ـ ولايكون لدينا كثير من الأطفال، فالعالم بات مكتظاً.

«لكن لن أعظ الرجال: أعريهم فقط وأقول: انظروا إلى أنفسكم. إنكم تعملون من أجل المال. ـ فاصغوا لأنفسكم. إنه العمل من أجل المال. إنكم تكدحون من أجل المال. ـ انظروا إلى تيفرشال. إنها مرعبة. لقد بنيت بينما كنتم تعملون أنتم من أجل المال. ـ انظروا إلى فتياتكم. إنهن لايأبهن بكم، وأنتم لاتأبهون بهن. لأنكم تنفقون وقتكم كادحين للمال مهتمين به فقط. إنكم لاتستطيعون الكلام ولا الحركة ولاالحياة، إنكم لاتستطيعون أن تكونوا مع امرأة. أنتم لستم أحياء. انظروا إلى أنفسكم ـ».

وحل صمت تام. كانت كوني نصف مصغية وتلعب بالشعر في أسفل بطنه. في الخارج صار العالم يخمد، وقد تجمد قليلاً.

قالت له «إن لديك أربعة أنواع من الشعر. على صدرك وهو أسود تقريباً، وشعر رأسك وهو ليس داكناً: لكن شاربيك قاسيان وأحمران داكنان، وشعرك هنا، شعرك الأجمل، مثل أجمة من نبات الهدال الأحمر الذهبي البراق. وهو أجمل من الكل».

نظر إلى الأسفل ورأى أزهار «لاتنسني» الحليبية في شعر ملتقى الفخذين.

«إي. هنا توضع أزهار «لاتنسني» في شعر الرجل ـ أو شعر المرأة. ـ ولكن هل تهتمين بالمستقبل؟»».

صعدت بنظرها إليه.

قالت «بلى، أهتم، برعب».

«لأني عندما أشعر أن العالم البشري انتهى، أنهى نفسه

ss

ببهيميته الوضيعة ـ أشعر أن المستعمرات ليست بعيدة بما يكفي للسلامة. والقمر لن يكون بعيداً كفاية، إذ حتى هناك يمكن أن تلتفتي إلى الوراء وتشاهدي الأرض، قذرة وضيعة هالكة بين النجوم: أتلفها الرجال. أشعر أنني قد تجرعت عصارة الصفراء وأنها تلتهم داخلي، ولايوجد مكان بعيد كفاية للهرب. ـ ولكن عندما يتغير وعيي أنسى ذلك كله مرة أخرى. ومع ذلك فإن ماوقع للرجال في المئة سنة الأخيرة عار: فقد تحول الرجال إلى لاشيء إلّا إلى حشرات عاملة، وقد انتزعت منهم كل رجولتهم، وكل حياتهم الحقيقية. سوف أمسح الآلات عن وجه الأرض مرة أخرى، وأنهي العصر الصناعي إلى الأبد، كأنه خطيئة سوداء. ولكن بما أنني لاأستطيع ذلك، وبما أنه لاأحد يستطيع، فإني أفضل أن أخلد للسلام، وأحاول أن أعيش حياتي الخاصة: وأنا أشك في أن يعيش معي إنسان آخر».

توقفت العاصفة في الخارج، والمطر الذي كان توقف عاد وانهمر فجأة بقوة، مع انجلاء العاصفة وانحسارها الأخير. كانت كوني قلقة. لقد تحدث طويلاً الآن ـ وكان فعلاً يتحدث لنفسه، وليس لها. ويبدو أن اليأس حل عليه تماماً، وكانت تشعر بالسعادة، وتكره اليأس. إنها تعرف أن تركها له، وهذا ما تحقق منه الآن في داخل نفسه، أعاده إلى هذا المزاج. وقد ابتهجت قليلاً.

فتحت الباب ونظرت إلى المطر الثقيل المستقيم كأنه ستار حديدي، وامتلكتها رغبة أن تندفع خارجاً فيه، أن تندفع بعيداً. نهضت، وبدأت بسرعة تنزع جوربيها ثم ثيابها، ثم ثيابها الداخلية، أما هو فقد كتم أنفاسه. وقد استثارت نهديها الحيوانيين المدببين حالما تحركت. كانت عاجية اللون تحت ضوء أخضر. وانتعلت حذاءها المطاطي ثانية وخرجت وهي تضحك ضحكة وحشية قليلاً رافعة نهديها للمطر الثقيل وباسطة ذراعيها وراحت ترقص تحت المطر كل الرقصات وحركات الرقص الإيقاعي التي تعلمتها في درسدن منذ أمد طويل. كانت شكلاً شاحباً غريباً يعلو ويهبط، منحنية

بحيث يضرب المطر كامل كفليها، وتتأرجح إلى الحد الأعلى ثانية، وتدفع بطنها إلى الأمام في المطر، ثم تنحني ثانية بحيث أن وركيها وردفيها فقط تندفع بنوع من الاجلال نحوه، مكررة الانحناءة الوحشية.

ضحك بقوة وسخرية، وخلع ثيابه. تأخر كثيراً. قفز إلى الخارج أبيض عارياً، مع رعدة خفيفة، في قلب المطر القاسي الغزير. وانطلقت فلوسي أمامه مع نباح خفيف خائف. كوني التي كان شعرها مبتلاً ملتصقاً برأسها، التفتت بوجهها الحار فرأته. والتمعت عيناها الزرقاوان بالإثارة، فانعطفت وركضت مسرعة، مع حركة تحد غريبة، فقطعت الأرض المقطوعة الأشجار، وانحدرت إلى الممر، وكانت الأغصان المبللة تمسحها. ركضت فما رأى منها سوى رأسها المبتل المستدير، وسوى ظهر وقد تلوى إلى الأمام في محاولة طيران، وارتج ردفاها المستديران: أنثى رائعة مرتعدة، عري يحاول الطيران.

كانت تقريباً في الطريق العريض عندما وصل إليها ولف ذراعه العارية حول وسطها الناعم العاري المبتل. أطلقت صرخة ونصبت نفسها، وكتلة من لحمها الناعم المرتعد لاصقَتْ جَسَدَهُ. ضغطها كلها إليه، بجنون، فصارت دفقة الأنثى المرتعدة الناعمة حارة كاللهب بسرعة، لدى تماسها. وظل المطر يهطل عليهما حتى خرج منهما البخار ـ وضع كل ردف بيد وضغطهما إليه بسكون مرتجف متجمد في المطر، ثم فجأة قلبها وسقط معها على الممر، في صمت المطر الزائر، وبسرعة وحسم افترعها، سرعة وحسم وانتهى، مثل حيوان.

بلحظة نهض ماسحاً عينيه من المطر.

«تعالي» قال، وبدأا يركضان راجعين إلى الكوخ. مشى باستقامة وسرعة: لم يحب المطر. لكنها جاءت أبطأ منه، وقد

جمعت أزهار «لاتنسني» والمنثور والأجراس الزرقاء، ركضت بضع خطوات، وراقبته يهرب منها بعيداً.

عندما جاءت مع أزهارها لاهثة إلى الكوخ، كان قد أشعل النار، وكانت الحطبات تطقطق. كان نهداها يعلوان ويهبطان، وقد ألصق المطر شعرها المسدل، وكان وجهها محمراً وجسدها يلتمع ويرتجف. بعينين واسعتين مبهورة الأنفاس، وبرأس مبلل صغير وردفين مرتجفين مكتنزين نظرت إلى المخلوق الآخر.

أخذ قطعة قماش ومسحها حتى أسفلها، وهي واقفة مثل طفل. ثم مسح نفسه، وقد أغلق باب الكوخ. كانت النار ملتهبة. أدخلت رأسها في القماش من الطرف الآخر ومسحت شعرها المبلل.

قال «إننا ننشف أنفسنا بمنشفة واحدة، سوف نتخاصم».

نظرت إليه لحظة، وقد صار شعرها مسبلاً.

قالت وقد اتسعت عيناها «لا. ليست منشفة إنها قطعة قماش».

وراحت تشغل نفسها بمسح رأسها، بينما انهمك هو بتجفيف نفسه.

مازالت الأرداف ترتجف، فلف كل واحد نفسه ببطانية عسكرية، لكن واجهة جسميهما كانت متجهة إلى النار، فجلسا على قطعة حطب الواحد إلى جانب الآخر أمام النار الملتهبة، حتى يهدأ جسداهما. لم تطق كوني شعورها بالبطانية على جسدها. لكن قطعة القماش الآن صارت مبتلة كلها.

رمت بطانيتها وركعت على الموقد الطيني رافعة رأسها أمام النار، وهازة شعرها، حتى ينشف. راقب انحناءة ردفيها الجميلة. وهذا ماسحره اليوم. كيف تنحدر الحنية إلى الأسفل ثم تشتد الحنية حتى تستدير على مؤخرتيهما الجميلتين. وبينهما يكمن سر الدفء، سر المداخل.

ss

ضرب مؤخرتها بيده وراح يمررها على كل الانحناءات.

قال بلهجة عامية ملاطفة «إن لك مؤخرة جميلة. لك أجمل مؤخرة في العالم. إنها أجمل، أجمل، أجمل مؤخرة امرأة. إن كل جزء منها هو امرأة، امرأة بالتأكيد وليس هراء. إن مؤخرتك لاتشبه أبداً مؤخرات الأخريات. إن لك خصراً منحدراً عليها، كما يحب الرجل ويشتهي. خصر يستطيع أن يحمل العالم».

طيلة هذا الوقت الذي كان يتحدث فيه كان يضرب جسدها المستدير، حتى شعر كأن لهيباً من النار يخرج منه على يده. وقد لمست أصابعه الفتحتين السريتين في جسدها، فداهمته نار ناعمة صغيرة.

«إنك تطرحين فضلات جسدك من فتحتيك، فأنا جد مسرور. أنا لاأريد امرأة لاتطرح فضلاتها من فتحتيها». لم تستطع كوني أن تكتم ضحكة دهشة فاجأتها، لكنه تابع من دون حراك «أنت حقيقية، أنت حقيقية حتى لو كنت بغياً. من هنا تطرحين الفضلات الجامدة، ومن هنا تطرحين الفضلات السائلة: وأنا أضع يدي عليهما كلتيهما، وأحبك من أجل هذا. أحبك من أجله. إن لك مؤخرة امرأة خاصة، تفخر بنفسها. إنها لاتخجل من ذاتها».

أنزل يده أقرب وثبتها على أماكنها السرية، بنوع من التحية الصادقة. قال «أحبها، أحبها. ولو عشت فقط عشر دقائق لضربت مؤخرتك وتعرفت عليها، لاعترفت بأني عشت حياة كاملة. أترين. إمّا النظام الصناعي أو لا، وهذه مرحلة من مراحل حياتي».

التفتت إليه وتسلقت حضنه ملتصقةً به.

همست «قبّلني».

إنها تعرف أن انفصالهما كان كامناً في عقليهما كليهما، فحل الحزن عليها أخيراً.

جلست في حضنه، ملصقة رأسها بصدره ودلت ساقيها

ss

العاجيتين، فسقط ضوء النار عليهما سقوطاً غير متساوٍ. جلس ورأسه محني، فنظر إلى طيات جسدها في النار المتوهجة، وإلى جزة الشعر البني الناعم المتكوم في نقطة بين فخذيها المفتوحين. مد يده إلى الطاولة قربه وأخذ باقة أزهارها، وكانت ماتزال مبتلة، وقطرات المطر تسقط عليها.

قال «الأزهار تنتصب خارجاً وتحيا كل الفصول، إنها بلا بيوت».

همهمت «ولاحتى كوخ».

وبأصابع هادئة نثر أزهار «لاتنسني» على الجزة البنية لتلة فينوس.

قال «هنا. هنا المكان المناسب لأزهار «لاتنسني».

نظرت إلى الأسفل، إلى الأزهار الحليبية الصغيرة هناك في أسفل جسدها.

قالت «كم تبدو جميلة».

أجاب «جميلة مثل الحياة».

مص برعم المنثور القرنفلي المغمور في الغابة.

«هنا. هنا أكون، حيث لن تنسني! إنه موسى في السفط».

سألته وهي تنظر في وجهه «أتنسى أنني مسافرة بعيداً؟».

لكن وجهه تجهم تحت حاجبيه الكثيفين. أبقاهما هادئين.

قال «أنت تفعلين ماترغبين».

وتحدث بلغة انكليزية سليمة.

قالت ملتصقة به «ولكني لن أذهب إن لم ترغب».

وكان هناك صمت. انحنى ورمى قطعة حطب أخرى في النار. فلمعت اللهبة على وجهه الصامت الخاوي. انتظرت أن يجيب، ولكنه لم ينطق بكلمة.

ss

«فكرتُ فقط في أنها طريقة محمودة كي أنفصل عن كليفورد. أنا أريد طفلاً. والرحلة تعطيني فرصة أن ـ أن ـ».

قال «أن يفكروا ببضع كذبات».

«بلى هذا شيء من بين أشياء أخرى. هل تريدهم أن يعرفوا الحقيقة؟».

«لاأبالي فيما يعرفون».

«أنا أبالي، ولاأريدهم أن يعاملوني بعقولهم الباردة القلقة: ليس في الوقت الذي أكون فيه في راغبي. بإمكانهم أن يعرفوا مايريدون، عندما أكون قد غادرت».

حل الصمت.

«لكن السير كليفورد يتوقع عودتك إليه؟».

«أوه، يجب أن أعود» قالت ذلك: وحل صمت.

سأل «وهل ستحبلين بطفل في راغبي؟»

لفت ذراعها حول عنقه.

قالت «إن لم تأخذني بعيداً، فلا بد أن...»

«آخذك إلى أين؟».

«أي مكان بعيد. أن يكون بعيداً عن راغبي».

«متى؟».

«ام ام ـ عندما أعود».

قال «وماجدوى العودة ـ تفعلين الشيء مرتين ـ إن كنت سترحلين؟».

«يجب أن أعود. لقد وعدت. وعدت بإيمان مقسوم، إلى جانب ذلك، سأعود إليك أنت حقاً».

«إلى حارس طرائد زوجك؟».

ss

قالت «لاأعتقد أن هذا مهم».

فكر قليلاً «لا؟ ومتى تفكرين في الابتعاد مرة ثانية وأخيرة؟ متى بالضبط؟».

«لاأدري. سأعود من البندقية ـ وعندئذٍ نرتب كل شيء».

«كيف نرتب؟».

«سأخبر كليفورد. يجب أن أخبره».

«أتخبرينه».

ظل صامتاً فطوقت عنقه بذراعيها.

قالت راجية «لاتصعّب الأمر علي».

«أي شيء أصعّب؟».

«أن أسافر إلى البندقية ـ وأرتب الأشياء».

ولمعت على وجهه ابتسامة صغيرة، نصف تكشيرة.

قال «أنا لاأصعّب الأمر. فقط أريد أن أعرف ماذا ستفعلين بعد ذلك. ولكنك في الحقيقة لاتعرفين نفسك. تريدين أن تأخذي وقتك: تفِرّين بعيداً وتراقبين. لاألومك. أعتقد أنك حكيمة. ربما تفضلين البقاء سيدة لراغبي. أنا لاألومك. أنا لاأملك راغبي حتى أقدم لها. والحقيقة أنك تعرفين أنك ستتخلصين مني. لا. لا. أعتقد أنك على حق. فعلاً. وأنا لست حريصاً على العيش معك، ترعينني. فتلك مسألة أيضاً».

شعرت، نوعاً ما، كما لو أنه يرد لها الصاع بالصاع.

سألته «ولكنك تريدني. أليس كذلك؟».

«هل تريدينني؟».

«أنت تعرف أنني أريدك، هذه حقيقة».

«لابأس. ولكن متى تريدينني؟».

«تعلم أننا يمكن أن نرتب كل ذلك عندما أعود. الآن انقطعت أنفاسي معك. لابد أن أهدأ وأصحو».

«لابأس. تهدئين وتصحين».

كانت هجومية قليلاً.

قالت «ولكنك تثق بي. أليس كذلك؟».

«ثقة مطلقة».

سمعت السخرية في نبرته.

قالت بصراحة «إذن أخبرني: هل تعتقد أن من الأفضل ألا أذهب إلى البندقية؟».

أجاب بصوت ساخر بارد خفيف «متأكد أنه من الأفضل أن تذهبي إلى البندقية».

قالت «أنت تعرف أنه الثلاثاء القادم».

«بلى».

بدأت الآن تفكر. أخيراً قالت:

«وسوف تعرف على نحو أفضل أين نحن عندما أعود. أليس كذلك؟».

«بالتأكيد».

وحل خليج من الصمت بينهما.

قال كأنه مرغم على القول «ذهبت أنا إلى المحامي من أجل الطلاق».

اعترتها رعدة خفيفة.

قالت «ذهبت. وماذا قال لك؟».

«قال لي يجب أن أطلق من قبل ـ فقد تكون المعاملة صعبة.

ولكن بما أنني كنت في الجيش ـ فإنه يعتقد أن الأمور ستسير بالسلامة. آه لو أنني فقط أستطيع ألا أدخلها في رأسي».

«وهل يجب أن تعرف؟».

«بلى، لاحظت ذلك من المذكرة: وكذلك الرجل الذي تعيش معه، المراسل».

«ليس ذلك كريهاً ولا التنفيذات. أظن أن علي أن أحل ذلك مع كليفورد ـ».

وكان هناك صمت.

قال «وبالطبع عليّ أن أعيش حياة أمثولة لستة أو لثمانية أشهر. ولكن إن ذهبت إلى البندقية فهناك إغراء يتحرك أسبوعاً أو أسبوعين على الأقل».

قالت وهي تربت وجهه «أنا اغراء. إني جد مسرورة أني إغراء لك. ـ لاتدعنا نفكر في المسألة. لقد أخفتني عندما بدأت تفكر: كأنك بسطت جسدي. لاتفكر في المسألة. يمكن أن نفكر كثيراً عندما أسافر وننفصل. هذا كل مافي الأمر. ـ لقد فكرت بأن علي أن آتي إليك ليلة أخرى قبل أن أذهب إلى البندقية. يجب أن آتي مرة أخرى إلى الكوخ. هل آتي ليلة الثلاثاء؟».

«أليس ذلك هو الوقت الذي تكون فيه أختك هناك؟».

«بلى ولكنها قالت بأنها ستنطلق في موعد شرب الشاي. إذن نستطيع الانطلاق في موعد شرب الشاي. ويمكنها أن تنام في مكان ما وأنام أنا معك».

«ولكن لابد أن تعرف عندئذٍ».

«أوه. أنا سأخبرها. أخبرتها من قبل تقريباً. يجب أن أتحدث مع هيلدا عن كل شيء. إنها حساسة وتقدم لي مساعدة كبرى».

كان يفكر بخطتها.

ss

«إذن تنطلقان من راغبي في موعد شرب الشاي، كما لو كنتما ذاهبتين إلى لندن؟ في أي طريق ستذهبان؟».

«عن طريق نوتنغهام وغرانتهام».

«وعندئذٍ تضعك أختك في مكان ما ثم تسيرين أو تركبين السيارة في طريق العودة إلى هنا؟ إنها خطورة كبيرة بالنسبة لي».

«أهي؟ ـ لابأس إذن، يمكن لهيلدا أن تعيدني. يمكنها أن تنام في مانسفيلد، وتعيدني إلى هنا مساءً، فتجدني في الصباح مرة ثانية. وهذا سهل جداً».

«والناس الذين يرونك؟».

«سأضع نظارة شمسية ونقاباً».

فكر لبعض الوقت

قال «لابأس، متعي نفسك، كالعادة».

«ولكن ألا يسرك هذا؟».

«أوه بلى. سيسرني تماماً» قال بتكشيرة صغيرة «يمكن أن أتحول إلى دخان من حرارة الحديد».

قالت فجأة «أتعرف بماذا فكرت؟ لقد طرأت الفكرة فجأة. إنك (فارس مدقة الهاون الملتهبة)».

«إي، وأنت؟ أنت (سيدة الهاون المحمر من الحرارة)؟».

قالت «بلى، بلى أنت السير الفارس وأنا الليدي الفرس».

«تماماً ـ ثم أقوم بالفروسية. جون توماس هو السير جون، وعريك هو الليدي جين المتأججة».

«بلى، جون توماس يلعب الفروسية. وأنا الليدي الفرس، وعليك أن تحضر الأزهار أيضاً. بلى».

وبعثرت منثورتين فوق أجمة الشعر الحمراء الذهبية .

«هنا السحر، السحر، السير جون توماس».

ss

كما وزعت بعض أزهار «لاتنسني» أعلى شعر صدره القاتم.

«وأنت لن تنساني، أليس كذلك؟» قبلته من صدره، ووضعت زهرتين من أزهار «لاتنسني» واحدة على كل ثدي، ثم قبلت صدره ثانية.

قال «اجعلي مني روزنامة» ضحك فارتجت الأزهار على صدره.

قال «انتظري قليلاً».

نهض وفتح باب الكوخ. نهضت فلوسي المضطجعة على العتبة ونظرت إليه.

قال «إي، لاتخافي إنه أنا».

توقف المطر. كان هناك هدوء رطب ثقيل معطر. وكان المساء يقترب.

خرج ونزل إلى الممر الصغير في الاتجاه المعاكس للطريق. راقبت كوني شكله الرقيق الأبيض، فبدا لها مثل شبح، شبح يبتعد عنها. وعندما لم تعد تراه، غاص قلبها. وقفت في باب الكوخ، وقد لفت نفسها ببطانية، متطلعة إلى الصمت الهامد البليل.

لكنه عاد متوقلاً بغرابة، يحمل الأزهار. كانت خائفة منه قليلاً، كما لو أنه لم يكن بشراً حقيقياً. وعندما اقترب وقعت عيناه في عينيها، ولكنها لم تفهم المعنى.

أحضر أزهار الكولومبين والمنثور، وباقة من الزهر الباكي وعناقيد سنديان وأزهار الرحيق ببراعم صغيرة. فضفر أغصان السنديان حول رأسها، وأماليد أزهار الرحيق حول نهديها، ووضع عليها عناقيد المنثور وأزهار الأجراس الزرقاء: وفوق سرّتها مدّ زهرة من المنثور القرنفلي، وحول وفوق وبين فخذيها أزهار «لاتنسني»، وأضافير من الغابة.

SS

قال «هذه هي أنت بكل مجدك ياليدي جين، في حفلة الزفاف على جون توماس».

ألصق أزهاراً على جسده، وجعل زهرات المداد حول السير جون توماس، وجعل جرساً واحداً من زهر الهايسنت في سرته. كانت تراقبه بمتعة ومسرة، تراقب نواياه الغريبة. دفعت زهرة منثور في شاربه حيث التصقت متدلية تحت أنفه.

قال «هذا هو جون توماس يتزوج بالليدي جين. وعلينا أن نبعد كونستانس وأوليفر. قد ـ» ونشر يده بإشارة، ثم عطس وعطس فقذف الأزهار من أنفه وصرته. وعطس ثانية.

قالت «قد ـ ماذا؟» منتظرة أن يفترعها.

نظر إليها بقليل من الحيرة.

قال «إيه؟».

ألحت «قد ـ ماذا؟ تابع ماكنت تريد أن تقوله».

«وماذا كنت أريد أن أقول؟ ـ».

نسي. وهذه واحدة من خيبات حياتها، إنه لاينهي أبداً كلامه.

سقط شعاع شمسٍ أصفر على الأشجار.

قال «الشمس ووقت ذهابك. الوقت ياسيدتي الوقت. من هذه التي تطير بلا أجنحة، حضرتك؟ الوقت، الوقت».

وأخذ قميصه.

«فلنقل ليلة طيبة لجون توماس» قال ذلك ونظر إلى الأسفل «إنه بأمان في حضن زهر المداد، لاتوجد مدقة ملتهبة كثيراً حوله مثلما هي الآن».

ووضع قميصه الفلانيلا الرقيق فوق رأسه.

قال عندما برز رأسه من القميص «أهم لحظة مخاطرة عند

ss

الرجل هي عندما يدخل في قميصه. ثم يضع رأسه في حقيبة. ولهذا السبب أفضّل القمصان الأميركية، فأنت تنشرها كأنها جاكيت». ظلت واقفة تراقبه. خطا نحو أدراج قمصانه ولفها حول خصره.

قال «انظر إلى جين في أوج حالات تبرعمها. من يضع البراعم عليك في السنة التالية ياجيني؟ أنا أم شخص آخر؟ الوداع ياجرسي الأزرق، الوداع لك ـ أنا أكره تلك الأغنية، كانت في الأيام الأولى للحرب». جلس أرضاً، يخلع جوربيه. مازالت واقفة بلا حراك. وضع يده على منحدرات ردفيها. قال «آه، كم أنت جميلة ياليدي جين. ربما تجدين في البندقية رجلاً يضع الياسمين على غابة الشعر الذهبي، وزهر الرمان في سرّتك. أيتها الليدي جين المسكينة».

قالت «لاتقل هذه الأشياء، فأنت تقولها لتؤذيني».

أومأ برأسه. ثم قال بالعامية:

«ربما، ربما، قد أفعل. لابأس إذن، لن أقول شيئاً، ولن أفعل شيئاً. لكن الرجال يلبسون أنفسهم، ويعودون إلى بيوتهم في انكلترا، كم هي جميلة وقفتهم. الوقت يمر، وآن موعد السير جون توماس، وضاق ذرع الليدي جين. اخلعي قميصك التحتاني ياليدي شاترلي. قد تكونين أي جسد، يقف هناك خارج القميص على بساط صغير من الأزهار. وعندئذٍ أخلع عنك ثيابك أيتها السمّنة ذات الذيل الجميل ـ» وتناول الأوراق من شعرها، وقبّل شعرها الرطب ونزع الأزهار عن نهديها وقبّلهما، وقبّل سرتها وغابتها حيث ترك الأزهار منثورة. قال «الرجل يتوقف حيث تريد هذه الأزهار. لذا لابد أن تتعري مرة ثانية. والآن البسي قميصك الداخلي، لأن الرجل ذهب، أو لأن ليدي شاترلي أخرى ذهبت إلى العشاء متأخرة، وأين كنت ياعذرائي الجميلة».

لاتعرف بماذا تجيبه عندما يتحدث بالعامية المحلية ويكون في هذه الحالة التي لاتجيد فيها فهم كلامه. فارتدت ملابسها استعداداً

للذهاب قليلاً إلى البيت في راغبي بكل احتقار. لقد شعرت بذلك: بالبيت الحقير.

سوف يرافقها إلى الطريق العريض. وكانت طيور درّجه في حالة جيدة تحت الملجأ.

عندما خرجا إلى الطريق العريض، كانت هناك أمامهما السيدة بولتون الشاحبة المضطربة.

«أوه ياسيدتي استغربنا إن كان حدث شيء».

«لا. لاشيء حدث».

نظرت السيدة بولتون إلى وجه الرجل، الذي كان رخياً مفعماً بالحب. قابلت نصف ضحكته، نصف سخريته، في عينيه. كان دائماً يضحك عندما يكون هناك سوء حظ. لكنه نظر إليها بلطف.

«عمي مساء ياسيدة بولتون - سيدتك ستكون بكل صحة الآن، فأستطيع ترككما. طابت ليلتك ياسيدتي. طابت ليلتك ياسيدة بولتون».

حيًّا وقفل راجعاً.

ss

الفصل السادس عشر

وصلت كوني إلى البيت لتقابل محنة التحقيق المتقاطع. خرج كليفورد في موعد شرب الشاي، تماماً قبل العاصفة، وأين الليدي شاترلي؟ لاأحد يعرف ـ السيدة بولتون وحدها خمنت أنها خرجت في مشوار إلى الغابة. إلى الغابة، وفي هذه العاصفة ـ فترك كليفورد نفسه تستسلم لحالة جنون عصبية. فكان ينطلق لدى كل ومضة برق، ويتراجع لدى كل ومضة رعد. نظر إلى المطر العاصف الجليدي، كما لو أن ذلك كان نهاية العالم. فراح يتنقل هنا وهناك كثيراً.

أرادت السيدة بولتون أن تهدئه.

«لابد أن تلجأ إلى الكوخ ريثما يكف المطر عن الهطول. لاتقلق فحضرتها على أتم مايرام».

«لاأريدها أن تكون في الغابة في عاصفة مثل هذه العاصفة. أنا لاأريد أن تذهب إلى الغابة إطلاقاً. لقد مر الآن على ذهابها أكثر من ساعتين. متى خرجت؟»».

«قبل أن تأتي أنت إلى هنا بقليل».

«لم أرها في المتنزه. الله يعلم أين هي الآن وماذا حل بها».

«لاشيء يحدث لها ياسيدي. سوف ترى، ستأتي بعد أن يتوقف المطر مباشرة. إن المطر فقط هو مايحتجزها».

لكن حضرتها لم تشرّف إلى البيت عقب توقف المطر. والحقيقة أن الزمن مر وألقت الشمس آخر نظراتها الصفراء، ولاتوجد أي إشارة عنها. وغابت الشمس، وحل الظلام، وحان وقت العشاء وقرع الجرس.

قال كليفورد بعصبية «لا. ليس صحيحاً. سأرسل فيلد وبيتس للعثور عليها».

صاحت السيدة بولتون «لا. لاتفعل ذلك. فالناس سوف تظن أن هناك عملية انتحار أو شيئاً من هذا القبيل. أوه. لاتتحدث حتى عن خروجها. دعني أتسلل إلى الكوخ لأرى إذا كانت ليست هناك. سوف أجدها سليمة معافاة».

وهكذا بعد أن اقتنع كليفورد سمح لها أن تذهب.

وهكذا كانت كوني قد وصلت إلى الطريق شاحبة مترنحة.

«لاتذكري أنني جئت أبحث عنك ياسيدتي. لكن السير كليفورد انشغل كثيراً بهذه الحالة. فقد تأكد تماماً أنك صعقتِ في العاصفة، أو قتلتك شجرة متهاوية. وكان مصمماً أن يرسل فيلد وبيتس إلى الغابة للعثور على الجثة. وقد ارتأيت أن آتي أنا، فذلك أفضل من إثارة الخدم».

تحدثت بعصبية. إنها ترى في وجه كوني الرقة والهدوء والعاطفة شبه الحالمة، وهي تستطيع أن تشعر بانزعاجها من ذاتها.

«تماماً» قالت كوني، ولم تستطع أن تقول أكثر من ذلك.

وترنحت المرأتان عبر العالم المبلل، بصمت، بينما كانت نقاط كبيرة تتساقط مثل انفجارات في الغابة. وعندما وصلا إلى المتنزه

أسرعت كوني إلى الأمام، بينما راحت السيدة بولتون تلهث قليلاً. كادت تسقط.

«كم هو غبي كليفورد بإثارته هذه الجلبة» أخيراً قالت كوني ذلك بغضب، وهي تحدث نفسها فعلاً.

«أنت تعرفين الرجال وكيف يكونون. إنهم يريدون أن يثيروا أنفسهم. لكنه سيكون على مايرام، حالما يرى حضرتك».

كانت كوني غاضبة جداً لأن السيدة بولتون تعرف سرها: إذ بالتأكيد تعرف سرها.

فجأة توقفت كوني جامدة في الطريق.

قالت وقد التمعت عيناها «إن ماأتبعه لهو شيء مريع».

«أوه، حضرتك، لاتقولي ذلك. إنه ولاشك أرسل الرجلين وهما الآن في طريقهما إلى الكوخ. أنا لاأعرف حقاً أين الكوخ ـ».

واكمدّت كوني غضباً أكثر لدى سماعها هذا الاقتراح. ومع ذلك فعندما تتلبسها العاطفة لاتستطيع أن تكذب. إنها لن تزعم أبداً أنه ليس بينها وبين الحارس شيء. نظرت إلى المرأة الأخرى، التي وقفت ماكرة، وقد نكست رأسها: ومع ذلك هناك حليف داخل أنوثتها.

قالت «لابأس. إن كان كذلك فليكن كذلك فأنا لاأبالي».

«أنت محقة ياسيدتي. كل مافعلته أنك التجأت إلى الكوخ فقط. وهذا لايعني شيئاً على الإطلاق».

سارتا نحو البيت. واتجهت كوني إلى غرفة كليفورد، وقد دبّ الرعب فيه، في وجهه الشاحب الجامد، وعينيه الجاحظتين.

«لابد أن أقول إني ماكنت أظنك ترسل الخدم خلفي».

فانفجر «ياإلهي. أين كنت ياامرأة؟ لقد غبت ساعات، ساعات ـ وفي عاصفة كهذه العاصفة. فأي جحيم دفعك للذهاب إلى هذه

الغابة الخطيرة ولماذا؟ عن أي شيء كنت تفتشين؟ لقد مرت ساعات على توقف الأمطار. ساعات. هل تدرين كم الوقت الآن؟ إنك تستطيعين أن تجعلي أي إنسان مجنوناً. أين كنت؟ وبحق الجحيم ماالذي اضطرك إلى الذهاب؟».

خلعت قبعتها عن رأسها، وهزت شعرها «وماذا لو اخترت ألّا أخبرك؟»

نظر إليها بعينيه المنتفختين، وقد خالط الصفار بياضهما. كان يسيء إليه كثيراً هذا الدخول في الغضب: وقد أنفقت السيدة بولتون أوقاتاً ثقيلة معه لعدة أيام بعد ذلك. شعرت كوني فجأة بالهدوء.

قالت بلغة ألطف «لكن الحقيقة، أن كل فرد سوف يعتقد أنني كنت في مكان لاأعرفه. لقد جلستُ في الكوخ أثناء العاصفة، وأوقدت النار لنفسي وكنت سعيدة».

تحدثت الآن بسهولة. ثم لماذا تشغله أكثر من ذلك ـ نظر إليها بشك.

قال «وانظري إلى شعرك، انظري إلى نفسك».

أجابت بهدوء «بلى ركضت تحت المطر من دون ثياب عليّ».

حدق فيها من دون كلام.

قال «لابد أنك مجنونة».

«لماذا؟ ألأنني أخذت حمام دش من المطر؟».

«وكيف جففت نفسك؟».

«منشفة قديمة ـ وأمام النار».

ظل محدقاً فيها بطريقة عميقة الشكوك.

قال «افرضي أن أحدهم جاء».

«من سيأتي؟».

«من؟ أي شخص، ميلورز. ألم يأتِ؟ لابد أن يأتي مساءً ـ».

«بلى جاء فيما بعد عندما كانت السماء صافية ـ ليطعم بالقمح فراخ الدرّج».

تكلمت بلا اهتمام على نحو مدهش. استمعت السيدة بولتون، التي كانت تسترق السمع في الغرفة التالية، بإعجاب كبير. ماكانت تظن أن في مقدور امرأة أن تتحدث طبيعياً بمثل هذا الحديث.

«افرضي أنه جاء أثناء ركضك في المطر ولاشيء عليك إطلاقاً، مثل المجانين؟».

«افرض أنه يملك رعباً من حياته، وأنه سيهربُ بمقدار مايستطيع».

ظل كليفورد يحدق فيها مثبتاً نظره عليها. ماذا فكر في لاوعيه، لايعرف. ولكنه عاد إلى الوراء ليتذكر ويشكل فكرة في وعيه الأعلى. وافق تماماً على ماقالته، موافقة استسلامية. وقد أُعجب بها أيضاً. لم يستطع إلا أن يُعجب بها. بدت متوهجة هادئة: إنه هدوء الحب.

قال وقد همد «على الأقل كنت محظوظة بأنك لم تصابي برشح قوي».

أجابت «لا. لم أصب برشح». كانت بينها وبين نفسها تفكر بكلمات الرجل الآخر: إنك تملكين أجمل مؤخرة في العالم ـ كانت ترغب، كانت بشغف ترغب أن تستطيع إخبار كليفورد أن هذا الحديث قيل لها، أثناء العاصفة الرعدية الشهيرة. لكنها حملت نفسها مثل ملكة مدحورة، وصعدت الدرج لتغير ثيابها.

في ذلك المساء أراد كليفورد أن يكون لطيفاً معها. كان يقرأ آخر كتاب من الكتب الدينية الشهيرة: فالتقط لمحة عن الدين الزائف الذي بداخله هو، وركز ذاتياً على مستقبل أنانيته الخاص. ومن عادته أن يجري محادثة مع كوني عن بعض الكتب، مادامت

ss

المحادثة تدور في معظمها دائماً عن الكيمياء. فكأن الكيمياء قد تعششت في رأسيهما.

تناول كتابه وقال «بالمناسبة ماذا تعتقدين في هذا الكتاب؟ أنت لاتحتاجين أن يلتقط جسدك برداً بالركض في المطر، لو كنا نملك فقط بضع مراحل من التطور خلفنا. هه. اسمعي سأقرأ هنا «يفصح لنا الكون عن مظهرين: من جهة يفسد مادياً ومن جهة يصعد روحياً».

استمعت كوني، متوقعة المزيد من القراءة. لكن كليفورد كان ينتظر. تطلعت إليه مندهشة.

قالت «وإن صعد، فماذا يترك خلفه في الأسفل، في المكان الذي كان يستخدم ذيله؟».

قال «خذي الإنسان بما يعنيه. أعتقد أن الصعود نقيض الفساد».

«تقصد أنه روحياً منطفئ، إن جاز القول».

«لا. لا. حدثيني بجد ومن دون سخرية: هل تظنين أن فيه أي شيء؟».

نظرت إليه ثانية.

قالت «تالف جسدياً؟ إنك تزداد سمنة، وأنا لاأتلف نفسي. أتظن أن الشمس أصغر مما اعتادت أن تكون؟ بالنسبة لي لا. وأعتقد أن تفاحة آدم التي قدمتها له حواء لم تكن أكبر كثيراً من تفاحنا البرتقالي. أتظن أنها أكبر؟».

«لابأس اسمعي كيف يعالج الأمر. ـ وهكذا نعْبُرُ ببطء، ببطء لاندركه بمقاييسنا للزمن، إلى ظروف إبداعية جديدة، بينها سوف يبرز العالَم الفيزيائي، كما نعرفه حالياً، بموجة صريحة تتميز من اللاهوية».

ss

أصغت بومضة من المتعة. كل أنواع الأشياء غير الخاصة تفرض ذاتها. لكنها اكتفت بالقول:

«ماهذا الهراء السخيف. إنه كما لو كان وعيه الفاسد لايستطيع أن يعرف ماذا يجري ببطء مثل كل شيء. إنه يعني فقط الفشل الجسدي في الأرض، لذلك يجعل الكون كله فشلاً جسدياً. إنه تفكيك صغير متزمت».

«ولكن انتبهي. لاتقاطعي كلمات الرجل العظيم الوقورة. ـ إن النمط الحالي للنظام في العالم نشأ من الماضي الذي لايمكن تخيله، وسوف يجد قبره في المستقبل الذي لايمكن تخيله. هناك تبقى المملكة التي لاتزول، للأشكال المجردة، والإبداع، بسمتها الصاعدة التي تحدد طزاجتها مخلوقاتها الخاصة، والله الذي على حكمته تعتمد كل أشكال النظام ـ هنا يتحدث عن الصعود.

جلست كوني تستمع بازدراء.

قالت «إنه منطفئ روحياً. ياله من سقط متاع. هذا شيء لايمكن تخيله، وأنماط نظام للقبور، ولممالك الأشكال المجردة والإبداع على نحو ماكر، وقد اختلط الله بأشكال النظام. ياله من نظام بليد».

قال كليفورد «لابد أن أقول إنه كلام متراكم غامض قليلاً ـ خليط من الغازات إن صح القول. ولكن أعتقد أن هناك شيئاً ما في الفكرة القائلة بأن الكون فاسد جسدياً صاعد روحياً».

«أتظن ذلك؟ إذن دعه يصعد، وليتركني بسلام وبقوة جسدية هنا تحت».

سأل «أتحبين جسدك؟».

«أحبه» ـ قالت هذه الكلمة وخلف عقلها أكملت الكلمات التالية: «إنها الأجمل، أجمل مؤخرة امرأة في العالم».

«لكن ذلك فعلاً غير عادي، إذ لايوجد رفض، يوجد عائق. لكني أعتقد أن المرأة تستمتع استمتاعاً فائقاً بحياة العقل».

«استمتاعاً فائقاً؟» قالت ونظرت إليه «أيكون ذلك النوع من غباء المتعة الفائقة لحياة العقل؟ لاأشكرك. أعطني جسدي. أنا أؤمن بأن حياة الجسد هي واقع أعظم من حياة العقل: عندما يكون الجسد واعياً فعلاً للحياة. ولكن كثيراً من الناس، مثل آلتك المتحركة الشهيرة، قد أدخلت العقول فقط ومسمرتها في جثثها الفيزيائية».

نظر إليها مندهشاً.

قال «حياة الجسد ليست أكثر من حياة الحيوانات».

«وهي أفضل من حياة الجثث البروفسورية. ـ لكن ذلك ليس صحيحاً. إن الجسد البشري هو فقط الإقدام على الحياة الحقيقية. مع اليونان اكتسب شعلة جميلة، لكن قتلها أفلاطون وأرسطو، وأجهز عليها يسوع نهائياً. لكن الجسد الآن مقدم فعلاً على الحياة، إنه حقاً ينهض من القبر. وسوف تكون الحياة جميلة في الكون الجميل، حياة الجسد البشري».

«ياعزيزتي إنك تتحدثين كما لو كنت ستدخلين فيها كلياً. فعلاً أنت ذاهبة لتُمضي عطلة: ولكن لاتكون المتعة هكذا بلا حشمة تطغى عليها. ـ صدقيني، كائناً من كان الإله، فإنه ببطء سوف ينهي الأحشاء ويخلق من الكائن البشري نظاماً غذائياً يجعله كائناً أعلى، كائناً أكثر روحانية».

«لماذا يجب أن أصدقك ياكليفورد، عندما أشعر أن الله مهما كان فإنه يعي في أحشائي، كما تسمي جهاز الهضم، وهناك يترقرق ويشرق مثل الفجر. ولماذا أصدقك عندما أشعر بالعكس تماماً؟».

«أوه بالضبط. ـ وما الذي أحدث هذا التغير فيك؟ تركضين عارية كلياً في المطر وتلعبين مثل الباخيات، عذارى باخوس؟ أهي رغبة الإحساس، أم المشاركة في الذهاب إلى البندقية؟».

ss

قالت «الاثنان. وهل تظن أنها قباحة مني أن أُثار لرحلة البندقية؟».

«قباحة أن تُظهري متعتك هكذا ببساطة».

«إذن أخبئها».

«أوه لاتنزعجي. أنت تقريباً أوصلت الإثارة إلي. أشعر أنني أنا الذي أرحل».

«حسناً، لماذا لاتأتي معنا؟».

«لقد طفنا كل ذلك. والحقيقة أن إثارتكِ العظمى كما أظن نابعة من كونكِ قادرة أن تقولي مؤقتاً وداعاً لكل هذا. لاشيء يثير، للحظة، مثل الوداع للجميع. ولكن كل انفصال يعني لقاء في مكان ما. وكل لقاء عبودية جديدة.

«أنا ذاهبة لا لأدخل في أي عبودية جديدة».

قال «لاتتباهي، فالآلهة تنصت».

كبحت نفسها قليلاً.

قالت «لا. أنا لن أتباهى».

لكنها أثيرت بالفعل وتمنت لو يذهب: ليشعر بإطباق القيود. إنها لاتستطيع أن تساعده.

وجاء اليوم الذي تصل فيه هيلدا. كانت كوني قد رتبت مع ميلورز أنها، إن سار كل شيء سيراً حسناً لقضاء الليلة معاً، تعلق منديلاً أخضر خارج نافذتها. فإن كان هناك إحباط، فإنها تعلق منديلاً أحمر.

ساعدت السيدة بولتون كوني في تحضير الأمتعة.

«مفيد جداً لحضرتكِ أن يحصل تغيير».

«أعتقد سيكون هناك تغيير. لايهمك أن يكون السير كليفورد بين يديك وحيداً لفترة. أليس كذلك؟».

«أوه. لا. يمكن تدبيره تماماً. أقصد أنني سأعمل كل مايريده مني. ألا تعتقدين أنه أفضل من المعتاد؟».

«جداً. ستدهشين معه».

«هكذا فكرت ـ لكن الرجال كلهم متشابهون: مجرد أطفال، ماعليكِ إلا أن تتملقيهم وتداهنيهم وتدعيهم يعتقدون أنهم يملكون طريقتهم الخاصة ـ ألا ترين هكذا ياسيدتي الليدي؟».

«خائفة لأني لاأملك تجربة كبيرة».

توقفت كوني قليلاً في عملها.

«حتى زوجك، ألم تدبريه وتتملقيه مثل طفل؟» سألتها وهي تنظر إلى المرأة الأخرى.

توقفت السيدة بولتون أيضاً.

«اضطررت أن أقوم بالكثير من التملق له أيضاً. ولكنه يعرف دائماً أنني أدنى منه، ويجب أن أقول ماأقول. ولكنه عموماً يسلس لي».

«لم يكن أبداً لورداً ولاسيداً؟».

«لا، على الأقل ـ هناك نظرة في عينيه أحياناً، عندئذٍ أعرف أن عليّ أن أسلس القياد. ولكن في العادة يسلس القياد لي. لا لم يكن أبداً لورداً ولاسيداً. ولا أنا أيضاً كنت. أنا أعرف أين يجب ألا أبعد أكثر معه، عندئذٍ أسلس القياد: مع أنه قد يكلفني الكثير أحياناً».

«وماذا لو أنك وقفت في وجهه؟».

«أوه، لاأعرف. لم أقف أبداً. حتى عندما يكون على خطأ، فإني أستسلم عندما يتشبث. إذا وجهت إرادتك ضد رجل، فإن ذلك يقضي عليه. وإذا اهتممت برجل، فعليك أن تستسلمي له فيما يقرر، سواء كنت على حق أم لم تكوني، لابد من الانصياع. وإلا عليك أن تكسري شيئاً ما. ولكن يجب أن أقول إن تيد اعتاد أن يستسلم لي أحياناً،

عندما أكون أرتب شيئاً، وبالطريقة الخاطئة. وأعتقد أن الأمر يقتضي الطريقتين».

سألت كوني «وهل أنتِ هكذا مع كل مرضاك؟».

«أوه، الأمر مختلف. أنالا أهتم أبداً، بالطريقة ذاتها. أعرف ماهو نافع لهم، أو أحاول أن أعرف - وعندئذٍ أقوم بتأمين هذا النافع لهم. ليس كأي إنسان تُعجبين به. الأمر مختلف تماماً. فحالما تُعجبين برجل فإنك تتأثرين بأي رجل تقريباً، إن كان يحتاجك. ولكنه ليس الشيء نفسه. أنت لاتهتمين فعلاً. أشك إن كنت اهتممت مرة فعلاً، إن كنت تستطيعين الاهتمام مرة أخرى».

هذه الكلمات أرعبت كوني.

سألت «أتظنين أن الإنسان يهتم مرة واحدة فقط؟».

«أوه. لاأبداً. معظم النساء لايهتممن مطلقاً - لايبدأن بالاهتمام. إنهن لايعرفن مايعني ذلك. ولا الرجال أيضاً. ولكن عندما أرى امرأة تهتم، فإن قلبي يتوقف من أجلها».

«وهل تظنين الرجال يهاجمون بسهولة؟».

«نعم. إن جرحت كبرياءهم. ولكن أليست النساء متماثلات؟ كبرياؤنا فقط مختلفة قليلاً».

أُعجبت كوني بهذا. بدأت أيضاً تلوم نفسها على ذهابها بعيداً. ولكن مع ذلك ألا تمنح رجلها غياباً، إن كان لوقت قصير؟ وهو يعرف ذلك. هذا هو السبب في أنه كان غريباً ساخراً.

مع ذلك مايزال الوجود البشري تسيطر عليه سيطرة كبيرة آلة الظروف الخارجية. كانت تحت سلطة هذه الآلة. إنها لاتستطيع أن تحرر نفسها خلال خمس دقائق تحريراً كاملاً. بل إنها لاتريد حتى ذلك.

وصلت هيلدا في الوقت المحدد من صباح الخميس، في سيارة

SS

بمقعدين، مع حقيبة سفرها المربوطة جيداً خلفها. بدت محتشمة وفتية كما هي دائماً، ولكنها تملك إرادتها الخاصة تماماً. ولها جحيمها الخاص بإرادتها، كما اكتشف زوجها. لكن الزوج الآن يقوم بتطليقها. بلى ـ حتى أنها قامت هي بتسهيل الأمور عليه كي يفعل ذلك، مع أنه لم يكن لديها عشيق. في الوقت الحاضر كانت «خارج» الرجال. كانت راضية تماماً أن تكون سيدة نفسها: وسيدة طفلين، تهم بإحضارهما مهما جرى.

لم يُسمح لكوني إلا بحقيبة سفر واحدة أيضاً. ولكنها أرسلت صندوقاً إلى أبيها، المسافر عن طريق القطار. لافائدة من أخذ السيارة إلى البندقية. وإيطاليا حارة جداً تسيء لموتورات السيارات في تموز. فذهب مرتاحاً بالقطار. وكان وصل تواً من اسكوتلاندا.

ومثل فيلدمارشال أركادي محتشم رتبت هيلدا القسم المادي من الرحلة. جلست وكوني في الغرفة التي فوق الدرج تتجاذبان الحديث.

قالت كوني خائفة قليلاً «لكن ياهيلدا أود الليلة أن أبيت قريباً من هنا. ليس هنا، بالقرب من هنا».

نظرت هيلدا إلى أختها بعينين ثابتتين. بدتا هادئتين: هي دائماً هكذا عندما تغضب.

سألت بلطف «أين، بالقرب من هنا؟».

«بلى. أنت تعرفين أني أحب شخصاً، أليس أنت؟ ـ».

«أنا حزرت أن هناك شيئاً ما».

«لابأس. إنه يعيش قريباً من هنا ـ وأريد أن أُمضي هذه الليلة الأخيرة معه. لابد، فقد وعدت». صارت كوني ملحاحة.

أحنت هيلدا بصمت رأسها الذي يشبه رأس منيرفا. ثم رفعته.

قالت «هل تريدين أن تخبريني من هو؟».

تلعثمت كوني وتوهجت مثل طفل خجول «إنه حارس طرائدنا».

قالت هيلدا وقد رفعت أنفها قليلاً باحتقار: وهي حركة اكتسبتها من أمها «يه، كوني!».

«أعرف: لكنه جميل فعلاً. هـ... هـ... هو فعلاً يقدر اللطافة» قالت ذلك كوني وهي تحاول أن تعتذر عنه.

أحنت هيلدا رأسها وفكرت، مثل الربة أثينا المتوردة. كانت غاضبة فعلاً. لكنها لم تجرؤ أن تظهر غضبها، لأن كوني، التي أخذت هذا من أبيها، سوف تغدو تماماً جامحة ومشوشة.

صحيح أن هيلدا لم تعجب بكليفورد: تأكيده البارد بأنه رجل مهم. اعتقدت أنه عامَلَ كوني معاملة معيبة ووقحة. كانت تأمل أن تتركه أختها. ولكن بما أنها من الطبقة الوسطى الاسكوتلاندية، فقد اشمأزت من كل من هو أدنى منها أو من عائلتها.

أخيراً رفعت نظرها إليها.

قالت «سوف تندمين على ذلك».

صاحت كوني وقد احمرّت وتوردت «لن أندم. إنه حالة استثنائية تماماً. أنا أحبه حقاً. إنه جميل كعاشق».

مازالت هيلدا تفكر.

قالت «سريعاً ستكونين فوقه، وتعيشين مستعرّة من نفسك بسببه».

«لا أبداً. آمل أن أحصل على طفل منه».

«كوني!» قالت هيلدا بقسوة مثل ضربة مطرقة، وقد اعتراها الشحوب والغضب.

«سأحاول إن كان ذلك ممكناً. وسأكون فخورة لو حصلت على ابن منه».

لافائدة من الحديث معها. فكرت هيلدا.

قالت «ألم يرَتْب كليفورد؟».

«أوه. لا. ولماذا يرتاب؟».

«لاشك عندي أنك قدمت له الكثير من المناسبات حتى يشك» قالت هيلدا.

«لا أبداً».

«يبدو لي عمل الليلة حماقة مجانية تماماً. أين يعيش الرجل؟».

«في الكوخ عند الطرف الآخر من الغابة».

«أهو أعزب؟».

«لا. تركته زوجته».

«كم يبلغ من العمر؟».

«لاأعرف. إنه أكبر مني».

صارت هيلدا غاضبة أكثر لدى كل جواب، غاضبة، كما اعتادت أمها أن تكون، على شكل نوبة من البرحاء. ولكنها ظلت تخفي ذلك.

نصحتها بهدوء «لو كنت محلك لتخليت عن هذا العمل الطائش هذه الليلة».

«لاأستطيع، يجب أن أُمضي معه الليلة، وإلا فلن أستطيع الذهاب إلى البندقية أبداً. أنا فعلاً لاأستطيع».

كانت هيلدا تسمع والدها ثانية على لسان أختها، فأخلت السبيل أمامها، تنحُت بكل دبلوماسية. وقد قبلت أن تقود السيارة إلى مانسفيلد، مع أختها للعشاء ـ لإعادة كوني إلى آخر الممر، بعد العتمة، وأن تبحث عنها في آخر الممر، في صباح اليوم التالي: أما هي نفسها فتنام في مانسفيلد، وهي نصف ساعة فقط من القيادة المريحة. لكنها كانت خائفة. لقد اختزنت هذا ضد أختها، هذا العائق الذي وقف في وجه خططها.

نشرت كوني منديلاً زمردياً أخضر على عتبة نافذتها.

في قمة غضبها شعرت هيلدا بدفءٍ تجاه كليفورد. ثم إن له عقلاً. فإن لم يكن قادراً جنسياً، كعجز وظيفي، فإن كل شيء آخر فيه جيد: وهو أتفه من أن يجري الخصام حوله. لم تكن هيلدا ترغب بالمزيد من العمل الجنسي حيث يصبح الرجال قذرين مرعبين أنانيين. كوني فعلاً لاتوضع إلا في مصاف أكثر النساء، إن فعلت ذلك وعرفته.

قرر كليفورد أن هيلدا، مع ذلك، امرأة مثقفة، وبإمكانها أن تساعد الرجل المرموق إن كان يريد أن يدخل في السياسة مثلاً. هي حقاً لاتملك أي شيء من جمود كوني. كانت كوني طفلةً: عليك أن تعتذر لها، لأنه لا يمكن الاعتماد عليها.

كان هناك كوب من الشاي باكراً في القاعة، حيث فتحت الأبواب حتى تدخل أشعة الشمس. كل واحد بدا كأنه يلهث.

«مع السلامة يافتاتي كوني. عودي إلي بسلام».

كانت كوني لطيفة فقالت «إلى اللقاء ياكليفورد، لن أغيب طويلاً».

«مع السلامة ياهيلدا، خلي عينيك عليها، أليس ذلك؟».

«سوف أحافظ على الاثنين» قالت هيلدا «لن تضل بعيداً».

«إنه وعد».

«إلى اللقاء ياسيدة بولتون. أعرف أنك ستهمين بكل نبل بالسير كليفورد».

«سأفعل كل مافي وسعي ياسيدتي الليدي».

«واكتبي لي إن كان هناك أي أخبار، واعلميني عن السير كليفورد، كيف هو».

«سأفعل ياسيدتي الليدي. أتمنى لك وقتاً سعيداً وعودة تفرحنا».

SS

تحرك كل واحد. وغابت السيارة. نظرت كوني وراءها ورأت كليفورد جالساً على قمة الدرج في كرسيه المنزلي. على أي حال كان زوجها: وكان راغبي بيتها: الظروف فعلت ذلك.

فتحت السيدة شامبرز البوابة وتمنت لسيدتها الليدي قضاء عطلة سعيدة. وخرجت السيارة من أجمة الظلام التي تقنّع المتنزه، إلىالطريق الأعلى حيث كان عمال المناجم يتقاطرون عائدين إلى البيت. انعطفت هيلدا في طريق كروس هيل، الذي لم يكن طريقاً رئيسياً، لكنه يؤدي إلى مانسفيلد. وضعت كوني النظارة الشمسية. سارتا إلى جانب سكة القطار، التي كانت تتقاطع معهما من تحتهما. ثم عبرتا التقاطع على الجسر.

قالت كوني «هذا هو المسار إلى الكوخ».

رمقتها هيلدا بضجر.

قالت «إنها حفرة مخيفة نجتازها. يمكن أن نكون في بول مول في الساعة التاسعة».

قالت كوني من خلف نظارتها «آسفة من أجلك».

وبسرعة كانتا في مانسفيلد التي كانت في يوم من الأيام مدينة رومانتيكية، والآن هي مدينة مناجم لاقلب لها. توقفت هيلدا عند فندق ورد اسمه في الكتاب الدليل الذي في السيارة، وحجزتا غرفة. كل هذا الشيء لم يكن يهمها، وكان غضبها يمنعها من أن تتكلم. على أي حال اضطرت كوني أن تخبرها شيئاً ما عن تاريخ الرجل.

قالت هيلدا «هو، هو، ماالإسم الذي تنادينه به؟ إنك لاتقولين إلا هو، هو».

«أنا لاأدعوه بأي اسم: ولاهو يدعوني: وهذا شيء غريب عندما تفكرين فيه. إلا إذا قلنا الليدي جين وجون توماس. أما اسمه فهو أوليفر ميلورز».

ss

«وكيف تحبين أن تكوني السيدة أوليفر ميلورز بدلاً من الليدي شاترلي؟».

«سوف أحب ذلك».

لم يكن ثمة شيء تفعله مع كوني. على أي حال إن كان الرجل ليوتنانتاً في الجيش في الهند لأربع أو خمس سنوات، فلا بد أن يكون له حضور تقريباً. ومن الواضح أن له شخصية. بدأت هيلدا تلين قليلاً.

قالت «ولكنك ستكونين معه لفترة، ثم ستشعرين بالعار أنك واصلته. لايستطيع المرء أن يختلط بالشعب العامل».

«ولكنك اشتراكية، دائماً كنت إلى جانب الطبقات الكادحة».

«يمكن أن أكون إلى جانبهم في أزمة سياسية، لكنْ كَوني إلى جانبهم يجعلني أعرف كيف أنه من المستحيل أن يخلط المرء حياته بحياتهم. ليس انتفاخاً ـ وإنما لأن الإيقاع مختلف كل الاختلاف».

عاشت هيلدا بين المثقفين السياسيين الحقيقيين، لذلك لايمكن أن يُرد عليها رداً حاسماً.

الأمسية التي لاتوصف في الفندق انتهت، وأخيراً تناولتا عشاء رفيعاً. وضعت كوني بضعة أشياء في محفظتها الحريرية الصغيرة، ومشطت شعرها مرة ثانية.

قالت «ومع ذلك ياهيلدا، يمكن أن يكون الحب رائعاً، عندما تشعرين أنك تعيشين، وأنك في وسط الخلق الحقيقي» ـ كان ذلك أشبه بتفاخر من قِبلها.

قالت هيلدا «أعتقد أن أي بعوضة تشعر هذا الشعور».

«أتعتقدين ذلك؟ كم هو جميل لها».

كان المساء رائعاً صافياً يتثاقل ببطء، حتى في المدينة الموحشة. سيكون نصف مضاء طيلة الليل. وبوجه مثل القناع امتعاضاً أدارت هيلدا السيارة ثانية، وعادت الاثنتان ولكن على

ss

طريق آخر، يمر ببوس أوفر. وضعت كوني نظارتها وقبعتها المتنكرة، وجلست بصمت. وبسبب معارضة هيلدا انضمت إلى جانب الرجل بقوة، لسوف تقف إلى جانبه في السراء والضراء.

كانت الأضواء فوقهما، وبعد مدة قصيرة قطعتا كروس هيل، والقطار المضاء قليلاً الذي عبر التقاطع جعل المساء يبدو ليلاً حقيقياً. وقد حذرت هيلدا وهي تنعطف إلى المسار عند نهاية الجسر. تباطأت فجأة تقريباً، وقطعت الطريق فصارت الأنوار ساطعة في المسار الأخضر الذي نما عشبه. نظرت كوني إلى الخارج. رأت شكلاً شبحياً، ففتحت الباب.

قالت بنعومة «هنا نكون قد وصلنا».

لكن هيلدا أطفأت الأنوار، وقامت بانعطافة بعد أن رجعت إلى الوراء بسرعة.

سألت باقتضاب «لاشيء على الجسر؟».

جاء صوت الرجل «كوني مطمئنة».

عادت إلى الجسر وقطعته، تاركة السيارة تجري إلى الأمام بضع ياردات عبر الطريق، ثم عادت إلى المسار، تحت شجرة الدردار ساحقة العشب والسرخس. ثم اختفت كل الأضواء. انحدرت كوني. الرجل واقف تحت الشجرة.

سألت كوني «هل انتظرت طويلاً؟».

أجاب «ليس طويلاً جداً».

كلاهما انتظرا حتى تغيب هيلدا. لكن هيلدا أطبقت باب السيارة وجلست متوتّرة.

«هذه أختي هيلدا. ألا تقترب وتكلمها؟ ـ هيلدا هذا هو السيد ميلورز».

رفع الحارس قبعته، لكنه لم يقترب أكثر.

ss

رجتها كوني «ترجلي ياهيلدا ورافقينا إلى الكوخ. إنه ليس بعيداً».

«وماذا عن السيارة؟».

«الناس عادة يدعون سياراتهم في المساء. والمفتاح معك».

صمتت هيلدا بإصرار. ثم نظرت إلى المسار خلفاً.

قالت «هل يمكنني أن ألفّ حول الأجمة؟».

قال الحارس «أوه طبعاً».

عادت إلى الوراء ولفت المنعطف، بعيداً عن الطريق، وقفلت السيارة، وترجلت. كان ليلاً ولكن العتمة فيها شيء من النور. وارتفعت السياجات عالية وحشية، على المسار غير المستخدم، وهو يبدو معتماً جداً. كانت في الهواء رائحة ريانة عذبة. تقدم الحارس ثم كوني ثم هيلدا، بصمت. أضاء الأماكن الوعرة بمصباحه اليدوي، وتابعوا السير ثانية، بينما نعبت بومة فوق السنديانات، ودارت فلوسي بصمت. لم يستطع أحد أن يتكلم: لم يكن ثمة شيء يقال.

أخيراً رأت كوني ضوء البيت الأصفر، فراح قلبها يخفق بشدة. كانت خائفة قليلاً. تقاطروا كأنهم في طابور هندي.

فتح الباب، وأدخلهم إلى غرفة دافئة ولكنها صغيرة عارية. واندلعت النار منخفضة حمراء في القضبان الحاجزة. كانت الطاولة معدّة وعليها صحنان وكوبان، فوق غطاء طاولة أبيض خاص. هزت هيلدا شعرها ونظرت في أرجاء الغرفة العارية التي لايوجد فيها كرسي. عندئذٍ استجمعت شجاعتها ونظرت إلى الرجل.

يميل إلى الطول قليلاً، رفيع، فأخذت عنه إطلالة جيدة. واحتفظ هو بنفوره لنفسه. بدا واضحاً أنه لايرغب في الكلام.

قالت كوني «هلا جلست ياهيلدا».

قال «تفضلي ـ هل لي أن أصنع الشاي أو أي شيء آخر ـ أم تشربان كوباً من البيرة؟ إنها باردة برودة معتدلة».

قالت كوني «بيرة».

قالت هيلدا بنوع من سخرية الخجل «بيرة لي من فضلك» نظر إليها ورف بعينيه.

أخذ إبريقاً أزرق وسار إلى غرفة غسل الأطباق. وعندما عاد بالبيرة كان وجهه قد تغير ثانية.

جلست كوني قرب الباب، وجلست هيلدا في مقعده، وظهرها إلى الحائط، مقابل زاوية النافذة.

قالت كوني بنعومة «هذه كرسيه» فنهضت هيلدا كأن الكرسي أحرقتها.

قال وهو محافظ على رباطة جأشه «اجلسي حيث تشائين، حيث تشائين، خذي أي كرسي تريدين، فهنا لايوجد بيننا زعيم كبير».

وأحضر كوب هيلدا، وسكب بيرتها من الإبريق الأزرق.

قال «بالنسبة للسجائر. لا. ليس لدي، ولكن معك سجائرك. أنا لاأدخن ـ هل تأكلين شيئاً؟» ـ والتفت مباشرة إلى كوني. «هل تأكلين شيئاً ما إذا أنا أحضرته لك؟ أنت اعتدت أن تأكلي شيئاً قليلاً». تحدث باللغة العامية المحلية بثقة هادئة غريبة، كما لو كان صاحب السكن.

سألت كوني مندفعة «ماذا عندك؟».

«لحم مسلوق وجبنة ومخلل، وأشياء أخرى إن كنتما تحبان، ليس كثيراً».

«أنا بلى، وأنت ياهيلدا ألا تريدين؟».

تطلعت هيلدا إليه.

قالت بنعومة «لماذا تتحدث اللهجة اليوركشايرية؟».

«هذه ليست لهجة يوركشاير، بل لهجة ديربي».

ونظر إليها بتكشيرة واسعة رقيقة.

«ديربي، إذن لماذا تتحدث لهجة ديربي؟ تحدثت الانكليزية الطبيعية أول الأمر».

«هل تزعجكِ؟ وهل لي ألا أغير إن لم يكن في ذلك شيء؟ لا. لا، دعيني أتكلم لهجة ديربي فهي تناسبني إذا كان لايزعجك ذلك».

قالت هيلدا «إنها قليلة التأثير».

«هي هكذا وحتى تيفرشال هناك التأثير نفسه» ـ نظر ثانية إليها، وهو يبدي نفوراً منها، عبر عظام خديه كأنه يقول: نعم. ومن تكونين أنت؟

وأسرع إلى غرفة المؤونة لإحضار الطعام.

جلست الأختان بصمت. أحضر صحناً آخر وكذلك شوكة وسكيناً ثم قال:

«إن كان لايزعجكما فسوف أخلع معطفي كما اعتدت أن أفعل».

خلع معطفه، وعلقه على المشجب ثم جلس إلى الطاولة بقميصه ذي الأكمام: قميص من الفلانيلا بلون الكريم.

قال «اعتمدا على نفسيكما واعملا ماتريدان، لاتعتمدا علي».

قطع الخبز ثم جلس بلا حراك. شعرت هيلدا، كما شعرت كوني من قبل، بقوة صمته ونفوره. ورأت يده الصغيرة الحساسة منبسطة على الطاولة. لم يكن رجلاً عاملاً بسيطاً: لا. كان يعمل، يعمل.

قالت وهي تتناول قليلاً من الجبنة «يكون أكثر طبيعية لو أنكَ كلمتنا بالانكليزية العادية، وليس باللغة المحلية».

نظر إليها وقد استشعر شيطان إرادتها.

قال باللغة الانكليزية العادية «صحيح؟ صحيح أن كل شيء قيل

بينك وبيني يكون طبيعياً تماماً، مالم تقولي إنك تودين توبيخي أمام أختك إن رأيتني ثانية: ومالم أقل شيئاً سيئاً ثانية؟ هل هناك شيء آخر يكون طبيعياً؟».

قالت هيلدا «أوه، بلى، هكذا هي الطريقة الجيدة فتكون اللغة طبيعية».

قال «طبيعة ثانية، إن جاز القول» ثم بدأ يضحك. قال «لا، أنا منزعج من الطرائق. فلآخذ حريتي».

كانت هيلدا مرتبكة ارتباكاً واضحاً ومنزعجة انزعاجاً مخيفاً. ومع ذلك ربما أفصح أنه متأكد من أنه رجل شهم. وبدلاً من ذلك، وبعمله التمثيلي وانتفاخه اللوردي بدا كأنه يفكر بأنه هو الذي يوزع الشهامة. فيالكوني العاجزة الضالة بين براثن الرجل.

أكل الثلاثة بصمت. نظرت هيلدا لترى بأي طريقة وُضعت المأدبة. ولم تستطع التأكد بأنه غريزياً كان أكثر لطافة وتربية منها. إن فيه غموضاً اسكوتلاندياً ما. وفوق ذلك، إنه يملك ثقة ذاتية تماماً بالانكليزية، ولايتراخى بها. إن من الصعب جداً التفوق عليه.

ولكن لا لن يكون هو أفضل منها.

قالت بإنسانية أكثر قليلاً «وهل تعتقد حقاً أن ذلك يستحق المخاطرة؟».

«ماهو ذلك، وماهي المخاطرة؟».

«هذا الهرب مع أختي».

وانفرج فمه عن تكشيرة مؤذية.

«ع ليك أن تا سأ ليها هي».

ثم التفت إلى كوني.

«أنت التي جئت ياجميلتي بإرادتك، أليس كذلك؟ فهل أنا أكرهتك على ذلك؟».

نظرت كوني إلى هيلدا.

«أتمنى ألا تعترضي ياهيلدا».

«طبيعي لاأريد أن أعترض. ولكن لابد من أن يفكر المرء في الأشياء. ـ فأنت يجب أن يكون لك نوع من الاستمرارية في حياتك. لكنك لاتريدين أن تبقي آنسة».

خيّمت لحظة صمت.

قال «ايه. استمرارية. وماذا في ذلك، فما الاستمرارية التي قمت بها في حياتك؟ أعتقد أنك تحصلين على الطلاق. فأي استمرارية في ذلك؟ إنها استمرارية عنادك ـ وأنا أرى ذلك جيداً. ثم ما الشيء الجيد الذي تقومين بعمله أنت؟ ستكونين مريضة إن تابعت استمراريتك إلى سن كبيرة. امرأة عنيدة وإرادة ذاتية خاصة: إي، هما يصنعان استمراريتك، هما. أشكر السماء أنني لم أتعامل معك».

قالت هيلدا «بأي حق تتحدث معي بهذا الشكل؟».

«حق. وبأي حق رحت أنت تُكرهين الناس الآخرين على الاستمرارية؟ دعي الناس لاستمراريتهم الخاصة».

قالت هيلدا بنعومة «ياعزيزي، أتراني أهتم بك؟».

قال «إي. أنت تهتمين. لأن هذا شيء قسري، فأنت بنت حماتي».

«ماتزال بعيداً عن ذلك، أؤكد لك».

«لا. ليس بعيداً، أؤكد لك أنا. أنا لي طريقتي في الاستمرارية، فعودي إلى حياتك. وهي جيدة مثل استمراريتك. وإن كانت أختك تأتي إلي بفرجها ولطافتها فإنها تعرف ماذا يعقب ذلك. كانت في سريري من قبل: وأحمد الله أنك لاتشملينه باستمراريتك» وحلت فترة صمت قبل أن يضيف: «أنا لاأبلي بنطالاً من مؤخرتي. فإن كنت أحصل على سقط الأشجار فإني أشكر حظي. فأنا رجل أحصل على متعتي خارج تلك الجميلة الجالسة هناك ـ التي هي من أكثر الناس

الذين لايشبهونك. إنه مما يدعو إلى الشفقة، إذ بإمكانك أن تنالي كثيراً من التفاح الجيد بدلاً من هذه التفاحة البرية. إن النساء من أمثالك يحتجن إلى مُطعِّم يقوم بتطعيمهن بأملود جيد».

كان ينظر إليها بابتسامة ماكرة غريبة فيها قليل من الحسية والتقييم.

قالت «ورجل من أمثالك يحتاج إلى عزل: تبريراً لابتذالهم ومتعتهم الأنانية».

«أوه يامدام. ليس هناك من يشبهني إلا القليل من الرجال. ولكنك أنت تستحقين ماقلت: أن تُفردي وتكوني وحدك».

كانت هيلدا قد نهضت وذهبت إلى الباب. فنهض وتناول قميصه عن المشجب.

قالت «بإمكاني وحدي تلمس طريقي تماماً».

أجاب بليونة «أشك في أنك تستطيعين».

ساروا في طابور مضحك ونزلوا حتى وصلوا إلى المسار ثانية بصمت. وماتزال البومة تنعب. عرف أن عليه أن يطلق عليها النار.

كانت السيارة في مكانها لم يلمسها أحد، لكنها مبللة قليلاً. دخلت هيلدا السيارة وأدارت محركها. وانتظر الاثنان الآخران.

قالت وهي في مقعدها المحصّن «كل ماأقصده هو أنني أشك في أن يكون ذلك يستحق كل هذا ـ أنتَ أو أنتِ».

قال من العتمة «لحم رجل هو سم رجل آخر. لكن الأمر عندي هو لحم وشرب».

أشعلت أضواء السيارة.

«لاتدعيني أنتظر صباحاً ياكوني».

«لا. لن أدعك، طاب مساؤك ياهيلدا».

ss

عبرت السيارة ببطء إلى الطريق العام، وانسلت بعيداً بسرعة، تاركة صمت الليل.

بكل لطف أخذت كوني ذراعه، وهبطا إلى المسار. لم يتكلم. أخيراً دفعته إلى أن يتوقف توقفاً كاملاً.

همست «قبّلني».

قال «لا دعيني قليلاً حتى يهدأ هياجي».

سرها ذلك. ظلت ممسكة بذراعه، وذهبا بسرعة إلى أسفل المسار، بصمت. كانت مسرورة أن تكون معه، الآن تماماً. ارتعدت وهي تعرف أن هيلدا قد تركتها بعيداً. وكان هو في صمت مبهم.

عندما صارا في الكوخ مرة ثانية، راحت تقفز من الفرح، لأنها تحرّرت من أختها.

قالت له «لكنك كنت مرعباً لهيلدا».

«لقد انسلت في الوقت المناسب».

«لكن لماذا؟ ـ إنها لطيفة».

لم يُجب، وراح يقوم بأعماله المسائية المألوفة، بحركة هادئة حاسمة. خارجياً كان غاضباً، ولكن ليس منها. هكذا شعرت كوني. كان غاضباً ولكنه في صميم غضبه أحبها. ثم إن غضبه أضفى عليه أناقة خاصة، داخلية خاصة، وتألقاً أثارها وجعلها مصهورة الساقين. ومع ذلك لم يأخذ عليها مأخذاً.

جلس أرضاً وبدأ يحل شريط جزمته. ثم نظر إليها من تحت حاجبيه، اللذين مايزال الغضب قائماً فيهما.

قال «ألا تسرعين؟ هناك شمعة».

وأمال رأسه ببطء ليشير إلى الشمعة المشتعلة على الطاولة. وبكل انصياع أخذتها، فراقب كامل ثنايا خاصرتيها وهي تصعد الدرجات الأولى.

SS

كانت ليلة العاطفة الحسية، التي كانت فيها قلقة قليلاً، وغير راغبة: ومع ذلك تمسكت ثانية بالإثارات الحسية الحادة المختلفة الأشد رعباً من إثارات اللطف، ولكن في اللحظة المناسبة، كانت أشد رغبة. ومع أنها كانت خائفة قليلاً، تركته يسير حسب طريقته، وراحت الحسية التي لاتخجل تهزها حتى الأعماق، وتسير بها إلى النهاية، وتجعلها امرأة مختلفة. لم يكن هذا حباً حقيقياً. لم يكن شهوانية. كانت حسية حادة ولافحة كالنار، تحرق نفسها لتلطفها.

وطرحت الخجل، الخجل القديم الأعمق، في معظم الأماكن السرية. وبذلت مجهوداً حتى تتركه حسب طريقته وممارسة إرادته عليها. كان يجب أن تكون شيئاً سلبياً منصاعاً مثل عبد، مثل عبد جسدي. ومع ذلك راحت العاطفة تطوف حولها وتمتصها وحين مرت لهبة حسية في أحشائها وصدرها شعرت حقاً أنها تموت: ولكنه موت مؤثر رائع.

كم دهشت مما قصده ابيلار، عندما قال بأنه في عام حبهما، مر هو وهيلوييز بكل مراحل تنقية العاطفة. الشيء نفسه منذ ألف سنة. منذ عشرة آلاف سنة. الشيء نفسه على الزهريات الإغريقية - في كل مكان. تنقية العاطفة، الغلواء الحسية. ومن الضروري، الضروري أبداً، أن نحرق خجلنا المزيف ونصهر أثقل فلزات جسدنا في النقاء. في نار الحسية المحضة.

في هذه الليلة الصيفية القصيرة تعلمت الكثير ولو فكرت كامرأة لماتت من الخجل. وبدلاً من ذلك مات الخجل. الخجل الذي هو الخوف: الخجل العضوي العميق، الخوف الجسدي القديم القديم الذي يجثم في جذورنا الجسدية، ويمكن طرده بالنار الحسية، وأخيراً نهض فدفعته مطاردة قضيب الرجل، فوصلت إلى قلب أدغال نفسها. شعرت الآن أنها وصلت إلى الصخرة الأساسية لطبيعتها، وكانت غير خجولة أبداً. كانت هي نفسها حسية عارية غير خجولة. شعرت بالفرح، وبالخيلاء تقريباً. هكذا كانت. كانت الحياة. هكذا

كانت نفسها. لايوجد شيء نخفيه أو نخجل منه. شاركت عريها مع رجل، في وجود آخر.

أي شيطان طائش هو الإنسان، فعلاً إنه يشبه الشيطان. يجب على المرء أن يكون قوياً حتى يتحمله. ولكنه يدخل إلى جوهر الأدغال الجسدية، آخر وأعمق ملجأ للخجل العضوي. القضيب وحده يستطيع أن يكشفه. وكم راح يضغط عليها. وكيف كرهته في خوفها. وفي قاع نفسها احتاجت أساساً إلى هذه المطاردة القضيبية، وقد أرادته سراً، واعتقدت أنها لن تحصل عليه. والآن هو ذا، وكان الرجل يشاركها آخر عريها، فقد طرحت الخجل عنها.

كم كان الشعراء يكذبون، وكل واحد كان يكذب. جعلوا المرء يعتقد أنه ينشد التعاطف. بينما ماينشده قبل أي شيء هو حسيته المطبقة، المضنية، أو بالأحرى المرعبة. ينشد العثور على رجل يجرؤ أن يحدثه، من دون خجل أو خطيئة أو أي هاجس. فإن كان خجولاً بعد كل هذا، فإنه يجعل المرء يشعر بالخجل، فياله من رعب. كم هم نادرون أولئك الرجال الحسيون الرائعون. وكم هم كالكلاب معظم الرجال الخجولين. مثل كليفورد، أو حتى مثل ميكائيل. فكلاهما حسياً وضيع كالكلب. ـ المتعة الفائقة للعقل، وماهي تلك المتعة التي للمرأة؟ وماهي المتعة حتى للرجل أيضاً. يصبح مجرد طائش وكلبي، حتى في عقله. فالأمر يحتاج إلى حسية حتى لتنقية العقل وتسريعه. حسية نارية خالصة وليس طيشاً.

ياإلهي، كم هو نادر هذا الشيء، في الرجل. إنهم كلهم كلاب، يهرولون ويشمشمون ويتناكحون. عليها أن تجد رجلاً لايخاف ولايخجل. نظرت إليه الآن، ينام مثل حيوان بري يغفو ويوغل في البعيد. واستقرت في الأسفل غير بعيدة عنه.

إلى أن أيقظها نهوضه إيقاظاً كلياً. كان في السرير جالساً ينظر إليها. رأت عريها في عينيه، فعرفت نفسها على الفور. والمعرفة الذكرية المتدفقة لنفسها بدت أنها تتدفق إليها من عينيه

ss

وتلف شهوانيتها. أوه كم هو شهواني وجميل أن يكون لها ساقان وجسد نصف نائم ثقيل مغمور بالعاطفة.

قالت «آن الأوان كي ننهض؟».

«السادسة والنصف».

عليها أن تكون عند طرف المسار في الثامنة. دائماً، دائماً، دائماً ينوء المرء بهذا القسر.

«ولكن لانحتاج أن ننهض».

«سأجهز الفطور وأحضره إلى هنا ـ أليس كذلك؟».

«أوه. بلى».

أنّت فلوسي أنةً خفيفة. فنهض وخلع بيجامته ومسح نفسه بالمنشفة. عندما يكون الكائن البشري شجاعاً ومليئاً بالحياة كم يبدو جميلاً. هكذا فكرت حالما راقبته بصمت.

«اسحب الستارة، إن أمكن؟».

كانت الشمس تسطع على الأوراق الخضراء الطرية للصباح، وفي الأماكن القريبة بدت الغابة ندية زرقاء. جلست في السرير، ناظرة وهي تحلم من النافذة البارزة، وقد ضمت ذراعيها على نهديها معاً. وكان هو يرتدي ثيابه. وكانت هي نصف حالمة بالحياة، حياة تعيشها معه: مجرد حياة فقط.

كان ذاهباً، هارباً من عريها الخطِر الساحق.

قالت «هل أمضيت ليلتي كلها؟».

دفع يده إلى الأسفل في السرير، ونزع الحرير الهفهاف.

قالت «عرفت، إني شعرت بالحرير على كاحلي».

لكن ثوب النوم انقسم تقريباً إلى قسمين.

قالت «لاتبالِ ـ إنه ينتمي إلى هنا. سأتركه هنا».

ss

«إي. دعيه ـ سأضعه بين ساقي في الليل، للصحبة، ليس فيه اسم ولاماركة تجارية، أليس كذلك؟».

«لا. إنه مجرد ثوب قديم بسيط».

تسللت على الثوب الممزق، وجلست حالمة تنظر من النافذة إلى الخارج. كانت النافذة مفتوحة، وهواء الصباح يندفع منها، وصوت العصافير وهي تعبر مصفقة باستمرار. ثم رأت فلوسي تطوف في الخارج. إنه الصباح.

تحت الدرج سمعته يوقد النار، ويضخ الماء، ويخرج إلى الباب الخلفي. ورويداً رويداً تسللت ببطء، رائحة شواء لحم الخنزير، ثم صعد الدرج بصينية سوداء كبيرة بالكاد يتسع لها الباب. وضع الصينية على السرير، وسكب الشاي. وجلست كوني بثوب نومها الممزق، وتناولت طعامها بشغف. جلس على الكرسي، وصحنه على ركبتيه.

قالت «كم جميل، كم لطيف أن نأكل الفطور معاً».

جلست بصمت، وهو يفكر في الوقت الذي يمضي سريعاً. وذلك ماجعلها تتذكر.

«أوه، كم أتمنى أن أبقى هنا معك، وأن يكون راغبي بعيداً من هنا مسافة مليون ميل. كان راغبي هو الذي غادرته فعلاً. أنت تعرف ذلك، أليس كذلك؟».

«إي».

«وسوف يحصل ذلك، سوف يحصل، أليس كذلك؟» وانحنت فوقه تسكب الشاي ممسكة بمعصمه.

«إي» قال ذلك وهو يرفع إليها الشاي.

قالت ضارعة «ألا يمكن أن نعيش الآن معاً، ألا يمكن؟».

نظر إليها بتكشيرته المتقطعة.

قال «لا. عليك أن تنطلقي خلال خمس وعشرين دقيقة».

صاحت «أغَلي؟» وفجأة رفع إصبعه محذراً ونهض على قدميه.

أطلقت فلوسي نبحة قصيرة، ثم ثلاث نبحات عاليات للتحذير. وبصمت وضع صحنه على الصينية، وهبط الدرج. سمعته كونستانس يهبط إلى ممر الحديقة. وقرع جرس دراجة هوائية هناك في الخارج.

«صباح الخير ياسيد ميلورز. رسالة مسجلة».

«أوه، هل معك قلم؟».

«هو ذا».

وكانت هناك فترة صمت.

قال صوت الغريب «كندا».

«أوه إنه صديق لي سافر إلى هناك في كولومبيا البريطانية. ألا تعرف ماهو المسجل؟».

«الأغلب أن يكون نقداً».

«أفضل أن يكون شيئاً».

فترة صمت.

«ياله من نهار جميل اليوم».

«إي».

«أسعدت صباحاً».

«أسعدت صباحاً».

بعد فترة صعد الدرج ثانية، وقد بدا غاضباً قليلاً.

قال «البوسطجي».

أجابت «إنه مبكر جداً».

«يطوف الريف ـ عندما يأتي يكون هنا في السابعة».

«هل أرسل صديقك نقوداً؟».

ss

«لامجرد بعض الصور الفوتوغرافية والصحف عن الأمكنة هناك في كولومبيا البريطانية».

«هل ستذهب إلى هناك؟».

«أعتقد أننا ربما نذهب».

«أوه، بلى، أظن أنه مكان جميل».

لكنه ارتبك لقدوم البوسطجي.

«لعنة الله على دراجاتهم الهوائية، فهي تبرز أمامكِ قبل أن تعرفي نفسك أنت أين. آمل ألا يشك في شيء».

«ومع ذلك، فليشك مايحلو له».

«يجب أن تنهضي الآن، وأن تُعدّي نفسك. أنا سأطوف في الجوار متفقداً».

شاهدته في المسار يستكشف، مع كلبته وبندقيته. هبطت الدرج واغتسلت، وكانت جاهزة في الوقت الذي عاد فيه، مع أشيائها القليلة في محفظتها الحريرية الصغيرة.

قام بالإقفال وانطلقا ولكن عبر الغابة وليس في المسار. بدا عليه أنه كان قلقاً.

قالت له «أتظن أن المرء يعيش أوقاتاً عديدة مثل هذه الليلة؟».

«إي. ولكن عليه أن يفكر ببقية الأوقات». أجابها أو بالأحرى اختصر لها.

سارا على الممر الذي نما عشبه، وهو أمامها يسير صامتاً.

قالت ضارعة «وسوف نعيش معاً ونصنع الحياة معاً، أليس كذلك؟».

أجاب وهو يخطو من دون أن يلتفت حوله «عندما يحين الأوان، ارحلي الآن إلى البندقية أو أي مكان آخر».

ss

وهكذا تبعته بصمت، بقلب غائص. أوه الآن كانت حزينة لسفرها.

أخيراً توقف.

قال مشيراً إلى اليمين «مري من هنا على طول، تماماً».

ولكنها رمت ذراعيها على عنقه والتصقت به.

همست «ولكنك ستحتفظ لي باللطف، أليس كذلك؟ أحببت آخر ليلة. ولكنك ستحتفظ لي باللطف، أليس كذلك؟».

قبّلها وضمها إليه لحظة. ثم تنهد وقبّلها ثانية.

«سوف أذهب وأرى إن كانت السيارة هناك».

وجاس فوق العليق والسرخس، تاركاً رتلاً من مداس الأقدام فوق السرخس. ذهب لدقيقة أو دقيقتين، ثم عاد مسرع الخطو.

قال «السيارة ليست هناك بعد. لكن هناك عربة خباز على الطريق».

بدا قلقاً ومنزعجاً.

«اسمعي».

سمعت سيارة تنعب وهي تقترب نعيباً ناعماً. لقد مرت فوق الجسر.

قال «هي ذي. أنا لن آتي. اذهبي، لاتدعيها تقف هناك».

وغرقت في حزن مطلق وهي تتبع آثار أقدامه على السرخس. ووصلت إلى سياج ضخم من الورد. كان وراءها تماماً.

قال مشيراً إلى فجوة: «هنا! اعبري من هناك، أنا لن آتي».

نظرت إليه بقنوط. لكنه قبّلها وجعلها تجري. زحفت بائسة عبر الأزهار وعبر السياج الشجري، وقطعت ببطء الخندق الصغير

ss

صاعدة إلى المسار، حيث بدت هيلدا مغتاظة بعد أن ترجلت من سيارتها.

قالت هيلدا «لماذا أنتِ هنا؟ أين هو؟».

«لن يأتي».

وانحدرت الدموع على خدي كوني عندما دخلت السيارة بمحفظتها الصغيرة. وانتزعت هيلدا قبعة القيادة مع نظارة شمسية غريبة الشكل.

قالت «ضعيها». انتزعت كوني هذا القناع، ثم معطف القيادة الطويل، وجلست مخلوقاً غير بشري غير واضح المعالم. أدارت هيلدا السيارة بحركة تشبه رجال الأعمال. وخرجتا من المسار مبتعدتين في الطريق. نظرت كوني حولها ـ ولكن لم يكن له أثر. بعيد، بعيد. جلست بدموع مريرة. جاء الفراق مفاجئاً عاجلاً وغير متوقع. كان أشبه بالموت.

قالت هيلدا ملتفة لتتجنب كروس هيل «أشكر الفرص السعيدة أنكِ ابتعدت عنه لبعض الوقت».

ss

الفصل السابع عشر

بعد الغداء قالت كوني، عندما كانتا تقتربان من لندن «أنت لاتعرفين اللطف ولا الحسية الحقيقية: ولو كنت تعرفينهما ـ مع الرجل ذاته ـ لجعلك ذلك مختلفة جداً».

قالت هيلدا «بالله عليك لاتتبجحي بتجاربك. أنا لم أقابل الرجل القادر على الحميمية مع المرأة ـ على منح ذاته كلها لها. هذا كل ما أردته. أنا لست حريصة على لطافتهم ولا على حسيتهم اللتين تُرضيان ذاتهم. أنا لاأرضى أن أكون تسلية الرجل الصغيرة ولا أن أكون جسداً تحت إرادته. أريد حميمية كاملة، ولم أحصل عليها. وهذا كاف لي».

فكرت كوني فيما قالته أختها. حميمية كاملة. اعتقدت أنها تعني كشف كل مايخصك أنت للشخص الآخر، وكشف الشخص الآخر كل مايخصه. لكن ذلك كان مزعجاً. إنه كل مايتلف الوعي الذاتي بين الرجل والمرأة ـ إنه مرض.

قالت لأختها «أعتقد أنك واعية جداً لنفسك طيلة الوقت مع أي شخص آخر».

قالت هيلدا «أرجو على الأقل ألا تكون لدي طبيعة عبد».

«ولكن قد يكون لديك. ربما أنتِ عبد لفكرتك الخاصة، لنفسك».

ss

قادت هيلدا السيارة بصمت لبعض الوقت بعد هذه الإهانة التي ماسمعتها قط من كوني الوقحة هذه.

ردت أخيراً بغضب فج «على الأقل لست عبدة لفكرة أي شخص آخر عني: وهذا الشخص الآخر هو خادم زوجي».

قالت كوني بهدوء «أنت ترين أن الأمر ليس هكذا».

كانت دائماً تترك أختها الكبرى تسيطر عليها. الآن وإن كان هناك مكان ما داخل نفسها يبكي، فقد كانت متحررة من سيطرة المرأة الأخرى. آه. إن ذلك بحد ذاته راحة، وكأنك مُنحت حياة أخرى: أن تكوني متحررة من سيطرة الغريب وهاجس النساء الأخريات. ألا كم هن مرعبات أولئك النسوة.

كانت مسرورة أن تكون مع والدها، الذي تحظى دائماً بتعاطفه. مكثت هي وهيلدا في فندق صغير في بول مول وكان السير مالكولم في ناديه. لكنه أخذ بنتيه مساءً، وهما تحبان الذهاب معه.

كان مايزال أنيقاً وقوياً، وإن كان يخاف قليلاً من العالم الجديد الذي انبثق من حوله. عقد قرانه على زوجة ثانية في اسكوتلاندا، أصغر منه وأغنى. لكنه يُمضي عطلاً كثيرة بعيداً عنها قدر الإمكان: كما يفعل مع زوجته الأولى.

تَلَتْهُ كوني في الجلوس في الأوبرا. كان ضخماً قليلاً، وفخذاه ضخمتان، ماتزالان تحتفظان بالقوة والانسجام: إنهما فخذا رجل سليم استمتع بحياته. أنانيته المرحة وكلبيته في الاستقلال، وحسيته، بدت لكوني كأنها ترى كل ذلك في فخذيه. إنه رجل تماماً. والآن صار عجوزاً حزيناً. إذ في ساقيه الذكوريتين السميكتين لا يوجد أية حساسية طاقة ولاقوة لطافة، التي هي جوهر الصبا، التي لاتموت، إن وجدت يوماً.

انتبهت كوني لوجود السيقان. صارت أهم عندها من الوجوه، التي ليست حقيقية تماماً. ما أقل الذين عاشوا بسيقان حيوية. نظرت

SS

إلى الرجال في مقاعدهم. أفخاذ من حلوى البودنغ العظيمة في ثياب سوداء، أو قضبان خشبية طرية في نسيج جنائزي أسود، أو سيقان جميلة الشكل من دون أي معنى، لاحسية أو لطافة أو حساسية، إنما فقط سيقان عادية تتواثب. لايوجد فيها أي حسية كما لدى أبيها. إنها كلها وجودٌ محبط، محبط جداً.

لكن النساء لم يكنّ محبطات. سواري الطاحون المرعبة هي سيقان معظم النساء، تصدم النفس فعلاً، تصدم إلى درجة اقتراف الجريمة. أو الأوتاد النحيلة الهزيلة، أو الأشياء النظيفة المرتبة في جوارب حرير دون أدنى مظهر للحياة. مخيفة ملايين السيقان التي لامعنى لها، تتواثب أيضاً بلا معنى في كل جانب.

لم تكن سعيدة في لندن. بدا الناس كأنهم أشباح وشاحبون. ليس لديهم سعادة حية، بغض النظر عن رشاقتهم ومظهرهم الأنيق. كلهم كانوا عقيمين. أما كوني فكان لديها توق أعمى للسعادة، لتتأكد من السعادة.

وفي باريس، على أي حال، شعرت بقليل من الحسية. ولكن يالها من حسية بالية متعبة مرهقة، إنها مرهقة لأنها تحتاج إلى اللطافة. آه، كانت باريس حزينة، إنها إحدى أشد المدن حزناً: متعبة الآن من حسيتها الميكانيكية، متعبة من ضغط المال، المال، المال، متعبة حتى من الاشمئزاز والغرور، متعبة حتى الموت، من التأمرك والتلندن اللذين لايكفيان لإخفاء تعبها تحت الاهتزاز الميكانيكي، الاهتزاز، الاهتزاز. أوه، يالهؤلاء المدّعي الرجولة، أولئك المتكاسلين، أولئك المغرمين، أولئك الذين يتناولون عشاءهم الجيد. كم كانوا متعبين. متعبون مرهقون لأنهم يحتاجون إلى قليل من اللطافة يعطونها ويأخذونها. إن النساء المؤثرات، وأحياناً الفاتنات، يعرفن شيئاً أو شيئين عن الوقائع الحسية: إنهن يملكن ذلك الذي سارت فيه أخواتهن الانكليزيات المهتزات. إلا أنهن يعرفن الأقل من اللطافة. توتر للإرادة جاف، جاف إلى مالانهاية، كن أيضاً

متعبات بسببه. العالم كله كان متعباً وآخذاً في المزيد من التعب. وربما ينقلب إلى عالم مفكك. نوع من الفوضى. كليفورد وفوضويته المحافظة. ربما ستظل محافظة إلى مدة أطول. ربما لاتتطور إلى فوضوية جذرية جداً.

وجدت كوني نفسها تنكمش وتخاف من العالم أحياناً كانت سعيدة لفترة قليلة في البوليفار أو البوا أو حدائق لوكسمبورغ. لكن باريس كانت ملأى بالأميركان والانكليز، بالأميركان الأغراب في لباس موحد غريب، وبالانكليز الخائفين عادة، الذين يصيبهم اليأس خارج بلادهم.

كانت مسرورة أن تتنقل. صار الجو حاراً فجأة، فذهبت هيلدا من خلال سويسرا وفوق البرينر، ثم عبر الدولوميت وصولاً إلى البندقية. أحبت هيلدا الإدارة والقيادة وكونها سيدة الاستعراض. أما كوني فاكتفت بأن تلزم الهدوء.

كانت الرحلة فعلاً جميلة تماماً. كوني فقط احتفظت بالقول لنفسها: لم لاأهتم أنا اهتماماً فعلياً؟ لماذا فعلاً لايثيرني شيء؟ كم يكون مرعباً أنني لاأهتم بالمناظر أبداً. ولكني لاأريد. إنها بالأحرى مرعبة. إني مثل القديس برنارد، الذي استطاع الإبحار حتى بحيرة لوسيرن من دون أن يلاحظ أبداً أن هناك جبالاً ومياهاً خضراء. أنا لاأهتم بالمناظر أبداً. ولماذا يحملق الإنسان فيها؟ لماذا يجب على المرء أن يحدق؟ إني أرفض ـ.

لا، لم تجد شيئاً حيوياً في فرنسا أو سويسرا أو التيرول أو إيطاليا. عبرت فيها كلها. وكانت أقل واقعية من راغبي، كلها أقل واقعية من راغبي المرعبة. شعرت أنها لاتبالي إن لم تر فرنسا أو سويسرا أو حتى إيطاليا. هناك عناية في هذه البلدان. راغبي كانت أكثر واقعية.

أما بالنسبة إلى الناس، فإنهم جميعاً متشابهون، مع قليل من الاختلافات. كلهم يريدون أن ينتزعوا منك المال: أو إن كانوا

مسافرين، نشدوا المتعة، بالإكراه، مثل عصر الدم من الصخر. ياللجبال المسكينة، ياللمناظر البائسة، كلها تُعتصر وتُعتصر وتُعتصر لتقديم الإثارة، لتقديم المتعة. ماذا يعني الناس بهذه المتعة المفروضة فرضاً؟

ـ لا ـ قالت كوني لنفسها ـ أُفضّل أن أكون في راغبي، حيث أستطيع الذهاب والمكوث، وليس التحديق في أي شيء أو القيام بالتمثيل من أي نوع كان. هذا التمثيل السياحي ليمتّع المرء نفسه هو أيضاً وضيع وبائس: إنه يشبه الفشل. ـ

أرادت أن تعود إلى راغبي، حتى إلى كليفورد، حتى إلى العاجز البائس كليفورد. فمهما كان، لم يكن أحمق مثل هذه العطلة الضاجة.

لكنه وعيها الداخلي كان يحتفظ بلمسة الرجل الآخر. إنها لاتريد أن تدع وصالها معه يذهب: أوه يجب ألا تدعه يذهب، وإلّا فإنها ستضيع، تضيع جداً في هذا العالم من الناس العوام وخنازير المتعة. أوه، خنازير المتعة، أوه «متع نفسك». إنه شكلٌ حديث آخر للمرض.

تركوا السيارة في ميستر، في الكراج، واستقلوا زورقاً بخارياً نظامياً إلى البندقية. كان عصر صيف جميل، والبحيرة الضحلة تتماوج، والشمس الوهاجة جعلت البندقية قاتمة وقد ولت لهم ظهرها عبر الماء.

من رصيف المحطة انتقلتا إلى جندول، وقدمتا العنوان للرجل. كان جندولياً نظامياً، ببلوزة بيضاء وزرقاء، ليس حسن المنظر، ولامؤثراً أبداً.

«بلى، فيلا اسميرالدا، بلى. أعرفها. كنت جندولياً لأحد الجنتلمانات هناك. ولكنها بعيدة بعداً ليس قليلاً».

بدا رجلاً طفولياً مندفعاً. جدف باندفاع مبالغ فيه، عبر القنالات الجانبية المعتمة بجدرانها الخضراء الرقيقة المرعبة، عبر

ss

القنالات التي تذهب عبر الأحياء الفقيرة، حيث كان الغسيل يُنشر على الحبال، وحيث كانت رائحة المجارير خفيفة، أو قوية أحياناً.

لكنه أخيراً وصل إلى قنالات مكشوفة برصيف على كل جانب، وجسور متشابكة، وعَبَر باستقامة إلى الزاوية اليمنى نحو القنال الكبرى. جلست المرأتان تحت مظلة صغيرة، وجلس الرجل في الأعلى، خلفهما.

سأل وهو يجدف بسهولة ويمسح العرق عن وجهه بمنشفة بيضاء وزرقاء «وهل ستقيم السنيورتان طويلاً في فيلا اسميرالدا؟».

قالت هيلدا بصوتها الخشن الذي جعل لغتها الإيطالية أجنبية «سنقيم قرابة عشرين يوماً ـ ونحن سيدتان متزوجتان».

قال الرجل «آه. ستمضيان عشرين يوماً» وكانت هناك فترة صمت سأل بعدها: «وهل تريد السنيورتان جندولاً لمدة عشرين يوماً أو أنهما ستقيمان في فيلا اسميرالدا؟ إما باليوم، أو بالأسبوع؟».

انتبهت كوني وهيلدا. في البندقية يفضَل دائماً أن يملك المرء جندولاً خاصاً به، كما يفضَل أن يملك المرء سيارته الخاصة في البر.

«ماذا يوجد في الفيلا ـ أي نوع من القوارب؟»

«هناك لنش بمحرك، وكذلك جندول. ولكن ـ» لكن هنا تعني: أنهما لن يكونا ملكاً لكما. ـ

«وكم تتقاضى أنت؟».

يتقاضى قرابة ثلاثين شلناً يومياً، أو عشرة جنيهات أسبوعياً.

سألت هيلدا «هل هذا هو السعر النظامي؟».

«أقلّ ياسنيورا أقلّ. السعر النظامي ـ».

فكرت الأختان.

ss

قالت هيلدا «لابأس، تعال غداً صباحاً، وسوف نرتب الأمر. ماسمك؟».

اسمه جيوفاني، وأراد أن يعرف في أي وقت يجب أن يأتي، إذ من هذا الذي سيقول إنه ينتظره. ولم يكن لدى هيلدا بطاقة: أعطته كوني بطاقة منها. رمق البطاقة بسرعة، وبعينيه الزرقاوين الجنوبيتين الحادتين ـ رمقها ثانية.

«آه» قال ورفع نفسه إلى أعلى «ميلادي، ميلادي، أليست هي ميلادي؟».

قالت كوني «ميلادي كوستانزا».

هز رأسه مكرراً «ميلادي كوستانزا» ووضع البطاقة بعيداً داخل بلوزته.

كانت فيلا اسميرالدا بعيدة جداً، على طرف البحيرة باتجاه شيوغّيا. لم تكن منزلاً قديماً جداً، كانت جميلة بتيراسات تطل على البحر، وتحتها حديقة بأشجار قاتمة تنتصب كجدران تحميها من البحيرة.

كان مضيفهم ثقيلاً، أو بالأحرى كان اسكوتلاندياً جمع ثروة كبيرة في إيطاليا قبل الحرب، وقد نال لقب فارس لوطنيته الرفيعة أثناء الحرب. كانت زوجته من النوع الرقيق النحيل الشاحب، دون ثروة خاصة بها، وكان سوء الحظ يحالفها في ضبط مغامرات زوجها الغرامية الخسيسة. كان منزعجاً من الخدم، انزعاجاً مرعباً. لكنه أصيب في الشتاء بهجمة قلبية خفيفة، ورتبت الأمور على نحو أفضل الآن.

كان المنزل جميلاً جداً. فإلى جانب السير مالكولم وابنتيه، هناك سبعة أشخاص، زوجان اسكوتلانديان، أيضاً مع ابنتيهما، وكونتيسة إيطالية صغيرة وأرملة، وأمير جيورجي صغير، ورجل دين انكليزي صغير مصاب بالتهاب الرئة، كان قسيساً للسير

ss

الكسندر مختصاً بصحته فقط. وكان الأمير مفلساً جميل المحيا، كمن يريد أن يعمل سائقاً ممتازاً، بالصفاقة الضرورية، و- يكفي. وكانت الكونتيسة هرة صغيرة هادئة، مع لعبة موجودة في مكان ما. وبدا القسيس رجلاً بسيطاً ساذجاً من مقر قساوسة بوكس: ولحسن الحظ أنه ترك زوجته وطفليه في البيت. أما الغوثريون وهم عائلة من أربعة أشخاص فقد كانوا من الطبقة الوسطى الادنبرغية، يتمتعون بكل شيء، بطريقة جامدة، ويحبون كل شيء، بينما لايخاطرون بشيء.

نحّت كوني وهيلدا الأمير فوراً. وكان الغوثريون منسجمين مع نوعهم الخاص، لكنهم مزعجون: والفتاتان تريدان زوجاً. ولم يكن القس رفيقاً سيئاً، ولكنه كان محترماً كل الاحترام. وبعد الهجمة القلبية الخفيفة صار السير الكسندر يشعر بثقل مرعب في فتوته، لكنه ظل مثيراً أمام الكثير من النساء الشابات الأنيقات. كانت الليدي كوبر شخصيةً هادئة شبيهة بالهرة، التي تمضي وقتها في الأشياء التافهة، والتي تراقب أي امرأة أخرى مراقبة باردة حتى صارت طبيعة ثانية مكتسبة، تتفوه بأشياء صغيرة تافهة تبين فيها رأيها المتواضع جداً بالطبيعة البشرية. وكانت، كما ترى كوني، تغتاظ اغتياظاً مسموماً من الخدم: ولكن بطريقة هادئة. وكانت تتصرف بمهارة حتى تكاد تجعل السير الكسندر يعتقد أنه كان لورداً وملكاً للمطبخ، بكرشه القوي الأنيق، ونكاته المزعجة، التي تسميها هيلدا روح الفكاهة.

كان السير مالكولم يرسم. بلى، فقد ظل يرسم مشهد البحيرة البندقاوية بين الحين والآخر، كنقيض لمناظره الاسكوتلاندية. وهكذا كان يجدف في الصباح مع اللوح المعد للرسم، ويكون عادة ضخماً، إلى «موقعه». فيما بعد ذلك قليلاً، لابد أن تجدف الليدي كوبر في قلب المدينة، بقالبها الاستعراضي وألوانها. كانت رسامة مدمنة بالألوان المائية، وكان المنزل مليئاً بصور القصور الملونة

SS

والقنالات القاتمة، والجسور المعلقة، والواجهات التي من القرون الوسطى، وهلمجرا. وفيما بعد قليلاً سوف يغادر الغوثريون، الأمير والكونتيسة والسير الكسندر والسيد ليند القسيس في بعض الأحيان، إلى ليدو، حيث يستحمون ويعودون إلى الغداء متأخرين في الواحدة والنصف.

الفريق المنزلي، كفريق منزلي، كان مزعجاً جداً. لكن هذا لم يكن يزعج الأختين. فقد كانتا في الخارج طيلة الوقت. أخذهما والدهما إلى المعرض، وهو أميال وأميال من الرسومات المزعجة. وأخذهما إلى أصدقائه القدماء في فيلا لوتشيزي، فجلس معهم في أماسٍ دافئة في بيزا، ودعوا إلى مأدبة عند أحد الفلورنسيين: أخذهما إلى المسرح، لتشاهدا مسرحيات غولدوني. وحضرتا مهرجانات مائية، وحفلات رقص. كان هذا المكان هو مكان أمكنة قضاء العطل. وكانت ليدو بمساحاتها المشمسة أو بأجسادها المرتدية البيجامات مثل شاطئ بأكوام لاتنتهي من الفقمة جاءت للتزاوج. كثير جداً من الناس في الباحة، وكثير جداً من السيقان والأوراك البشرية في ليدو، وكثير جداً من الجندولات، وكثير جداً من اللنشات، وكثير جداً من المراكب البخارية، وكثير جداً من الحمام، وكثير جداً من الجليد، وكثير جداً من الكوكتيل، والكثير جداً من الخدم الذكور، وكثير جداً من تلعثم اللغات، وكثير جداً من الشمس، كثير، كثير وكثير جداً رائحة البندقية، وعربات من الفريز كثيرة جداً، وكثير جداً من المناديل الحريرية، وكثير جداً من اللحم البقري الضخم، من البطيخ الأحمر على الأرصفة: كثير جداً من المتعة المشتركة. وكثير جداً من المتع.

طافت كوني وهيلدا بكنزتيهما الصيفيتين. عرفتا عشرات من الناس، وعشرات من الناس عرفوهما. وظهر ميكائيل مثل بنس عتيق. «هلو. أين تقيمان؟ هلما وخذا بعض الآيس أو أي شيء. هلما

معي إلى أي مكان بجندولي». وحتى ميكائيل أصيب بلفحة الشمس: مع أن لفحة الشمس أنسب لمنظر جماهير اللحم البشري.

بالمناسبة، فإنه كان يتمتع. كان يبتهج. ولكن على أي حال يتمتع بكل الكوكتيلات، بكل المستلقين في المياه والحمامات الشمسية على الرمل الحار في الشمس الحارة، فتنخض معدتك ضد بعض الرجال في الليالي الدافئة، فتهدئها بالآيس، إنها مخدر كامل. وكان هذا كل مايريدون، المخدر: الماء البطيء، مخدر، الشمس، مخدر، الجاز، مخدر، السجاير، الكوكتيلات، الآيسات، مشروب الفيرموت ـ حتى تتخدّر، تتمتع، تتمتع.

أحبت هيلدا أن تكون نصف مخدرة. أحبت أن تتطلع إلى كل النساء، أن تتأمل فيهن. النساء دائماً يهتممن بالنساء. كيف تبدو هذه المرأة؟ من الرجل الذي أسرته؟ مااللهو الذي تمارسه؟ ـ كان الرجال مثل الكلاب الكبيرة في بنطالات فلانيلا بيضاء، ينتظرون تربيتةً، ينتظرون شقلبة في الملذات، ينتظرون أن يلصقوا بطن امرأة ببطنهم في رقصة جاز.

وهيلدا تحب الجاز، لأنها تستطيع أن تلصق بطنها ببطن رجل ما، فتدعه يسيطر على حركاتها من مركز أحشائها، هنا وهناك على الأرض، ثم يمكن أن تتخلص من «المخلوق» وتتجاهله. إنه مجرد استخدام له.

لكن كوني المسكينة لم تكن سعيدة. لاتريد أن ترقص الجاز، لأنها بكل بساطة لاتريد أن تلصق بطنها ببطن أي «مخلوق». إنها تكره الجماهير المختلطة من اللحم العاري تقريباً في ليدو: كان ثمة مايكفي من المياه حتى تبللهم. إنها لاتحب السير الكسندر والليدي كوبر. ولاتريد أن يلاحقها ميكائيل ولالأي شخص آخر.

كانت أسعد الأوقات حين ابتعدت هيلدا عبر البحيرة إلى شاطئ مرصوف بالحصى، حيث استطاعتا أن تستحما وحدهما تماماً،

بينما مكث الجندول في الجانب الداخلي للصخور الساحلية.

بعدها أحضر جيوفاني جندولياً آخر لمساعدته، لأن الطريق طويل، وكان تحت الشمس ينضح عرقاً غزيراً. كان جيوفاني لطيفاً جداً: رقيق كالإيطاليين، وبلا عاطفة تماماً. الإيطاليون ليسوا عاطفيين: العاطفة محفوظة عميقاً فيهم. يتعرفون بسرعة، والأرجح أنهم رقيقون، ولكنهم نادراً مايملكون أية عاطفة مختبئة من أي نوع.

هكذا جيوفاني. كان مكرِساً نفسه لليدياته، كما كان مكرَساً لحمل الليديات في الماضي. كان جاهزاً تماماً أن يزني معهن، إن رغبن فيه. وكان يأمل سراً أن يرغبن فيه: إنهن يعطينه حضوراً أنيقاً، وهذا يأتي بسهولة، حالما كان يهم بالزواج تماماً. أخبرهن عن زواجه، فاهتممن اهتماماً مناسباً.

فكر أن هذه الرحلة إلى الرصيف المنعزل عبر البحيرة تعني عملاً على وجه الخصوص: العمل هو الآمور، الحب، ولذلك جاء بصديق يساعده ـ إذ كان الطريق طويلاً: ومع ذلك كانتا سيدتين. سيدتان سمكتان بحريتان. حساب جيد. سيدتان جميلتان، أيضاً. كان فخوراً بهما تماماً. ومع أن السنيورا هي التي كانت تدفع له المال وتصدر الأوامر، إلا أنه تمنى أن تكون السيدة الانكليزية الصغرى هي التي تختاره للحب. ثم إنها ستعطيه كثيراً من المال أيضاً.

كان الصديق الذي أحضره يسمى دانييلي. لم يكن جندولياً نظامياً، ولم يُسمع عنه أنه كان متسولاً أو داعراً، كان قائد ساندولا، والساندولا زورق كبير يجلب الفواكه والمنتجات من الجزر.

كان دانييلي جميلاً، طويلاً حسن الشكل، مع قليل من خصلات الشعر القليلة الشقراء الفاتحة حول رأسه، جميل المحيا، يشبه الأسد قليلاً مع عينين زرقاوين ثاقبتين. لم يكن مسرفاً في التعبير

ss

ولاثرثاراً ولاسكيراً مثل جيوفاني. كان صموتاً يجدف بقوة وسهولة كما لو كان وحيداً فوق المياه. السيدات هن السيدات، يبعدن عنه. إنه لم ينظر قط إليهن. ينظر أمامه دائماً.

كان رجلاً حقيقياً، يغضب قليلاً عندما يشرب جيوفاني كثيراً من الخمر ويجدف تجديفاً أخرق، مع ضربات ثملة من المجداف الضخم. كان رجلاً كما كان ميلورز رجلاً، لايمارس الدعارة. أشفقت كوني على زوجة جيوفاني المتهور. لكن زوجة دانييلي لابد أن تكون واحدة من نساء البندقية الجميلات اللواتي مايزال المرء يراهُنّ، متواضعات، ومشرقات خلف متاهة المدينة.

آه، كم هو حزين ذلك الرجل الذي كان أول زانٍ مع امرأة، ثم كم هي حزينة المرأة التي زنت مع رجل. جيوفاني كان ميالاً لأن يزني بنفسه، فيدب مثل كلب، يريد أن يمنح نفسه لامرأة. ومن أجل المال. نظرت كوني إلى البندقية من بعيد، كانت منخفضة، وردية اللون، في المياه. حصد المال، تبرعم المال، والموت مع المال أيضاً. الموت المالي، المال، المال، الدعارة والموت.

ومع ذلك كان دانييلي رجلاً، قادراً على الإخلاص الصادق للرجل. إنه لم يرتد بلوز الجندولي: ارتدى فقط القميص الأزرق المحبوك.

كان متكبراً برياً فظاً قليلاً. ومع ذلك كان مأجوراً لرجل آخر هو جيوفاني الكلبي، الذي كان مأجوراً بدوره لامرأتين. هكذا إذن. عندما رفض يسوع أموال الشيطان، ترك الشيطان مثل مصرفي يهودي، سيداً للموقف كله.

عادت كوني من الأضواء المتوهجة للبحيرة، بنوع من الخدر، لتجد رسائل من بيتها. فكان كليفورد يكتب بانتظام. كتب رسائل جميلة جداً: ربما كانت منشورة في كتاب. ولهذا السبب وجدتها كوني غير هامة أبداً.

عاشت في خدر ضوء البحيرة، ملوحة الماء والمكان والفراغ والعدمية: لكن الصحة، الصحة، الخدر الكامل للصحة. كان رضي، وكانت تتهدهد فيه، غير آبهة بشيء. إلى جانب ذلك كانت حاملاً. إنها تعرف ذلك الآن. إذن خدر أشعة الشمس وملح البحيرة والحمامات البحرية والاضطجاع على الشاطئ والعثور على الأصداف، يكمله الحمل في داخلها، وهذا امتلاء آخر بالصحة، يشبعها ويخدرها.

أمضت في البندقية أسبوعين، وكانت ستقيم عشرة أيام أو أسبوعين آخرين ـ كانت أشعة الشمس تسطع في كل الأوقات، وامتلاء الصحة الجسدية يجعل النسيان كاملاً. كانت غارقة في نوع من خدر السعادة.

من إحدى رسائل كليفورد برز لها مايلي:

«ونحن أيضاً عندنا إثارتنا المحلية الناعمة. يبدو أن زوجة ميلورز، الحارس، الهاربة قد عادت إلى الكوخ، لكنها لم تلق الترحيب. لقد طردها وأقفل الباب. لكن جاءني تقرير أنه عندما عاد من الغابة وجد السيدة التي لم تعد جميلة قد اندست في سريره متشبثة، وهي في حالتها الطبيعية ـ أو الأحرى يمكن القول، في غير حالتها الطبيعية. لقد كسرت نافذة من النوافذ ودخلت منها. وإذ لم يستطع أن يَطرد طرداً قضائياً هذه الفينوس المسترجلة من سريره، قام بتراجع كما يقال، واستراح في منزل أمه في تيفرشال. ومادامت فينوس ستاكس غيت قد وطدت نفسها في الكوخ، الذي زعمت أنه بيتها، فإن من الواضح أن أبولو سوف يستقر في تيفرشال.

«أتلو عليك ذلك من الشائعة، لأن ميلورز لم يأت إلي شخصياً. وأنا لدي مايكفيني من النفايات المحلية، فعندي طائر النفاية، أبو منجل، ديك حبشنا الكناس، السيدة بولتون. ومن دون أن أكرر الشائعة راحت تبدي عجبها: إن سيدتي لن تذهب بعد الآن إلى الغابة مادامت تلك المرأة موجودة فيها.

«أعجبتني الصورة التي أرسلتها لي، صورة السير مالكولم وهو يخوض في البحر بشعر أبيض منفوج وجسد قرمزي موهوج. إني أحسدك على تلك الشمس. هنا، الجو ماطر. لكني لاأحسد السير مالكولم على شهوانيته المدمنة الفانية. على أي حال إنها تلائم سنّه. على أي حال ينمو المرء شهوانياً، وينمو فنائياً كلما تقدم في السن. الصبا وحده له مذاق الخلود ـ».

أثرت هذه الأخبار في كوني، في حالة سعادتها نصف المخدرة، فأغاظتها إغاظة ارتفعت إلى حد السخط. إنها منزعجة من هذه المرأة المتوحشة. الآن يجب أن تبدأ وتهتاج.

لم تستلم رسالة من ميلورز. اتفقا ألا يكتب أي منهما أبداً. لكنها الآن تريد أن تسمع منه شخصياً. وفوق ذلك هو والد الطفل القادم. فليكتب.

ياللكراهية. كل شيء الآن لخبطة وخربطة. كم هم حمقى هؤلاء الناس الوضيعون. وكم هو جميل الآن، في أشعة الشمس والكسل، أن نقارن ذلك باللخبطة الكئيبة في الميدلاندز الانكليزية. رغم كل شيء كانت السماء الصافية أهم شيء في الحياة.

لم تشر إلى حقيقة حملها، حتى لهيلدا. كتبت للسيدة بولتون حتى تعطيها المعلومات الدقيقة.

وصل إلى فيلا اسميرالدا صديقهما الفنان دنكان فوربس، قادماً من روما. الآن صاروا ثلاثة في الجندول، وقد استحم معهما عبر البحيرة، وكان حاميها: إنه رجل شاب هادئ صموت، وهو متقدم في فنه.

جاءتها رسالة من السيدة بولتون: «ستكونين مسرورة، أنا متأكدة من ذلك ياسيدتي، عندما ترين السير كليفورد. إنه يبدو مزهراً، ويعمل عملاً شاقاً، وكله أمل. طبعاً ينتظر حتى يراك بيننا ثانية. البيت كئيب من دون الليدي، وكم سنرحب بحضورها ثانية بيننا.

«أما عن السيد ميلورز فلا أدري كيف أخبرك السير كليفورد. يبدو أن زوجته عادت إليه فجأة بعد ظهر أحد الأيام، فوجدها جالسة على درجة الباب حين عاد من الغابة. قالت بأنها تعود إليه لتعيش معه ثانية، وأنها زوجته الشرعية، وأنه لم يُقدم على تطليقها. ولكن يبدو أن السيد ميلورز كان يحاول تطليقها. بيد أنه لم يستطع أن يفعل شيئاً معها، ولايستطيع أن يدعها في المنزل، لأنه لايستطيع إدخالها في نفسه، فعاد إلى الغابة دون أن يفتح الباب إطلاقاً.

ولكن عندما عاد بعد العتمة، وجد البيت مخلوعاً، فصعد الدرج، وعرف أنها هي التي خلعته، ووجدها في السرير دون رقعة عليها. أعطاها مالاً، ولكنها قالت بأنها زوجته وعليه أن يعيدها ثانية ـ لاأعرف كيف كان المشهد بينهما. أخبرتني أمه عن المشهد، لقد كانت مخضوضة جداً إلى درجة الرعب. أخبرها أنه يفضل الموت على الحياة معها مرة ثانية، لذلك وضّب أغراضه وذهب إلى أمه في تلة تيفرشال. أمضى الليل، وفي اليوم التالي ذهب إلى الغابة عن طريق المتنزه دون أن يذهب إلى الكوخ. يبدو أنه لم ير زوجته في ذلك اليوم. ولكنها في اليوم التالي كانت في بيت أخيها دان في بيغارلي، تقسم الأيمان متحاملة، وهي تقول بأنها زوجته الشرعية، وأن لديه نساء يأتين إلى الكوخ، فقد وجدت زجاجة عطر في درجه، وأعقاب سجاير مذهبة في المنفضة، ولاأعرف بقية ماحدث. ولكن البوسطجي فريد كيرك يقول إنه سمع شخصاً ما يتحدث في غرفة السيد ميلورز صباح أحد الأيام، وأن سيارة كانت تقف على المسار. ويقيم السيد ميلورز مع أمه، وهو يذهب إلى الغابة عن طريق المتنزه، يبدو أنها تقيم في الكوخ. لكن الحديث انقطع في الكوخ. فذهب أخيراً السيد ميلورز وتوم فيليبس إلى الكوخ وفتشا كل الأثاث وغرفة النوم وحلوا قبضة المضخة، وعرفا أنها اضطرت إلى مغادرة الكوخ. ولكن بدلاً من أن تعود إلى ستاكس غيت ذهبت لتسكن مع السيدة سوين في بيغارلي، لأن زوجة أخيها دان لاترغب فيها. وقد واظبت على الذهاب إلى منزل السيدة ميلورز الأم، لتمسك به،

مقسمة اليمين أنه نام معها في الكوخ، وأنها ذهبت إلى محام ليجبره أن يدفع لها نصيبها. لقد بدت غليظة ومبتذلة أكثر من ذي قبل، فقد صارت قوية مثل ثور. وهي تطوف قائلة أشياء مرعبة عنه، كيف كان يأتي بالنساء إلى الكوخ، وكيف تصرف معها عندما تزوجا، والأشياء الدنيئة القذرة التي فعلها فيها، ولاأعرف بقية الكلام. أنا متأكدة أنها امرأة مخيفة سيئة تفعل كل ماهو مخيف وسيء حالما تبدأ بالحديث. والعبرة ليست في أنها سيئة وضيعة، بل في أن هناك من يصدقها، وأن هناك شيئاً سيئاً سوف يقع. وأنا على يقين من أن الطريقة التي وصمت بها السيد ميلورز، بأنه واحد من أولئك الوضعاء، أي الرجال الذين يعاملون النساء بوحشية، هي طريقة تأتي بالصدمة. والناس دائماً مستعدون لتصديق الأشياء إذا كانت ضد أي شخص، وعلى الأخص الأشياء التي من أمثال هذه. لقد أعلنت أنها لن تدعه وحده مادام حياً. ومع ذلك أقول إنه مادام وحشاً معها، فلماذا تصر باندفاع أن تعود إليه؟ - ولكنها بالطبع وصلت إلى نقطة تحول في الحياة، إذ أنها تكبره بسنوات. وأولئك النساء العاميات العنيفات دائماً يصبحن شبه مجنونات عندما يقع التحول في حياتهن -».

كانت ضربة كريهة لكوني. في هذه النقطة كانت متأكدة تماماً أنها جاءت من أجل المشاركة بالحصة والقذارة. وشعرت كوني بالغضب تجاهه لأنه لم يتخلص من بيرتا كوتس: لا بل لأنه تزوجها أصلاً. ربما كان لديه توق ما إلى الوضاعة. وتذكرت كوني آخر ليلة قضتها معه، فارتعدت. لقد عرف كل تلك الحسية، حتى مع بيرتا كوتس. كان ذلك شيئاً مقرفاً. إن من الأفضل التحرر منه، الإجهاز عليه نهائياً. ربما كان فعلاً رجلاً مبتذلاً ووضيعاً.

حدث فيها تغير ضد كل هذه القضية، حتى أنها تقريباً حسدت الفتيات الغوثريات لغرارتهن وعدم تجربتهن وعذريتهن الساذجة. وهي الآن تخاف من فكرة أن أي إنسان يمكن أن يعرف قصّتها مع

الحارس. يالها من وضاعة فظيعة. كانت خائفة خوفاً مقلقاً، وشعرت بتوق إلى الاحترام المطلق ولو كان احترام الفتيات الغوثريات المبتذل والميت. لو عرف كليفورد بقضيتها ـ ياللوضاعة الفظيعة. كانت خائفة حتى الرعب من المجتمع وعضته الجانية. رغبت لو تستطيع التخلص من الطفل ثانية، وتكون بذلك متحررة تماماً. باختصار شعرت بحالة من الذعر.

أما بالنسبة لزجاجة العطر، فتلك حماقتها هي. لم تستطع أن تمنع نفسها من تعطير منشفته أو منشفتيه وقمصانه في الدرج ـ تماماً مثل الأطفال ـ وتركت زجاجة صغيرة من العطر الفاخر، وهو عطر كوتيس وود، نصف فارغة بين أشيائه. أرادت أن يتذكرها عن طريق العطر. أما أعقاب السجائر فإنها أعقاب سجاير هيلدا.

إنها لاتولي أدنى ثقة بدنكان فوربس. لم تقل بأنها كانت عشيقة الحارس ـ قالت فقط إنها تستلطفه، وأخبرت فوربس قصة الرجل.

قال فوربس «أوه، سوف ترين، لن يقر لهم قرار حتى يتغلبوا على الرجل ويصرعوه. فإن رفضَ الانخراط في الطبقات الوسطى، عندما تتاح له الفرصة، وإن كان رجلاً يعيش فقط من أجل الجنس، فإنهم سوف يصرعونه. إنه الشيء الوحيد الذي لايريدونك أن تفعليه. أن تكوني مستقيمةً وواضحةً في علاقتك الجنسية. تستطيعين أن تكوني قذرة كما تريدين، والحقيقة كلما كنت قذرة انغمست في الجنس، وهذا مايفضلونه. ولكن إن آمنت بعلاقاتك الجنسية الخاصة، ولم ترغبي في أن تتقذري فيه: فإنهم سوف يصرعونك. إنه التابو الوحيد المجنون الذي تركوه: الجنس كشيء طبيعي وحيوي. لن يملكوه، وسوف يقتلونك إن أنت ملكته. ـ سوف ترين، إنهم سيصرعون ذلك الرجل. ثم ماذا فعل رغم ذلك؟ إذا كان مارس الحب مع زوجته حتى النهاية، أليس له الحق في ذلك؟ كانت فخورة هي بذلك. ولكنك كما ترين، فحتى عاهرة وضيعة مثل تلك تنقلب عليه، وتستخدم غريزة الضباع عند الغوغاء ضد الجنس،

SS

لصرعه. فعليك أن تبكي وتشعري بالخطيئة أو بالخوف من علاقتك الجنسية، قبل أن يُسمح لك بامتلاك هذه العلاقة. أوه، إنهم سوف يطاردون هذا الشيطان المسكين حتى يصرعوه ـ».

الآن تغيرت كوني وسارت في الاتجاه المعاكس. ومع ذلك ماذا فعل؟ ماذا فعل لها هي كوني، سوى أنه منحها متعة رفيعة التهذيب وإحساساً بالحرية والحياة؟ لقد حرر دفقتها الجنسية الطبيعية الدافئة. ولذلك يريدون أن يصرعوه.

لا. لا. لن يحدث هذا. رأت صورته، بيضاء عارية بوجه ملفوح ويدين صوحتهما الشمس، ينظر إلى الأسفل ويخاطب جون توماس المنتصب كما لو كان كائناً آخر، والتكشيرة الغريبة على وجهه. وسمعت صوته يقول: إن لك أجمل مؤخرة امرأة في العالم ـ وشعرت بيده دافئة ناعمة على مؤخرتها مرة أخرى، على أماكنها السرية، مثل منح البركة. وسرى الدفء في رحمها، واندلعت ألسنة لهب صغيرة في ركبتيها وقالت: أوه لا. لا، يجب ألّا أتراجع. يجب ألّا أتخلى عنه. يجب أن أدافع عنه، وعن كل ماأملكه منه، من خلال أي شيء. لم تكن لي حياة دافئة ملتهبة حتى منحني هو إياها. أنا لن أتخلى عنه.

قامت بعمل طائش. بعثت رسالة إلى إيفي بولتون، فيها ملاحظة للحارس، وطلبت من السيدة بولتون أن تعطيها له. وكتبت إليه: «إنني حزينة جداً لسماع كل ماأزعجتك به زوجتك، ولكن لاتخف، ماهذا سوى نوع من الهستيريا. وهو ما إن يأتي حتى يزول سريعاً. ولكني بالغة الأسف لذلك، وآمل ألا تهتم كثيراً. ومع ذلك إنها لاتستحق أي شيء. إنها مجرد امرأة هستيرية تريد إيذاءك فقط. سأعود إلى البيت في غضون عشرة أيام، وآمل أن يستقيم كل شيء».

بعد بضعة أيام وصلت رسالة من كليفورد. كان فعلاً منزعجاً.

«سررت لسماعي أنك تستعدين لمغادرة البندقية في السادس عشر. ولكن إن كنت تتمتعين فلا تسرعي في العودة إلى البيت. إننا

ss

نشتاق إليك، راغبي يشتاق إليك. ولكن من الضروري أن تنالي حظك الكامل من الشمس، الشمس والبيجاما، كما يقول من يقومون بالدعاية للبيدو. لذلك أرجوك أن تمكثي مدة أطول قليلاً إن كان ذلك يُفرحك ويجهزك بما يكفي لشتائنا المرعب. مازالت السماء تمطر حتى اليوم.

«بمواظبة وإعجاب تهتم بي السيدة بولتون. إنها نموذج غريب. كلما عشت أكثر، تأكد لي أكثر أي غرابة هم عليه مخلوقات الكائنات البشرية. بعضهم كأن له مئة رجل، مثل أم الأربع والأربعين، أو ست أرجل، مثل اللوبستر. فالتماس البشري والكرامة البشرية اللذان يتوقعهما المرء من الناس يبدوان على أرض الواقع غير موجودين. والمرء يشك إذا كانا موجودين بأدنى درجة حتى عند نفسه.

«فضيحة الحارس تتابع فصولها وتتضخم، مثل كرة الثلج. السيدة بولتون تأتيني بالمعلومات. تذكّرني بالسمكة التي، وإن كانت صماء، تتنفس بصمتٍ الفضيحة من خلال غلاصمها، مادامت حية. كلها تمر من منخل غلاصمها، ولاشيء يدهشها. فكأن أحداث حيوات الآخرين هي الأوكسجين الضروري لها.

«إنها مشغولة بفضيحة ميلورز، فإذا سمحت لها أن تبدأ، فإنها تغوص بي إلى الأعماق. فنقمتها الكبيرة، التي تشبه عندئذٍ كرامة ممثلة تؤدي دورها، تنصب ضد زوجة ميلورز، التي تصر أن تدعوها بيرتا كوتس. لقد غصت كثيراً في أوحال بيرتات هذا العالم، وعندما أتخلص من تيار الشائعة، أطفو على السطح مرة ثانية، وأنظر إلى النهار مندهشاً أنه موجود.

«يبدو لي فعلاً أن عالمنا، الذي يُظهر لنا سطح كل الأشياء، هو فعلاً قاع محيط عميق: فكل أشجارنا تنمو تحت البحر، ونحن عبارة عن حيوانات بيئية بحرية بحراشف، فنأكل النفايات مثل سمك الشريمب. نادراً ماتنهض النفس إلى سطح الأثير حيث الهواء الحقيقي، بينما نظل لاهثين عبر الأعماق التي لاتسبر والتي نعيش

تحتها. أنا مقتنع أن الهواء الذي نتنفسه هو نوع من الماء، وأن الرجال والنساء أنواع من السمك.

«لكن أحياناً تصعد النفس إلى الأعلى فتنطلق مثل النورس في النور، بغبطة، بعد أن تكون قد افتُرست في الأعماق. أعتقد أن مصيرنا الأخلاقي أن نفترس زملاءنا في حياة مافوق البحر المخيفة، في غابة البشرية الماتحت بحرية. لكن مصيرنا الخالد هو الهرب حالما نزدرد صيدنا السابح، صعوداً نحو الأثير المشرق، فنندفع من سطح المحيط القديم إلى الضوء الحقيقي. عندئذٍ تتحقق طبيعة المرء الخالدة.

«عندما أسمع السيدة بولتون تتحدث، أشعر بنفسي تغوص إلى الأسفل، إلى الأسفل، إلى الأعماق حيث يسبح سمك الأسرار البشرية ويتلوى. والشهية الشهوانية تجعل المرء ينتزع ذروة الفريسة: ثم يرتفع، يرتفع ثانية من الكثيف إلى الأثيري، من الرطب إلى الجاف. ويمكن أن أخبرك كل العملية. لكن مع السيدة بولتون أشعر كأنني أغوص عميقاً، برعب، بين الأعشاب البحرية السامة والوحوش الشاحبة للقاع السحيق.

«أنا خائف من خسارة حارس طرائدنا. ففضيحة الزوجة الهاربة، بدلاً من أن تتلاشى، راحت تتسع وتتسع في أبعادها. فهو متهم بأشياء مرعبة، وغريبة جداً، وقد استطاعت المرأة أن تنظم وراءها كتلة ضخمة من زوجات عمال المناجم، السمك الرهيب، وتعج القرية بالأحاديث.

«سمعت أن هذه البيرتا كوتس تحاصر ميلورز في منزل أمه، بعد أن نهبت كوخه وبيته. كما أنها في أحد الأيام خطفت ابنتها، عندما كانت هذه القطعة الأنثوية عائدة مع زميلاتها من المدرسة، ولكن الطفلة الصغيرة بدلاً من أن تقبّل يد أمها الحنونة، عضتها عضة قوية، فتلقت باليد الأخرى صفعة دحرجتها إلى القناة: حيث أنقذتها حالاً جدتها المغيظة الساخطة.

SS

«وقد شفت غليلها بكمية من الغاز السام المذهل، حيث أذاعت بالتفصيل كل أحداث حياتها الزوجية، التي كانت مدفونة في البئر الأعمق للحياة الزوجية، بين اثنين متزوجين. لقد قررت نبشها بعد عشر سنوات من الدفن ونظمتها تنظيماً ساحراً. سمعتُ تلك التفاصيل من لنلي والدكتور: والتفصيل الأخير مسلٍ. لكن الحقيقة أنه لاشيء. فالبشرية دائماً لها جشع غريب للأوضاع الجنسية غير المألوفة، فإن رغب الرجل أن يستخدم زوجته، كما يقول بنفنتو سيلليني «بالطريقة الإيطالية» فإن المسألة تكون مسألة ذوق. ولكن من الصعب كما أتوقع أن يرتفع حارس طرائدنا إلى هذه الأعمال البارعة. أعتقد أن بيرتا كوتس هي التي رفعته أولاً إلى هذه الأعمال. على أي حال، إنها مسألة قذارتهما الشخصية الخاصة، ولايحق لأي أحد آخر أن يتدخل.

«على أي حال كان كل شخص يستمع: كما أفعل أنا نفسي. إن عشرة أعوام من الاحتشام العام يجب أن تطمس هذا الشيء. لكن الاحتشام العام لم يعد موجوداً، فزوجات العمال ساخطات ومحتجات. ويعتقد المرء أن كل طفل في تيفرشال، لآخر خمسين سنة، كان مفهوماً نقياً، وأن كل امرأة من نسائنا غير المنسجمات كانت جان دارك المشهورة. ذلك أن في حارس طرائدنا المحترم لمسة من رابليه العظيم يبدو أنها جعلته أشد وحشية وصدمة من قاتل مثل كريبين. فإن صدّق المرء كل الشائعات، فإن تيفرشال كتلة متحللة.

«والمزعج أن بيرتا كوتس اللعينة لم تحصر نفسها بتجاربها الخاصة ومعاناتها. فقد كشفت بأعلى صوتها أن زوجها «حارس» نساء في الكوخ، وأطلقت عشوائياً أسماء بضع نساء. وقد أظهر هذا بضعة أسماء وضيعة تتمرغ في الوحل، فانتشر هذا الشيء انتشاراً كبيراً أيضاً. وقد أنذر الرجال نساءهم وهددوهن.

«لابد أن أقابل ميلورز حول العمل، فمن المستحيل الاحتفاظ بالمرأة بعيداً عن الغابة. إنه يطوف كالعادة، بأغنية «طحّان قرية

دي» التي تملأ الفضاء، فأنا لاأهتم بأي شخص، لا، ليس أنا، إذا لم يهتم بي أي شخص فأنا لاأهتم به. على أي حال أشك في أنه يشعر مثل كلب وقد علّقت علبة تنك في ذيله: مع أنه يبذل كل جهده حتى يبين أن العلبة التنكية غير موجودة هناك. ولكني سمعت أن النساء في القرية ينادون أطفالهم بالرجوع إلى البيت حالما يمر، كما لو كان المركيز دي ساد شخصياً. إنه يتابع عمله بشيء من الوقاحة، وأخشى أن تكون علبة التنك مربوطة ومثبتة في ذيله، وأنه يردّد بينه وبين نفسه، مثل دون رودريغو في الأغنية الإسبانية «والآن يعضني حيث اقترفت خطيئتي».

«سألته إن كان قادراً على القيام بواجبه في الغابة، فقال إنه لم يتخل عن واجبه قط. وأخبرته أن من المزعج أن يكون له امرأة مؤذية: فأجابني بأنه لايملك سلطة اعتقالها. عندئذٍ ألمحت إلى الفضيحة، وطريقتها المسيئة. قال «إن الناس يقومون بجماعهم، ثم لايريدون الاستماع إلى شائعة عن رجل آخر».

«قال ذلك بشيء من المرارة، ولاشك أنها تشتمل على جرثومة من الحقيقة. فطريقة القول لم تكن لطيفة ولامحترمة. ألمحت كثيراً، ومن ثم سمعت علبة التنك تقعقع ثانية «لاأعتقد أن رجلاً في الأوضاع التي أنت فيها ياسير كليفورد يلومني بأن لي قضيباً بين ساقي».

«الأشياء التي قيلت بلا تمييز لاتساعده طبعاً، فالقس ولنلي وبوروغس يعتقدون أن من الأفضل لو أن الرجل ترك المكان.

«سألته إن كان صحيحاً أنه يضاجع النساء في الكوخ، وكل ماقاله كان: «وماذا يعني ذلك لك ياسير كليفورد؟ ـ فقلت له بأني قصدت أن يكون هناك احتشام نحافظ عليه في مقاطعتي، فأجاب: «إذن عليك أن تقفل أفواه النساء» ـ وعندما ضغطت عليه فيما يخص حياته في الكوخ، قال «بالتأكيد يمكنك أن تطلق شائعة عني وعن كلبتي فلوسي. لقد فاتك شيء. هناك» والحقيقة، كمثال عن الوقاحة، من الصعب التغلب عليه.

ss

«سألته إن كان من السهل عليه العثور على عمل آخر. قال: «إذا رغبت أنت ألّا أكون في هذه الوظيفة، فإن من السهل إيجاد عمل بلمحة طرف». وهكذا لم ينزعج أبداً في أن يترك عمله في نهاية الأسبوع القادم، ومن الواضح أنه يرغب في توظيف صديق فتى هو جو شامبرز، ويدربه على أسرار المهنة بما أمكن. فأخبرته أني سأقدم له أجرة شهر علاوة، عندما يترك. فقال إنه يتمنى أن أحتفظ بأموالي، ولاحاجة لي أن أريح ضميري. فسألته ماذا يعني بكلامه هذا، فقال «لست مديناً لي بشيء من العلاوة ياسير كليفورد، فلا تدفع لي أي علاوة. فإن اعتقدت أنك ترى قميصي معلقاً، فأخبرني».

«لابأس. انتهى كل شيء في الوقت الراهن. فالمرأة ارتحلت: ولانعلم إلى أين: ولكنها ستتعرض للاعتقال إن ظهرت في تيفرشال. وسمعت أنها تخاف خوفاً مرعباً من السجن، لأنها جربته. سوف يغادر ميلورز في سبت الأسبوع، وسيكون المكان عادياً بعد ذلك.

«والآن ياعزيزتي كوني، إن كنت تتمتعين بالإقامة في البندقية أو في سويسرا حتى بداية آب، فسأكون مسروراً لأن أفكر بأنك كنت خارج أزيز القذارة، التي ستكون قد انتهت تماماً في نهاية الشهر.

«إذن، كما ترين، نحن وحوش في أعماق البحر، وعندما يمشي اللوبستر في الوحل، فإنه يثيره لكل امرئ. علينا بحكم الظروف أن نأخذ ذلك أخذاً فلسفياً ـ».

الإثارة، وخلو أي عاطفة في أي اتجاه، في رسالة كليفورد، كان لهما تأثير في كوني. لكنها فهمت الرسالة أفضل عندما تسلمت من ميلورز مايلي: «الهرة خارج المحفظة، مع بقية الهررة الأخريات. سمعت أن زوجتي بيرتا عادت إلي بذراعين عدائيتين، واستقرت في الكوخ: حيث شمت، وإن تحدثنا بقلة احترام، رائحة فأرة، على شكل زجاجة عطر من ماركة كوني. وهناك برهان آخر لم تعثر عليه، على الأقل لبضعة أيام، عندما راحت تعوي على الصورة المحروقة. لاحظت الزجاج واللوح الخلفي في غرفة النوم

SS

الاحتياطية. ولسوء الحظ فإن أحدهم خربش بخطوط وتجريحات صغيرة متكررة عدة مرات بالأحرف ك.س.ر وهي الحروف الأولى من اسمك وكنيتك. إلا أن هذا لم يقدّم أي إشارة، إلى أن اندفعت إلى الكوخ، فوجدت واحداً من كتبك، وصورة فوتوغرافية للممثلة سارة برنارد، مع اسمك: كونستانس ستيوارت ريد، على الصفحة الأولى. بعد هذا، راحت تطوف لبضعة أيام قائلة إن عشيقتي لم تكن لتقلّ عن شخصية الليدي شاترلي نفسها. أخيراً وصلت الأخبار إلى القس والسيد بوروغس والسير كليفورد. عندئذٍ ابتدؤوا في اتخاذ الخطوات الشرعية ضد زوجتي، التي اختفت، فهي تخاف حتى الموت من البوليس.

«طلب السير كليفورد أن يراني، فذهبت إليه. تحدث عن الأشياء الدائرة، وبدا منزعجاً مني. ثم سألني إن كنت أعرف أن اسم حضرة الليدي قد وردت إشارة إليه. قلت إني لم أصغ أبداً للشائعة، ودُهشت لسماع ذلك من السير كليفورد نفسه. قال إنها بالطبع إهانة كبيرة، فأخبرته أن الملكة ماري موجودة على روزنامة في غرفة غسل الأطباق، فلاشك أن جلالتها تشكل جزءاً من الحريم اللواتي أملكهن. لكنه لم يقدّر السخرية. وأخبرني بأنني شخصية سيئة السمعة، يمشي ببنطال محلول الأزرار، فأخبرته بأنه لايستطيع أن يفعل شيئاً مع الأزرار المحلولة، فصرفني من الخدمة وسأترك في سبت الأسبوع، ولذلك لن يعرفني المكان بعد ذلك.

«سأذهب إلى لندن، وسوف تعطيني سيدتي الإقطاعية القديمة انجير، 17 كوبورغ سكوير، إما غرفة أو تجد لي غرفة.

«تأكدي أن خطاياك ستجعلك بعيدة، خاصة إن كنت متزوجة، وكان اسمها بيرتا ـ».

لم تكن في الرسالة كلمة واحدة عنها نفسها، أو إشارة إليها. امتعضت كوني من هذا. ربما قال بضع كلمات من التعزية أو التأكيد. ولكنها تعرف أنه يترك لها حريتها، حريتها في أن تذهب إلى راغبي

وإلى كليفورد. تمنت لو أنه قال لكليفورد: «بلى، هي عشيقتي وسيدتي، وأنا فخور بذلك». لكن هذه الشجاعة لن تحمله بعيداً وتخلّصه.

وهكذا ارتبط اسمها باسمه في تيفرشال. وحدثت فوضى. لكن كل ذلك سوف يتلاشى.

كانت غاضبة غضباً معقداً مشوشاً جعلها عاجزة، فلاتعرف ماذا تقول ولاماذا تفعل ولذلك لم تقل شيئاً ولم تفعل شيئاً. ذهبت إلى البندقية في الوقت نفسه، وجدفت في الجندول مع دنكان فوربس، فاستحمت ومرت عدة أيام. إن دنكان، الذي كان يحبها جداً خلال عشر سنوات، وقع في حبها مرة ثانية. لكنها قالت له: إني أريد من الرجال شيئاً واحداً، وهو أن يدعوني وشأني.

وهكذا تركها دنكان وحدها: وكان مسروراً تماماً لأنه كان قادراً أن يفعل هذا. كلهم كذلك، فقد قدم لها ينبوعاً ناعماً من الحب الغريب. أراد أن يكون معها.

قال لها في أحد الأيام «هل فكرت في يوم ما كم هم قلة أولئك الناس الذين يتواصل واحدهم مع الآخر. انظري إلى دانييلي. إنه أنيق مثل ابن الشمس. ولكن انظري كيف ينظر هو إلى أناقته. وأقول لك إنه مع ذلك متزوج وله عائلة، ولايستطيع الخلاص منهم».

قالت كوني «اسأله».

وفعل ذلك دنكان. فقال دانييلي إنه كان متزوجاً، وله ولدان، ذكران، بعمر سبع سنوات وتسع سنوات. وهو لايخفي هذه العاطفة عن الواقع.

قالت كوني «ربما كان الناس القادرون على الاجتماع الحقيقي هم الذين يبدون وحيدين في الكون. إن لدى الآخرين التصاقاً معيناً، إنهم يلتصقون بالجماهير، أمثال جيوفاني» ـ وفكرت في نفسها «ومثلك أيضاً يادنكان».

ss

الفصل الثامن عشر

جمعت فكرها لتعرف ماذا تفعل. ستترك البندقية يوم السبت، وهو اليوم الذي سيترك فيه راغبي: في مدة ستة أيام. وهذا سوف يأخذها إلى لندن في يوم الاثنين التالي، وعندئذٍ سوف تراه. كتبت إليه على عنوان لندن، تطلب منه أن يراسلها إلى فندق هارتلاند، وأن يتصل معها في الساعة السابعة من مساء الاثنين.

كانت في داخلها غاضبة على نحو غريب ومعقد، وكانت استجاباتها استجابات مخدرة. رفضت أن تثق حتى في هيلدا، وهيلدا، التي جوبهت بصمتها القوي، صارت صديقة حميمة مع امرأة ألمانية. لقد كرهت كوني تلك العلاقات الكظيمة بين امرأتين، العلاقة التي دخلتها هيلدا دائماً دخولاً لارشاقة فيه.

قرر السير مالكولم أن يسافر مع كوني، ويمكن أن يأتي دنكان مع هيلدا. والفنان العجوز دائماً يجعل نفسه جميل المنظر: حجز مضجعين في قطار الشرق، على الرغم من كراهية كوني لقطارات الدرجة الفخمة، لجو الفساد المبتذل الموجود على متنها في هذه الأيام. على أي حال، إن ذلك يجعل الرحلة إلى باريس قصيرة.

كان مالكولم دائماً يرجع قلقاً إلى زوجته. إنها عادة ظلت معه من الزوجة الأولى. ولكن ستكون هناك حفلة بيتية لطيور الطيهوج،

ss

وأراد أن يكون على رأس الحفلة. كوني الأنيقة التي صوحتها الشمس، جلست بصمت، ناسية كل هذا المشهد.

قال والدها ملاحظاً كآبتها «الذهاب إلى راغبي يسبب لك قليلاً من الكآبة».

«لست متأكدة أني عائدة إلى راغبي» قالت مقاطعةً بقلق، ومتطلعةً في عينيه بعينيها الزرقاوين الكبيرتين. تلقت عيناه الزرقاوان الواسعتان صورة مخيفة لرجل ضميره الاجتماعي ليس صافياً تماماً.

«تعنين أنك ستقيمين في باريس فترة؟».

«لا، أعني أنني لن أذهب إلى راغبي أبداً».

كان ينوء بعبء مشاكله الصغيرة الخاصة، وكان يأمل فعلاً أنه لن يأخذ على عاتقه شيئاً من مشاكلها.

سأل «كيف ذلك؟ كل هذا يحدث فجأة؟».

«أنا حامل بطفل».

كانت المرة الأولى التي تتفوه بالكلمات لأي نفس حية، ويبدو أنها علامة صَدع في حياتها.

قال والدها «كيف تعرفين؟».

ابتسمت

«كيف أعرف».

«لكنه - لكن - إنه ليس ابن كليفورد طبعاً؟».

«لا. ابن رجل آخر».

سرت لأنها آلمته.

قال السير مالكولم «هل أعرف الرجل؟».

«لا. لم تره أبداً».

ss

كانت هناك فترة صمت طويلة.

«وماهي مخططاتك؟».

«لاأعرف. هذه هي النقطة».

«لاصلح مع كليفورد؟».

قالت كوني «أعتقد أن كليفورد سيطلب المصالحة. لقد أخبرني، بعد آخر مرة تحدثت أنت معه، أنه لايهمه إن أنا جئت بطفل: مادمت أتوخى الكتمان».

«سيقول شيئاً حساساً فقط، تحت ضغط الظروف. عندئذٍ أظن أن كل شيء يستقيم».

«بأي طريقة» قالت كوني ذلك، وهي تنظر في عيني أبيها. كانتا عينين زرقاوين كبيرتين أكثر من عينيها، ولكنهما قلقتان، فيهما أحياناً صورة صبي صغير وأحياناً صورة الأنانية المتجهمة، التي تبدو عادة بمزاج جيد وحذر.

«يمكنك أن تقدمي لكليفورد وريثاً لكل آل شاترلي، وتضعين بارونيتاً في راغبي».

ابتسم وجه السير مالكولم بابتسامة نصف حسية.

قالت «لكني لاأعتقد أني أريد أن أفعل هذا».

«لم لا؟ هل اختلطت المشاعر مع الرجل الآخر؟ - لابأس إن كنت يابنيتي تريدين الحقيقة مني فهذه هي. العالم يتابع سيره. راغبي تنتصب وتستمر منتصبة. العالم شيء ثابت تقريباً، وداخلياً، علينا أن نكيِّف أنفسنا معه. خصوصاً، في رأيي الخاص، يمكن أن نُفرح أنفسنا. فالعواطف تتغير. فيمكنك أن تحبي رجلاً هذا العام، ورجلاً آخر في العام القادم. لكن راغبي تظل منتصبة. التصقي براغبي مادامت راغبي ملتصقة بك. إذن افرحي. ولكنك لن تصنعي إلا القليل جداً من التحطيم. تصنعين التحطيم في رغبتك. إنك تملكين دخلاً

مستقلاً، وهو الشيء الوحيد الذي لايجعلك في مرتبة ضعيفة. ولكنك لن تحصلي على الكثير منها. ضعي بارونيتاً صغيراً في راغبي. إنه شيء ممتع تفعلينه».

أسند السير مالكولم ظهره خلفاً وابتسم ثانية. لم تجب كوني.

قال لها بعد فترة صمت وهو نشيط حسياً «آمل أخيراً أن يكون رجلاً حقيقياً».

قالت «فعلاً. وهذه هي المشكلة. لايوجد الكثير من أمثاله».

فرح وقال «لا. بالله عليك. ـ لايوجد ـ لابأس ياعزيزتي، من ينظر إليك، فإنه يقول إنه رجل محظوظ. بالتأكيد لن يجلب لك المتاعب؟».

«أوه. لا. إنه تركني ربة المنزل المطْلقة».

«تماماً. تماماً. لابد أنه رجل أصيل».

فرح السير مالكولم. كانت كوني ابنته المفضلة فكان دائماً يحب الأنوثة فيها. ليس فيها الكثير من أمها كما في هيلدا. ولكنه دائماً كان لايحب كليفورد. لذلك كان فرحاً ومسروراً، ولطيفاً مع ابنته، كما لو أن الطفل الذي سيولد هو ابنه.

ركب معها السيارة إلى فندق هارتلاند، ورآها تستقر فيه: ثم ذهب يتفقد ناديه. رفضت أن تصاحبه هذا المساء.

وجدت رسالة من ميلورز. «لن آتي إليك في الفندق، بل أنتظرك في الخارج، في الغولدن كوك في شارع آدم، الساعة السابعة ـ».

وقف هناك طويلاً نحيلاً متمايزاً، بمعطف أنيق من القماش الأسود الرقيق. كان له تمايز طبيعي، ولكنه لم يفقد المظهر النموذجي لطبقته. ومع ذلك أدركت على الفور أنه يستطيع الذهاب إلى أي مكان. ربيّ تربية محلية أجمل بكثير من هذا النموذج الطبقي.

«ها أنت هنا. كم تبدو معافى».

«بلى. لكنك لاتبدين معافاة».

ss

نظرت في وجهه قلقة. كان نحيلاً، وقد برزت عظام وجنتيه. لكن عينيه ابتسمتا لها، وشعرت كأنها معه في البيت. وفجأة تراخى توترها الذي كانت تضبط فيه مظهرها. شيء ماتدفق منه جسدياً، جعلها داخلياً مرتاحة وسعيدة، كأنها في البيت. وبغريزة المرأة الناشطة الآن للسعادة سجلت «أنا سعيدة عندما يكون أمامي». ـ كل شمس البندقية لم تمنحها هذا الامتداد الداخلي وهذا الدفء.

«ما الذي يرعبكَ؟» سألت حالما جلست قبالته على الطاولة. كان نحيلاً جداً ـ رأت هذا النحول الآن. يده تستلقي كما عرفتها، بذلك الهدوء الغريب لحيوان نائم. تمنت لو أنها أخذتها وقبلتها. لكنها لم تجرؤ أبداً.

قال «الناس دائماً مرعبون».

«وهل تهتمّ كثيراً؟».

«أهتم. أنا دائماً أهتم. وأنا أعرف أن من الحماقة أن أهتم».

«هل تشعر مثل كلب بعلبة تنك ربطت إلى ذيله؟ ـ قال كليفورد إنك شعرت بمثل هذا الشعور».

نظر إليها. كان ظلماً منها في تلك اللحظة، فقد عانت كبرياؤه وتألمت.

قال «أعتقد أن ذلك صحيح».

لم تعرف المرارة القاسية التي تلقى بها الإهانة.

وحلت فترة صمت طويلة.

سألت «ألم تشتق لي؟».

«أنا جد مسرور لأنك كنت بعيدة».

حلت أيضاً فترة صمت.

ss

سألت «ولكن هل صدق الناس ماقيل عنك وعني؟».

«لا. لاأعتقد ذلك أبداً».

«وهل صدق كليفورد؟».

«أقول لا. إنه طرح ذلك عنه ولم يفكر فيه أبداً. ولكن من الطبيعي أن ذلك دَفَعه إلى أن يرى خاتمتي».

«أنا حامل وسيكون لدي طفل».

مات التعبير موتاً نهائياً من وجهه، من كل جسده. نظر إليها بعينين قاتمتين، لم تفهم شيئاً منهما إطلاقاً: مثل روح ملتهبة في الظلام تنظر إليها.

«قل إنك مسرور» رجته متحسسة يده. ورأت ابتهاجاً معيناً ينبثق منه. لكنه خمد بسبب أشياء لم تستطع أن تفهمها.

قال «إنه المستقبل».

ألحّتْ «ولكن ألست مسروراً؟».

«في قلبي رعب لعدم ثقتي بالمستقبل».

«لكنك لن تزعج نفسك بأي مسؤولية. سيجعله كليفورد ابنه ـ سيكون مسروراً».

رأته يشحب، ورأته يتراجع لدى سماعه هذا. لم يجب.

سألت «هل أعود إلى كليفورد، وأضع البارونيت في راغبي؟».

نظر إليها شاحباً وبعيداً عنها كل البعد. والتمعت التكشيرة الصغيرة البشعة على وجهه.

«أنتِ لن تخبريه مَنْ والد الطفل».

قالت «سوف يتبناه رغم ذلك ـ إذا أردت أن يتبناه».

فكر لفترة.

قال أخيراً لنفسه «أعتقد أنه سيتبناه».

ss

وكان هناك صمت. كان بينهما فجوة كبيرة.

سألته «ولكنك لاتريدني أن أرجع إلى كليفورد، أليس كذلك؟».

أجاب «ماذا تريدين أنت نفسك؟».

قالت ببساطة «أريد أن أعيش معك».

رغماً عنه سرت ألسنة لهب في بطنه حالما سمعها تقول ذلك، فأحنى رأسه. ثم نظر إليها ثانية، بتينك العينين الهائمتين.

قال «إن كان هذا يعجبك، فأنا لاأملك شيئاً».

قالت «أنت أفضل من كل هؤلاء الرجال. هيا. أنت تعرف ذلك».

«بطريقة ما أعرف ذلك» صمت لفترة مفكراً ثم استأنف: «اعتادوا أن يقولوا إن في داخلي الكثير من النساء ـ. ولكن ليس لذلك. أنا لست امرأة لا لأني لاأريد أن أطلق النار على العصافير، ولا لأني لاأريد جمع المال أو الحصول عليه. أستطيع أن أحصل على ذلك في الجيش بكل بساطة ـ لكني لاأحب الجيش. ومع أني أدرت الرجال إدارة جيدة: فقد أحبوني وكانوا يخافون خوفاً مقدساً مني عندما أنرفز. لا. كانت سلطة عليا بليدة ميتة تلك التي جعلت الجيش يموت: من دون شك إنها حماقة مميتة. أُحب الرجال، والرجال يحبونني. أنا لاأستطيع وقف ثرثرة وصفاقة الناس الذين يديرون هذا العالم. وهذا هو السبب في أنني لاأشارك. إني أكره صفاقة المال، وأكره صفاقة الطبقة. وهكذا في هذا العالم، ماذا أملك حتى أقدّم للمرأة؟».

قالت «ولكن لماذا تقدم أي شيء. إنها ليست صفقة. إنها مجرد أن أحدنا يحب الآخر».

«لا، لا. إنها أكثر من ذلك. فالحياة حركة، وحركة إلى الأمام. إن حياتي لن تتدنى إلى قنوات خاصة، لا أبداً. فأنا قناة فاسدة بحد ذاتي. أنا لاأملك عملاً لأتخذ امرأة في حياتي، مالم تفعل حياتي شيئاً

ss

ما وتختار مكاناً ما، في داخلي على الأقل، للحفاظ على الطزاجة لكلينا. يجب أن يقدم الرجل للمرأة بعض المعنى في حياته، إن كانت تسير إلى حياة عزلة، وإن كانت هي امرأة أصيلة. ـ أنا لاأستطيع أن أكون خليلاً ذكرياً لك».

قالت «لم لا؟».

«لمَ؟ لأني لاأستطيع. وأنت ستكرهين ذلك سريعاً».

قالت «كأنك لاتثق بي».

والتمعت التكشيرة على وجهه.

«المال مالكِ، والمركز مركزك، والقرارات منوطة بك. وأنا لست فقط ناكح سيدتي».

«أي شيء آخر أنت؟».

«يمكنك أن تسألي. لاشك أنه غير مرئي. ومع ذلك أنا شيء ما ـ بالنسبة لنفسي على الأقل. يمكنني أن أرى أساس وجودي الخاص ـ مع أنني أفهم تماماً ألّا أحد يرى ذلك».

«فهل يتدنى أساس وجودكَ إن عشت معي؟».

صَمَتَ فترة طويلة قبل أن يجيب:

«قد».

مكثت طويلاً تفكر في ذلك.

«وماأساس حياتك؟».

«قلت لكِ إنه شيء غير مرئي. أنا لاأؤمن بالعالم ولا بالمال، ولا بالتقدم، ولا بمستقبل حضارتنا ـ فإن قُدّرَ أن يكون ثمة مستقبل للبشرية، فسوف يكون تغيراً كبيراً عما هي عليه الآن».

«وماذا يجب أن يشبه المستقبل الحقيقي؟».

«الله وحده يعرف. أشعر بشيء ما في داخلي، أشعر بأن كل شيء ممزوج بالغضب. ولكن ما الذي أنشده فأنا لاأعلم».

قالت ناظرة إلى وجهه «هل لي أن أخبرك؟ هل أخبرك بما لايملكه أولئك الرجال الآخرون، وأن ذلك سوف يصنع المستقبل؟ هل لي أن أخبرك؟».

أجاب «إذن أخبريني».

«إنها لشجاعة من لطافتك وهي من أمثال وضع يدك على مؤخرتي وقولك إني أملك أجمل مؤخرة».

عادت التكشيرة إلى وجهه أيضاً.

قال «ذلك».

ثم جلس يفكر.

قال «إي. أنت محقة. إن ذلك صحيح. وهذا هو الطريق الذي أسير فيه. أعرفه مع الرجال. لقد تواصلت معهم جسدياً، ولم أعد إلى ذلك. لم أكن جسدياً واعياً لهم - وكنت لطيفاً معهم - حتى لو وضعتهم في قلب الجحيم. إنها مسألة وعي، كما قال بوذا. ولكن حتى هو حارب الخجل من الوعي الجسدي، اللطافة الجسدية الطبيعية، التي هي الأفضل، حتى بين الرجال: بطريقة رجولية خاصة. فذلك يجعلهم رجالاً وليس قروداً. إنها لطافة فعلاً، إنها وعي - الفرج. الجنس لمسة واقعية فقط، أقرب من كل اللمسات. وهي اللمسة التي نخاف منها. إننا نصف واعين، ونصف أحياء. علينا أن نعيش وأن نعي. فعلى الانكليز أن يلمس واحدهم الآخر، بلطافة ورهافة. إنها ماتحتاجه صرختنا -».

نظرت إليه.

قالت «إذن لم أنت خائف مني؟».

نظر إليها فترة طويلة، قبل أن يجيب.

«إنه المال، حقاً، والمركز. إن العالم فيك».

قالت بحزن «هل تجد لطافة فيّ».

نظر إليها بعينين قاتمتين مجردتين من المعنى.

«إنها تأتي وتذهب كما هو الأمر معي».

سألت محدقة بقلق فيه «ولكن هل تثق بذلك - بينك وبيني؟».

رأت وجهه ينسدل بهدوء فاقداً سلاحه.

قال «قد».

وصمتا كلاهما.

قالت «أريدك أن تضمني بذراعيك. أريد أن تخبرني أنك مسرور لأنه سيكون لدينا طفل».

نظر إليها بحب ودفء وحزن، لقد هفت إليها أحشاؤه.

قال «أعتقد أننا يمكن أن نذهب إلى غرفتي، مع أن ذلك فضيحة أخرى».

ولكنها شاهدت نسيان العالم ينهمر عليه ثانية، فقد رق وجهه واعترته نظرة من عاطفة الحنان الصافية.

سارا في الشوارع الأبعد إلى كوبورغ سكوير، حيث غرفته على سطح المنزل، وهناك عليّة يطبخ فيها لنفسه على حلقة غاز. كانت الغرفة صغيرة ولكنها لطيفة ومحتشمة.

خلعت ملابسها، وجعلته يخلع أيضاً. كانت جميلة جداً في الإطلالة الأولى لحملها.

قال «سأضطر لتركك وحدك».

قالت «لا. أحببني، أحببني وقل إنك تحتفظ بي. قل إنك تتمسك بي. قل إنك لن تتركني أبداً، لا للعالم، ولا لأي كائن».

وراحت تزحف إليه، وتلتصق بسرعة بهذا الجسد العاري القوي النحيل، إنه المنزل الوحيد الذي عَرِفته.

قال «سأحتفظ بك، إن أردت، سأحتفظ بك».

ضمها إليه وبسرعة.

ss

وكررت «وقل إنك مسرور بالطفل. قبلني وقبل رحمي وقل إنك مسرور أنه موجود هناك فيه».

لكن ذلك كان أشد صعوبة عنده.

قال «أخاف من دفع أطفال في هذا العالم، فأنا أخاف عليهم من المستقبل».

«ولكنك أنت الذي وضعته فيّ. فكن لطيفاً معه، وسيكون ذلك هو مستقبله. قبله. قبله».

ارتعد، لأنه كان حقيقياً. «كن لطيفاً معه، وسيكون ذلك هو مستقبله» - وفي تلك اللحظة شعر بالحب الصرف للمرأة، قبّل بطنها وتلة فينوسها ليقبّل بعد ذلك الرحم، والجنين داخل الرحم.

«أنت تحبني، أوه، أنت تحبني» قالت بصرخة من صرخات حبها العمياء غير الواضحة. وراح يفترعها بنعومة شاعراً بينبوع اللطافة يتدفق من أحشائه إلى أحشائها، أحشاء الحنان الذي يربط بينهما.

ويتحقق كلما أوغل فيها أن هذا هو الشيء الذي عليه أن يفعله، أن يأتي بلمسة لطيفة، من دون أن يفقد كبرياءه أو كرامته أو كماله كرجل. كذلك إن كان لديها مال، ووسائل، وهو لايملك من ذلك شيئاً، فلابد أن يكون فخوراً جداً وكريماً جداً في أنه ينال لطفه منها في هذا الصدد. قال لنفسه «إني أدعم لمسة وعي الجسد هذه بين الكائنات البشرية، ولمسة اللطافة. إنها رفيقتي. وإنها لمعركة ضد المال والآلة وتحوُّل هذا العالم إلى قرود. وسوف تقف خلفي هناك. أشكر الله أني حصلت على امرأة. أشكر الله أني حصلت على امرأة تقف معي، تُعينني وتلاطفني. أشكر الله أنها ليست متنمرة ولا حمقاء. أشكر الله أنها امرأة لطيفة وواعية». وحالما انقذفت بذوره فيها، تدفقت روحه نحوها أيضاً، في فعل إبداعي أبعد بكثير من الفعل التناسلي.

ss

صممت الآن أنه لن يكون ثمة انفصال بينها وبينه. ولكن يجب إقرار الطرق والوسائل.

سألته «أتكره بيرتا كوتس؟».

«لاتحدثيني عنها».

«بلى. يجب أن تدعني أحدثك عنها. لأنك أحببتها مرة. وكنت حميمياً معها كما أنت حميمي معي. إذن عليك أن تخبرني. أليس مرعباً عندما تكون حميمياً معها أن تكرهها كل هذه الكراهية؟ لماذا؟».

«لاأعرف. إنها دائماً تناصبني العداء، دائماً: إرادتها الأنثوية المرعبة: حريتها. حرية امرأة مرعبة، تنتهي دائماً بتنمر وحشي. أوه، دائماً كانت تستخدم حريتها ضدي، مثل زيت الزاج في وجهي».

«ولكنها ليست حرة منك حتى الآن. أما تزال تحبك؟».

«لا. لا. إن كانت غير حرة مني، فلأنها انساقت وراء ذلك الغضب الجنوني، فهي تحاول أن تضبعني».

«ولكن لابد أنها أحبتك».

«لا. لابأس. في أحيان قليلة جداً. بلى أحبتني. كانت تقترب مني. وأعتقد أنها كانت تكرهني حتى في اقترابها. أحبتني في لحظات. ولكنها سرعان ماتسترجع حبها، وتبدأ بالتنمر. إن رغبتها الأعمق هي أن تضبعني، ولايوجد شيء يمكن أن يغيّرها. إن إرادتها كانت خاطئة منذ البداية».

«لكن ربما شعرت أنك لاتحبها حقاً، فأرادت أن تجعلك تحبها».

«ياإلهي. كان ذلك مثلاً دموياً».

«ولكنك لم تحبها فعلاً، هل أحببتها؟ أنت فعلت لها هذا الخطأ».

«وكيف أستطيع؟ بدأت. قد بدأت أحبها. كانت دائماً تدفعني بعنف. لا. لاتتحدثي عن ذلك. كان يوم الهلاك يوم كنت معها. كانت

امرأة مهلكة. سأطلق النار عليها كما أطلقها على ابن عرس لو سُمح لي بذلك: شيء مخيف مهلك على شكل امرأة. آه لو أنني فقط أستطيع إطلاق النار عليها، وأنهي كل بؤسي. يجب أن يُسمح لي. عندما تسيطر على المرأة إرادتها الخاصة، فإن هذه الإرادة الخاصة تتجه ضد أي شيء، وهي إرادة مخيفة، ولابد من إطلاق النار عليها في النهاية».

«ألا يجب إطلاق النار على الرجال في النهاية، إن تملّكتهم إرادتهم الخاصة؟».

«أوه ـ الشيء ذاته ـ لكن يجب أن أتحرر منها. وإلا ستعود إليّ ثانية. أردت أن أخبرك. يجب أن أطلّقها إن استطعت. لذا يجب أن نكون حريصين. يجب فعلاً ألا يرانا الناس معاً، أنت وأنا. أنا لاأستطيع أن أوقفها إن هجمت علي وعليك».

فكرت كوني بهذا.

قالت «إذن نحن لانستطيع أن نكون معاً؟».

«لا نستطيع لمدّة ستة أشهر أو قرابة ذلك. ولكني أظن أن طلاقي سيتم في أيلول ـ أو حتى آذار ـ».

قالت «ولكن الطفل سيأتي بالتحديد في نهاية شباط».

كان صامتاً.

قال «أتمنى أن يموت جميع الكليفوردات والبيرتات».

قالت «إن هذا ليس لطفاً معهم».

«اللطف معهم؟ ـ يه، حتى عند ذلك يكون ألطف شيء تقدمينه لهؤلاء هو الموت، أن تمنحيهم الموت، إنهم لايستطيعون. إن حياتهم حياة محبطة. فنفوسهم مرعبة في داخلهم. الموت هو الأجمل لهم. ويجب أن يُسمح لي بإطلاق النار عليهم».

قالت «ولكن لن تفعل هذا».

«ومع ذلك يجب أن أفعل وبوخز ضمير أقل مما أُطلق النار على

ابن عرس. فهو على الأقل أجمل، ويعيش في عزلة، أما هم ففيلق. أوه أتمنى أن أطلق النار عليهم».

«ولكنك تقول هذا لأنك لاتقدر».

«لابأس ـ».

تراكم لدى كوني الكثير لتفكر فيه. من الواضح أنه يريد أن يتحرر من بيرتا كوتس. وشعرت أنه كان مصيباً. إن الهجمة الأخيرة كانت قاتمة جداً ـ هذا يعني أنها ستعيش وحدها، حتى الربيع. يجب أن تسعى مع كليفورد حتى يطلّقها. ولكن كيف؟ فلو ذكرت اسم ميلورز لقضي على طلاقه. ياللشناعة. ألا يمكن للمرء أن يكون مستقيماً تماماً، حتى آخر الأرض، وأن يكون متحرراً منها تماماً؟

إن المرء لايستطيع. فالنهايات البعيدة للأرض لاتبعد فقط خمس دقائق من شارنغ كروس في هذه الأيام. بينما اللاسلكي أشد فعالية، فلا توجد نهايات بعيدة للأرض. إن ملوك داهومي وداي لامات التيبت يستمعون للندن ونيويورك.

صبراً. صبراً. العالم ضخم وله ميكانيزما معقدة مرعبة، ويجب على المرء أن يكون شديد الحذر حتى لايختلط به.

إن كوني تثق بأبيها.

«أنت ترى ياأبي أنه حارس طرائد كليفورد: ولكنه كان ضابطاً في الجيش في الهند. إنه يشبه الكولونيل لورانس العرب، الذي فضّل أن يصبح جندياً خاصاً مرة أخرى».

على أي حال لم يكن السير مالكولم متعاطفاً مع الصوفية غير المقنعة للورنس العرب الشهير. وهو يرى أن هناك دعاية كبيرة وراء كل تواضعه. إنه يشبه فساد الفارس الحانث، فساد الحقارة الذاتية.

قال السير مالكولم متحرشاً «ومن أين جاء حارس طرائدك هذا؟».

«كان ابن عامل منجم في تيفرشال. لكنه ذو حضور حقيقي».

الفنان الفارس صار أشد غضباً.

قال «يبدو لي مثل المنقّب عن الذهب، وأنتِ منجم ذهب سهل جداً».

«لاياأبي، لا، إنه لايشبه ذلك. ستتجلى لك الحقيقة حالما تراه. إنه رجل. كان كليفورد دائماً يمقته، لأنه لم يكن وضيعاً».

«من الواضح أنه يملك غريزة جيدة».

مالم يستطع السير مالكولم أن يتحمله هو فضيحة ابنته بوقوعها في مكيدة حارس طرائد. إنه لم يفكر في المكيدة، بل فكر في الفضيحة.

«أنا لاأهتم كثيراً بالرجل. لقد استطاع الاستحواذ عليك، فلابأس. ولكن بالله عليك فكري بكل الأحاديث. فكري بحماتك كيف ستنظر إلى هذه العملية».

قالت كوني «أعرف بأن الحديث سيكون وحشياً: على الأخص إن عاش المرء في المجتمع. إنه يريد الحصول على طلاقه. وأعتقد أنه يمكن القول بأن الطفل هو ابن رجل آخر، من دون ذكر اسم ميلورز إطلاقاً».

«ابن رجل آخر، أي رجل آخر؟».

«ربما دنكان فوربس. كان صديقنا طيلة حياته. وهو مشهور كفنان مبدع. وهو معجب بي».

«عليّ اللعنة، يالدنكان المسكين. وماذا يأتيه من هذا؟».

«لاأعلم. ولكن قد يحب حتى هذا».

«قد، هو قد؟ لابأس إنه رجل سخيف إن فعل. ولماذا لم تمارسي هذا الشأن معه، هل مارسته؟».

ss

«لا. لكن الحقيقة أنه هو نفسه لم يرغب في هذا العمل. إنه يحبني فقط لأكون قريبة منه ـ ولكن لا لألمسه».

«ياإلهي، أي جيل هذا».

«لقد أحبني أكثر من كل الموديلات التي رسمها. أنا فقط لم أرغب أن أكون موديلاً للرسم».

«الله يساعده. ولكنه يبدو أنه مسحوق بما فيه الكفاية لأي شيء».

«أما زلت غير راغب أن نتحدث بالمزيد عنه؟».

«ياإلهي. كوني. يالهذا التخطيط الدموي».

«أعرف. إنه مرض. ولكن ماذا أفعل؟».

«تخطيط، تخطيط، تخطيط، تخطيط. إن هذا يجعل الإنسان يفكر بأنه يعيش طويلاً جداً».

«هيا ياوالدي، إن كنت لم تخطط في حياتك قط، ولم تمارس أي نوع من التخطيط، فتكلم».

«لكن الأمر مختلف. أؤكد لك».

«دائماً الأمر مختلف».

وصلت هيلدا، وارتعبت أيضاً عندما سمعت بالتطورات الجديدة. هي أيضاً لاتستطيع أن توقف التفكير بالفضيحة المنتشرة عن أختها وحارس الطرائد. إنها وضاعة كبيرة، كبيرة.

قالت كوني«لماذا لانختفي، ننفصل، أنذهب إلى كولومبيا البريطانية حتى لاتكون هناك فضيحة؟».

لكن ذلك لم يكن جيداً. فالفضيحة قد تأتي بالشيء ذاته. فإن ذهبت كوني مع الرجل فالأفضل أن تكون قادرة على الزواج به. كان هذا رأي هيلدا. لكن السير مالكولم لم يكن متأكداً من هذا. إذ قد يبقى المشكل مستمراً.

«لكن هل يمكن أن تراه ياوالدي؟».

ss

ياللسير مالكولم المسكين، لم يكن مهتماً إطلاقاً. ويالميلورز المسكين، فإنه مازال أقل اهتماماً. ومع ذلك تم اللقاء بينهما: غداء في غرفة خاصة في النادي، والرجلان وحدهما، ينظر الواحد إلى الآخر من الأعلى إلى الأسفل. شرب السير مالكولم كمية كبيرة من الويسكي، كما شرب ميلورز أيضاً. وطيلة الوقت تحدثا عن الهند، التي كان الرجل الصغير أعلم بها من الرجل الكبير.

استمر هذا طيلة الوجبة. فقط عندما قُدمت القهوة، وذهب النادل، أشعل السير مالكولم سيجارة وقال بإخلاص:

«لابأس أيها الشاب الصغير، وماذا عن ابنتي؟».

برقت التكشيرة على وجه ميلورز.

«نعم ياسيدي، وماذا عنها؟».

«إن لك طفلاً في أحشائها».

كشر ميلورز «إني أدَّعي هذا الشرف».

«شرف، ياالله» ندت من السير مالكولم ضحكة متقطعة وصار اسكوتلاندياً فاجراً. «شرف ـ وكيف ذلك. إيه؟ جيد يابني، ماذا؟».

«جيد».

«أراهن أنه كذلك، إنها شريحة من النموذج القديم، ماذا! أنا لن أعود وراءً إلى الممارسة الجيدة. مع أن أمها ـ أوه، ياللقديسات الطاهرات» ـ ورفع عينيه إلى السماء. «لكنك أدفأتها، أوه، أدفأتها، أدفأتها، أستطيع أن أرى ذلك. ها. ها. إن دمي فيها. أنت أشعلت النار في كومة تبنها. ها. ها. ها. أنا سعيد جداً لذلك، هأنذا أخبرك. أوه. إنها فتاة جميلة، إنها لجميلة، وأنا أعلم أنها ستفعل جيداً إذا أشعل رجل لعين النار في بيدرها. ها. ها. ها يا حارس الطرائد، يابني، أيها المفقّس الدموي الجيد، بلى هكذا أقول لو سألتني

بصراحة. ها. ها. لكن انظر هنا الآن، وتحدث بجد، ماذا أنت فاعل بهذا الصدد؟ الحديث جاد. أنت تعرف».

الحديث الجاد. هما لم يبتعدا كثيراً عنه. فقد كان ميلورز، ولو أنه مترنح قليلاً بسبب الشرب، أصحى الاثنين. فقد أبقى المحادثة رفيعة المستوى قدر الإمكان: فلم يتحدث فيها كثيراً.

«إذن أنت حارس الطرائد. أنت محق تماماً. هذا النوع من الطرائد يستحق وقتاً من الرجل، إيه، ماذا؟ اختبار امرأة يكون عندما تثقب قاعها. ويمكن أن تعرف عن طريق قاعها إن كانت منسجمة تماماً. ها. ها. إني أحسدك يابني، كم تبلغ من العمر؟».

«التاسعة والثلاثين».

رفع الفارس حاجبيه.

«أوه، كل ذلك. لابأس ـ لك عمر آخر حسب منظرك وهو عشرون عاماً. أوه، حارس طرائد أو غير حارس طرائد، أنت ديك لعبة. يمكنني أن أعرف ذلك بعين واحدة مطبقة. ليس مثل ذلك النفاخ كليفورد. إنه كلب جبان دون أن يستطيع السفاد، أبداً. أحبك يابني. أعلم أنك سمكة جيدة، أوه، إنك طير بانتام، أستطيع أن أرى ذلك. أنت مقاتل. حارس طرائد. ها.ها. ياللعجب، أنا لاأثق بأن تكون طريدتي معك ـ ولكن انظر هنا، عن جد، ماذا ستفعل بشأنها؟ العالم مليء بالنساء العجائز الرعديدات ـ».

من الناحية الجدية، لم يفعلا أي شيء بشأنها، سوى توطيد البناء الحر لحسية الذكور بينهما.

«انظر هنا يابني، إن كنت أستطيع أن أقدّم شيئاً لك، فإنك تستطيع الاعتماد عليَّ. حارس طرائد. يامسيح، لكن هذا غنى، وأنا أحب ذلك. أوه، أحبه. جعل الفتاة تبدو حيوية. ماذا؟ ـ ومع ذلك، فإنك تعلم أن لها دخلها الخاص، المعتدل، المعتدل، ولكن فوق المجاعة. وسوف أترك لها ماحصلت عليه. والله سأترك لها. إنها

تستحق ذلك، لأنها بدت حيوية، في دنيا النساء العجائز. كنت أكافح لأخلص نفسي من تنانير النساء العجائز، لسبعين سنة خلت، ولم أخلص حتى الآن. ولكنك رجل. أنت رجل. أنا أستطيع رؤية ذلك».

«يسرني أنك تفكر هكذا. إنهم يُخبرونني، بطريقة مواربة، أنني قرد».

«أوه، سيفعلون. فياصديقي العزيز، وماذا بإمكانك أن تكون غير قرد، عند كل النساء العجائز -».

افترقا بكل لطف، وظل ميلورز يضحك في داخله كل الوقت، بقية يومه.

في اليوم التالي تناول الغداء مع كوني وهيلدا، في مكان بعيد عن الأنظار.

قالت هيلدا «إنه مما يثير الشفقة الكبيرة هذا الوضع المحيط بنا».

قال «إني أسخر قليلاً من هذا الوضع».

«أعتقد أن بإمكانك تجنب إنجاب الأطفال في هذا العالم حتى تطلّق زوجتك وتطلّق زوجها وتتزوجا وتنجبا».

قال «اللورد في الأسفل سيولع الشرارة سريعاً».

«أعتقد أن اللورد لايد له في شيء. طبعاً تملك كوني من المال مايكفي لكما كليكما، لكن الوضع لايحتمل -».

قال «ولكنك على هذا لاتتحملين سوى زاوية صغيرة منه، أليس كذلك؟».

«لو كنت في طبقتها هي -».

«أو لو كنت في قفص في حديقة الحيوان -».

وكان هناك صمت.

قالت هيلدا «أعتقد من الأفضل لوسمّت رجلاً آخر تماماً باعتباره الزاني، فتبقى أنت بعيداً عن المسألة».

«ولكني فكرت أن أتدخل في المسألة مباشرة ـ».

«أقصد في إجراءات الطلاق فقط».

حملق فيها مفكراً. كوني لم تجرؤ أن تشير إلى مخطط دنكان.

قال «لن أتبع الإجراءات».

قالت هيلدا «عندنا صديق يوافق بكل ممنونية أن يكون الزاني ـ فليس من الضروري أن يظهر اسمك».

«تقصدين صديقاً رجلاً؟».

«طبعاً».

«ولكنها لم تعرف رجلاً آخر؟».

نظر بدهشة إلى كوني.

قالت متسرعة «لا. لا. مجرد صداقة قديمة ـ بسيط تماماً ـ ليس حباً».

«ولماذا إذن يتحمل هذا الرجل العار؟ إن لم يكن قد فعل شيئاً؟».

قالت هيلدا «بعض الناس يتحلون بأخلاق الفروسية ـ ولايحسبون مايحصل لهم مِنْ جراء امرأة».

«من أجلي إذن؟ ـ ولكن مَنْ هذا الشهم؟».

«صديق عرفناه مذ كنا أطفالاً في اسكوتلاندا ـ فنان».

قال فوراً، لأن كوني كانت قد تحدثت عنه «دنكان فوربس. ولكن كيف تغيِّرون العار وتحولونه إليه؟».

«باستطاعتهما البقاء معاً في فندق من الفنادق ـ أو حتى يمكن أن تقيم في جناحه».

قال «يبدو ذلك لي جلبة بلا طائل».

«وما الشيء الآخر الذي تقترحه؟» قالت هيلدا: «إن ظهر اسمك، فلن تحصل على الطلاق من زوجتك التي يستحيل أن تعيش معها».

قال مكشراً «كل ذلك صحيح».

وران صمت طويل.

قال «يمكن أن نبتعد».

قالت هيلدا «لابُعد لكوني. كليفورد عرف كل شيء».

أيضاً حل صمت من الإحباط الكامل.

«العالم هو كما هو. فإن أردت أن تعيش مع الآخرين دون أن تُلاحَق فعليك أن تتزوج. أن تتزوج معناه أيضاً أنك يجب أن تطلّق. فكيف العمل؟».

وحل صمت لمدة طويلة.

قال «كيف تحلون المسألة لصالحنا؟».

«سوف نرى إن كان دنكان يرضى بأن يأخذ دور الزاني: ثم علينا أن نجعل كليفورد يطلّق كوني: وعليك أن تتابع معاملة طلاقك: وكلاكما يجب أن يبقى منفصلاً عن الآخر حتى يطلّق كل واحد من قرينه».

«تفكرين مثل مشفى المجانين».

«ممكن. والعالم ينظر إليكما كمجنونين: أو أسوأ».

«ما الأسوأ؟».

«أعتقد أنكما مجرمان».

«آمل ألا يُغرز فيّ الخنجر مرات أكثر» قال مكشراً. ثم كان صمت، فغضب.

أخيراً قال «لابأس أوافق على كل شيء. العالم غبي مهتاج،

ss

ولايستطيع رجل أن يقتله: مع أني سوف أبذل جهدي. لكنك محقة. علينا أن ننقذ أنفسنا بأفضل مانستطيع».

تطلع إلى كوني بذلٍّ وغضب وإعياء وبؤس.

قال «ياحبيبتي، العالم يقوم بوضع الملح على مؤخرتك».

قالت «لا. إن لم نسمح له».

فكرت بهذا التآمر ضد العالم أقل مما فكر هو.

عندما وصل الأمر إلى دنكان أصر أيضاً على رؤية حارس الطرائد المنتهِك، وكان هناك عشاء، هذه المرة في شقته: الأربعة جميعهم. كان دنكان أميل إلى القصر والعرض وقتامة البشرة، مثل هاملت الصموت ولكن بشعر أسود مسبل وغرور سلتي بنفسه. كان فنه هو كل أنواع الأنابيب والصمامات واللوالب والألوان الغريبة، من أحدث طراز، مع قوة معينة بل صفاء معين من الشكل وجو اللوحة: ميلورز فقط فكر أن هذا ظلم وشيء منفر. ولايوجد غلو في قول ميلورز، لأن دنكان كان تقريباً مجنوناً فيما يتعلق بفنه، إنها عبادة شخصية، دين شخصي بالنسبة له.

كانوا ينظرون إلى الصور في الأستوديو، وظل ينظر بعينيه البنيتين الصغيرتين إلى الرجل الآخر. أراد أن يسمع ماذا يقول حارس الطرائد. إنه يعرف من قبل رأي كوني وهيلدا.

أخيراً قال ميلورز «إنها تشبه جريمة كاملة» وهو كلام لم يتوقع دنكان أبداً أن يصدر من حارس طرائد.

سألت هيلدا، ببرود وسخرية «ومن المجرم؟».

«أنا. لقد أجهزت الجرائمُ على كل أحشاء التعاطف في الإنسان».

موجة من الكراهية الكاملة جرفت الفنان. لقد سمع ملاحظة النفور في صوت الرجل، وملاحظة الازدراء. وهو نفسه اشمأز من

الإشارة إلى أحشاء التعاطف. عاطفة مريضة. وقف ميلورز طويلاً نحيلاً ناظراً ومحدقاً بانفراد متأرجح، أشبه برقص فراشة عث تطير عند الصُوّر.

سخر الفنان قائلاً «ربما كان الغباء هو القتل ـ الغباء العاطفي».

«أتعتقد هكذا؟ أعتقد أن كل هذه الأنابيب وهذه الاهتزازات المتموجة فيها من الغباء مايكفي كل شيء، حتى العاطفة الجميلة. إنها تبدي كثيراً من الشفقة الذاتية وكثيراً من رعب الفكرة الذاتية العصبية، هكذا يبدو لي».

وفي موجة أخرى من الكراهية بدا وجه الفنان أصفر. وبنوع من العجرفة الصامتة أدار الصور إلى الجدار.

قال «أعتقد أننا يمكن أن نذهب إلى غرفة الطعام».

وتقاطروا بكآبة.

بعد القهوة، قال دنكان:

«أنا لايهمني أبداً أن آخذ دور والد طفل كوني. ولكن بشرط أن تأتي وأتخذها كنموذج في رسمي. منذ سنوات وأنا أريدها نموذجاً، وهي دائماً ترفض». قال ذلك بحسم نهائي كأحد أعضاء محكمة التفتيش وهو يعلن «فعل الإيمان».

قال ميلورز «آه. أنت تفعل ذلك بشرط إذن؟».

«تماماً أنا أفعل ذلك بشرط». حاول الفنان أن يصب كل احتقاره على الرجل الآخر في كلامه. ولكنه وضعَ أكثر قليلاً من اللازم.

قال ميلورز «والأفضل أن تجعلني أنا موديلاً في الوقت ذاته. الأفضل أن تجعلنا كمجموعة، الرب فولكان والربة فينوس تحت شبكة الفن. ـ وقد عملت حداداً قبل أن أكون حارس طرائد».

ss

قالت الأخت «أشكرك، لاأعتقد أن فولكان يملك شكلاً يعجبني».

«ولا إن كان في أنابيب ومتأنقاً جداً؟».

ولم يكن ثمة جواب. وكان الفنان شديد الغطرسة لمزيد من الكلمات.

كانت حفلة كئيبة، تجاهل فيها الفنان تجاهلاً صارماً حضور الرجل الآخر، وتحدث بإيجاز، كما لو كانت الكلمات تُعتصر من أعماق انذاره الكئيب، إلى المرأتين.

شرحت كوني وقت المغادرة «إنك لاتحبه ـ لكنه أفضل مما تعتقد. إنه نوع حقيقي».

قال ميلورز «إنه كلب أسود صغير بمزاج متقلب».

«لا. لم يكن لطيفاً هذا اليوم ـ».

«وهل تذهبين وتكونين موديلاً له؟».

«أنا بالفعل لم أعد مهتمة أبداً. إنه لن يلمسني. وأنا لاآبه بأي شيء، إذا تهيأ الطريق وعشت أنا وأنت معاً».

«ولكنه سيرسمك فقط على قماش اللوحة».

«لايهمني. إنه يرسم فقط مشاعره تجاهي، وأنا لايهمني أن يعبّر عن تلك المشاعر. أنا لن أتركه يلمسني، مهما قدّم من أشياء. ولكنه إن اعتقد أنه يستطيع أن يفعل أي شيء بتحديقه البومي المتطفل على الفن، فلنتركه يحدق. يمكن أن يصنع كثيراً من الأنابيب الفارغة وأن يجعلني على قماشه كما يشاء. إنها جنازته. ـ فهو يكرهك لما قلته: إذ أن فنه الأنبوبي هو أعز ماديه وأهم شيء على نفسه. لكن قولك صحيح طبعاً».

ss

الفصل التاسع عشر

«عزيزي كليفورد. أخشى أن يكون قد تحقق ماتنبأت به. أنا فعلاً أحب رجلاً آخر، وآمل أن تطلّقني. أقيم حالياً مع دنكان في شقته. أخبرتك أنه كان معنا في البندقية. أنا غير سعيدة أبداً من أجلك: ولكن وطّن نفسك أن تتلقى ذلك بهدوء. أنت لم تعد تحتاجني أبداً، وأنا لاأتحمل العودة إلى راغبي. إنني شديدة الأسف. ولكن حاول أن تسامحني وتطلّقني وتجد أفضل مني. أنا فعلاً لست الشخص الذي يلائمك، إني قليلة الصبر، أنانية، كما أظن. ولكني لن أعود للعيش معك ثانية. وإني أشعر بالأسف المخيف عن كل شيء، من أجلك. ولكن إن أنت لم تتخل عن عملك، فسوف ترى أنك لاتهتم بهذا أبداً. أنت فعلاً لاتهتم بي شخصياً. لذا سامحني واعتقني -».

لم يدهش كليفورد، في داخله، من استلام هذه الرسالة. كان يعرف داخلياً لمدة طويلة أنها سوف تتركه. لكنه رفض رفضاً مطلقاً أي موافقة خارجية عليه. لذلك خارجياً جاءته الرسالة كضربة مرعبة وصدمة له. غير أنه احتفظ بسطح ثقته، هادئاً تماماً.

وهذا هو مانحن عليه. فبقوة الإرادة نقطع معرفتنا الحدسية الداخلية من وعينا الذي نتقبله. هذا مايسبب حالة من الخوف أو الاستيعاب، الذي يجعل الضربة أسوأ عشر مرات عندما تقع.

ss

كان كليفورد مثل طفل هستيري. وجّه صدمة مخيفة للسيدة بولتون، وهو جالس في السرير شاحباً مخيفاً.

«لماذا ياسير كليفورد، مهما كانت المسألة؟».

لم يُجب. كانت خائفة جداً من أن تأتيه أزمة قلبية. أسرعت وتحسست وجهه، وأخذت تعد نبضات قلبه.

«أهناك ألم؟ حاول أن تخبرني أين وجعك. أخبرني».

لم يجب.

«ياعزيزي. آه ياعزيزي. سأهاتف شيفلد وأستدعي الدكتور كارنغتون، والدكتور ليكي يمكنه أن يسرع فوراً».

تحركت باتجاه الباب، عندما قال بنغمة مرعبة:

«لا».

توقفت وحملقت فيه. كان وجهه أصفر شاحباً يشبه وجه أبله.

«هل تقصد أن علي ألا أفتش عن طبيب؟».

جاء صوته الكئيب «نعم. أنا لاأريده».

«أوه، لكن ياسير كليفورد، أنت مريض، ولا أستطيع أن أتحمل المسؤولية. يجب أن أستدعي طبيباً، وإلا وقع اللوم عليّ».

سادت فترة صمت، ثم جاء الصوت الأجوف قائلاً:

«لست مريضاً. ـ زوجتي لن تعود» ـ كأن صورة تتكلم.

«لن تعود؟ تقصد أن حضرتها؟» وتحركت السيدة بولتون قليلاً قرب سريره. «أوه لاتصدق. يمكنك أن تثق أن حضرتها سوف تعود».

لم تتغير الصورة في السرير، ولكنها انتزعت الرسالة من على اللحاف.

قال الصوت الكئيب «اقرئيها».

«لماذا - إن كانت رسالة من حضرتها إليك، فلا شك أن حضرتها لاتريدني أن أقرأ رسالتها إليك ياسير كليفورد. يمكنك إذا رغبت أن تخبرني بما جاء فيها.

ولكن الوجه بعينيه الثاقبتين الزرقاوين لم يتغير.

كرر الصوت «اقرئيها».

قالت «إن كان لابد، فإني أطيعك ياسير كليفورد». وقرأت الرسالة.

قالت «لابأس. إني مندهشة من حضرتها. وعدت بإخلاص أنها سوف تعود».

بدا الوجه الذي في السرير أعمق تعبيراً عن الوحشية ولكن دون ارتباك أو حركة. نظرت إليه السيدة بولتون فقلقت. إنها تعرف ماذا تواجه: هستيريا ذكورية، إنها لم تمرّض جنوداً دون أن تتعلم شيئاً عن هذا المرض المزعج جداً.

نفد صبرها قليلاً من السير كليفورد. أي إنسان في مكانه يجب أن يعرف أن زوجته واقعة في حب رجل آخر، وأنها سوف تتركه. وقد كانت متأكدة أنه حتى السير كليفورد كان واعياً لذلك في داخله، وإنما يريد أن يكابر ويكذب على نفسه. ولو أنه سلم بذلك، وأعد نفسه له، أو لو أن عليه أن يسلم به، وراح يناضل مع زوجته ضده، لكان قد تصرف كرجل. ولكن الشيطان ركب مؤخرته، وراح يبتسم ابتسامات الملائكة. هذه الحالة من الزيف جلبت له الآن تلك الأزمة من الكذب والقلق والهستيريا، التي هي شكل من الجنون. فكرت في نفسها وقد كرهته قليلاً «إن هذا يقع لأنه دائماً يفكر في نفسه فقط. إنه يلف نفسه بذاته الخالدة، لذلك عندما يصاب بصدمة فإنه يشبه المومياء التي تتخبط في لفائفها. انظروا إليه».

ولكن الهستيريا خطيرة: وهي ممرضة، فمن واجبها أن تنقذه منها. أي محاولة لإيقاظ رجولته وكبريائه لاتجعله إلا أسوأ: لأن

رجولته كانت ميتة، أو عابرة إن لم تكن منتهية. إنه فقط سوف يتلوى أرق وأرق، مثل دودة، ويصبح أشد قلقاً.

الحل الوحيد هو تخليصه من شفقته الذاتية. ومثل الليدي في قصيدة الشاعر تينسون، عليه إما أن يبكي أو يموت.

وهكذا بدأت السيدة بولتون تبكي أولاً. غطت وجهها بيديها وانفجرت بتنهدات وحشية قليلاً ـ «أنا لاأصدق أبداً أن الرسالة من حضرتها، لاأصدق، لاأصدق». بكت، ثم استجمعت فجأة كل حزنها القديم وإحساسها بالألم وبكت بدموع غمها المرير. وحالما بدأت صار بكاؤها أصيلاً فعلاً، إذ لديها أصلاً ماتبكي من أجله.

فكر كليفورد بالطريقة التي خانته فيها امرأته كوني، وبفعل عدوى الحزن من السيدة بولتون، ملأت الدموع عينيه وبدأت تتدحرج على خديه. كان يبكي على نفسه. وحالما شاهدت السيدة بولتون الدموع تجري على وجهه الكئيب، مسحت بسرعة خديها المبللين بمنشفتها الصغيرة، وانحنت عليه.

قالت وهي متمكنة من عاطفتها «لاتغتظ ياسير كليفورد، لا، لاتغتظ، إنك لاتفعل سوى أن تؤذي نفسك».

ارتعد جسده فجأة بتنهيدة داخلية صامتة، فجرت الدموع أسرع على وجهه. وضعت يدها على ذراعه، وراحت دموعها تسقط ثانية. وثانية دبت فيه الرعدة التي تشبه تقلصاً، وألقت ذراعها على كتفه. ـ «هناك، هناك! هناك ـ هناك. لاتغتظ إذن، لاأبداً، لاتغتظ» راحت تجأر إليه ودموعها تزداد غزارة. وسحبته إليها، ولفت ذراعيها حول كتفيه الكبيرتين، بينما ألقى وجهه في حضنها وتنهد هازاً وراجًا كتفيه الضخمتين، بينما راحت تضرب أصابعها بنعومة في شعره الأشقر الغامق، فقالت «هناك، هناك، هناك إذن، لاتهتم، لاتهتم، إذن».

ووضع ذراعيه حولها والتصق بها مثل طفل، يبلل صدريتها

وثوبها القطني الأزرق الفاتح بدموعه. لقد ترك نفسه ينساق معها أخيراً.

أخيراً قبّلته، وأسندته إلى حضنها، وقالت بقلبها لنفسها: «آه ياسير كليفورد، آه يا آل شاترلي المتكبرين الأقوياء. أهذا هو الذي وصلتم إليه» ـ وظل يبكي مثل طفل. شعرت كأنها تتمزق، فذهبت إلى غرفتها، حيث ضحكت وصاحت فجأة، مع هستيريا خاصة بها. كانت مضحكة حقاً. كانت مخيفة ـ هكذا فعلت وكانت خجلة. فكأن الأمر كان بالمقلوب أيضاً.

بعد هذا صار كليفورد مثل طفل مع السيدة بولتون. يرفع يدها ويريح رأسه على صدرها، وعندما قبّلته مرة قال: «نعم. نعم. قبّليني. قبّليني». وعندما تفرك جسده بالليفة يقول لها الشيء ذاته «قبّليني». وبكل خفة تقبل تقبيلاً خفيفاً جسده، في أي مكان، نصف ساخرة. ويتكئ هو بوجه خال غريب مثل طفل، مع دهشة طفل. ويحدق فيها بعيني طفل واسعتين، في استرخاء عبادة العذراء. كان استرخاء تاماً من قِبله، متخلياً عن كل رجولته، وغارقاً في وضع طفولي كان فعلاً وضعاً أحمق. ثم يضع يده في حجرها ويتحسس نهديها ويقبلهما بعبادة، عبادة الحماقة، لكونه طفلاً بينما هو رجل.

كانت السيدة بولتون مثارة وخجلة في آن معاً، فقد أحبت هذه العملية وكرهتها في وقت واحد. ومع ذلك لم تنهره أو تؤنبه. وانجرف الاثنان في حميمية أوثق، حميمية الحماقة، إذ كان طفلاً مجروحاً بعلانية واضحة ودهشة ظاهرة، مثل عبادة دينية: حماقة تفسير آية المسيح تفسيراً حرفياً «الحق أقول لكم إن لم ترجعوا وتصيروا أطفالاً فلن تدخلوا ملكوت السموات» ـ بينما كانت الأم الكبرى، الكاملة السلطة والقدرة، تحمل الرجل ـ الطفل الأشقر العظيم تحت إرادتها وسيطرتها الكاملة.

الشيء الغريب هو أن هذا الرجل ـ الطفل الذي هو كليفورد الآن ـ والذي كان هو لسنوات ـ ظهر في العالم فكان أكثر حذراً وأشد من

الرجل الحقيقي الذي اعتاد أن يكونه. هذا الرجل ـ الطفل هو الآن رجل أعمال حقيقي، حين يتعلق الأمر بالقضايا العملية، فهو رجل مطلق حاد مثل إبرة وصلب مثل الفولاذ. وعندما كان خارج الرجال، باحثاً عن نتائجه الخاصة، ويخدم جيداً أعمال منجمه، كان لديه شيء من التمرد والقسوة والثقب الحاد. كان كما لو أن سلبيته ودعارته بالأم الكبرى منحته بصيرة في الشؤون العملية المادية، وأمدته بقوة غير بشرية واضحة. والتمتع بالعاطفة الخاصة، بالوضاعة المطلقة لذاته الرجولية، يبدو أنه يمنحه طبيعة ثانية وذكاء عملياً رؤيوياً بارداً. في العمل كان غير بشري أبداً.

وقد انتصرت السيدة بولتون في هذه النقطة. قالت لنفسها بكبرياء «كم يبدو متحسناً، وإن ذلك من عملي. أقسم أنه لم يكن مثل هذا مع الليدي شاترلي. إنها ليست ممن يدفع الرجل إلى التقدم. أرادت لنفسها الشيء الكثير ـ».

وفي الوقت نفسه، في زاوية من زوايا النفس الأنثوية الخبيثة كم نبذته وكرهته. كان بالنسبة لها الوحش الذي سقط، الوحش الذي يتلوى. وإذ دعمته وساعدته بكل طاقتها انسياقاً مع أقصى زاوية أنوثتها السليمة القديمة، فقد نبذته باحتقار وحشي لايعرف حدوداً. فنعل الحذاء أفضل منه.

كان سلوكه فيما يخص كوني غريباً. لقد ألح على رؤيتها ثانية. ألح أيضاً على عودتها إلى راغبي. وفي هذه الناحية كان متصلباً تصلباً مطلقاً وشاحباً. لقد وعدت كوني أن تعود إلى راغبي صدقاً.

قالت السيدة بولتون «ولكن هل لها لزوم؟ ألا تدعها تذهب، وتتحرر منها؟».

«لا. قالت إنها عائدة فيجب أن تأتي».

لم تعد السيدة بولتون تعارضه. فهي تعرف مع من تتعامل.

كتب إلى كوني في لندن «لاحاجة لأن أخبرك أي وقع كان

SS

لرسالتك فيَّ. ربما تستطيعين أن تتصوري إن حاولت، مع أنه لاشك في أنك لن تزعجي نفسك في استخدام خيالك من أجلي».

«يمكنني أن أقول شيئاً واحداً في الرد عليك: يجب أن أراك شخصياً هنا في راغبي، قبل أن أفعل أي شيء. أنت وعدت وعداً قاطعاً أن تعودي إلى راغبي، وإني أطالبك بما وعدت. أنا لاأؤمن بشيء ولاأفهم أي شيء، حتى أراك شخصياً، هنا في ظروف عادية. لاحاجة أن أخبرك ألّا أحد هنا يشك في أي شيء، فعودتك إذن عادية جداً. عندئذٍ إن كنت تشعرين، بعد أن نتحدث عن كل شيء، أنك ستبقين في الموقف ذاته، فلا شك أننا سنتوصل إلى اتفاق ـ».

أبرزت كوني هذه الرسالة لميلورز.

قال وقد أعاد الرسالة «يريد أن يمارس انتقامه عليك».

صمتت كوني وكانت إلى حد ما مندهشة لأنها وجدت نفسها خائفة من كليفورد. كانت خائفة أن تذهب قريباً منه. كانت خائفة منه كما لو كان شيطاناً وخطراً.

قالت «ماذا أفعل؟».

«لاشيء، إن كنت لاتريدين أن تفعلي أي شيء».

أجابت محاولة أن تنفر كليفورد. فأجاب: «إن لم تعودي إلى راغبي الآن، فأظن أنك ستعودين في يوم من الأيام وتفعلين وفقاً لذلك. وأنا سأتبع طريقتي هذه، وأنتظرك هنا، إن انتظرت خمسين عاماً».

دب فيها الرعب. كان هذا تنمراً من نوع داخلي. لم تشك أبداً في أنه يعني مايقول. إنه لن يطلقها، وسيكون الولد له، إلا إذا استطاعت أن تجد وسيلة تثبت عدم شرعيته.

بعد زمن من القلق والضجر قررت أن تذهب إلى راغبي. وسوف تذهب هيلدا معها. كتبت هذا إلى كليفورد. فأجاب: «لن أستقبل

ss

أختك، بل سوف أطردها من الباب. لاشك في أنها متسترة على تخليك عن واجباتك ومسؤولياتك، فلا تتوقعي مني أن أُسر لرؤيتها».

ذهبتا إلى راغبي. كان كليفورد غائباً عندما وصلتا. استقبلتهما السيدة بولتون.

قالت «أوه، حضرتك، أليست عودة سعيدة تلك التي تأملناها؟».

قالت كوني «أليست».

إذن هذه المرأة تعرف. فكم من بقية الخدم يعرفون أو يشكون؟

دخلت المنزل الذي كرهته الآن بكل عِرق من جسدها. وقد بدت الكتلة الكبرى الجاثمة للمكان شيطاناً لها، بدت لها خطراً يتهددها. إنها لم تعد سيدته، بل هي ضحيته.

هتفت لهيلدا مرعوبة «لاأستطيع البقاء هنا طويلاً».

وعانت من الذهاب إلى غرفة نومها، فدخلتها مجدداً في موكب كأن شيئاً لم يحدث. لقد كرهت كل دقيقة قضتها داخل جدران راغبي.

لم تقابلا كليفورد حتى نزلتا إلى العشاء. كان مرتدياً ثيابه وبربطة عنق سوداء: جنتلمان متحفظ متعال. تصرف بلباقة أثناء الطعام، واستمرت لباقة التحفظ: ولكن بدت ممسوسة بالجنون.

سألت كوني، حين خرجت المرأة من الغرفة «كم من الخدم يعرفون؟».

«عن مقاصدك؟ لاأحد أبداً».

«السيدة بولتون تعرف».

غير لون حديثه.

قال «السيدة بولتون ليست واحدة من الخدم».

«أوه، أنا لم أنتبه».

كان هناك توتر حتى بعد شرب القهوة، عندما قالت هيلدا إنها صاعدة إلى غرفتها.

ss

جلس كليفورد وكوني صامتين عندما ذهبت. لاأحد منهما باشر الحديث. كانت كوني مسرورة لأنه لم يتخذ الوضع المحزن، فظلت محافظة على خيلائه قدر الإمكان. اكتفت بالجلوس صامتة والنظر في يديها.

أخيراً قال «أعتقد أنك لاتبالين أبداً بعودتك عن كلمتك؟».

تمتمت «لاأستطيع أن أنفذها».

«ولكن إن لم تستطيعي فمن يستطيع؟».

«أعتقد لاأحد».

نظر إليها بغضب بارد غريب. كان معتاداً على ذلك. كانت كأنها مدفونة في إرادته. كيف تجرأت الآن وعادت إليه، ودمرت آخر خيط من وجوده اليومي؟ كيف تجرأت وحاولت أن تسبب هذا التشويش لشخصيته.

ألح مؤكداً «ولماذا تريدين أن تعودي عن أي شيء؟».

قالت «الحب». ومن الأفضل لو ابتذلته.

«حب دنكان فوربس؟ ولكنك لم تفكري في أنه يستحق ذلك عندما قابلتني. أتريدين القول الآن إنك تعرفين الحب معه أكثر من أي شيء آخر في الحياة؟».

قالت «المرء يتغير».

«يمكن. يمكن أن تكون لديك نزوات. ولكن مازال عليك أن تقنعيني بأهمية التغير. فأنا لاأومن قط بحبك لدنكان فوربس».

«ولكن لماذا يجب أن تؤمن به؟ - ماعليك إلا أن تطلّقني فقط، لا أن تؤمن بمشاعري».

«ولماذا يجب أن أطلّقك؟».

«لأني لاأريد أن أعيش هنا أبداً. وأنت أيضاً لاتريدني».

«عفواً. أنا لم أتغير. من جهتي، مادمت زوجتي فإني أفضّل أن تبقي تحت سقف بيتي بكرامة وهدوء. دعي عنك جانباً المشاعر الشخصية، وأؤكد لك، ومن جهتي تركت أشياء كثيرة، إنني أفضّل الموت على تحطيم نظام الحياة، هنا في راغبي، وسحق الاحتشام في الحياة اليومية، فقط لمجرد نزوة من نزواتك».

قالت بعد فترة صمت:

«لاأستطيع القيام بهذا. يجب أن أذهب ـ أظن أني حامل بطفل».

هو أيضاً كان صامتاً لفترة.

أخيراً سأل «أمن أجل الطفل يتوجب عليك أن تذهبي؟».

فأومأت برأسها.

«ولماذا؟ هل دنكان فوربس حريص على نسله؟».

قالت «بالتأكيد حريص أكثر مما أنت حريص».

«أحقاً؟ أنا أريد زوجتي، ولاأرى سبباً يجعلني أدعها تذهب. فإن رغبتْ أن تحمل بطفل تحت سقف بيتي، فأهلاً بها، وأهلاً بالطفل: شريطة الحفاظ على حشمة الحياة ونظامها. هل تريدين أن تخبريني أن دنكان فوربس أثر فيك تأثيراً أكبر؟ أنا لاأصدق».

كان هناك صمت.

قالت كوني «ولكن ألا ترى أني يجب أن أبعد عنك، ويجب أن أعيش مع الرجل الذي أحب؟».

«لا، لاأرى ذلك. أنا لاأدفع فلسين من أجل حبك، ولامن أجل الرجل الذي تحبين. أنا لاأؤمن بهذا الرياء».

«ولكنك ترى أنني أؤمن».

«تؤمنين؟ يامدامتي العزيزة، أنت مثقفة جداً وأؤكد لك بأنك أكبر من أن تؤمني بحبك الخاص لدنكان فوربس. صدّقيني إنك حتى الآن تهتمين بي أكثر. فلماذا أسلّم بمثل هذا العبث».

ss

شعرت أنه على حق. وشعرت أنها لاتستطيع البقاء صامتة مدة أطول.

قالت ناظرة إليه «لأنه ليس دنكان من أحبه. إننا نقول دنكان، حرصاً على مشاعرك».

«حرصاً على مشاعري؟».

«بلى - لأني أحب حقاً - وهذا مايجعلك تكرهني - السيد ميلورز، الذي كان حارس طرائدنا هنا».

لو أنه يستطيع أن ينط من كرسيه، لفعل. صار وجهه أصفر، وامتلأت عيناه بنذير كارثة كلما نظر إليها. ثم أسند ظهره إلى الكرسي، ممسكاً بها، وناظراً إلى السقف.

أخيراً استقام في جلسته.

سأل أخيراً وقد بدا مخيفاً «أتريدين القول بأنك تخبرينني الحقيقة؟».

«نعم وأنت تعرف أني أخبرك الحقيقة».

«ومتى بدأت علاقتك معه؟».

«في الربيع».

صَمَتَ مثل وحش في مصيدة.

«إذن أنتِ التي كنت في غرفة نومه في الكوخ؟».

وهكذا كان داخلياً يعرف طيلة الوقت.

«نعم».

مازال منحنياً إلى الأمام في كرسيه، محدقاً فيها كوحش محاصر.

«ياإلهي. يجب أن تمّحي من على وجه الأرض».

«لماذا؟» قذفت كلمتها بضعف.

لكن بدا أنه لم يسمعها.

ss

«ياللحثالة، ياللمغفل المغرور، ياللوغد البائس. راحت تغازله كل هذا الوقت، بينما أنت هنا وهو واحد من خدمي. ياإلهي، ياإلهي، أما من نهاية لوضاعة النساء الوحشية».

إلى جانب ذلك كان يفور غضباً، كما كان يتوقع.

«تقصدين القول إنك أردت أن يكون طفل من وغد مثل هذا؟».

«بلى، أنا أردت ذلك».

«أردتِ ذلك. تعني أنك متأكدة. منذ متى وأنت متأكدة؟».

«منذ حزيران».

كان بلا كلام، وبنظرة خاوية لطفل تقمصه مرة ثانية.

أخيراً قال «ستعجبين أن مثل هذه الكائنات سُمح لها أن تولد».

سألت «أي كائنات؟».

نظر إليها بلؤم دون أن يجيب. من الواضح أنه لايستطيع حتى الموافقة على حقيقة وجود ميلورز، في أي اتصال مع زوجته. كان كرهه صامتاً لايمكن وصفه.

أخيراً سأل «وهل قصدت القول إنك سوف تتزوجينه؟ - وتحملين اسمه الأحمق؟».

«بلى هذا ماأردت».

عاد أيضاً كأنه أصم أبكم.

قال أخيراً «نعم. هذا يثبت أن ماكنت أفكر فيه عنكِ صحيح: أنتِ لست عادية، أنت لست في عقلك السليم. أنت من أولئك الذين نقول عنهم إنهم أنصاف مجانين، من النساء الحمقاوات اللواتي يجب أن يجرين وراء الفسوق، الحنين إلى الطين».

فجأة صار حزيناً، فرأى نفسه يتقمص بالخير، وأناس من

ss

أمثال كوني وميلورز يتقمصون بالطين، بالشر. بدا أنه يغوص في الغموض أكثر فأكثر، داخل هالة نورانية.

قالت «إذن أنت لاتفكر بأن من الأفضل أن تطلّقني، وألّا ترتبط بي؟».

قال ببلاهة «لا. يمكنك أن تذهبي حيث ترغبين، لكني لن أطلّقك».

«ولم لا؟».

وصَمَتَ صمت العناد البليد.

قالت «هل ستترك حتى يكون الطفل ابنك ووريثك الشرعي؟».

«لاأهتم بأي شيء يتعلق بالطفل».

«لكنه صبي، وسوف يكون ابنك الشرعي، ويرث لقبك ويملك راغبي».

قال «لاأهتم بأي شيء يتعلق بذلك».

«ولكن عليك أن تفعل ذلك ـ سوف أمنع الطفل من أن يكون ابنك الشرعي إن استطعت. سأبذل جهدي لأجعله غير شرعي، وأجعله ابني أنا: إن لم أستطع أن أجعله ابن ميلورز».

«افعلي ماطاب لك فيما يتعلق بهذا».

كان غير قادر على الحراك.

قالت «ألا تطلّقني؟ تستطيع استخدام دنكان ذريعة. ولاحاجة إلى ذكر الاسم الحقيقي. ودنكان لايهمه ذلك».

قال كأن مسماراً قد غرس فيه «لن أطلّقك».

«ولكن لم؟ ألأني طلبت ذلك؟».

«لأني أتبع هواي، وليس هواك».

SS

من العبث. صعدت الدرج، وأخبرت هيلدا النتيجة.

قالت هيلدا «الأفضل أن نذهب غداً، وندعه على هواه».

وهكذا أمضت كوني نصف الليل تلملم حوائجها الخاصة والشخصية. وفي الصباح أرسلت حقائبها إلى المحطة، دون إخبار كليفورد. قررت أن تراه فقط لتقول له وداعاً، قبل الغداء.

ولكنها تحدثت إلى السيدة بولتون.

«يجب أن أقول وداعاً لك، ياسيدة بولتون. أنت تعرفين لماذا. ولكني واثقة بأنك لن تتحدثي».

«أوه، يمكنك أن تثقي بي ياسيدتي الليدي ـ مع أنها ضربة حزينة لنا هنا، بالفعل. ولكني أتمنى لك السعادة مع الجنتلمان الآخر».

«الجنتلمان الآخر ـ هو السيد ميلورز ـ وسوف أهتم به. والسير كليفورد يعرف. ولكن لاتقولي شيئاً لأي ابن آدم. وإن اعتقدت في يوم من الأيام أن السير كليفورد أراد أن يطلّقني فاعلميني، أليس كذلك؟ أود أن أتزوج بالرجل الذي أهتم به».

«واثقة من أنك ستتزوجين ياسيدتي الليدي. ثقي بي. سأكون مخلصة للسير كليفورد، وسأكون مخلصة لك، لأني أرى أنكما على صواب، كل واحد بطريقته الخاصة».

«أشكرك. وانظري. أريد أن أمنحك هذا ـ هل لي؟ ـ».

وهكذا تركت كوني راغبي مرة أخرى، وذهبت مع هيلدا إلى اسكوتلاندا.

ارتحل ميلورز في البلاد وحصل على عمل في مزرعة. وكانت الفكرة أن يحصل على طلاقه، إن أمكن، حصلت كوني على طلاقها أم لم تحصل. ويجب أن يعمل في المزرعة لستة أشهر، بحيث يمكنه وكوني بالتدريج أن يكون لهما مزرعة صغيرة خاصة بهما، يضع

ss

فيها كل طاقته. إذ لابد من أن يكون لديه عمل يعمله، ولو كان صعباً، ويجب أن يعيل نفسه، حتى لو نال من رأسمالها.

وهكذا عليهما أن ينتظرا حلول الربيع، حلول ولادة الطفل، حلول فصل الصيف المبكر الذي يعود ثانية.

«مزرعة غرانج أولد هينر 29 أيلول»

«صرت هنا بقليل من المشقة، لأني أعرف ريتشاردز، مهندس الشركة، مذ كنّا في الجيش. إنها مزرعة تخص شركة منجم بتلر وسميثام، إنهما يستخدمانها لزراعة العشب والشوفان للأحصنة الصغيرة - وليس لغرض خاص. ولكنهما جلبا الأبقار والخنازير وبقية الحيوانات، وأكسب ثلاثين جنيهاً في الأسبوع كعامل. وقد جعلني المزارع رولي أقوم بكثير من الأعمال بقدر استطاعتي، بحيث يمكن أن أتعلم أكثر مايمكن من الآن وحتى الفصح التالي. لم أسمع أي خبر عن بيرتا. وليس عندي فكرة لماذا لم تظهر في الطلاق، ولاأعرف أين هي، ولا ماذا تفعل. وأعتقد أني في آذار سوف أحصل على الطلاق إن أنا بقيت هادئاً. فلا تبالي بالسير كليفورد. إنه يريد أن يتخلص منك في يوم من الأيام. فلو تركك وحدك، لكانت صفقة له.

«استأجرت عدة غرف في كوخ قديم في انجين رو، وهو كوخ محتشم، فالرجل سائق في الهاي بارك، طويل بلحية، ومواظب على الصلاة. والمرأة محلّقة دائماً، تحب أي شيء رفيع - فأنا دائماً في انكليزية الملك الرفيعة، لكنهما دائماً يسمحان لي بالتحدث بلهجتي. إلا أنهما فقدا ابنهما الوحيد في الحرب، وهذا مافتح جرحاً عميقاً فيهما. ولهما ابنة خرقاء طويلة تتدرب حتى تكون معلمة مدرسة، وأساعدها في دروسها أحياناً، فنحن فعلاً عائلة واحدة. لكنهم فعلاً أناس محتشمون، وهم جد لطفاء معي. وأتوقع أن أكون مدللاً أكثر منك.

«أحب أعمال المزرعة حباً جماً. إنها ليست ملهمة، ولكن لاأطلب منها أن تكون ملهمة. اعتدت على الخيول، والأبقار، مع أنها

كلها إناث، وكان لها تأثير علي. وعندما أجلس ورأسي بجانبها أحلبها أشعر بالعزاء. إنهما يملكان ست بقرات من النوع الفاخر هيرفوردز. الآن انتهى على التو حصاد الشوفان ـ وقد فرحت به، على الرغم من المطر، ومن الألم في يدي. لاأهتم كثيراً بالناس ـ ولكني أتعامل معهم تعاملاً سليماً. معظم الأشياء يتجاهلها المرء تماماً.

«تعمل الحُفر عملاً سيئاً ـ فهذه مقاطعة مناجم مثل تيفرشال، ولكنها أصغر. أحياناً أجلس في ولنغتون وأتحدث مع الرجال. إنهم يتذمرون كثيراً، ولكنهم لايغيرون أي شيء. وكما يقول كل امرئ، إن عمال مناجم نوتس ـ ديربي لهم قلوب في مكانها الصحيح. لكن بقية أعضائهم لابد أن تكون في المكان الخاطئ، في عالم لايستفيد منها. أحببتهم، ولكنهم لايفرحون بي كثيراً: إنهم يحتفظون بديك الحرب القديم في صدورهم. يتحدثون كثيراً عن التأميم، تأميم الملكيات، تأميم الصناعة برمتها. ولكنك لاتستطيعين أن تؤممي الفحم وتدعي بقية الصناعات كما هي. يتحدثون عن استخدام الفحم استخدامات جديدة، كما يحاول أن يفعل السير كليفورد تماماً. قد يُستخدم هنا وهناك ولكني أشك في أن يكون الاستخدام عاماً. مهما كان الأمر فلا بد من بيعه. الرجال فاترو الشعور جداً. إنهم يشعرون أن كل الأشياء اللعينة مدانة، وأنا أعتقد أنها كذلك. وهم مدانون أيضاً مع الأشياء. بعض الشبان منهم يروّجون للسوفييت، ولكن لايوجد كبير اقتناع بهم. هناك نوع من التقليد في كل شيء ـ باستثناء التشويش والحفرة. نحن في ظل السوفييت يمكن أن نبيع الفحم: وهذا أمر صعب. لقد أنتجنا كل هؤلاء السكان الصناعيين وما أكثرهم، فلا بد من إطعامهم فمعنى ذلك أن اللعنة سوف تستمر. تتحدث النساء أكثر من الرجال، في هذه الأيام، وهن يظهرن أكثر ثقة وسيطرة. الرجال عرج، وهم يشعرون بالهلاك في مكان ما، فيطوفون كثيراً كما لو لم يكن هناك شيء يقومون به. على أي حال

كل واحد يعرف ماذا يجب أن يفعل، على الرغم من كل مايتحدث به. وأصيب الشبان الصغار بالجنون لأنهم لايجدون بين أيديهم أموالاً ينفقونها. فكل حياتهم تعتمد على إنفاق الأموال، والآن لايجدون ماينفقون. تلكم هي حضارتنا وتربيتنا: فنربي الجماهير لتعتمد كلياً على إنفاق الأموال، وعندئذٍ لاوجود للمال. والحُفر تعمل يومين، يومين ونصف اليوم في الأسبوع، ولاتوجد إشارة إلى التحسن، ولا في فصل الشتاء. معنى ذلك أن الرجل يعيل العائلة بخمسة وعشرين، إلى ثلاثين جنيهاً. وقد جن جنون النساء أكثر من الجميع. ولكنه جنون من أجل الإنفاق في هذه الأيام.

«لو كان بالإمكان أن يقال لهم إن الحياة والإنفاق ليسا واحداً. لكن ليس حسناً أن يقال لهم. لو أنهم كانوا مربين حتى يحيوا بدلاً من التوفير والإنفاق، لكان في إمكانهم أن يدبروا أمورهم بخمسة وعشرين جنيهاً. فإذا لبس الرجال سراويل قرمزية، كما قلت، فلا بد أن يفكروا كثيراً في المال: فإن استطاعوا الرقص والهز والنط والغناء والتبجح، والأناقة، فلا بد أن يفعلوا ذلك بقليل من الإنفاق. وتسلي النساء أنفسهن، وتتسلى النساء بالنساء. فعليهن أن يتعلمن كيف يتعرين ويكن أنيقات، كلهن، وكيف يتحركن، ويكن أنيقات، وكيف ينخرطن في الجماهير ويرقصن الرقصات الجماعية القديمة، ويلوين الأدوات التي يجلسن عليها، ويزين ملابسهن. وبذلك لايحتجن إلى أموال. وهذه هي الطريقة الوحيدة لحل المشكلة الصناعية: درّب الناس كي يكونوا قادرين على الحياة والحياة بأناقة، دونما حاجة إلى إنفاق. ولكنك لاتستطيع أن تفعل ذلك. إن لهم عقولاً بسكة واحدة في هذه الأيام. أما جماهير الناس فلا، ليس من الواجب تدريبهم على التفكير ـ لأنهم لايستطيعون التفكير. إنهم يحبون ويمرحون، ويتعرفون على «بان» إله القصف والطرب العظيم. إنه إله الجماهير الوحيد، الأدبي. يمكن أن يذهب القلة إلى عبادات أرفع إن هم رغبوا. ولكن دع الجماهير وثنيين إلى الأبد.

«لكن عمال المناجم ليسوا وثنيين ـ إنهم أبعد مايكونون عن ذلك. هُم حزينون كثيراً، إنهم رجال موتى: موتى عند نسائهم وموتى في الحياة. والشبان منهم يمتطون الموتسيكلات مع الفتيات ويرقصون الجاز عندما يحين أوان الرقص. ولكنهم موتى جداً أيضاً. فهم دائماً يحتاجون إلى المال. إن المال يسممك عندما تسعى للحصول عليه، وتموت جوعاً إن لم تحصل عليه.

«أنا متأكد أنكِ ممتعضة من كل هذا. ولكني لاأريد أن أنفرد بنفسي، فأنا لم يحدث لي شيء. ولا أحب أن أفكر فيك كثيراً، في رأسي، فذلك يجعلنا نضيع بعضنا عن بعض. ولكن بالطبع ما أعيش من أجله اليوم هو أن نعيش، أنت وأنا، معاً. إني خائف حقاً. أشعر بالشيطان يطوف في الجو، وسوف يحاول أن ينال منا. أو ليس الشيطان ـ الإله مامون: الذي أعتقد أنه ليس إلا الإرادة الجماهيرية للناس، الذين يريدون المال ويكرهون الحياة. على أي حال أشعر بأيد بيضاء تتجمع في الهواء، تريد أن تنتزع حنجرة أي إنسان يريد أن يحيا، أن يحيا بعيداً عن المال، وتعتصر الحياة منه. هناك زمان رديء قادم. هناك زمان رديء قادم، فيا أيها الأولاد، هناك زمن رديء قادم. فإن ظلت الأشياء تسير كما هي، فلا يخبئ المستقبل إلا الدمار والموت، لتلك الكتل الجماهيرية الصناعية. أشعر أن داخلي أحياناً يتحول إلى ماء ـ وأنك هناك تلدين طفلاً مني. ـ ولكن لاتهتمي. فكل الأزمنة السيئة التي مرت، لم تستطع أن تقتلع الزعفران: ولاحتى حب النساء. ولذلك فإنها لاتستطيع أن تقتلع شوقي إليك، ولا أدنى بارقة بينك وبيني. سنكون معاً في العام القادم. ومع أنني خائف، فإني مؤمن تماماً بأنك ستكونين معي. على الرجل أن يحسب ويستعد للأفضل، ومن ثم يثق بشيء خلف نفسه. أنت لاتستطيعين ضمان المستقبل إلّا بالإيمان حقاً بالأفضل الذي فيك، وبالقوة الكامنة خلفه. لذلك أنا أؤمن بالشعلة الصغيرة التي بيننا. بالنسبة لي الآن، هي الشيء الوحيد في العالم. ليس عندي

ss

أصدقاء. ولاأصدقاء في داخلي. أنت وحدك فقط. والآن الشعلة الصغيرة هي كل من أهتم به في حياتي. هناك الطفل. ولكن هذا موضوع جانبي. إنه عيد عنصرتي، الشعلة المتشعبة بيني وبينك. عيد العنصرة القديم ليس صحيحاً تماماً. أنا والله أعلى قليلاً إلى حد ما. ولكن حيث الشعلة الصغيرة المتشعبة بيني وبينك: هناك توجدين. وهذا هو ما ألتزم به، ويلتزم به كليفورد وبيرتا وشركات المناجم والحكومات والكتل المالية من الناس على الرغم منهم.

«هذا هو السبب في أنني لاأفكر فيك تفكيراً فعلياً. إن التفكير فيك يؤلمني، ولايجعلك أنت جيدة. لاأريدك أن تبعدي عني. فإن ثار غيظي، فإن شيئاً ما سوف يتلف. الصبر، دائماً، الصبر. هذا هو شتائي الأربعون. ولاأستطيع أن أفعل شيئاً مع الشتاءات التي عَبَرتْ. لكن في هذا الشتاء سوف ألتصق بشعلة عنصرتي الصغيرة، ونحصل على شيء من السلام. لن أدع أنفاس الشعب تعصف بها. إني أؤمن بسر أعلى، لايدع حتى الزعفران يتطاير. فإن كنتِ في اسكوتلاندا وأنا في الميدلاندز، وأمكنني أن أضع ذراعي حولك، وألف ساقي عليك، فإني أعتبر نفسي ملكت شيئاً. إن نفسي تنوس بنعومة شعلة العنصرة الصغيرة، معك، مثل لذة الجماع. لقد جامعنا الشعلة في الوجود. فحتى الأزهار تتلاقح في الوجود، بين الشمس والأرض. لكنه شيء لطيف، يحتاج إلى الصبر والتوقف الطويل.

«أنا الآن أحب العفة، لأنها السلام الذي يأتي في الجماع. أحب أن أكون عفيفاً الآن. أحبها كما يحب البَرَدُ الثلج. أحب هذه العفة، التي هي فترة توقف وسلام جماعنا، بيننا الآن كأنها حبة برَد من نار بيضاء متشعبة. وعندما يحل الربيع الحقيقي، عندما يحل التقارب معاً، يمكن تلقيح وهج الشعلة الصغيرة ووهج الشعلة الصفراء. ولكن ليس الآن، وليس بعد. الآن هو زمن عفتي، فمن الأفضل أن أكون عفيفاً، مثل نهر من الماء البارد في النفس، إني أحب العفة التي تتدفق منا، الآن. إنها أشبه بمطر وماء منعش. كيف

ss

يستطيع هؤلاء الرجال المتعبون أن يغازلوا. أي بؤس يشبه دون جوان، وأي عجز عن المغازلة بسلام، وتندلع الشعلة الصغيرة، فيكون العاجز عن الجماع في سلام، وتندلع الشعلة الصغيرة غير القادرة أن تكون فيما بين الفترتين الباردتين، كما لو قرب نهر.

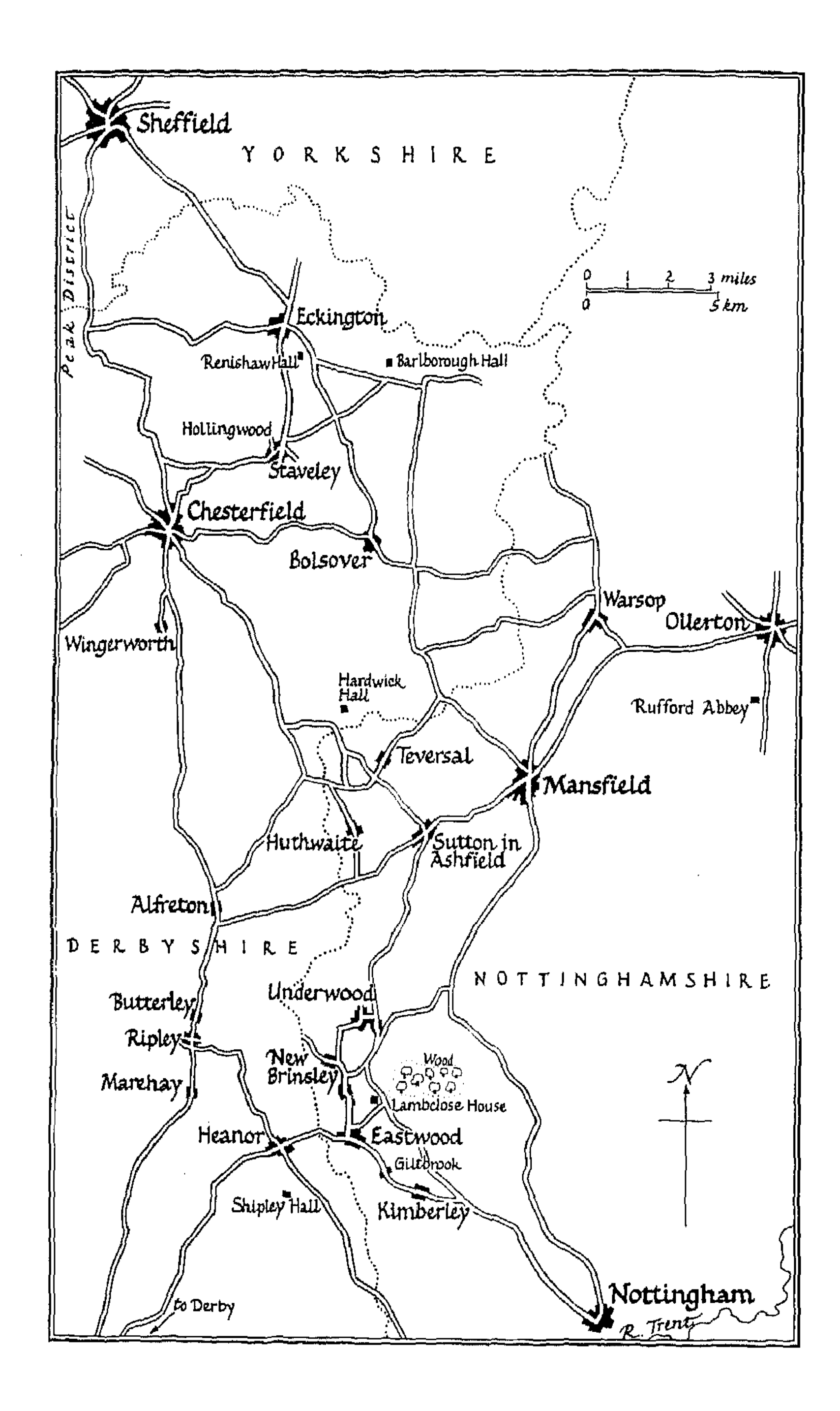
«أكثرت من الكلام لأني لاأستطيع أن ألمسك. آه لو أنني أنام وذراعي حولك، ويبقى الحبر في المحبرة. إننا نكون عفيفين معاً كما نكون متجامعين معاً. ولكن علينا أن ننفصل لفترة، وأعتقد أن ذلك طريقة حكيمة. آه لو أن المرء يتأكد.

«لاتهتمي ولاتبالي، فلن نشقى. إننا فعلاً نثق بالشعلة الصغيرة، وبالإله غير المسمى الذي يحفظها من أن تعصف بها الريح. الكثير جداً منكِ موجود هنا فيَّ حقاً ـ جزء قليل منكِ ليس هنا.

«لاتبالي بالسير كليفورد. إن لم تسمعي أي شيء منه فلا تبالي. إنه لن يكون أي شيء بالنسبة لك. انتظري، سوف يريد التحرر منك أخيراً، يريد أن يلقي بك بعيداً. فإن لم يفعل، فسوف نسعى أن نكون صريحين معه. ولكنه سوف يطلّق. في النهاية سوف يتقيأك كشيء كريه.

«الآن لاأستطيع أن أترك الكتابة لك.

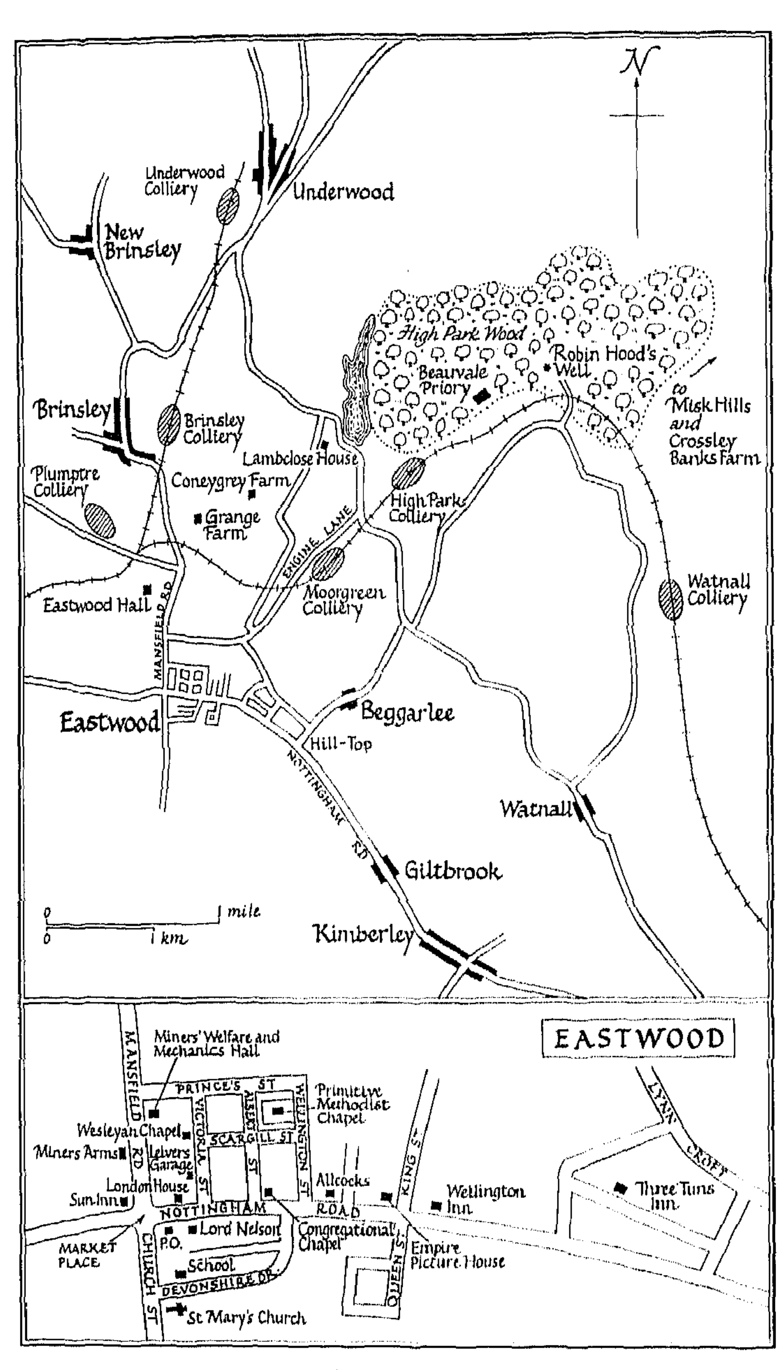
«ولكن قسماً كبيراً منا يعيش معاً، ويمكن أن نركن إليه، ونحث الخطى حتى نلتقي سريعاً. جون توماس يقول لليدي جين طابت ليلتك، متدلياً قليلاً، ولكن بقلب مفعم بالأمل ـ».



خريطة (1)

* مصوّر منطقة الميدلاندز العام.

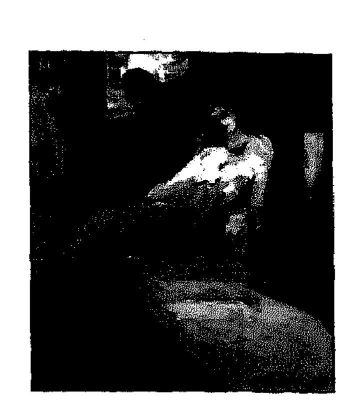
SS



خريطة (2)

* مخطَّط مضخَّم لأماكن الأحداث «في الأعلى».
* مخطَّط تفصيلي لإيستوود «في الأسفل».

ss



عشيق الليدي شاترلي

إن مأساة العصر قائمة باختصار شديد في الجملة التي وردت في رسالة ميلورز، وهو عشيق الليدي، وهي آخر رسالة وخاتمة الرواية، يقول هذا العشيق لعشيقته بأن هذا العصر جعل المال أساساً وجوهراً لاوسيلة، فالساعي للحصول عليه يقتله السم، والذي لايحصل عليه يقتله الجوع. هذه هي المأساة الحقيقية، إن حصلت على المال تسممت وإن لم تحصل عليه متَّ جوعاً. الحيازة سم والحرمان جوع وكلاهما موت، سوى أن الحيازة موت حقيقي لأنها لاتترك وراءها سمعة طيبة، وحتى هي نفسها تتشتت وتتبعثر وتزول.

هذه الرواية إدانة للاتجاه المادي في هذا العصر. والمحكمة البريطانية التي أمرت بمصادرتها عادت وسمحت بها ووصفتها بأنها رواية تعلمنا الأخلاق الإنسانية الحقيقية التي تنقذنا من الانهيار والدمار. وقد نُقِلت إلى العربية من أحدث الطبعات الانكليزية نقلاً أميناً.

قال الروائي الانكليزي فورستر: «إن د. هـ. لورانس هو أعظم روائي في القرن العشرين». وقال عن روايته إنها تدلنا على «طريق الخلاص».

الناشر